سلسلة
آفاق عالمية
١٤٥

المائة كتاب
100/23

رواية

آل بودنبروك (الجزء الثاني)

توماس مان



ترجمة (عن الألمانية) وتقديم:
محمد أبو رحمة

آل بودنبـــروك

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

140

سلسلة تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

• آل بودنبروك ج٢
• ترجمة وتقديم: محمد أبو رحمة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2015م
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية:
محمود أبو عيشة
• رقم الإيداع: ٢٢٣١١ / ٢٠١٥
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

توماس مان

آل بودنبروك

ترجمة وتقديم:
محمد أبو رحمة

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

الجـــزء السَّـابع

الفصـل الأوَّل

تعميدا تعميد بالشارع العريض.

كان كل ما حلمت به السيدة بيرمانيدر أثناء فترة حملها قد رأته الآن أمام عينيها، وها قد أصبح كل شيء جاهزًا؛ فالخادمة تضيف قشدةً مخفوقة فوق أكوابٍ عديدة من الشوكولاته الساخنة الحارة المصفوفة على طاولة غرفة الطعام. وكانت تؤدي هذا بمهارةٍ حتى لا تصدر صوتًا يعكر صفو الحفل بالقاعة. وها هي الأكواب قد صُفت على صحيفةٍ ضخمة مستديرة بمقبضين مذهبين، اتخذا شكل المحار، بينما كان الخادم أنطون يقطع تورتة عالية على هيئة الشجرة. أما الآنسة يونجمان فكانت تضع الحلوى والزهور في أوانٍ فضية، ثم تتفحص ذلك وهي تميل برأسها مباعدة بين خنصريها وبقية أصابعها.

وبعد حين، سوف يُقدَّم إلى السادة والسيدات ما لذ وطاب بغرفة المعيشة وبالصالون، وقد غُص المكان بالمدعوين؛ ذلك أن اللقاء سيشمل أفراد العائلة الكبيرة، وإن كان في أضيق الحدود؛ فقد كانت العائلة ترتبط بصلات قرابةٍ ما مع آل كيستنماكر من خلال أوفرديك، ومن خلال هؤلاء ارتبطت

الأسرة بآل ملندورف وغيرهم. وكان وضع حدود فاصلة بين هذه الفروع مستحيلاً.. غير أن آل أوفرديك كانوا حاضرين ممثلين في كبيرهم أوفرديك عمدة المدينة، الحاكم الذي تخطى الثمانين من عمره، وجاء بعربته، ليعتمد على ذراع توماس بودنبروك وهو يصعد الدرج، متوكئًا على عصاه. وقد أضفى حضوره مزيدًا من الأبهة على الحفل؛ وهو حفلٌ جليل بما تعنيه الكلمة، فقد تصدرت القاعة طاولة تماثل مذبح الكنيسة، مكللةً بالزهور، وقف أمامها قسٌ شاب ليلقي العظة، وهو يرتدي حلةً سوداء ورباط عنقٍ أبيض مزهر منشًى يشبه حجر الرحى. كما كان ثمة رجلٌ فارع القوام، ذو بنيةٍ قوية، مرتديًا ثيابًا يغلب عليها اللونان الأحمر والذهبي، موفور الصحة والعافية، وقد حمل بين ذراعيه القويتين كائنًا صغيرًا، لُفَّ في الدانتيل وشرائط من الساتان؛ كان هذا هو سليل آل بودنبروك ووريث اللقب "بودنبروك". فمن يدرك قيمة هذا اللقب، وهل يمكن إدراك تلك الفرحة الخفية التي نقلتها هذه الكلمة الموحية لتهمس بالبشارة من الشارع العريض إلى منجشتراسه؛ ويا لها من فورة شعورٍ كامن احتضنت به السيدة بيرمانيدر أمها وأخاها إثر تلقيها الخبر، كما حرصت على فعل ذلك مع زوجة أخيها.

فقد جاء الربيع، ربيع عام 1861 ليستقبل ميلاد الطفل، الذي تلقى سر التعميد المقدس؛ وليدٌ طال الشوق إليه، ولهجت الألسنة به، منذ زمنٍ بعيد، وليدٌ ابتهلوا إلى الرب أن يرزقهم به، كما حمّلوا الدكتور جرابو ما لا طاقة له به. فها هو جاء أخيرًا وقد بدا بلا ملامح.

ها هي يداه الواهنتان تداعبان شرائط ذهبية تدلت من جانبي القابلة، أما رأسه المغطاة بقلنسوة من الدانتيل موشاة بلون أزرق، فقد مالت بعض

الشيء فوق وسادة، متحولاً بلا اهتمام عن القس، وأخذت عيناه ترفان، كعيني الكبار، متفحصتين للقاعة، وهو ينظر إلى أقاربه.

وقد ظللت رموش جفنه الأعلى الطويلة للغاية عينين امتزج فيهما لون عيني أبيه الأزرق الفاتح بلون عيني أمه السمراوين، فصار لون عينيه غير محدد، غير أنه كان يتألق في الضوء بلون الكستناء. إلا أن هالاتٍ زرقاء كانت تظلل مآقي عينيه على جانبي أعلى أنفه. وهو ما منح هذا الوجه الصغير- الذي ما يزال في طور التكوين- سماتٍ مميزة سابقةً لأوانها لا تبشر بخيرٍ لطفلٍ ابن أربعة أسابيع. إلا أن الرب قادرٌ على أن يعفو عنه، فقد كانت الهالات نفسها تظلل عيني أمه موفورة الصحة.. لكنه- على كل حال- قد جاء إلى الدنيا صبيًّا كان بمثابة الفرحة المنتظرة قبل أربعة أسابيع.

وقد يحيا أو يحدث ما هو غير ذلك.

فما يزال القنصل يتذكر مصافحة الدكتور جرابو له، وهو يشد على يده قبل أربعة أسابيع، بعد ما خرج من عند الأم والمولود ليقول له: "صديقي العزيز، فلتحمد الرب، فلم يكن بينه وبين ذلك سوى القليل". ولم يجرؤ القنصل على سؤاله عن معنى: "لم يكن بينه وبين ذلك سوى القليل".

لكنه طرد من رأسه مذعورًا فكرة أن ما جرى على ابنة انطوني الثانية سوف يجري على هذا الكائن الصغير المنتظَر منذ زمنٍ بلا طائل، الذي جاء إلى الدنيا على حالة نادرة من الصمت.

وكان قد عايش قبل أربعة أسابيع تلك اللحظات العصيبة التي عاشتها الأم وجنينها، فمال سعيدًا حانيًا على جيردا التي كانت قد عقدت قدميها بالحذاء اللامع، فوق وسادة مخملية على فوتي أمامه وبجوار القنصلة العجوز.

يا لهول امتقاع وجهها، ويا لجمالها الغريب في هذا الشحوب، بشعرها الغزير الأحمر القاني، وعينيها الملغزتين اللتين استقرتا بنظرة تحمل سخريةً ما مستترة على القس: السيد أندرياس برينجزهايم، راعي كنيسة سانت ماريا الشاب، الذي صار قسًّا أول بعد وفاة العجوز كولنج المفاجئة؛ فقد عقد يديه أسفل ذقنه البارز في خشوع. وكان شعر رأسه قصيرًا، أما وجهه ذو العظام البارزة فبدا حليقًا ناعمًا، وهو ينتمي إلى منطقة فرانكونيا، حيث رعى هناك لعدة سنوات معمودية بروتستانتينية صغيرة وسط أغلبية كاثوليكية. إلا أن حرصه على نقاء لهجته وقوة تأثيرها أدى إلى أن يكون له أسلوب خاص به وحده، فصارت حروف العلة تنطلق من فمه ممطوطة عميقة واضحة، بينما يكر حرف الـ(راء) على أسنانه.

وبنبرةٍ هامسة، جزلة أو قوية، راح لسانه يلهج بشكر الرب، بينما تصيخ العائلة السمع إليه: السيدة بيرمانيدر التي أخفت خلف وجهٍ صارم شعورها بالفرح والكبرياء، وكذلك اريكا جريونليش التي ناهزت الخامسة عشرة، ذات القوام الفائر وجديلة تتدلى من قمة رأسها، وقد اكتسبت بشرتها اللون الوردي لبشرة أبيها، وكريستيان الذي جاء صباح اليوم من هامبورج وراح يطوف بعينيه الغائرتين في أرجاء المكان، والقس تيبورتيوس الذي طرح طرفي لحيته الطويلة الرقيقة فوق كتفيه، وأخذت عيناه الصغيرتان الرماديتان تتسعان من حينٍ لآخر على نحو غريب، وتكبران شيئًا فشيئًا ثم تجحظان، حتى كادتا أن تسقطا من محجريهما، وكذلك زوجته كلارا التي أخذت تحدق بالقاعة عابسةً مكفهرة الوجه، وقد أخذت تتحسس موضع صداع ألم برأسها.. وقد أهديا لآل بودنبروك هديةً قيمة، كانت دبًا ضخمًا

بني اللون، محنطًا، وقد شب على قدميه وفغر فاه، كان أحد أقارب القس قد اقتنصه على مقربةٍ من وسط روسيا، وقد وُضع بالممر ليحمل بمخالبه صحيفة بطاقات الزيارة. كما جاء من روستوك- مجاملةً لآل كروجر- موظف البريد المدعو يورجن، فبدا رجلاً لين العريكة في لباسٍ متواضع. ولم يكن أحدٌ يعرف بمكان ياكوب سوى أمه، ابنة أوفرديك، تلك المرأة المغلوبة على أمرها التي تبيع ما تقتينه من قطع فضة لتبعث بثمنها إلى ابنها الذي حُرم من الميراث. كما جاءت كذلك سيدات بودنبروك اللائي أبدين سعادةً حقيقية بالمناسبة السعيدة، إلا أن ذلك لم يمنع فيفي من أن تعلن أن صحة الطفل لا تبدو على ما يرام، وهو ما اضطُر القنصلة، سليلة آل شتيفنج وفريدريكه وهنريته، إلى تأكيده للأسف.

أما كلوتيلده المسكينة الغبراء، الهزيلة، المثابرة، الجائعة، فقد أبدت تأثرًا لعظة القس برينجزهايم، وأخذت تسدد نظراتها إلى فطيرة ضخمة محلاة بالشوكولاتة. أما الضيوف- من غير أفراد العائلة- فكانا كل من السيد فريدريك فيللهلم ماركوس، وسيسيمي فايشبروت.

ثم قام القس بإرشاد والدَي الطفل بالتعميد إلى مقتضيات واجبهما تجاه المولود، وكان أحدهما هو يوستوس كروجر الذي رفض القنصل بودنبروك في البداية إسناد أبوة التعميد إليه، مبررًا ذلك بقوله: "ألا نستفز الرجل العجوز بذلك ليرتكب حماقة ما، وهو لا يكف عن الشجار مع زوجته كل يوم بسبب ابنهما، وهو يبدد ثروته الصغيرة، حتى إنه بدأ، حقًا، يهمل مظهره إلى حدٍّ ما بما يعاني من هموم، فما رأيكم إذن لو أننا اخترناه أبًا للتعميد لقام بإهداء الطفل طاقمًا كاملاً من ذهب ثقيل، عن طيب خاطر!".

وعندما علم الخال يوستوس باختيار أبٍ آخر للتعميد، أي شتفان كسيتنماكر، صديق القنصل، استاء استياءً شديدًا، ليتم اختياره هو، وكان من دواعي ارتياح توماس بودنبروك أن ثقل القدح الذهبي الذي أهداه الخال لم يكن مبالغًا فيه.

أما أب التعميد الآخر، فقد كان العمدة دكتور أوفرديك، ذلك العجوز الجليل ذو البشرة البيضاء الناصعة، الجالس هنا على راحته فوق فوتي، معتمدًا على عصاه، مرتديًا سترة سوداء ناعمة بياقةٍ عالية، يبرز من جيبها منديلٌ أحمر اللون، لدواعي ما يستعمله من سعوط. وكان ترشيحه كأبِ تعميدٍ للطفل حدثًا جليلاً مظفَّرًا، لم يدرك بعضهم كيف حدث؛ فلم تكن هناك ثمة قرابة بينه وبين العائلة التي استدرجت الرجل العجوز. وقد احتالوا في ذلك، ولم يكن هذا سوى مؤامرة بريئة من تدبير القنصل والسيدة بيرمانيدر. ولم يكن الأمر في البداية سوى مزحةٍ فجرتها الفرحة بسلامة الأم ووليدها، فبعد أن صاح أحدهم: "إنه ولد، طوني" إذا بالقنصل يهتف: "فليكن أبوه بالتعميد، هو العمدة" لتتلقف أخته الفكرة وتأخذها على محمل الجد، ليتدبر القنصل الأمر ثم يوافق على إجراء محاولة. وكان أن استعان الاثنان بالخال يوستوس الذي أرسل زوجته إلى قريبتها زوجة العمدة أوفرديك، تاجر الأخشاب، التي كان عليها تمهيد الأمر لزوجها العجوز. ثم جاء بعد ذلك دور توماس بودنبروك، فقام بزيارةٍ لرأس الحكومة أبدى خلالها كل مظاهر الاحترام.

ورفعت القابلة قلنسوة الطفل، لينثر القس بحرص على رأس بودنبروك الصغير قطرتين أو ثلاثًا من ماء التعميد، من إناءٍ فضي بقاعٍ ذهبي، مرددًا

أسماء التعميد ببطء ووضوح: يوستوس، يوهان، كاسبار، ليرفع بعدها دعاءً قصيرًا، ليقوم أفراد العائلة على إثر ذلك بطبع قبلة تهنئة على وجه الكائن الصغير المستكين الراضي. فلما حان دور سيسيمي، قصيرة القامة، كان على القابلة أن تنحني بالوليد بعض الشيء لتتمكن سيسيمي من طبع قبلتين، صاحبهما صوت خفيض، وهي تردد: "يا لك من ابنٍ طيب!" وبعد ثلاث دقائق انتقل الجمع إلى الصالون وغرفة المعيشة، ليتلقوا هناك قطع الحلوى، وقد توسطهم القس برينجزهايم بحلته الفضفاضة، التي برز منها حذاؤه العريض اللامع ورباط عنقه، وقد أخذ يحتسي القشدة الباردة من سطح الشوكولاته الساخنة، وهو يتحدث متهلل الأسارير بأسلوبٍ بسيط مؤثرٍ للغاية، على نقيض أسلوب عظته. وكانت كل حركاته تشي بما يريد البوح به: ها أنا أتخلى عن كوني قسًّا فأقبل على الدنيا بروحٍ صافية. وكان رجلاً حلو اللسان، إذا حادث القنصلة قال لها كلامًا عذبًا، ويخاطب توماس وجيردا بحديث دنيوي متحفظ، كما يتكلم مع السيدة بيرمانيدر بلهجة صادقة متعقلة مرحة، وكان أحيانًا يعمد إلى عقد يديه في حجره مائلاً برأسه للوراء، ليبدو عابس الوجه مقطب الحاجبين، فإذا ضحك تدافعت من بين أسنانه المطبقة زفراتٌ تشبه الصفير.

فجأةً دبت حركةٌ بالممر، وارتفعت ضحكات الخدم، ليظهر عند الباب رجلٌ ذو هيئة عجيبة، جاء مهنئًا. كان جروبلبين، الذي ينز من أنفه الدقيق قطرة مخاط معلقة على مدار فصول السنة المختلفة. وكان جروبلبين يعمل بمخازن القنصل الذي كان يدفع له أجرًا إضافيًا مقابل العناية بنظافة حذائه؛ فقد كان يحضر في الصباح الباكر ليحمل الأحذية المصفوفة أمام

الباب إلى الباحة، ليقوم هناك بتنظيفها، ويحضر مناسبات واحتفالات العائلة مرتديًا زي المناسبات، حاملاً الزهور. وبينما كانت القطرة تظل عالقة بأنفه، كان يلقى خطبةً بصوت رخيم متهدج يكافأ عليها ببعض ما لم يكن ينتظر الحصول عليه. كان قد ارتدى حلة سوداء منحه إياها القنصل، وحذاءً وشالاً من الصوف حول كتفه، وقد حمل في يده العجفاء المتوردة باقةً ضخمة من زهور ذابلة، تتساقط بعض أوراقها على البساط، واحدةً تلو الأخرى. وكان- فيما يبدو- لا يرى شيئًا بعينيه الصغيرتين المحتقنتين اللتين ترفان وتدوران بالمكان.

كان ما يزال واقفًا أمام الباب لما شرع في إلقاء خطبته، بينما كانت القنصلة الكبيرة تومئ برأسها، مشجعةً له بعد كل كلمة، وتفضي إليه ببعض كلماتٍ لتسري عنه. أما القنصل فراح يتأمله، رافعًا إحد حاجبيه الرائقين، فيما كان بعض أفراد الأسرة يوارون ابتسامهم خلف المنديل، مثل السيدة بيرمانيدر. أما هو، فقال: "سيداتي، سادتي، أنا رجلٌ فقير، إلا أن قلبي يدرك مدى فرحة القنصل وسعادته، وهو رجل خيِّر دائم العطف عليَّ. لذا جئته مهنئًا من أعماقي، سيدي القنصل وسيدتي القنصلة وكل أفراد الأسرة الجليلة، داعيًا الرب أن ينعم على الوليد بطول العمر ووافر الصحة، وهي ليست بكثير على سيدٍ مثل القنصل بودنبروك، ذلك السيد النبيل، جزاه الرب كل خير".

"هكذا إذن، جروبلبين، قد أحسنت، شكرًا لك جروبلبين، لكن ماذا عن الزهور؟" إلا أن جروبلبين لم يكن قد انتهى من خطبته، فرفع صوته المتهدج ليغطي على صوت القنصل قائلاً: "أدعو الرب إلى حسن ثواب

الآخرة حيث نقف أمام عرشه، فنحن جميعًا، فقراءً كنا أم أثرياء، مآلنا إلى اللحد، فهذه مشيئة الرب وأمره، فمنا مَن يُحمل إلى هناك في تابوت خشبي فاخر، وآخر يُحمل في صندوق رخيص، إلا أن مصيرنا جميعًا إلى البلَى، بلَى، بلَى".

"كفى، جروبلبين، فنحن نحتفل بالتعميد، فكف عن هذا البلَى".

فأنهى جروبلبين كلمته قائلاً: "إليكم بعض الزهور".

"شكرًا، جروبلبين، لكن هذا شيءٌ كثير، لقد تحملت ما لا طاقة لك به، إنني لم أسمع منذ زمن مثل خطبتك هذه! ولكن هذا من نصيبك، فلتهنأ بيومٍ سار!".

وكان القنصل قد ربت على كتفه، نافحًا إياه ريالاً! أما القنصلة الكبيرة فقالت: "يا لك من إنسانٍ طيب! فهل تحب أنت يسوع المخلص أيضًا؟".

"إنه هو مَن أحبُ من أعماق قلبي، جناب القنصلة، والحق ما أقول". وقد حصل منها أيضًا على ريال آخر وثالث من السيدة بيرمانيدر، ليتراجع في خشوع، محتفظًا بباقة الزهور دون وعي منه، أو ما تبقى منها ولم يسقط فوق البساط.

ثم نهض العمدة متأهبًا للانصراف، فاصطحبه القنصل إلى العربة، مما أدى بالآخرين إلى الانصراف أيضًا. فقد كانت جيردا بودنبروك بحاجةٍ إلى الراحة، وكان السكون قد خيم على المكان عندما لم يبق هناك سوى القنصلة الكبيرة وطوني واريكا والآنسة يونجمان. فقال القنصل: "حقًا، إيدا، لقد وافقتني أمي على ما خطر ببالي، فالقابلة تقوم الآن على رعاية يوهان الصغير، وكُنتِ أنتِ من سهرِ على تربيتنا جميعًا، ولسوف يكبر يوهان ويحتاج إلى

مربية، فهل توافقين على الانتقال إلينا حينئذٍ؟"

"نعم، نعم، جناب القنصل، بعد موافقة السيدة قرينتك" ولما كان هذا يلقى تأييد جيردا فقد تحول الاقتراح الآن إلى قرار. وقبل الانصراف عادت السيدة بيرمانيدر من عند الباب لتقبل وجنتي أخيها قائلةً: "لقد كان يومًا جميلاً، توم، وأنا أشعر بسعادة لم أشعر بها منذ سنوات. فها نحن آل بودنبروك لم يعد ظهرنا مثقلاً بعد أن رفع الرب ذكرنا، ومَن يظن غير هذا فهو من الضالين! الآن، بعد أن جاءنا يوهان- ومن الجميل اننا أسميناه يوهان- فالآن يبدو لي أن عصرًا جديدا قد فتح لنا بابه على مصراعيه".

الفصل الثَّاني

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف من مساء يوم التعميد، حين دخل إلى غرفة المعيشة كريستيان بودنبروك، صاحب شركة "بورمستر وشريكه" بهامبورج، وبيده قبعته الرمادية المواكبة لأحدث صيحةٍ، وكذلك عصاه صفراء اللون بمقبضها بهيئة تمثال نصفي لراهبة، ليجد هناك أخاه وجيردا يقرآن، فبادرهما كريستيان: "طاب مساؤكما! آه توماس، ثمة أمرٌ عاجل يحتاج إلى مشورتك، عفوًا جيردا، فالأمر عاجل، توماس".

مضيا إلى قاعة الطعام المعتمة. وهناك أوقد القنصل بنفسه مصباح الغاز المعلق في الحائط، ليحدق في أخيه متوجسًا؛ فلم يكن الوقت من قبل يسمح بالتشاور، فيما عدا تبادل التحية. إلا أن القنصل كان قد لاحظ على غير العادة أن أخاه قد انتابه توترٌ حقيقي. وكان كريستيان قد اختفى أثناء خطبة القس برينجزهايم لعدة دقائق لأسبابٍ غير معلومة. كما أن توماس لم يكتب لأخيه عبارة واحدة منذ اليوم الذي منحه بهامبورج قرضًا بـ10000 مارك، من نصيبه من الميراث، لتسديد بعض ديونه، وحذره القنصل آنذاك: "فلتظل إذن على سلوكك هذا في تبديد أموالك، على ألا

تعترض طريقي في المستقبل. وقد وضعتَ مشاعري نحوك محل اختبارٍ قاسٍ خلال السنوات الماضية". فلماذا جاء الآن إذن، لقد دفعه إلى ذلك أمرٌ عاجل. فبادره القنصل: "حسنًا!"؛ فما كان من كريستيان إلا أن تهالك على مقعدٍ عالٍ من مقاعد المائدة، واضعًا عصاه وقبعته بين ركبتيه الهزيلتين، ثم قال: "لم يعد باليد حيلة". وكان القنصل ما يزال واقفًا حين سأله: "هل تأذن لي بسؤال عن هذا الأمر الذي لم يعد بيدك حيلة تجاهه، وعن سر مجيئك إليَّ؟"

فكرر كريستيان: "لم يعد باليد حيلة". ثم تلفت يمينًا ويسارًا، وقد بدت عليه أمارات توترٍ حقيقي على نحوٍ رهيب، وأخذ يطوف بعينيه الصغيرتين الغائرتين المستديريتين بالمكان، وبدا عليه تقدم العمر، برغم أنه لم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين. وقد نال الصلع من شعره الأشقر الأحمر الذي تراجع عن قمة رأسه، حتى كاد يمتد إلى كل رأسه، كما برزت عظام وجهه أعلى وجنتيه المتهدلتين، فبدا بينهما أنفه الضخم المعقوف نحيلاً هزيلاً؛ ثم أخذ ينزل بيده على جانبه الأيسر دون أن يمس جسده، ويقول: "هذا ليس وجعًا، بل هو عذاب، أتدري؟ عذابٌ مقيم لا أعرف له سببًا. وقد أخبرني دورجميلر في هامبورج أن كل أعصاب الجهة اليسرى من جسدي مفرطة القِصر، وهو أمرٌ بالغ الغرابة. فأحيانًا يداهمني شعورٌ بأن جانبي الأيسر يعاني من تقلصات، أو أن شللاً ما سيصيبني، شلل لا شفاء منه، فهل لك تخيل ذلك؟ إنني لا أنعم بالنوم ليلاً، فأهبُّ بعد شعوري بأن قلبي سيتوقف فجأة ليتملكني خوفٌ بالغ، وهو ما لا يحدث مرةً، بل عشر مرات قبل أن أغفو. ولست أدري إن كنت تعلم شيئًا عن مثل هذه الأمور.. لذا فسوف أشرح لك

ذلك تفصيلاً.. إنه.."

فقاطعه القنصل بجفاء: "دع عنك هذا، فأنا لا أظن أن هذا هو سبب طلبك مقابلتي".

"كلا، توماس، ليته كان هذا فقط؛ فهذا ليس كل ما في الأمر، إنه عملي، لم تعد بيدي حيلة!"

"فهل تورطت في شيء مرةً أخرى؟"

هكذا سأل القنصل أخاه برويةٍ، بعد أن عزف عن الغضب والصياح فأخذ يحدق بأخيه شذرًا، بعد أن حل به التعب "كلَّا، توماس، لكنني أقر بالحقيقة، وليحدث ما يحدث، بأن عملي لم يعرف الاستقرار قط، حتى بعد دعمه بالعشرة آلاف مارك، وهو ما تعرفه، فلم يكن ذلك في حقيقة الأمر إلا لإنقاذ المتجر من إفلاسٍ فوري.. والأمر هو أنني رحت أعاني من خسارةٍ تلو الأخرى، في تجارة البُن، وفي أزمة إفلاس انتفربن، وهو ما حدث بالفعل. لكني عجزت عن مواجهة ذلك؛ إلا أن الحياة تسير لتتراكم ديونٌ أخرى بلغت خمسة آلاف ريال.. آه! أنت لا تعرف مدى الانهيار الذي أعانيه، إضافةً إلى هذا العذاب".

هنا لم يتمالك القنصل نفسه فصاح: "إذن، عجزت عن المواجهة" ثم فقد صوابه فصاح: "لقد تركت السفينة تغرق، فيما أنت غارق في ملذاتك، أتعتقد أنني أجهل ما تفعله في المسرح والسيرك والنوادي، ومع الغانيات المبتذلات".

"هل تقصد "إلينا"؟ أجل، توماس، إنه يغيب عنك الكثير في هذا الشأن. ولعل سوء حظي هو ما جعلني أفرط في استيعابي لهذه الأمور! وأنت ترى عن حق أن ذلك يكلفني الكثير، لكن ما أريد قوله من أخ لأخيه،

فالطفلة الثالثة التي أنجبتها إلينا قبل نصف عام هي ابنتي".

"حمارا".

"توماس، لا تقل هذا، بل توخَّ العدل، حتى لو غضبت منها أو مني.. فلمَ لا تكون الطفلة من صلبي؟ أما "إلينا" فليست غانيةً مبتذلة بالفعل، ولن أسمح لك بوصفها بهذا، لأنني أقدر إيثارها للحياة معي على علاقتها بأى رجلٍ آخر أيًّا مَن كان، وقد هجرت من أجلي القنصل "هولم" الأكثر مني ثراءً. هكذا بلغ بها الوفاء، كلَّا، فيا لها من كائن رائع هذه المرأة، إنها موفورة العافية، موفورة العافية..!"

وقد كرر كريستيان هذه العبارة وهو يرفع أصابعه المنبعجة أمام وجهه، كما اعتاد عند ذكره لـ"هذه ماريا" وللرذيلة في لندن.

فقال: "يكفي أن تراها وهي تضحك لتفتر شفاهها عن أسنانٍ لم أر مثيلاً لها في الدنيا، لا في فلباريزو ولا في لندن؛ كما أنني لا أستطيع نسيان ليلة معرفتي بها عند أوليش بحانة اوسترنشتوبه، وكانت آنذاك على علاقة بالقنصل هولم، فرحت أتجاذب معها الحديث، متوددًا إليها حتى ظفرت بها.. فلم يكن هناك أروع من ذلك. شعورٌ يختلف تمامًا عن شعورك بنجاح صفقةٍ من صفقاتك.. إلا أنك تكره سماع مثل هذه الأمور، وهو ما أراه الآن أمامي. إلا أن علاقتي بها قد انفصمت كذلك، وسأهجرها، وإن كنت سأبقى على علاقتي بها من أجل البنت، وسوف أسدد كل ديوني بهامبورج، وأغلق المتجر؛ فلم يعد باليد حيلة. وقد أخبرت والدتي بذلك، فلم تمانع في منحي 5000 ريال مسبقًا من أجل تسوية أموري؛ وسوف توافقها على هذا لأنه إذا قيل عني إن كريستيان بودنبروك قام بتصفية أعماله ورحل إلى

الخارج لهو أفضل من أن يُشاع عني أن تجارتي قد أفلست. وسوف تتفق معي في الرأي. وقد انتويت العودة إلى لندن، توماس، فهناك وظيفةٌ تنتظرني؛ فمثلي لا تناسبه الأعمال الحرة، وهو ما أكدته التجربة، فجاءت هذه النتيجة. كما أن إقامتي بلندن هو أمرٌ محبب إلى نفسي، فهل ترفض أنت ذلك؟"

أثناء هذا السرد كله كان القنصل قد أدار ظهره لأخيه، واضعًا يديه في جيبي سرواله، وهو يخط بقدمه أشكالاً في الأرض، ليقول بعد ذلك ببساطة: "حسنًا، فلتمض إذن إلى لندن". ثم انصرف دون أن يلقى إليه نظرةً واحدة ليعود إلى مكانه بغرفة المعيشة. إلا أن كريستيان اقتفى أثره ليتوجه إلى جيردا، التي كانت تقرأ، ليمد يده نحوها قائلاً: "تصبحين على خير، جيردا، نعم، جيردا، أنا سأعود إلى لندن في أول فرصة. أليس غريبًا أن تطيح بنا الحياة هكذا، أنا ماضٍ ثانيةً إلى المجهول. أتدرين في مثل هذه المدينة الكبيرة، لا يكاد المرء يخطو هناك خطوتين وإلا كانت هناك مغامرة في انتظاره، أتعرفين مثل هذا الشعور؟ إنه يتراكم عندي هنا في المعدة.. إنه أمرٌ عجيب للغاية".

الفصل الثَّالث

وافت المنية السيناتور جيمس مولندورف، عميد التجار. وقد داهمه الموت على نحوٍ غريب، مذهل. فالرجل الطاعن في السن، المريض بداء السكَّر، فقد حاسة السيطرة على النفس، فصار في سنواته الأخيرة أسيرًا لشهوةٍ عارمة لالتهام الفطائر والتورتة. وكان الدكتور جرابو، طبيب أسرة مولندورف، قد حذره من ذلك تحذيرًا شديدًا بكل ما أوتي من قوة. فكان أن قامت الأسرة بمنع كبيرها من تناول اللدائن المحلاة، وأخذته في ذلك بشيء من اللين والشدة في آنٍ واحد. فماذا فعل السيناتور؟ لقد قام الرجل ضعيف الرأي باستئجار غرفةٍ، أو جُحرٍ بمعنى الكلمة، بجهةٍ ما بشارعٍ لا يليق بمركزه في حى جروبلجروبه الصغير، وراح يتسلل إليها ليلتهم هناك فطائره، وهناك عُثر عليه ميتًا بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة إثر ذبحة صدرية عاجلته قبل الموت البطيء. وقد طفح فمه بفطيرة أكل بعضها، ولطخ سترته ببعضٍ آخر، بينما تناثر الباقي فوق الطاولة.

وقد بذلت الأسرة قصارى جهدها في تكتم أسباب الوفاة المهينة. إلا أن

الخبر سرعان ما انتشر بالمدينة، حتى أصبح حديث الناس في البورصة والنادي ومقهى "الانسجام"، وفي المكاتب، وتداوله الأهالي، وفي المراقص ومجتمعات السهر والولائم. فقد وقعت الحادثة في فبراير من عام 1862 حين كانت المدينة تضج بالحياة، فأخذت صديقات القنصلة بودنبروك يتناولن بالحديث وفاة السيناتور مولندورف في "أمسية أورشليم" أثناء توقف ليا جيرهاردت عن الترتيل. كما أخذت تلميذات "يوم الأحد" يتهمامسن عنها أثناء اجتيازهن لباحة دار بودنبروك الرحبة، وهن يشعرن بالرهبة. وقد استمع السيد شتوت إلى سردٍ تفصيلي للحادثة من زوجته التي تغشى المجتمعات الراقية. إلا أن تناول هذا الأمر لم يقتصر على الحادثة؛ فما إن شاع خبر وفاة الرجل العجوز، وبعد دفنه مباشرةً، إذا بسؤالٍ وحيدٍ مهم قد شغل الأذهان ليطرح نفسه، فيردده الجميع: مَن سيخلفه في عضوية المجلس؟ فيا لَه من توتر ويا لَه من اهتمام خفي! فالأجنبي الذي يجيء لمشاهدة آثار العصور الوسطى ومحيط المدينة البديع لم يكن ليلحظ شيئًا من هذا القبيل، لكن ما هذه النار تحت الرماد، وما هذا التحريض، وتلك الآراء النزيهة المبرأة من الشبهات، وقد اصطدمت كلها ببعضها البعض، صارخةً اقتناعًا، مختبرة كلٌّ منها الأخرى، ليسود بينها التفاهم شيئًا فشيئًا. وقد هاج الاشتياق وماج الطموح والغرور في الصدور. وها هي آمال دفينة تحيا فتنهض، لكنها تعود وهي تجر أذيال الخيبة.

أما التاجر العجوز كورتس، الساكن في بيكرجوربه، الذي لم يحصل إلا على ثلاثة أو أربعة أصواتٍ في كل انتخاب شارك فيه، فكان سيعاود الانتظار مرةً أخرى قابعًا في منزله، مترقبًا وهو يرتجف إعلان فوزه، إلا أنه لن يفوز

هذه المرة أيضًا، وسيعاود السير في طريقه ضاربًا الرصيف بعصاه، وقد بدت عليه أمارات الرضا عن النفس والتحفظ، وسيصحبه إلى قبره وهمُ الفوزِ بلقب سيناتور. وفي يوم الخميس، وعلى مائدة غداء آل بودنبروك، كان الحديث يتناول وفاة جيمس مولندروف، فأعربت السيدة بيرمانيدر عن حزنها لوفاة الرجل ببعض العبارات، إلا أنها بعد ذلك أخذت تمرر لسانها فوق شفتها العليا مشيرةً نحو أخيها ناظرةً إليه بخبثٍ حدا بسيدات بودنبروك إلى تبادل نظراتٍ مكايدة لا مثيل لها، ثم أخذن جميعًا يغمضن العيون؛ أما القنصل، فقد رد على أخته ابتسامتها الخبيثة لينتقل بالحديث إلى مسألةٍ أخرى، وهو على دراية برأي أهل المدينة الموافق لما كان يدور برأس أنطونيا، والباعث على سعادتها.. وقد تم ترشيح بعض الأسماء ليتم التغاضي عنها، لتُطرح أسماءٌ أخرى لتلقى المصير نفسه. فقد حال عُمر هنينج كورتس المتقدم بينه وبين ذلك. أما القنصل هونيوس، تاجر الأخشاب، فقد رجحته ملايينه، إلا أن ترشيحه كان مخالفًا للدستور، نظرًا لعضوية أخيه بمجلس الشيوخ. وبرغم مكانة اسمى إدوارد كيستنماكر، تاجر النبيذ، والقنصل هرمان هاجنشتروم، إلا أن نجم توماس بودنبروك كان هو الساطع منذ البداية. وكلما دنا موعد الانتخاب ازداد اسمه تألقًا. وقد حسمت المنافسة بينه وبين هاجنشتروم. وقد كان لهرمان هاجنشتروم بلا ريب كثيرٌ من المؤيدين والأنصار، ويرجع هذا إلى مساهماته في الشأن العام، وكذلك ارتفاع أسهم شركة "شترونك وهاجنشتروم" وتطورها على نحو سريع ملحوظ! وكذلك حياته الميسورة، وشركته وفطيرة كبد الأوز التي يفطر بها.

إنه هو هذا الرجل الذي كاد أن يكون مفرط السمنة، ذو اللحية المشربة

بالحمرة التي يحافظ على تشذيبها، ذو الأنف الأفطس، الذي لم يستدل أحدٌ على جده، حتى هو نفسه لم يكن يعرفه، وهو أيضًا من استنكر مجتمع المدينة زواج أبيه المريب الذي عاد عليه بالثراء، وهو الذي جعل أسرته ترتفع إلى مصاف الخمس أو الست عائلات صاحبة النفوذ، بعد أن صاهر عائلتي هونيوس ومولندورف؛ إنه هو الرجل نفسه الذي أصبح، بلا شك، ظاهرةً خاصة ينظر إليها أهل المدينة باحترام. وكانت شخصيته تمتاز وتتفرد بسمات رفعته إلى مكانةٍ سامية في نظر الكثيرين، فقد عُرف بالتحرر والتسامح، كما تباينت طريقته في كسب المال وإنفاقه بكرم عن أسلوب أهل مدينته من التجار الذين كانوا يكدحون مثابرين، مقتفين أثر أسلافهم أصحاب المبادئ الصارمة. أما هو فقد تخلص من كل تلك التقاليد المحافظة والقيود المعوقة، ليفعل ما يراه هو صوابًا. حتى إنه أنكر كل طراز قديم، فداره القائمة في زاندشتراسه- وهو امتداد جنوبي للشارع العريض- كانت دارًا بسيطة مطلية بالزيت لا تحوي سوى الضروري من الغرف، وإن كان أثاثها ثمينًا يتسم بالأناقة والراحة، وهو أثاثٌ حديث لا يمت لطرازٍ عتيقٍ بصلة. وهكذا جاءت هذه الدار على نقيض ديار الموسرين العتيقة، ذات الغرف الكثيرة التي تنم عن رفاهيةٍ وترف؛ وهي دور ذات أفنية رحبة مرصوفة تحيط بها أروقة ذات لون أبيض. وكان قد دعا إلى داره هذه إحدى مغنيات الأوبرا بمسرح المدينة، لإحياء إحدى سهراته الكبرى، وقامت بالغناء بعد انتهاء الضيوف من طعامهم، فمنحها أجرًا سخيًا؛ وكان من بين المدعوين، أخوه، عالم القانون، المولع بحب الفنون والآداب.

ولم يكن من مؤيدى الرأي السائد في مجلس المواطنين بالتبرع بالمال

من أجل ترميم آثار القرون الوسطى والمحافظة عليها، إلا أنه كان أول من أدخل الإنارة بالغاز في المدينة؛ فكان الوحيد على الإطلاق الذي استخدم ذلك في إضاءة مكاتبه وداره.

أما المبدأ الذي حرص القنصل هاجنشتروم على الالتزام به حقًّا فكان مبدأ الفكر التقدمي الحر، القائم على روح التسامح والنزاهة، وهو ما دفع الآخرين للإعجاب به. إلا أن توماس بودنبروك كان يتمتع بموقعٍ مختلف، ليس خاصًا به وحده؛ فقد كان الناس يكبرون في شخصه ذكرى أبيه وجده الأكبر، بالإضافة إلى النجاح الذي أحرزه على المستويين الخاص والعام. وبرغم ذلك فقد كان سنده هو مجدٌ عمرُه قرنٌ من الزمان. وقد كان مسلكه السلس، رفيع الذوق، اللطيف الجذاب،- بلا شك- من أهم مزاياه المجسدة لهذا المجد. كما كان يتمتع بقدرٍ من الثقافة لم يعرفه أقرانه من طبقة المتعلمين، وكان يُقابَل أينما سار بالإعجاب، وبنفس القدر من الإجلال.

هكذا أصبحت معركة الانتخابات القادمة محور حديث سهرات الخميس بدار آل بودنبروك، إلا أنه كان يدور في إطار محدد لا تتجاوزه التعليقات المقتضبة. ففيما كانت القنصلة تتأمل المشهد متحفظةً- بعينيها الصافيتين- كانت السيدة بيرمانيدر لا تكف عن التباهي بإلمامها العجيب بمواد دستور الدولة، وبنوده الخاصة بانتخاب أعضاء مجلس الشيوخ. وقد عكفت على دراستها، كما عكفت من قبل على دراسة البنود الخاصة بمسألة الطلاق؛ فكانت تتناول مسائل لجان الاقتراع، والناخبين وبطاقات الانتخاب، بل تطرح كل احتمالات ممكنة على بساط البحث، كما كانت تؤدي غيبًا اليمين الدستورية، وتذكر مناقشات أعضاء لجان الاقتراع- كلُّ

منها على حدة- والتي تدور حول تسجيل الأسماء على قوائم الترشيح، معلنةً عن رغبتها العارمة في المشاركة في المناقشة الحرة الخاصة بشخص هرمان هاجنشتروم. فلما انتهت من ذلك، مالت على بذور البرقوق بصحن أخيها لتحزر: "عظيم الشأن، دكتور، قس، نائب بالمجلس". وما إن انتهت من تناول الطعام حتى أسرعت لتنتحي بأخيها جانبًا، لتمضي به إلى النافذة، لتقول له: "آه، توم، لو أنك وفقت في الانتخابات.. ورفع شعار عائلتنا بالغرفة الحربية بمجلس الشيوخ، فسوف يطيح الفرح بعقلي، لأسقط صريعةً، ولسوف ترى ذلك بعينيك".

فرد هو: "عزيزتي طوني، فلتلزمي قليلاً الصواب والرشد، أرجوكِ! وهو مما تتسمين به عادةً، فهل آتي أنا بما يفعله هننج كورتس، فأسعى إلى الناس؟ فإن لنا مكانتنا بغض النظر عن عضوية مجلس الشيوخ، وإن وُفقت في ذلك أم لم أوفق، فسوف تنعمين بالحياة".

ثم بدأت مرحلة التحريض والمشاورات وصراع الآراء.

وقد شارك فيها القنصل بيتردولمان المستهتر، رافعًا اسم متجره الذي باء بالبوار، مستعينًا بابنته ذات السابعة والعشرين عامًا، والتي بدد هو نصيبها من الميراث. وكان إذا دُعي إلى وليمةٍ أقامها توماس بودنبروك أو أخرى لهرمان هاجنشتروم، خاطب مضيفه بنبرة عالية رنانة بلقب: "سيدى السيناتور". أما الوسيط العجوز سيجسيموند جوش، فكان يطوف بالناس يزأر كالأسد، معاهدًا نفسه صراحةً على أن يخنق بيديه كل من لا يرشح القنصل بودنبروك.

"إنه القنصل بودنبروك أيها السادة، ها، يا لهذا الرجل، الذي كنت أنا بجوار والده عندما أخمد بكلمةٍ واحدةٍ ثورة الشعب المتمرد عام 1848.. ولو

أن هناك عدالةً في هذه الدنيا لكان والده، ووالد والده من أعضاء مجلس الشيوخ حقًا". وفي حقيقة الأمر، فلم يكن القنصل بودنبروك هو من أجج حماس السيد جوش، أو هو من دفعه إلى ذلك، بقدر ما كان دافعه هو الزوجة، القنصلة الشابة، سليلة آل أرنولدسن. ولم يكن دافعه إلى ذلك أيضًا أنه تجاذب معها أطراف حديثٍ، فلم يكن الوسيط واحدًا من تجار المدينة الأغنياء أو محاسيبهم أو ممن يتبادل معهم بطاقات الزيارة، وإنما كان وراء ذلك شخص جيردا بودنبروك نفسها. فما إن ظهرت لأول مرة بالمدينة حتى أطارت النوم من عيني الوسيط، عابس الوجه؛ أطارت النوم من عيونٍ جائعة تشتهي كل ما هو غريب. ومنذ اللحظة الأولى، كان قد أدرك بفطرته السليمة أن هذه المرأة الظاهرة، لكفيلة بمد روحه العطشى بنوعٍ آخر من الزاد، فتعلق بها تعلق العبدِ بسيده، وإن كانت هي لا تكاد تتذكر اسمه. فمنذ تلك اللحظة، شغف جوش بالمرأة العصبية، التي تميل إلى التحفظ المفرط، وإن لم يكن قد تعرف إليها، مثله في ذلك مثل نمرٍ مع مروضه؛ فكان أن رآها، بوجهه العابس نفسه، رفع نحوها قبعته اليسوعية، في استكانةٍ وهوان، لتدهش هي من ذلك.. ولم يكن انتماؤه للطبقة الوسطى ليسمح له أن يأتي فعلاً خسيسًا تجاه هذه السيدة، فعلاً لا يقوى على تحمل نتائجه، وهو الأحدب مكفهر الوجه، المتدثر في معطفه من البرد؛ كما لم تكن عادات هذا المجتمع وتقاليده السقيمة تتيح له فرصة أن يرفع هذه المرأة إلى عرش القياصرة من خلال الاغتيالات، أو الجرائم، أو المكائد الدموية. ولم تترك له سوى فرصة التصويت في مجلس الشيوخ لصالح زوجها، الذي يحترمه رغمًا عنه، أو فرصة إهدائها ترجمته لأعمال لوب دى فيجا المسرحية.

الفصل الرَّابع

ينص الدستور على انتخاب عضو جديد بمجلس الشيوخ في الدائرة الشاغرة، خلال فترة لا تتجاوز أربعة أسابيع. وكان قد مر على وفاة جيمس مولندورف ثلاثة أسابيع، وها قد أصبح يوم الاقتراع على الأبواب، وهو آخر أيام شهر فبراير، حينما ينصهر الجليد.

هناك اكتظ المكان بالناس، وقد غاصت أقدامهم في وحل الجليد الذائب، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض، ثم ينظرون إلى الأمام، وقد اشرأبت أعناقهم: ففي هذه اللحظات، خلف الباب المؤدي إلى قاعة المجلس، التي تحتوي نصف دائرةٍ من اثني عشر مقعدًا من الفوتي، كانت قد اجتمعت هناك لجنة الاقتراع، التي تضم أعضاءً من مجلس الشيوخ، ومجلس المواطنين، بانتظار توصيات لجان الانتخابات. وقد استغرق ذلك وقتًا طويلاً، ولم تكن لجان الانتخابات قد انتهت بعد من عملها. ففيما يبدو أن المنافسة كانت على أشدها، ولم يكن الرأي قد استقر حتى هذه اللحظة على مرشحٍ بعينه، وإلا كان العمدة قد أعلن اسمه في الحال.. ومن المدهش أن لا

أحد يعلم مصدر الشائعات، وأين ومتى تُبث؛ فالشائعات تخرج من باب الاجتماع إلى الطريق ليتلقفها الناس. فهل كان المسؤول عن ذلك هو السيد كاسبرسن، كبير حُجاب المجلس صاحب العيون الحولاء، الذي كان منح نفسه لقب "الموظف العام"؛ فهو الذي يقف بالداخل ليلفظ من بين أسنانه المطبقة هامسًا من شدقه بما يدور في الداخل.

وقد تردد أثناء ذلك أن أوراق الترشيح قد حُملت إلى قاعة المجلس، وأن اللجان الثلاثة قد رشحت ثلاثة أسماء مختلفة هي: هاجنتشروم، بودنبروك، وكيستنماكرا فتمنى المنتظرون أن يحسم الاقتراع السري ببطاقة التصويت نتيجة الانتخابات العامة بالأغلبية المطلقة.

فقد أصبح بعض المنتظرين بالخارج يتململون ليدقوا الأرض بأقدامهم من برودة الجو، رغم أن بعضهم قد غطى حذاءه بما يحميه من الزمهرير. وكان هؤلاء المنتظرون يمثلون جميع طوائف الشعب، فقد كان من بينهم بّحارةٌ برقاب عارية موسومة بالوشم، وقد وضعوا أيديهم بجيوب سراويلهم الفضفاضة القصيرة، وحمالو الغلال بقمصانهم وسراويلهم القصيرة من نسيج التيل الأسود اللامع، وعلى وجوههم أمارات البراءة التي لا مثيل لها، وكذلك سائسون ممسكون بالسياط جالسين فوق طبقات أجولة الغلال المكدسة فوق بعضها البعض. كما كانت هناك أيضًا خادمات متشحات بمآزرهن، وقد ارتدين تنورات من نسيجٍ خشن مقلم، ويغطين رؤوسهن بقبعاتٍ صغيرة الحجم بيضاء اللون، وقد علقن في أذرعهن المنحسرة سلالاً ذات مقابض؛ كما جاءت بائعات بسلالٍ من الخوص، ممتلئةً بأسماكٍ وخضراوات، وكان بينهن حسناوات من العاملات بالبساتين وقد ازدانت

رؤوسهن بقبعات هولندية، مرتديات تنورات قصيرة، كما تبدت أكمام طويلة بيضاء مثناة من مشدات مطرزة مزركشة. وبين هؤلاء وغيرهم، كان هناك مواطنون وأصحاب متاجر قريبة، وقد غادروها حاسري الرأس ليدور بينهم بعض الجدل، وكذلك بعض شباب التجار المهندمين، الذين يقضون ثلاث أو أربع سنواتٍ تحت التمرين بشركات آبائهم أو أصدقاء آبائهم. كما جاء إلى هناك أيضًا تلاميذ مدارس، حاملين حقائبهم وكتبهم. كما وقف هناك كذلك عاملان بلحيةٍ كثة تشبه لحى البحارة، وهما يلوكان اللادن. ومن بين كتفي هذين الرجلين شديدي المراس كانت سيدةٌ تحاول النظر- يمينًا ويسارًا- إلى دار المجلس، وقد اعتراها القلق، وهي ترتدي معطف سهرة أحاط به فراءٌ فضفاض بني اللون أخذت تلملم طرفيه بيديها، وقد وضعت فوق وجهها برقعًا خشنًا بني اللون أيضًا؛ أما حذاؤها المطاطي فقد خاض تمامًا في ماء الجليد. وكان أن قال أحد العاملين لزميله: "لن يُوفَّق السيد كوتس هذه المرة أيضًا".

"كلَّا، أيها الأحمق، فلن تخدعني هذه المرة أيضًا. فقد ذهبت جميع الأصوات إلى هاجنشتروم وكيستنماكر وبودنبروك".

"حقًّا، لكن السؤال هو مَن سيفوز من ثلاثتهم؟"

"أجل، فلتخبرني أنت بذلك".

"أتدري، أظن أنهم سينتخبون هاجنشتروم".

"نعم، أيها الخبيث، فأنت تتحدث بلسان الشيطان" ثم أن بصق بعض اللادن على الأرض، بعد أن منعه الازدحام من أن يرسم ببصقته قوسًا على مسافة بعيدة عنه، ثم أمسك بنطاقه الجلدى ليرفع سرواله، ليسترسل قائلاً:

"إن هاجنشتروم ليس سوى وعاء طعام مكتوم.. وهو ما تصل به بدانته إلى هذا الحد.. كلَّا، فبعد فشل كوتس هذه المرة أيضًا، فإنني أؤيد بودنبروك، فهو رجل محترم".

"هذا زعمك أنت، فهاجنشتروم أكثر منه نشاطًا".

"لكن ذلك ليس العامل الحاسم في هذه المسألة".

"هذا فضلاً عن أناقة بودنبروك بأساور أكمامه ورباط عنقه الحريري وشاربه المفتول.. ألم تر كيف يمشي، فهو يقفز دائمًا كأنه على وشك الطيران".

"يا لك من غبي، فما شأن هذا بانتخابه؟"

"لكن له أختًا طلقت رجلين".

هنا ارتعدت فرائص السيدة ذات معطف السهرة.

"هذه قضية فيها قولان، ونحن لا نعرف تفاصيلها، كما أن ليس للقنصل يدٌ فيها".

هذا هو الحق، وهو كان رأي السيدة ذات البرقع التي صارت تفرك يديها تحت المعطف.. إنه هو الحق، آه.. حمدًا للرب. أما الرجل المؤيد لبودنبروك فقال: "عليّ أن أذكّرك بأن العمدة أوفرديك كان أب التعميد لابنه، وهو أمرٌ مهم، وهو ما أؤكده لك".

فقالت السيدة لنفسها: "نعم، فهذا هو الحق، حمدًا للرب، كان بالفعل أمرًا مهمًّا"، ثم انتابتها رجفةٌ بعد أن ذاعت شائعةٌ راحت تنتقل حتى وصلت إليها، لتعرف أن الانتخاب العام لم يحسم النتيجة، بعد أن حصل إدوارد كيستنماكر على أدنى عددٍ من الأصوات ليخرج من المنافسة التي استمرت

بين هاجنشتروم وبودنبروك.

وقال أحد المواطنين، بعد أن ارتسمت على وجهه أمارات الجدية، إنه في حالة تساوى الأصوات، فسيتم تفويض خمسة من رؤساء اللجان ليرجحوا كفة أحد المرشحين.

ثم كان أن ارتفع فجأة صوتٌ في الأمام عند المدخل صائحًا: "لقد تم انتخاب هيني سيهاز". أما هيني سيهاز هذا فكان رجلاً لا يفيق من السُّكر، يبيع الخبز المدخن فوق عربة يدٍ، فآثار الخبر ضحك الجميع، وأخذوا يشبون على أطراف أصابعهم ليتعرفوا على من أذاعه، كما ضحكت ذات البرقع أيضًا على نحوٍ متوتر، لتتبع ذلك بإيماءة تعني بأن هذا ليس أوان المزاح، ثم تماسكت وقد اعتراها بعض القلق، لتنظر متلهفة من بين كتفي الرجلين إلى دار المجلس. إلا أنها تركت فجأةً طرفي معطفها لتظل على حالها هذه، وقد تراخى كتفاها وكاد أن يغشى عليها.

إنه هاجنشتروم، هكذا ذاع الخبر، دون معرفة مصدره، كأن الأرض ابتلعته، أو أن الخبر هبط من السماء فوق الرؤوس لينتشر في كل مكان. إنه خبرٌ حقيقى لا شك فيه، إنه هاجنتشروم، حقًّا، هو إذن هاجنتشروم، فلا داعيَ إذن للانتظار، وهو ما كان على سيدة البرقع توقعه، فهذا حظها دائمًا، فلتعد الآن إلى البيت قبل أن تنخرط في البكاء. وما إن انقضت ثوانٍ حتى أُخذ الجميع بالصدمة المباغتة، فحدث هرجٌ ومرج وتدافعٌ من الأمام للخلف، ومن الخلف للأمام، وأصبح هؤلاء يتخبطون بهؤلاء، فيما كان شيء عند الباب يبرق بلون أحمر قان. كانت سترتا حاجبي المجلس الحمراوان، كاسبرست وأوليفلت بزيهما الرسمي والقبعة المثلثة والسروال الأبيض، وقد

علت ذراعيهما زخرفةٌ صفراء، وعُلق بجانبيهما سيف التشريفة، وهما يسيران متلازمين يشقان طريقهما بين الجمهور المتقهقر. وها هما ينطلقان كالقدر في جلالٍ صامتين لا يلويان على شيء، متجهين نحو هدفٍ حسمته نتيجة الانتخابات. إلا أنهما لم يتجها إلى زاندشتراسه، بل انحرفا يمينًا ليهبطا الشارع العريض. فلم تصدق سيدة البرقع ما ترى، لكن كل من كان هناك معها اتخذ نفس وجهة الحاجبين، ليقول بعضهم للبعض الآخر: "أمرٌ غريب، بودنبروك! وليس هاجنشتروم". ثم كان أن غادر دار البلدية بعض الرجال وهم يتناقشون، وقد أسرعوا الخطى إلى منجشتراسه، ليكونوا في مقدمة المباركين. فأعادت السيدة معطفها إلى وضعه السابق، وركضت بطريقة لا تفعلها مثلها من السيدات، وسقط البرقع ليكشف عن وجهٍ ممتقع، إلا أنها لم تأبه لذلك ولم تهتم بأن غطاء حذائها الفراء كان يخرج عن قدمها في ماء الجليد، ليعوقها ويعرقلها دائمًا؛ إلا أنها سبقت الجميع، فكانت أول من وصل إلى البيت القائم على ناصية "بيكرجروبه"، وراحت تضغط على الجرس ضغطًا متواصلاً، ثم صاحت في وجه خادمةٍ فتحت لها الباب: "كاترين، إنهم قادمون". ثم هرولت فوق الدرج لتقتحم غرفة المعيشة، ليطرح أخوها صحيفته جانبًا ممتقع الوجه بعض الشيء، ولوَّح بيده ليصدها عما اعتزمته، إلا أنها احتضنته مرددةً: "توم، إنهم قادمون، إنهم قادمون.. لقد نجحت، وسقط هرمان هاجنشتروم".

حدث ذلك في يوم الجمعة، وفي اليوم التالي كان السيناتور بودنبروك يقف بالفعل بقاعة المجلس أمام مقعد الراحل جيمس مولندورف، ليحلف اليمين أمام جمع الشيوخ ولجنة المواطنين: "أقسم أن أؤدي مهمتي بأمانة،

باذلاً كل جهدي في رعاية مصالح الدولة والحفاظ على الدستور والصالح العام. وألا أضع في الاعتبار أية مصلحة خاصة أو علاقة قرابة أو صداقة، أثناء ممارسة مهام منصبي، خاصة في شؤون كافة الانتخابات. وأن أتوخى تطبيق قانون الدولة والعدالة على الفقير والغني سواء، وأن ألتزم الصمت تجاه ما يجب الصمت نحوه، وأحافظ على سرية ما يجب الاحتفاظ به سرًا. والرب هو المعين!"

الفصـل الخامس

إن آمالنا وتطلعاتنا تنبع من احتياجات أعصابنا، ويصعب التعبير عنها بالكلمات.

فما يُسمى إعجاب توماس بودنبروك بذاته، والجهد الذي يبذله في العناية بمظهره وما يتخذه من زينة مترفة، لهو في حقيقة الأمر شيء مختلف. ففي الواقع لم يكن ذلك سوى طموح إنسان صاحب مبادرة، يدعم موقفه بمظهرٍ صحيح مؤثر، من قمة رأسه حتى قدميه.

وقد ازدادت التزاماته نحو نفسه ونحو الآخرين الآملين في موهبته وهمته. كما تداعت عليه الواجبات الخاصة والعامة. ومن بين المهام التى كلف بها المجلس أعضاءه، كانت لجنة الضرائب الرئيسة قد آلت إليه هو، وكذلك أعمال الدولة في مجالات السكك الحديدية والجمارك وغيرها.

وقد حرص منذ توليه رئاسة اللجنة على توخي الحذر واللياقة واللين نحو من هم أكبر منه سنًّا خلال آلاف الاجتماعات لمجالس الإدارة، فكان يقدر خبرة هؤلاء الذين هم أكثر منه خبرةً؛ إلا أنه برغم ذلك كان يحكم قبضته

على الأمور. أما ما يسترعي الانتباه، فكان حرصه على الوفاء بمتطلبات إعجابه بذاته، أي تلبية حاجته في إيقاظ الجسد وإنعاشه، بما يفرض عليه أن يقوم بتبديل ملابسه عدة مرات في اليوم؛ والاهتمام بمظهره وتجديد طاقته صباحًا كان قد تزايد على نحوٍ باد للعيان، وهو ما كان يعني أن توماس بودنبروك- الذي لم يتم عامه السابع والثلاثين- أصبح في الوقت نفسه يعاني من تدهور همته واستنفاد طاقته على نحو سريع.

فكان إذا طلب منه الدكتور جرابو الطيب أن ينال قسطًا أوفر من الراحة، أجابه بقوله: "آه، عزيزي الدكتور، أنا لم أشعر بعد بالتعب!" وكان يعني بذلك أنه ما يزال أمامه الكثير لأدائه وإنجازه قبل أن يخلد للراحة. فهل كان يؤمن بذلك في قرارة نفسه. وهو ما كان يدفعه قُدمًا، ويؤرقه. حتى بعد تناوله الطعام، كان يتظاهر بالخلود إلى الراحة مطالعًا الصحف، فيما آلاف المشاريع تتزاحم في رأسه، وهو يبرم طرف شاربه الطويل، بحميمية ودعة. وقد نفرت عروق فوديه المتقعين، وكان يهتم بمناوراته العملية أو صياغة خطبه، بنفس قدر اهتمامه بتوفير المزيد من ملابسه الداخلية. فكان إنجاز مثل هذه الأمور يحقق له شيئًا من راحة البال، إلا أنه كان لا يحب الإنفاق دون تبصر. وقد حققت أعماله التجارية نجاحًا عظيمًا خلال السنوات الماضية، بنفس قدر نجاحها أيام جده. فلم ترتفع أسهم شركته داخل المدينة فحسب، بل خارجها أيضًا، كما كانت مكانته في مجال العمل العام تزداد رسوخًا، وقد شهد الجميع حاسدًا أو مغبطًا ببراعته ومثابرته، بينما كان هو نفسه يصارع بلا جدوى في إنجاز أعماله برضا وانتظام ونظام، لأنه كان يشعر بتخلفه المحبِط عن قدرات ذهنه المرتب.

وهكذا، لم يكن من الغرور أن ينشغل السيناتور في صيف عام 1863 بفكرة بناء دار جديدة كبيرة.

لكن السعيد هو من يظل مكانه. فقد كانت حيرته تدفعه إلى ذلك، وكان بوسع المحيطين به إضافة ذلك إلى خانة إعجابه بذاته، وهو ما يبدو منطقيًّا.

دار جديدة، تغيير حاد في مظاهر الحياة، الترتيب، الانتقال، الانتقال إلى الجديد، والتخلي عن كل قديم، وما فقد قيمته، وكل رواسب الأعوام الماضية.

كانت هذه التصورات تعطيه شعورًا بالنظافة والتجديد والإنعاش والاستقرار والقوة.. فقد كانت حاجته إلى ذلك ضرورةً، فعض على ذلك بالنواجذ، ووضعه هدفًا محددًا نصب عينيه.

وكانت هناك في ناحية "فيشر جروبه" قطعة أرضٍ شاسعة معروضة للبيع، كانت من قبل منزلاً دارسًا مهجورًا مملوكًا لامرأةٍ عجوز توفيت مؤخرًا، وكانت عانسًا تسكن البيت وحدها كسليلة لإحدى العائلات الغابرة. وقد فكر السيناتور في بناء دارٍ له فوق هذه القطعة من الأرض، وراح يعاينها متفحصًا في ذهابه وإيابه من الميناء. وكانت الدور المجاورة لطيفة حسنة المظهر، بيوت هرمية السطح يسكنها أبناء الطبقة المتوسطة. وكانت المنازل التي تقع في مواجهة قطعة الأرض هذه هي أكثر تلك الدور تواضعًا، وهو بيت ضيق يشمل محلاً صغيرًا لبيع الزهور. وقد أعمل فكره في هذا المشروع وقدر تكاليفه تقريبًا؛ وبرغم أن هذا المبلغ لم يكن بالقليل، إلا أنه كان بوسعه توفير ذلك في يسرٍ. لكنه انزعج عندما راودته فكرة أن مثل هذا المشروع قد يكون سفهًا لا جدوى منه، وصارح نفسه بأن داره الحالية توفر مكانًا مريحًا له ولزوجته وولده وللخدم، إلا أن احتياجاته، التي لم يكن يدركها تمامًا،

كانت أقوى أثرًا. ولما كان بحاجة إلى مَن يدعم فكرته ويقرها فقد فاتح أخته في هذا الشأن: "موجز القول، طوني، ما هو رأيك في هذا؟ انظري إلى السلم الحلزوني المفضي إلى دورة المياه، إنه لطيف للغاية، لكن الدار في حد ذاتها ليست سوى جُحرٍ، مزري الهيئة، أليس كذلك؛ وقد واتانا الحظ فأصبحت "سيناتور"، فهل أظل على حالي هذا؟"

فعقدت ذراعيها فوق صدرها، وهي تذرع الغرفة وتهز كتفيها، وقد مالت برأسها للخلف: "الحق معك، توم، يا إلهي، الحق معك في كل هذا! وليس هناك ما يمنعك، فقد أُضيف إلى رصيدك سيدةٌ من آل أرنولدسن ومائة ألف ريال، وعلى أية حال، فأنا أعتز بأن تجعلني محل ثقتك، وإن لم تكن تلك المرة الأولى، إلا أنك لو فعلت ذلك فلتكن دارًا فخمة".

"حقًّا، فرأيي من رأيك، وسوف أكلف هذا المشروع ما استطعت، وسيقوم "فويجت" بوضع التصميم، وسأكون ممتنًّا لك إن راجعتِ معي هذا التصميم، برغم أن فويجت يتمتع بذوقٍ رفيع".

ثم جاءته الموافقة الثانية من جيردا، التي امتدحت المشروع، وأثنت عليه، برغم ما سوف تعانيه من عبء الانتقال من دارٍ إلى أخرى، إلا أن طموحها إلى غرفةٍ واسعة تعزف فيها ألحانًا عذبة قد بث فيها شعورًا بالسعادة. أما القنصلة الكبيرة فأعربت على الفور عن رضاها عن بناء الدار الجديدة، تكليلاً لما منَّ به الرب عليها. فقد زاد فخرها كأم بعد مولد الوريث، وانتخاب القنصل بالمجلس؛ كما كانت مخاطبتها لابنها: "ابني السيناتور" يستفز سيدات بودنبروك بالشارع العريض إلى أقصى درجة. فلم يكن لدى الفتيات اللاتي يتقدم بهن العمر ما يشغلهن في الواقع عن تتبع

مدى ما وصلت إليه حياة توماس من مستوى رفيع؛ فلم يجدن في السخرية من كلوتيلده المسكينة، أثناء سهرات الخميس، ما يرضي غرورهن، بعد أن صرفت سيدات بودنبروك اهتمامهن عن كريستيان، الذي تقلد وظيفةً بوساطة رئيسه السابق ريتشاردسن، ثم أرسل مؤخرًا من هناك برقيةً يعبر فيها عن رغبةٍ عارمة في الاقتران بالسيدة بوفوجل، إلا أن القنصلة حذرته من ذلك تحذيرًا شديدًا. وهكذا لم يعد كريستيان المنافس لياكوب كروجر، بمثابة هدفٍ لسخرية سيدات بودنبروك، فاستعضن عن ذلك ببعض الهنات للقنصلة والسيدة بيرمانيدر، بأن يثرن الحديث مثلاً عن الشعر المستعار؛ فقد كانت القنصلة تردد بملامح وديعة أن ما تضعه على رأسها هو شعرها، بينما لم يكن هناك أحد منحه الرب نعمة العقل، وتحديدًا سيدات بودنبروك، بوسعه القول إن مفرق شعر السيدة العجوز الأشقر الأحمر الأزلي لا ينفي زعمها بأن هذا هو شعرها. كما كن يجدن تعويضًا أكبر بأن يدفعن ابنة عمهن أنطونيا إلى ذكر مَن كان لهم أسوأ الأثر على حياتها! مثل تريشكه-الدموع! جريونليش! بيرمانيدر! هاجنشتروم! هذه الاسماء التي كانت أنطونيا تلفظها كنفخات نفير قرفًا وهي ترفع كتفيها بعض الشيء، كان لها وقعٌ حسن في آذان بنات العم جوتهولد.

وكان بوسع هانو- وهو الاسم الذي تنادي به زوجة السيناتور ابنها- نطق أسماء أفراد أسرته على نحوٍ سليم، إلا أنه عجز عن نطق أسماء فريدريكه وهنرييته وفيفي على نحو معقول. وكانت مقدرته على المشي لغزًا محيرًا، فهو لم يستطع قطع خطوةٍ معقولة دون الاعتماد على غيرِه، برغم تجاوز عمره لأربعة أخماس العام، فأخذت سيدات بودنبروك يعربن بأسى عن عجز الطفل عن

الكلام طيلة حياته. إلا أن هذه النبوءة القاسية لم تتحقق، برغم حقيقة تأخر هانو في النمو، فقد كان قدره أن يصارع الشقاء في ريعان عمره بعد أن وُلِد يعانى الوهن وقلة الحركة، وقد أصابته حالة إسهالٍ بعد تعميده كادت تودي بحياته، إلا أنه نجا من ذلك. وقد لازمته هذه الحالة ثلاثة أيام قبل أن يتعافى منها، كما نصح الدكتور جرابو بالعناية بالطفل حتى يجتاز مرحلة التسنين الخطرة، مع الالتزام الشديد بنظامٍ غذائي ورعاية طبية. إلا أنه سرعان ما عاودته تقلصات التشنج مع أول بوادر التسنين، وداهمته هذه الحالة مراتٍ عديدة على نحوٍ رهيب لم يجد حياله الطبيب سوى أن يشد على يدي الوالدين لائذًا بالصمت. وقد ظل الطفل ملازمًا الفراش من الإعياء. أما عيناه المحاطتان بهالات عميقة، فكانت نظرتهما الجانبية الحائرة تشير إلى خلل بالمخ.

برغم ذلك استطاع هانو استعادة شيء من عافيته وبان في نظرات عينيه أنه بدأ يستوعب بعض الأشياء، ثم تجاوز مرحلة الخطر، برغم تأخره في الكلام والمشي بسبب معاناته التي تجاوزها. وبرغم أن هانو كان هزيل الجسم، إلا أن طول قامته كان سابقًا لسنه، أما شعره الكستنائي الناعم للغاية فبدأ في هذه الآونة في النمو المطرد، وسرعان ما تهدل على كتفي ثوبه الشبيه بالمئزر ذي الثنايا.

وراح يتمثل ملامح أسرته تمامًا، فبدت يداه منذ البداية كتلك التي لآل بودنبروك، عريضتين قصيرتين إلى حدٍّ ما، لكنهما تتمتعان بتناسقٍ جميل، وقد ورث عن أبيه وجده الأكبر الأنف نفسها، وإن بدت أكثر رقة. أما نصف وجهه الأسفل فصار بيضويًا. وهو ما ورثه عن عائلة والدته، وليس

عن أسرة بودنبروك أو كروجر. وأما فمه فقد استحال مبكرًا إلى الاقتضاب، على نحوٍ يمزج الاكتئاب بالخوف في آنٍ.. وهو ما بان في نظرة عينيه بلونهما الأسمر الغريب، وقد أحاطت بهما هالات زرقاء، إلا أن هذا أصبح يتسق مع ملامحه بمرور الأيام.

وهكذا بدأ حياته في رعاية أبيه المفعمة بالعطف، وحرص والدته على العناية بتربيته والاهتمام بملبسه، ترافقه دعوات عمته أنطوني، بينما كانت القنصلة والخال يوستوس يقدمان له دُمًى على هيئة فرسان ونشابات. وكان إذا دُفع بعربته الصغيرة الجميلة إلى الطريق، نظر المارة إليه باهتمام، متوقعين له مستقبلاً عريضًا. أما مربيته "ديشو"، التي يبدو على هيئتها الوقار، والتي كانت قد بدأت عملها كخادمة، فقد تم إعفاؤها لتحل محلها إيدا يونجمان، لتبحث القنصلة عن بديلة لها.

وكان أن أنجز السيناتور بناء داره الجديدة، بعد شرائه لقطعة الأرض في فيشرجروبه، ودون عناءٍ يذكر، ليشتري السيد شتفان كيستنماكر داره القديمة بالشارع العريض، التي كان الوسيط جوش قد تولى ساخطًا عملية بيعها. وكانت أسرة شتفان كيستنماكر قد ازداد عدد أفرادها، كما حقق هو وشقيقه أرباحًا كبيرة من تجارة النبيذ الأحمر. وكانت مهمة الإشراف على البناء قد أُوكِلت إلى السيد فويجت.

وفي يوم يوم خميسٍ، كانت الأسرة تضع أمامها التصميم النهائي، وتتطلع مسبقًا لواجهة الدار. كان التصميم يعبر عن مبنى فخم بأعمدةٍ من الحجر الرملي تُشيد فوقها عدة بواكي. أما قمة الدار فكانت مسطحةً، فقالت كلوتيلده وهي تتمطى في سعادة بأنه يمكن تناول قهوة العصر هناك. وقد تم تسوية

أمر غرف الطابق الأرضي بدار منجشتراسه بعد ما طلبت شركة المدينة للتأمين ضد الحرائق استئجار هذه الغرف، التي كان السيناتور قد قرر نقل ما بها من مكاتب إلى داره في فيشرجروبه.

وما إن حل الخريف، حتى كانت جدران منزل العانس القديم قد هُدِمت لتنهض مكانها دار توماس بودنبروك الجديدة. فلم يعد من حديثٍ لأهل المدينة أكثر إثارةً من حديثهم عن دار بودنبروك، بعد أن بلغت منتهاها لتصير أبهى دارٍ في سائر البلاد؛ فهل وُجِد في هامبورج على سبيل المثال ما يفوقها روعةً، على رغم ما تكلفته من نفقةٍ عظيمة. ولم يكن للقنصل الكبير ليحقق مثل هذا الإنجاز. وكان الجيران ومن بينهم أفرادٌ من الطبقة الوسطى يسكنون منازل ذات أسطح هرمية، ينظرون من النوافذ متطلعين للعمال فوق الصقالات، متابعين تقدم البناء بإعجاب، وهم يخمنون حفل الانتهاء من العمل.

وكان أن نُظِمَّ حفلٌ واتخذ زخرفه، فوقف مبيضٌ عجوز فوق سطح الدار ليلقي بخطبته، ثم يقذف بعدها بزجاجة شمبانيا من فوق كتفه، بينما كانت راياتٌ ترفرف حول إكليل العمارة الضخم الذي كان يتمايل محملاً بسيقان الزهور وأغصان خضراء وأوراقٍ مختلفة الألوان. ثم مُدَّ وليمةٌ للعمال بأحد المطاعم القريبة لتصطف فوق طاولات عديدة أقداحُ البيرة والخبز المحشو والسيجار؛ وأخذ السيناتور بودنبروك يحيي ضيوفه ويرد ما يناله من ترحيب، مصطحبًا معه قرينته وابنه الصغير فوق ذراع السيدة ديشو، ليُحمَل هانو بعدئذٍ إلى عربته خارج المطعم. ثم اجتاز توماس وزوجته الطريق ليقف أمام واجهة الدار الحمراء، متأملاً إياها بأعمدتها البيضاء، وعلى الجانب

المقابل كان ايفرسن صاحب محل الزهور وزوجته يقفان أمام باب المحل الضيق، ونافذة العرض البسيطة التي احتوت بعض زهريات نباتات بصلية اصطفت فوق رفٍ زجاجي أخضر اللون. كان ايفرسن ضخم البنيان ذو الشعر الأشقر يرتدي سترةً من صوفٍ، بينما كانت بنية زوجته أضعف من زوجها كثيرًا، وكانت بشرتها تميل إلى اللون الأسمر المميز لأهل الجنوب، وبدت عليها أمارات الحمل؛ وفيما كانت تمسك بطفلٍ في الرابعة أو الخامسة من عمره، كانت تهدهد بيدٍ أخرى مهدًا يضم وليدًا نائمًا. وقام ايفرسن بتأدية التحية وهو ينحني كثيرًا وبسرعة، أما زوجته فكانت ما تزال تهدهد المهد مطالعةً بهدوءٍ مشوب بالحرص بعينيها السوداوين قرينة السيناتور، وهي تقبل نحوها متأبطةً ذراع زوجها. وهناك توقف توماس ليشير بعصاه إلى إكليل العمارة قائلاً: "لقد أحسنتَ صنعًا، ايفرسن".

"إنه صنيع زوجتي، جناب السيناتور"؛ فرد السيناتور بإيجاز: "آه!" وهو يرفع رأسه عاليًا مسددًا نظرةً فاحصة رقيقة للحظةٍ ليودع المرأة بعدئذٍ، وهو يلوح لها بيده ممتنًا دون أن ينبس بكلمة.

الفصـل السَّـادس

كان السيناتور بودنبروك قد انتقل- منذ حوالي أربعة أسابيع- إلى داره الجديدة، حين قامت السيدة بيرمانيدر بزيارته ذات مساء يوم أحدٍ من أوائل شهر يوليو؛ فاجتازت باحة الدار المرصوفة بالأحجار البليلة ذات النقوش البارزة المستعارة من زخارف تورفالدسن، ثم عبرت بابها المؤدي إلى المكاتب، لتدق جرس باب مسقط الهواء الذي يُفتح من المطبخ من خلال مقبض مطاطي، لتدخل إلى البهو الرحب المزدان بالدب، هدية تيبورتيوس، ليخبرها الخادم أنطون هناك بأن السيناتور ما يزال منشغلاً بعمله، فردت هي: "حسنًا، سأمضي إليه، شكرًا، أنطون".

إلا أنها تجاوزت باب المكتب لتنحرف يمينًا، وتقف متأملةً مسقط النور الضخم الذي برزت بطابقه الأول شرفة من الفورفورجيه، بينما كان الطابق الثاني ممرًا رحيبًا، وقد تدلت من نهاية المسقط ثريا فخمة تبرق كالذهب، فانشرح صدر السيدة بيرمانيدر لتهمس: "يا لَلفخامة!" متأملةً تلك الأبهة المتألقة التي كانت تراها ببساطة تعبيرًا عن نفوذ آل بودنبروك، ورفعة

مكانتهم ونجاحهم. إلا أنها سرعان ما تذكرت أنها جاءت في أمر مكدر، فسارت على مهلها نحو المكتب، حيث جلس توماس وحيدًا بجوار النافذة، وهو يخط رسالةً ما. فلما رآها رفع أحد حاجبيه الشقراوين الرائقين، ليمد إليها يده مصافحًا.

"طاب مساؤك، طوني، ماذا تحملين من بشارات؟"

"آه، لا تتفاءل كثيرًا، توم، كلَّا، إن مسقط النور فخمٌ للغاية، فلِمَ تجلس هنا لتكتب في هذا الضوء الضعيف؟"

"إنها رسالةٌ عاجلة. لم تأتِ إذن بأخبار طيبة! وعلى كل حال فأنا أفضل اصطحابك إلى البستان لتحكي لى سر مجيئك، تعالي!"

فما إن غادرت المكتب إلى البهو حتى تناهى إلى سمعها لحنٌ على الكمان، صادر عن الطابق الأول، فقالت السيدة بيرمانيدر: "انصتا" ثم توقفت لحظةً لتردف بعدها: "ها هي جيردا تعزف. يا لروعة هذه المرأة، يا ربي، إنها حورية، لكن كيف حال هانو، توم؟"

"ستقدم له يونجمان العشاء حالاً، وللأسف، فهو لم يحقق التقدم المأمول في المشي".

"سوف ينجز ذلك، توم، سينجزه، هل تشعران بالرضا عن إيدا؟"

"أوه! كل الرضا.."

ثم عبرا الباحة الحجرية، واجتازا المطبخ عن اليمين ثم مرقا من بابٍ زجاجي، لتفضي بهما درجتان إلى بستان الزهور المنسقة الفواحة. وبادر السيناتور أخته بالسؤال: "حسنًا؟"

كان الجو لطيفًا هادئًا، أما المكان فكان معبقًا برائحة الزهور في أحواضها

ذات الأسوار الأنيقة، بينما كانت النافورة المزدانة بزهر السوسن تعكس أشعة مائها الهادر في صفحة السماء المعتمة، إلا أن نجومها قد بدأت في البزوغ. أما الدَرَج الصغير المكشوف، بمسلتيه الصغيرتين، فكان يؤدي إلى تلٍّ مرصوف بالزلط الصغير، حيث أقيم هناك كشكٌ مكشوف من الخشب، تلقي ستائره المسدلة بظلها فوق بضعة مقاعد بالبستان. وكان يفصل دار السيناتور عن بستان الجيران سورٌ من ناحية اليسار، وفي اليمين كان هناك حائط الدار المجاورة، وقد كُسي عن آخره بخشبٍ معشق. وتناثرت على جانبي الدرج وحول الكُشك شجيرات العنب، ولم يكن هناك سوى شجرةٍ كبيرة وحيدة، كانت شجرة جوز عجفاء على يسار السور.

وبينما كان الأخ مع أخته يتجهان نحو التل، كانت السيدة بيرمانيدر قد ترددت قبل أن تقول: "إن الأمر هو.. إنه.. أرسل تيبورتيوس.."

فقال توماس: " بشأن كلارا، أوصيك بالإيجاز والمباشرة".

"نعم، توم، إن حالتها سيئة، والطبيب يخشى أن تكون مصابةً بورمٍ، ورمٍ بالمخ، وأنا آسفةٌ لذكر هذا، انظر، هذه هي الرسالة التي كتبها زوجها إليّ، وهذه كلمةٌ مرفقة موجهةٌ إلى الوالدة بخصوص الأمر نفسه، وقد طلب تسليمها إياها بعد تمهيد الأمر لها. وهنا رسالةٌ ثالثة مرفقة، خطتها كلارا بخط يدها المرتعشة، وقد قال تيبورتيوس إنها لما كتبت ذلك أضافت أن هذه العبارة هي آخر ما سوف تخطه؛ فيا لَلأسى، إنها لا ترغب في البقاء بعد أن أضناها حنينٌ دائم إلى لقاء ربها".

أما السيناتور، فقد لاذ بالصمت وهو يسير بجوارها، عاقدًا يديه خلف ظهره، منكسًا رأسه.

"أتلزم الصمت، توم.. إنك محقٌّ في ذلك، فماذا بوسعنا فعله، وها هو كريستيان كذلك يعاني المرض في الوقت نفسه في هامبورج".

إنه أمر الرب، فقد شاء أن يبلغ "عذاب" كريستيان بجانبه الأيسر حدًا خطيرًا مؤخرًا بلندن، فاستحال ألمًا حقيقيًا أنساه كل آلامه الأخرى الأقل خطرًا. فكتب إلى أمه يخبرها بأنه لا مفر من رجوعه حتى تسهر الأم على رعايته، وترك عمله بلندن ورحل، إلا أنه ما إن وصل إلى هامبورج حتى رقد طريح الفراش. وقد كشف الطبيب عن إصابته بروماتيزم المفاصل، ونصح بنقله من الفندق إلى المستشفى، فلم يعد بوسعه السفر، فلازم الفراش هناك، وراح يملي على ممرضه تلك الرسالة المفعمة بالأسى.

فرد القنصل هامسًا: "أجل، يبدو أن المصائب لا تأتي فرادى".

فما كان منها إلا أن أحاطته بذراعها للحظة لتقول: "لا تيأس، توم، فليس بمقدورك أن تطيل أمد اليأس، بل إنك تحتاج إلى مزيدٍ من الشجاعة.."

"نعم، بربي، أنا بحاجةٍ إلى ذلك".

"لماذا؟ صارحني بسر صمتك عصر الخميس، أول من أمس، إن كان لي الاطلاع على هذا؟"

"آه، إنه العمل يا بنيتي، فأنا لم أربح الكثير من صفقة حنطة سوداء كبيرة إلى حدٍّ ما.. وموجز القول إنه تعينَّ عليّ بيعُ صفقةٍ ضخمة بأرخص سعر".

"أوه، توم، إنه أمرٌ متوقع دائمًا، فيومٌ لك ويومٌ عليك، فلا تأسَ لذلك".

فقال لها، وهو يهز رأسه: "لقد جانبك الصواب، طوني، فليس فشل الصفقة هو سبب حزني، بل بالعكس، فأنا أؤمن بمثل هذا وأتوقعه".

فسألته متوجسة: "فما الذي بدَّل أحوالك، وقد كنت أظن أنك سعيد، فكلارا على قيد الحياة، وسوف يصبح كل شيء على خير وجه بمشيئة الرب، ولعلي ألفت نظرك إلى أننا نطوف ببستانك وقد عبقته الزهور، وها هي دارك، حلمًا من تلك التي كانت تراودك، أما دار هاجنشتروم فتعتبر كوخًا إلى جانبها، وقد نجحت في سعيك هذا".

"حقًا، طوني، إنه شيءٌ فاق الخيال، وأضيف إلى ذلك أنها جديدة تمامًا، إلا أن هناك ما يكدر صفويّ في هذا الشأن، وهو ما أدى بي إلى هذه الحال البائسة التي تسود كل مجالات حياتي. ولعلني سعدت بكل ما أنجزت، لكن ذلك كان هو كل شيء؛ فالحظ يأتي فيما بعد لننعم به فيما بعد، حين يكون قد فات أوان السعادة الكاملة".

"فات أوان السعادة.. توم، رغم أنك ما تزال في ريعان الشباب!"

"الشباب يكمن في القلب. فحين يوافينا الحظ المأمول متأنيًا بعد فوات أوانه، فإنه يجيء محملاً بكل آثاره الجانبية التافهة المزعجة، محملاً بكل غبار الحقيقة التي لم تكن بالحسبان، والتي تستفزنا.. تستفزنا.."

"نعم، نعم، لكن المعيار هنا هو الإحساس، سواء كنت شابًا أو كهلاً، توم".

"حقًا، طوني، وقد نتعافى، وتزول الغمة يقينًا، إلا أنني أشعر أنني كبرت قبل الأوان؛ فأنا قلقٌ على تجارتي، كما عمل القنصل هاجنشتروم على معارضتي وإسكاتي أثناء انعقاد مجلس إدارة سكك حديد بوشن، وانبرى يعارضني حتى كاد يسخر الجميع مني؛ وأنا أعتقد أن مثل هذه الأمور لم تكن لتحدث في الماضي، وأشعر أنني صرت أعاني شيئًا ما، فلم أعد أحكِم

أموري كسابق عهدي.. فما معنى النجاح؟ إنه قوةٌ غامضة لا توصَف، إنه يقظةٌ واستعداد، إحساسٌ بأن وجودي في حد ذاته هو المتحكم في حركة الحياة حولي. إنه الإيمان بإقبال الحياة؛ فالسعادة والنجاح ينبعان من داخلنا، ولذا فلابد من التمسك بهما، ولا نفرط فيهما، ليظلا هناك في أعماقنا. فإن وهن ما في أعماقنا، تراجع، شحب، يكون قد أطلق سراح كل ما حولنا ليعترض طريقنا ثائرًا علينا، بعد أن تحرر من قيد تأثيرنا.. فتفتر همتنا وتتداعى علينا البلايا. وأنا أتذكر هنا مثلاً تُركيًّا يقول: "إذا ارتفع البنيان حان لقاء الدّيان". ولا يعنى ذلك أن الموت هو المصيبة، بل هو التراجع، التردي، بدايةُ النهاية". ثم شمل أخته بذراعه ليقول بنبرةٍ أكثر همسًا عن ذي قبل: "انظري، طوني، أتذكرين يوم عُمِّد هانو، فقد قلت لي آنذاك: "يبدو لي أن عهدًا جديدًا تمامًا يبزغ الآن، وما يزال هذا يدوي في أذنيبوضوحٍ تام. وقد كان قولك هذا كالنبوءة، فقد نجحتُ في انتخابات المجلس، وشيدت هذه الدار الجديدة، إلا أن لقب السيناتور والدار ليسا سوى من قبيل المظاهر، ثم إنني أدركت أمرًا لم يخطر ببالك، أمرًا علمني إياه التاريخ والحياة، فقد تعلمت أن الإشارات والمظاهر الخارجية الواضحة للسعادة والتقدم لا تتبدي لنا في الواقع إلا إيذانًا ببدء مرحلة التدهور".

ثم مضيا للحظةٍ صامتين، في سكونٍ يتخلله خرير ماء النافورة، وحفيف شواشي شجرة الجوز. وفجأةً أخذت أنفاس السيدة بيرمانيدر تتصاعد متلاحقةً، كأنها تولول، لتقول: "توم، إن نبرة صوتك تحمل حزنًا لم تجربه من قبل، وحسنًا فعلت حين أفصحت عما تضمره، وسوف تشعر بالارتياح والتحرر من كل ما ينغص عليك".

"حقًّا، طوني، يتعين عليَّ فعل ذلك قدر إمكاني. والآن هاتي الورقتين، رسالة كلارا ورسالة القس. فمن الأفضل أن أتحمل عنك هذا الواجب، لأُخبر والدتي به ضحى الغد. يا لها من أمٍّ رؤوم، لكن إذا كان ما أصاب كلارا هو الورم، فلابد لنا من التسليم بأمر الرب".

الفصل السَّابع

"أتكتمين الأمر عني، وتتجاوزين حقي؟"

"أنا لم أفعل سوى ما أملاه عليَّ ضميري"

"كان تصرفًا جاوزت به كل الحدود، حدود العقل والمنطق".

"العقل ليس أسمى ما في الوجود".

"أوه، لقد سئمتُ مثل هذه العبارات، فالمسألة ترتبط بأبسط قواعد العدل، وهو ما تجاوزتِه على نحوٍ مثير للغضب".

"أرى أنك يا بني بحديثك هذا لا تلتزم جادة الاحترام الواجب عليك نحو أمك".

"وأنا أقول لك إنني ما أزال محافظًا على احترامي لك، إلا أننا هنا لسنا بمثابة أمٍّ وولدها؛ نحن نناقش أمورًا تتعلق بالشركة والأسرة، وأنا- في هذا الإطار- المسؤول الأول، أحلُ محل والدي".

"فلتسكت الآن، توماس!"

"كلَّا، لن أصمت حتى تعرفي مدى خطأ رأيك وضعفك الذي تجاوز

مداه".

"ولي الحكم على ثروتي كيفما شئت".

"لكن العدل والعقل، هما بمثابة القيد على رغبتك".

"لم أتوقع قط أنك سوف تثير غضبي إلى هذا الحد".

"وأنا لم أظن أن يكون بوسعك توجيه هذه الصفعة لي، بمثل هذا الاستهتار بي". هنا ارتفع صوت السيدة بيرمانيدر بعد أن توجست خيفةً، فقالت: "توم، لكن.. توم!" وكانت قد جلست هناك بغرفة المنظر الطبيعي أمام النافذة، وهي تفرك يديها، أثناء ما كان أخوها يغدو ويروح بعد أن تتأجج حنقًا، وقد اعتصرها الألم، لتستريح على الأريكة معتمدةً بيدها على الوسائد، وقد أخذت تدق بيدها الأخرى على الطاولة دقًا شديدًا.

كان الحزن قد تملك ثلاثتهم لفراق كلارا الأبدي، فامتقعت وجوههم وثارت أعصابهم، فحدث منهم ما حدث؛ فكان أمرًا مزلزلاً رهيبًا. أمرٌ بدا لهم أنفسهم خطيرًا لا يمكن تصوره! فالأم وولدها راحا يتنازعان، يتشاجران. وقد حدث هذا ذات عصر يومٍ خانق من أيام شهر أغسطس، بعد عشرة أيامٍ من إطلاع السيناتور لوالدته على رسالتي سيفرت وكلارا تيبورتيوس، وكان قد أقدم على ذلك بحذرٍ شديد، إذ كانت مهمة إبلاغ السيدة العجوز بنبأ وفاة ابنتها أمرًا شاقًا للغاية. ثم ارتحل بعد ذلك إلى "ريجا"، ليشارك هناك في الجنازة ليعود مع صهره تيبورتيوس، الذي أقام عدة أيام بضيافة عائلة زوجته الراحلة. وها هو القس قد رجع ثانيةً إلى بلاده قبل يومين، فإذا بالقنصلة تخبر ابنها بالأمر بعد ترددٍ شديد، ليصيح: "مائة وسبعة وعشرون ألفًا وخمسمائة مارك!" ثم عقد يديه، وأخذ يلوح بهما "فليأخذ

هدية الزواج، كان يمكنه الاحتفاظ بثمانين ألفًا، وإن لم يكن قد أنجب ولدًا! لكن الميراث، أن يستولي على ميراث كلارا! وتكتمين ذلك عني وتتجاوزينني!"

"أستحلفك بالمسيح، توم، أن تعترف بأن ما فعلته كان من حقي! فهل كان بوسعي فعل شيء آخر؟ لقد مضت هي إلى ربها تاركةً كل شيء، وقد كتبت لي وهي بفراش الموت، بقلم رصاصٍ ويدٍ ترتجف: "أمي، لن ألقاكِ ثانيةً في هذه الدنيا، وأنا على يقين من شعوري بأن هذه هي آخر كلماتي، أكتبها بآخر ما أملك من وعيٍ، وهو ما يشهد عليه زوجي.. فالرب لم يرزقنا الولد، لذا فإن نصيبي من الميراث، لو كنت عشتُ بعدك، يذهب إليه؛ فليكن من نصيبه هو إن لحقتِ بي في الدار الآخرة، ودعيه يتمتع به طالما كان على قيد الحياة. والدتي، إن هذا لهو مطلبي الأخير، إنه رجاءُ ابنةٍ تعاني سكرات الموت، وحسبي أنكِ سوف تلبينه".

"كلَّا، توماس، لم يكن أمامي سوى تلبيته، وما كان بوسعي إلا فعل ذلك، وقد أرسلت إليك برقيةً بهذا الشأن. أما هي.. فقد انتقلت إلى ربها".

ثم انخرطت القنصلة في نوبة بكاءٍ مرير. إلا أن السيناتور قال: "لم تذكري لي حرفًا واحدًا، بل أخفيتِ عني كل شيء، وتجاوزتِ عني".

"حقًّا، توماس، لقد امتنعت عن ذلك لأني أحسست بواجب تلبية آخر طلب لابنتي المحتضرة، وكنت أدرك أنك ستحاول الحيلولة بيني وبين ذلك".

"أجل، بربي، هذا ما كنت سوف أفعله".

"فكيف يكون لك الحق في ذلك، برغم موافقة أبنائي الثلاثة لرأيي؟"

"يبدو لي أن رأيي يكافئ رأي امرأتين وأحمق مرهق".

"ها أنت تذكر أخوتك بجفاء، كما تقسو عليَّ بكلامك!"

"لقد كانت كلارا امرأةً ورعة، يا والدتي، إلا أنها كانت ساذجةً، أما أنطونيا فما تزال طفلةً، وإلا ما كانت لتتدخل، أليس كذلك؟ وأما كريستيان، نعم، فقد حصل تيبورتيوس على تأييد كريستيان. ألم تكتشفي بعد أمر هذا القس الماكر، هذا الرجل الفقير، الذي ينصب شباكه حول الميراث". فقالت السيدة بيرمانيدر، وهي تكاد لا تفصح: "إنهم لصوص، يسعون إلى زواج البنات".

"إنه قناص المواريث! فما ترينه فاعلاً؟ إنه يسافر إلى هامبورج ليجلس بجوار فراش كريستيان، ليقنعه، فيرد كريستيان: "نعم، تيبورتيوس، وفقك الرب، فهل تدري بما أعانيه من عذابٍ بجانبي الأيسر؟".. آه، لقد اتفق الحمق والخبث عليَّ".

أخذ السيناتور يضغط بقبضتيه على جبينه مغضبًا، وقد ارتاح إلى سياج المدفأة الفورفورجيه، إلا أن سخطه العظيم هذا كان مبالغًا فيه، فلم يكن مبلغ 127.000 مارك هو ما أدى به إلى هذه الحالة التي لم يعهدها قط، بل كان السبب الذي أجج مشاعره إلى هذا الحد يعود بالأحرى إلى مجموعةٍ من هزائم ونكسات متتالية حاقت بعمله الخاص والعام، خلال الشهور الأخيرة. فقد خرج كل شيء عن طوعه، وأفلت منه زمام الأمور، وها هم أهله يتجاهلون رأيه في أهم مسائل حياتهم، وها هو قسٌّ من ريجا يتآمر عليه، وكان بوسعه أن يحول دون وقوع ما وقع، لكن أحدًا لم يستشره؛ إلا أنه تصور أن هذا لم يكن ليحدث، ولم يكن أحدٌ ليجسر على القيام به في الماضي! فرأى في ذلك هزةً جديدة لإيمانه بحظه ونفوذه ومستقبل حياته.. ولم

يكن ما استبد به من غضبٍ نحو أمه وأخته سوى نتاج يأسٍ وضعفٍ خفي.

ونهضت السيدة بيرمانيدر لتحتضنه وتقول: "توم، فلتهدأ ولتتماسك، فالأمر ليس على هذا القدر من السوء، إنك تعرض نفسك لمخاطر المرض. فتيبورتيوس لن يعيش طويلاً، وسوف نسترد ميراثنا بعد موته! فمن المحال أن يدوم الأمر على حاله هذه! أليس كذلك يا أمي؟"

إلا أن القنصلة لم ترد مواصلةً عويلها، وأما السيناتور فقد استعاد تماسكه، ثم أشاح بيده بحركةٍ بسيطة تعني اعتراضه وقال: "كلاًّ.. كلاًّ، فهل خطر ببالكما أني سوف ألجأ إلى القضاء لأشكو والدتي فأضيف علنًا فضيحةً أخرى إلى فضيحةٍ نتكتمها".

وفي النهاية، قال: "ما حدث قد حدث.." ثم مضى إلى الباب الزجاجي مستسلمًا، ليقف هناك ويقول بنبرةٍ هامسة: "لكن عليكما أن تعلما أننا لسنا في أفضل حالٍ، فقد فقدت أنطونيا 80.000 مارك، كما بدد كريستيان حوالي 30.000 سلفًا، غير صداق زواجه البالغ 50.000، وسوف تزداد نفقاته طالما ظل بلا عمل، وبحاجةٍ إلى العلاج بمصحة أمينهاوزن. كما أننا لم نفقد هدية زواج كلارا وحدها للأبد، بل لقد خرج ميراثُها كله من يد الأسرة لفترةٍ لا يعلم سوى الرب مدتها. وها هي أعمالنا تزداد تدهورًا على نحوٍ يبعث على الإحباط. وقد جرى ذلك منذ أنفقت على بناء داري 100.000 مارك. كلاًّ، فأحوال الأسرة ليست على ما يرام وتبعث على اليأس، ولتصدقاني: لو أن الوالد كان على قيد الحياة، ورأى ما نحن عليه: لكان قد عقد يديه طالبًا لنا الرحمة من الرب".

الفصـل الثَّـامن

إنها الحرب، وصيحات الحرب وعمليات الإيواء والانشغال بهذه الأمور: ها هم الضباط البروسيون يدهسون بأحذيتهم باركيه غرف الطابق الأول بدار السيناتور بودنبروك الجديدة. وهما هم يقبلون يد ربة الدار، وأصبح كريستيان يصطحبهم إلى النادي، وها هي الآنسة سيفرين ريكشن، خادمة القنصلة الكبيرة بمنجشتراسه تقوم بنقل كمياتٍ كبيرة من المتاع والفطائر إلى الكشك القديم الخاص بالجنود. هكذا ضج المكان بزحامٍ وقلق وإزعاج، فإذا مضى الجنود إلى بوابة بورجتور عاد غيرهم يغشون المدينة، فيأكلون ويستلقون ويصدعون رؤوس أهل المدينة بدقات الطبل وأصوات النفير، وصيحات الأوامر، ليعاودوا الرحيل. وتحية للأمراء الملكيين، ثم مارش تلو مارش، ثم سكون وترقب. ثم يرجع الجنود في آخر أيام الخريف وبدء فصل الشتاء، ظافرين، فيُجهَّز لهم المأوى من جديد، ثم يغادرون كلٌّ إلى بلده مشيعين بصيحات الأهالي الذين يتنفسون الصعداء. إذن هو السلام، لكنه سلامٌ قصير، سلام سنة 1865 الحبلى بالأحداث. وبين الحربين، كان يوهان

الصغير بثوبه الشبيه بالمئزر وشعره الناعم بخصلاته المتهدلة يمارس ألعابه هانئ البال معافًى بالبستان، أو بالشرفة الخاصة به التي يفصلها عن بهو الطابق الثاني مطصبةٌ صغيرة ذات أعمدة. كانت ألعابه تناسب طفلاً في الرابعة والنصف من عمره، ألعابٌ لا يدرك الكبار لها معنى ولا يشعرون حيالها بمتعة. أما هو، فلم يكن بحاجةٍ إلا لثلاث قطع من الحصى، أو قطعةٍ من خشب قد يضع فوقها زهرة الهذباء كخوذة؛ على أن أهم ما كان يستمتع به هو ذلك الخيال المحض المتحمس، وهو نقيٌّ لا تشوبه شائبة ولم يمسسه سوء، خيال تلك الفترة السعيدة التي كانت تستحي فيها الحياة أن تمسنا. إنها فترةٌ تتيح الحياة أثناء فرصة المشاهدة والسمع والضحك والدهشة والحلم دون إلزامٍ بدفع المقابل.. فترةٌ من العمر لا نحمل فيها همَّ من نُحب. آه.. ثم سرعان ما تتداعى علينا الأشياء كافةً؛ ففيما كان هانو يلهو، كانت أحداثٌ جسام تجري، فاستعرت أوار الحرب لتدور رحاها سجالاً حتى ينتهي الأمر بالنصر. وها هي مدينة أسلاف آل بودنبروك تنظر إلى نفسها راضيةً مطمئنة، وهي ترى مدينة فرانكفورت الثرية وقد دفعت حريتها ثمنًا لتحالفها مع النمسا. إلا أن شركة يوهان بودنبروك قد تكبدت خسارة 20.000 ريال دفعةً واحدة، بعد إفلاس أحد متاجر فرانكفورت الكبيرة في شهر يوليو قبل عقد الهدنة.

الجـــزء الثَّــامن

الفصـل الأوَّل

عندما كان السيد هوجو فاينشينك، المدير بالشركة العامة للتأمين ضد الحريق، يعبر الباحة الكبيرة مرتديًا سترته المحكمة، وقد غاص شاربه القصير الأسود في شدقيه لتبدو عليه سمات الرجولة والجدية، وقد تهدلت شفته السفلى إلى حدٍّ ما، وأخذ في سيره مختالاً، متجاوزًا المكاتب الأمامية، متجهًا صوت المكاتب الخلفية، وقد أخذ يطوح بيديه وذراعيه ليوحي مظهره بصورةٍ صادقة عن أحد العاملين الذي يتمتع بمنصبٍ رفيع ويثير الإعجاب. وعلى جانبٍ آخر، كانت أريكا جريونليش، التي صارت في العشرين من عمرها، تتمتع بقوامٍ فائر، وطول فارع، وجسدٍ بض، وكانت في كامل عافيتها وقوتها.

قد تكون المصادفة هي التي قادتها إلى الشرفة العلوية أثناء ما كان السيد فاينشينك يعبر الطريق، وهو ما يحدث كثيرًا بفعل المصادفة. فما كان من المدير إلا أن قام برفع قبعته العالية عن شعر رأسه الأسود القصير الذي وخط الشيب سوالفه، ثم مال ليحيي الفتاة مسددًا إليها نظرة إعجاب جريئة بعينيه السمراوين، فما كان من أريكا إلا أن أزمعت الفرار لتجلس إلى

جوار النافذة لتبكي مضطربة البال، مشتتة الذهن طوال الساعة. كانت الآنسة أريكا جريونليش قد نشأت وشبت عن الطوق في كنف تيريزة فايشبروت، فلم تخرج أفكارها عن هذا الطور، فأبكتها قبعةُ السيد فاينشينك العالية، ورفع حاجبيه وخفضهما لدى رؤيته إياها، وكذلك هيئته الملوكية وتوازن قبضتيه.

إلا أن أمها، السيدة بيرمانيدر كانت تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، وهي التي انشغلت بمستقبل ابنتها منذ سنوات. إذ كانت فتياتٌ أخريات من جيل أريكا قد سبقنها إلى الزواج، وكانت السيدة بيرمانيدر لا تقاطع المجتمع فحسب، بل كانت تناصبه العداء. وكان ذلك نتاج فكرة رسخت في ذهنها أن المجتمع الراقي يعتبرها أدنى مرتبةً بسبب طلاقها مرتين. وكان ما تراه احتقارًا وكراهية لم يكن أكثر من عدم مبالاة.

فكان إذا التقاها، على سبيل المثال، القنصل هرمان هاجنشتروم، الرجل الذكي المخلص المتحرر الذي جعلته ثروته راضيًا مرحًا، فألقى إليها تحيةً، إذا لم تكن قد تجاهلته هي بعد أن مالت برأسها للخلف، وأشاحت عن وجهه الذي يشبه فطيرة كبد الأوز، هذا الوجه الذي كانت تكرهه كراهية وباء الطاعون، على حد قولها، وكذلك كانت أريكا تتجنب تمامًا معارف خالها السيناتور، فلم تذهب قط إلى المراقص، ولم تغتنم أية فرصةٍ للتعرف إلى الجنس الآخر. وبرغم ذلك فقد كانت أحر أماني السيدة بيرمانيدر، خاصةً بعد إفلاسها– على حد قولها– أن تحقق ابنتها أحلامًا فشلت هي في تحقيقها، وأن تزوجها زيجةً مفيدة هانئة تليق بمكانة العائلة، وتمحو من الذاكرة ما لاقت الأم. كما كانت أنطونيا تسعى إلى إثبات أن فرصة أسرتها في السعادة ما

تزال متوافرة، وأن هذه الأسرة لم تشرف على نهايتها بعد، خاصةً أخوها الذي كان قد فقد الأمل في استعادة الهناء في الفترة الأخيرة.. كما أن هدية زواجها البالغة 17.000 مارك، التي أعادها السيد بيرمانيدر الكريم، أصبحت من نصيب أريكا؛ فما إن لحظت السيدة بيرمانيدر بنظرها الثاقب، من خلال تجربتها، بوادر علاقة رقيقة بين ابنتها وبين المدير حتى راحت تبتهل إلى الرب بالصلاة والدعاء أن يعاود السيد فاينشينك الزيارة. وها هو يفعلها لما دخل الطابق الأول لتستقبله السيدات الثلاث، الجدة والأم والحفيدة، فتحدث معهن لعشر دقائق، على أن يعود ثانيةً في العصر للقاء ودي لتناول القهوة. وقد حدث ذلك أيضًا ليتم التعارف، فالمدير ينتسب إلى منطقة سليزيا، التي يعيش بها والده العجوز. وأظهر الحديث كذلك أن أسرة المدير ليست في عداد العائلات الراقية، وأن هوجو فاينشينك أقرب إلى كونه عصاميًّا، إلا أنه لم يكن يملك وعي العصامي الحقيقي، بل شاب ذلك شيءٌ من عدم اليقين والمبالغة والريبة؛ كما كانت سترته من طراز ما يرتديه صغار الطبقة الوسطى وتعاني من مناطق معيبة. وقد بدت أساورها بأزرارها الضخمة قديمةً متسخة إلى حدٍّ ما. أما ظفر إصبعه الأوسط من يده اليسرى فكان أسود كالفحم بعد أن ضمر إثر حادث ما، وهو منظرٌ لا يبعث على كثيرٍ من الارتياح. رغم ذلك، كان هوجو فاينشينك رجلاً يتسم بالنشاط والسعي والاحترام، كما أن له دخلاً سنويًا يبلغ 12.000 ريـال، بالإضافة إلى أن أريكا جريونليش تعتبره رجلاً وسيمًا. وقد طرحت السيدة بيرمانيدر الأمر أمام القنصلة والسيناتور، موضحةً تقديرها للموقف، وأفصحت عن صريح رأيها في اتفاق مصلحة الطرفين. فالمدير فاينشينك كان مثل أريكا بلا

ارتباطات اجتماعية، وكان كلٌّ منهما يكمل الآخر كأنهما خُلِقا لبعضهما البعض. فإذا كان المدير، الذي ناهز الأربعين من عمره، وبدأ الشيب يغزو شعره، يسعى إلى زواج مناسب يضيف إلى وضعه وظروفه، فإن ارتباطه بإريكا جريونليش سليلة واحدةٍ من كبريات عائلات المدينة هو ما يمهد له هذا السبيل، وهو من شأنه أن يدفعه للترقي في سلك وظيفته، ويدعم مركزه. أما السيدة بيرمانيدر فقد رأت بارتباط أريكا بالمدير عوضًا لها عما حدث في حياتها، وتصحيحًا لمسارها؛ وليس هناك ثمة شبه يجمع بين السيد بيرمانيدر وهوجو فاينشينك، كما أنه يختلف عن بندكس جريونليش؛ فللرجل وظيفةٌ ثابتة براتبٍ محدد، ولديه الفرصة للترقي.

هكذا اتفقت نوايا الطرفين الطيبة فأخذت زياراته لهم تتلاحق. وفي يناير من عام 1864 تقدم فاينشينك لطلب يد اريكا جريونليش، بما يليق بشيم الرجال من وضوحٍ ومباشرة. وهكذا أصبح واحدًا من أفراد العائلة، يحضر لقاء "يوم الأنجال"، ويرحب أقارب عروسه بلقائه. إلا أنه سرعان ما أحس بحرج وضعه بينهم، مما دفعه إلى مسلك ازداد جرأة مع الأيام، إلا أن ذلك قوبل بالتسامح من جانب القنصلة، والخال يوستوس والسيناتور بودنبروك، بل وسيدات بودنبروك بالشارع العريض، فغضوا الطرف عن مسلك الموظف النشيط المجتهد، الجاهل بآداب وتقاليد المجتمعات الراقية. فكانوا يُضطرون إلى إظهار هذا التسامح، فيقوم أحدهم بكسر جدار الصمت بكلمةٍ ما تلفت الانتباه، ليخفف من وطأة السكون الذي غشى قاعة الطعام، إذا ما انشغل المدير بوجنتي اريكا وذراعيها مداعبًا إياها صراحةً. أو حين يسأل عن "مربى البرتقال"، وعما إذا كانت صُنعت من

الدقيق، ممعنًا في التأكيد على السؤال، أو عندما يصرح بأن روميو وجولييت هي قصة من تأليف شيللر؛ وهي أمورٌ كان يذكرها بحماسٍ وإصرار وهو يفرك يديه مريحًا ظهره إلى مسند المقعد. وكان السيناتور هو أفضل من يجيد التعامل معه، فكان بارعًا في إدارة دفة الحديث معه عن السياسة والعمل، دون أن يورطه فيما قد يُؤخذ عليه. أما علاقته بجيردا بودنبروك فقد وصلت إلى منعطفٍ مسدود، فقد أصابته شخصية هذه السيدة بالحيرة، إلى حد أنه لم يكن بوسعه إدارة حديث معها لعدة دقائق.

فلما عرف أنها تعزف على الكمان، أبدى تأثرًا شديدًا نحو ذلك. فكان إذا التقاها يوم الخميس سألها عن حال الكمان، إلا أن قرينة السيناتور تجاهلت الإجابة عن هذا السؤال بعد المرة الثالثة. وأما كريستيان، فقد اعتاد مراقبة عضو الأسرة الجديد وهو يجعد أنفه، ليقوم في يوم تالٍ بتقليد كل حركاته وسكناته. وكان الابن الثاني للقنصل الراحل يوهان بودنبروك قد تعافى في أمينهاوزن من روماتيزم المفاصل إلا أنه ظل يعانى من تصلب ما في أعضائه، ومن ذلك العذاب المقيم بجانبه الأيسر. فقد كانت أعصاب هذا الجانب "أقصر مما ينبغي"، وكذلك من منغصات أخرى قد تهاجمه، مثل متاعب التنفس والبلع والقلب، وخوفه من الإصابة بالشلل، وهو ما لم يستطع التعافي منه بعد.

أما هيئته فلم تكن تدل على أنه قد أشرف على نهاية العقد الرابع من عمره، وقد صارت رأسه صلعاء تمامًا، اللّهُمَّ إلا من بقايا شعره الخفيف الأحمر بمؤخرة رأسه وفوق فوديه. وأما عيناه الصغيرتان المستديرتان اللتان كان يطوف بهما بأرجاء المكان، فقد أصبحتا أكثر غورًا عن ذي قبل. وأما

أنفه الضخمة المعقوفة فقد أصبح حجمها وعظامها أكبر، ونتأت بين وجنتيه المتهدلتين الصهباوين أعلى شاربه الكث الأشقر الأحمر المتدلى على فمه؛ وأما سرواله فكان من نسيج إنجليزي جيد أنيق، وقد تهدل حول ساقيه المعروقتين المنبعجتين.

وقد أقام كريستيان بعد عودته بالغرفة نفسها بممر الطابق الأول ببيت أمه، إلا أنه كان يتواجد بالنادي أكثر من إقامته في منجشتراسه، فهو لم يكن يشعر بحياته هناك براحةٍ أو سكينة؛ فأما ريكشن سيفرين، التي حلت محل إيدا يونجمان كمديرةٍ للبيت ورئيسة للخدم، وهي امرأةٌ ريفية صغيرة القامة في السابعة والعشرين من عمرها، ذات وجنتين ممتلئتين، فكانت قد أدركت من خلال حسها الريفي وخبرتها بإدارة شؤون البيت بأنها ليست مكلفة بخدمته؛ وهو مَن كان السيناتور، هذا الرجل الجليل، يتجاوز عنه رافعًا حاجبيه، لذلك تجاهلت ببساطة القيام بخدمته، فكانت ترد على طلبه قائلةً: "نعم، سيد بودنبروك، لكني لديَّ ما يشغلني"، فينظر هو إليها بأنفه المقطب ولسان حاله يقول: "ألا تستحين؟" ثم يمضي بمفاصل ساقيه المتصلبة. وكان دائمًا ما يشكو حاله لطوني، فيقول: "أنا لم أعد أملك بعض الشمع، فأنا غالبًا ما أجد طريقي إلى الفراش على ضوء أعواد الثقاب".

وكذلك كان يرى أيضًا حال مصروف يده الذي انخفض كثيرًا، برغم ما بذله من جهدٍ لدى والدته، فأخذ يقول: "إنه زمنٌ صعب حقًا؛ فقد كان الحال سابقًا أفضل من الآن، فما رأيك أنني غالبًا في هذه الأيام ما أستدين بخمسة شلنات من أجل شراء معجون أسنان"، فتصيح السيدة بيرمانيدر: "كريستيان، هذا شيء وضيع، أعواد ثقاب، خمسة شلنات، حسبك ألا تردد

هذا على الأقل". فقد كانت مثل هذه الأمور تثير حفيظتها وضيقها، وتجعلها تحس بإهانة مشاعر حافظت على قدسيتها. وبرغم أن ذلك لم يكن ليؤثر في هذه الأحوال، فمن أجل شراء معجون أسنان ظل كريستيان يقترض خمسة شلنات من صديقه القديم اندرياس جيسكه، دكتور القانون، وكان سعيدًا بصداقته ويفخر بها. فالمحامي جيسكه، الذي يعرف- برغم مجونه- كيف يحافظ على مظهره الوقور، كان قد انتُخب في الشتاء الماضي "سيناتور"، بعد وفاة كاسبار أوفرديك وصعود الدكتور لانجهالس مكانه. إلا أن هذا المنصب لم يغير من مسلكه، فظل على حاله التي عرفها الناس عنه، متزوجًا من السيدة هونيوس، ويعيش في بيتٍ رحيب، كما كان يمتلك بضاحية سانتا جرتراود فيلا صغيرة غُطي سطحها بالنبات، وتتوفر فيها كل سبل الراحة. وكانت الفيلا فيما سبق ملكًا لشابةٍ فاتنة مجهولة النسب، كتبت اسمها على باب الفيلا بحروف منمقة مذهبة براقة "كفيسيانا". واشتهرت هذه الفيلا الهادئة بين أهل المدينة الذين كانوا ينطقون اسمها بسين مرققة للغاية وألف مفخمة جدًا؛ وهناك صادف كريستيان نجاحًا من خلال الوسيلة نفسها التي نجح بها في هامبورج لدى "الينا بوفوجل"، وهو ما لاقاه أيضًا في مجتمعاتٍ مشابهة في لندن وفالباريزو وأماكن أخرى كثيرة في أرجاء العالم. فقد كان حكاءً طريفًا إلى حدٍّ ما. وهكذا واظب على ارتياد البيت الصغير الأخضر، مثله في ذلك مثل السيناتور جيسكه نفسه، بعلم هذا الأخير أو بغير علمه، وهو ما لا يمكن التكهن به. إلا أنه كان على يقين من أن كريستيان كان يتمتع في فيلا كفيسيانا، دون تكلفة ما، بالاستقبال نفسه الذي كان السيناتور جيسكه ينفق عليه أموالاً من ثروة زوجته الضخمة.

وبعد خطوبة هوجو فاينشينك لإريكا جريونليش بقليل، اقترح المدير على صهره العمل بشركة التأمين، وقد واظب كريستيان على عمله بصندوق التأمين ضد الحرائق لمدة أسبوعين، إلا أنه استقال بسبب ازدياد العذاب الذي يعانيه في جانبه الأيسر، وكذلك لمتاعبه الصحية الأخرى التي لا يعرف أسبابها؛ كما كان فاينشينك مديرًا صارمًا لا يتردد في مخاطبة صهره بـ"كلب البحر"، إن ارتكب خطأً ما. أما السيدة بيرمايندر، فكانت تشعر بالرضا بعد أن أطمـأنت إلى أن الحياة ما تزال بخير، كما استعادت تألقها خلال تلك الأسابيع التي أحيت اهتماماتها ومشاريعها المتنوعة، ومتطلبات المنزل وحمّى تجهيزه، وهو ما استدعى ذكرياتها عن خطوبتها الأولى، لتبدو أصغر سنًّا، مفعمةً بالأمل، ولتستعيد كثيرًا من تعاليها اللطيف الذي كانت تتمتع به في صباها، مستردةً كل ملامحها ونشاطها.

ولما كانت اريكا لا تستطيع فراق أمها، فقد تم الاتفاق مع المدير، بل ورغبته هو كذلك، على إقامة السيدة أنطونيا– في البداية على الأقل– لدى فاينشينك، لكي تقوم بمعاونة اريكا غير العليمة بتدبير شؤون المنزل، مما أحيا فيها شعورًا طيبًا جعلها تنسى اسمي بندكس جريونليش والويس بيرمانيدر، وتنسى تجربتها معهما بكل ما احتملته فيها من فشل وإحباط وآلام. وهكذا أحست أن القدر منحها فرصةً جديدة لبدء حياةٍ يحدوها الأمل من جديد. فكانت تحض اريكا على الشكر للرب الذي وهبها زوجًا تغمره بحبها، بينما كان عليها، هي الأم، أن تنسى مشاعرها الشخصية لتتفرغ لأداء واجبها الذي أملاه عليها عقلها. وقد قامت بتدوين اسم اريكا بجوار اسم المدير في سجل مذكرات العائلة بيدٍ ارتجفت فرحًا، إلا

أنها، أنطونيا بودنبروك، نفسها، كانت العروس الحقيقية؛ فهي التي انتقت الستائر والسجاد بعين الخبيرة، كما كانت هي التي جابت محلات الأثاث لشراء الجهاز، وهي التي قامت باستئجار بيتٍ فخم! وكانت هي أيضًا من اضطرت ثانية إلى هجر بيت والديها الواسع العامر بالإيمان، بعد أن واتتها الفرصة لترفع رأسها وتبدأ حياةً جديدة، ترد لها اعتبار عائلتها في عيون أهل المدينة، بعد أن عانت كثيرًا من وضع المرأة المطلقة حقًّا.. أكان هذا حلمًا؟ فها هو رداء النوم يعود ليطفو على السطح، قطعتين لها ولا ريكا من نسيجٍ ناعم مطرز بطرف عريض، وإطارات مكثفة من القطيفة من فتحة الصدر حتى طرف المعطف. إلا أن أسابيع مرت، وشارفت فترة الإعداد للزواج على نهايتها، وقام أثناءها العروسان بأداء واجب زيارة بعض العائلات. ولما كان العريس مديرًا ملتزمًا بعمله الجاد، ولم تكن لديه ميولٌ اجتماعية، فقد قرر قضاء وقت فراغه بين أفراد الأسرة. وقد أقيمت لهما بالقاعة الكبرى بدار "فيشرجروبه" وليمة الخطوبة، التي حضرها توماس وجيردا، والعروسان، وفردريكه وهنرييته وفيفي بودنبروك؛ كما دُعي إليها أصدقاء السيناتور المقربون. وأثناء ذلك لفت نظر الجميع أن المدير لم يتوقف للحظة عن مداعبة جيد أريكا العاري.

ثم اقترب موعد الزفاف. فتم إعداد بهو الأعمدة ليكون "مسرح الزفاف" كما حدث في الماضي، عندما حملت السيدة جريونليش إكليل الأسرة. أما السيدة شتوت، القاطنة بشارع "جلوكنجيسر" صديقة العائلات الراقية، فكانت هي المرأة نفسها التي عاونت العروس في إعداد ثنايا ثوبها الساتان الأبيض وتزيينه بالحلية الخضراء. وكان السيناتور بودنبروك هو أول من

اصطحب العروس ليعقبه الدكتور جيسكه، صديق كريستيان، ولعبت زميلتان من المدرسة الداخلية دور وصيفتي العروس. أما المدير فاينشينك، فقد بدت عليه أمارات العظمة وسمات الرجولة، إلا أنه تعثر في وشاح اريكا وهما في طريقهما إلى المذبح المقلَّد. و بعد أن عقد القس برينجزهايم يديه أسفل ذقنه، أدى طقوس العرس– على طريقته- بكل حفاوة مشرقة، وجرى كل شيء بما يوافق التقاليد والجلال.

فلما تبادل العروسان الخاتمين، وجلجلت كلمة "نعم" واضحةً عميقة، وإن شابها بعض الحشرجة، لتضع نهاية لسكونٍ خيم على المكان، إذا بآلام وآمال الماضى والحاضر والمستقبل تدفع السيدة بيرمانيدر إلى بكاء طفولي بريء، فيما كانت سيدات بودنبروك يبدين، كعادتهن في مثل هذه المناسبات، ابتسامةً يشوبها شيء من المرارة، ومن بينهن فيفي التي علقت نظارتها بسلسلةٍ ذهبية من أجل هذا الحفل.. أما الآنسة فايشبروت، تريزه فايشبروت، التي تضاءل حجمها خلال السنين الأخيرة، فقد علقت بجيدها الدقيق "بروش" بيضوي يحمل صورة أمها، وقالت للعروس: "فلتنعمي بالسعادة، يا بنيتي الطيبة!" قالت ذلك بإيمان طاغ يكشف عن تأثر داخلي عميق.

وبعد ذلك، مُدت وليمةٌ عامرة ضخمة، محاطة بهذه الملائكة البيضاء المزدان بها كساء الحائط أزرق اللون، والتي كانت على حالها لم يلحق بها أي تغيير. وما إن شارفت الوليمة على النهاية، حتى غادر العروسان ليسافرا– فيما بعد– في رحلة تشمل بعض المدن. وكان ذلك في منتصف شهر أبريل.

وبعد أسبوعين من سفر العروسين، كانت السيدة بيرمانيدر قد استعانت بمصمم الديكور "ياكوب" في إنجاز إحدى مهماتها المدهشة، أي تأثيث

فاخر للطابق الأول المؤجر بأحد المنازل في "بيكرجروبه" الوسطى، لتكون الغرفه مزدانة بالزهور الكثيرة في استقبال العروسين لدى عودتهما. هكذا جاءت بداية زواج أنطونيا بودنبروك الثالث، وهي تعبيرٌ حقيقي صائب بادر به السيناتور معلقًا على هذه الزيجة في إحدى سهرات الخميس. وهو ما رحبت به السيدة بيرمانيدر. وبرغم أنها كانت تقوم بتدبير شؤون المنزل كافة إلا أنها كانت تفعل هذا عن طيب خاطرٍ متباهيةً بذلك. وذات يوم بالطريق، إذ التقت فجأةً القنصلة يوليا مولندروف، سليلة آل هاجنشتروم، ما كان منها إلا أن نظرت إليها باستعلاء وتحدٍّ، مما أكرهها على مبادرتها بالتحية.. كما كان وجهها ينطق بالسعادة والزهو حينما تستعرض- أمام زائريها من الأقارب- غرف المنزل الجديد. أما أريكا فاينشنك نفسها، فكانت ترافق الضيوف لتعرب مثلهم عن إعجابها.

كانت السيدة أنطونيا تستعرض أمام ضيوفها الأثاث والستائر والخزف الشفاف والأواني الفضية واللوحات الضخمة المرسومة بألوان الزيت التي اشتراها المدير، وكانت كل موضوعاتها تعبر عن حياةٍ قائمة على الطعام والنساء العاريات؛ فقد كان هذا هو ذوق خاص بهوجو فاينشينك، وكانت إيماءات السيدة أنطونيا توحي بعودة التوفيق إلى حياتها مرةً أخرى. فهذه الفخامة تقترب من فخامة بيت جريونليش، وتفوق يقينًا ما كان عليه بيت بيرمانيدر. ثم كان أن ظهرت القنصلة الكبيرة بثوبٍ من الحرير الرمادي بخطوط سوداء، وقد فاح منها رائحة عطر "باتشولي" اللطيف، فراحت تطالع كل شيء بعينيها الصافيتين، معربةً عن رضاها وامتنانها . كما حضر أيضًا السيناتور برفقة قرينته وابنه، وأخذ يتحدث مع جيزدا عن كبرياء أنطونيا

الذي يشعرها بالرضا، ورفض بشدة أن يتناول هانو الصغير صاحب الحظوة خبز الكورينث ونبيذ البرتو حتى لا يصاب بالتخمة.

وكذلك أتت سيدات بودنبروك، فأجمعن رأيهن على أن كل شيء فائق الجمال، إلى حد أنهن لا يسعين للإقامة به– برغم تواضعهن.

كما جاءت كلوتيلده المسكينة، الهزيلة الشعثاء المثابرة، فلم تأبه لسخريتهن منها، وهي تعب أربعة أقداح من القهوة، وتقرظ كل شيء آخر بكلمات مجاملة ممطوطة.

أما كريستيان فلم يكن يأتي إلا بعد أن ينفض الجمع بالنادي لتناول قدح من شراب البنديكتين، ثم يعلن أنه بصدد العمل كوكيل لشركة الشمبانيا والكونياك، وأنه- على حد قوله– ذو باعٍ طويل في هذا المجال الذي يتيح له استقلاله بذاته، فهو لا يحتاج سوى أن يسجل شيئًا من حينٍ لآخر في مفكرته، ليربح بعدها ثلاثين ريالاً على أقل تقدير. وبعد ذلك يقترض من السيدة بيرمانيدر أربعين شلنًا ليشترى بهما باقة وردٍ يهديها إلى بطلة مسرح المدينة.. ثم يبدأ فجأةً وبلا داع معلن في الحديث عن "ماريا" و"الرذيلة" في لندن، ثم يتناول في سردٍ مسهب تفاصيل قصة نقل الكلب الأجرب داخل صندوق من فالباريزو إلى سان فرانسيسكو.

وكان يتحدث بطلاقة كلاًّ من اللغة الإنجليزية والألمانية العامية ولهجة أهل هامبورج، ويروي معارك الطعن بالمدَى في شيلي، ويحكي جرائم اللصوص في وايت تشابل، ثم يستعرض بعض ما حفظه من المنظومات المثنوية، ويغني أو يتكلم بإيماءات نمطية وحركة يدين تنم عن موهبة.

كنت أمشي على مهل تمامًا

في الساحة

فرأيتها زهرةً جميلةً تمضي أمامي

اكتست ثوبًا رقيقًا

بطوق فرنسي زاهٍ

على رأسها قبعة كبيرة

بأضلاع ثمانية

قلت: "بنيتي العزيزة

ما أحلاكِ

ألا منحتني ذراعك

فاستدارت بحزم

ونظرت إليَّ وقالت

"فلتعد لبيتك، يا رجل، متمنيةً لك السعادة".

وما إن ينتهي من ذلك حتى يتناول قصص سيرك "ونتس"، وكان يتقن أداء دور مهرج إنجليزي حتى يخيل لمشاهديه أنهم انتقلوا إلى السيرك نفسه، ليسمعوا أصواتًا تأتي إليهم عادة من الكواليس، مثل: "افتح الباب"، أو أصوات شجار مع المسؤول عن الاسطبل، وبعد ذلك يعرج على مجموعة نوادر يرويها بلغة إنجليزية ألمانية، ومنها نادرة رجل ابتلع فأرًا أثناء نومه، فنصحه الطبيب البيطري بابتلاع قطة أيضًا، وكذلك قصة "جدتي، المرأة موفورة العافية بضة الجسد"، وهي تحكي عن هذه الجدة التي مرت بألف مغامرة، وهي في طريقها إلى محطة السكك الحديدية، ولكن القطار كان قد فات هذه المرأة موفورة العافية بضة الجسد.

ثم يمضي كريستيان إلى الممر ليهتف: "الموسيقى، جناب مدير الفرقة"؛ وكأنه أفاق فجأةً متعجبًا من عدم عزف الموسيقى. وفجأة يلوذ بالصمت، وقد تغيرت ملامح وجهه وراحت عيناه الصغيرتان المستديرتان الغائرتان تطوفان بأرجاء المكان، وقد اعتراهما القلق. ثم يمسح جانبه الأيسر بيده كأنه ينصت إلى هاتف من داخله. ثم يحتسي قدحًا آخر، فيعتدل مزاجه ليحاول أن يروي قصة أخرى، لينطلق بعد ذلك وقد تملكه الإحباط.

ثم كان أن قامت السيدة بيرمانيدر، التي كانت على غير عادتها قد تملكها الضحك بعد أن استمتعت بالتسرية، باصطحاب أخيها إلى السلم لتقول له: "إلى اللقاء، جناب الوكيل، الممثل، المطرب، محطم قلوب العذارى! أيها النعجة العجوز، فلا تحرمنا من أنسك!" ثم شيعته بقهقهةٍ عالية لتعود أدراجها. إلا أن كريستيان، شارد الذهن، لم يلق بالاً لهذا، بل قال لنفسه: "فلأقضِ بعض الوقت في كيفيسيانا". ثم نزل السلم متكئًا على عصاه بمقبضها الذي يتخذ هيئة رأس راهبة، وقد مالت قبعته على جبينه، ليسير بعدئذ على مهل متصلب السيقان، وبدا كأنه يعاني من شلل ما.

الفصـل الثَّـاني

كان ذلك مساء يومٍ من أيام الربيع من عام 1868، عندما صعدت السيدة بيرمانيدر في الساعة العاشرة إلى الطابق الأول بدار "فيشرجروبه"، لتدخل غرفة المعيشة ذات الأثاث المكسو بقماش مضلع، لتجد السيناتور بودنبروك وقد جلس وحيدًا إلى الطاولة الوسطى، عاكفًا على قراءة جريدة برلينر بورسنتسايونج على ضوء مصباح غاز تدلى من سقف الغرفة، وقد أمسك بإصبعيه السبابة والوسطى بيده اليسرى بلفافة تبغ، واضعًا نظارة مذهبة فوق أنفه، كان يستخدمها إلى وقتٍ قريب أثناء العمل. وما إن سمع دبيب خطى أخته قادمًا من قاعة الطعام حتى رفع نظارته عن عينيه، وراح يتطلع في الظلام متلهفًا، حتى ظهرت أنطونيا من بين الستائر لتدخل دائرة الضوء.

"ها أنتِ، طاب مساؤك، ها قد عدتِ من بوبنراده، فكيف حال رفاقك هناك؟"

"طاب مساؤك، توم، شكرًا لك، إن ارمجارد بخير، أتجلس هنا وحيدًا بلا أنيس؟"

"نعم، لقد جئتني في الوقت المناسب، فقد تعين عليّ تناول العشاء وحدي، مثلي كمثل البابا، والوحدة خير من مجالسة الآنسة يونجمان؛ فهي تهب كل لحظةٍ مهرولةً إلى الطابق الأعلى لكي تطمئن على هانو؛ أما جيردا فذهبت بصحبة كريستيان إلى الكازينو لحضور عزف "فتمايو" على الكمان".

"حقًّا؟ أجل، فلقد لاحظت في الفترة الأخيرة أن انسجامًا يجمع جيردا بكريستيان".

"وأنا كذلك، فبعد اعتياده زيارتنا، أصبحَت تتقبله شيئًا فشيئًا، كما أخذت تنصت إليه بانتباهٍ بالغ عندما يقوم بوصف أوجاعه. على أية حال، فهو يسري عنها، وقد قالت لي مؤخرًا: إنه ليس بورجوازيًا، توم، إنه أقل منك بورجوازية".

"بورجوازيًا .. بوجوازيًا، توم؟! ها! أنا لا أتصور أن هناك بورجوازيًا أفضل منك على وجه الأرض".

"فما جدوى ذلك؟ فأنا لم أفهم الأمر على هذا النحو! ولتتوخي بعض التسامح يا بنيتي! ها أنتِ تبدين رائعةً، فقد عاد عليكِ هواء الريف بالخير".

فقالت: "جميل" ثم طرحت غطاء رأسها وقلنسوة تزدان بجدائل من حرير بنفسجي اللون، لتجلس بجلال على أحد مقاعد المائدة لتواصل حديثها: "معدتي والنوم ليلاً، لقد تحسنت هذه وذاك، في الأيام الأخيرة. فيا لهذا الحليب الدافئ- حليب الأبقار- ويا للحم فخذ الخنزير والنقانق، فهناك يتغذى المرء كما تسمن الماشية وينمو القمح. ويا لهذا الشهد الطازج، توم، فهو أفضل غذاءٍ لي، توم؛ فهو منتج طبيعي خالص. لقد كان فضلاً من ارمجارد أنها ما تزال تذكر علاقتنا القديمة بالمدرسة الداخلية، وقامت على

رعايتي، ولم يكن السيد مايبوم أقل منها كرمًا وترحيبًا بي، وقد أخذ كلاهما يلحان على أن أمد زيارتي لأسابيع أخرى، إلا أنك تعلم أنه ليس بوسع اريكا فعل الكثير بدوني، خاصةً بعد أن رُزقت بالزابيت الصغيرة".

"فكيف حال الطفلة، ياترى؟"

"شكرًا، توم، إنها بخير، وأنا أشكر الرب لتمتعها بأفضل حال بعد مرور أربعة شهور على مولدها، وإن كان رأى فريديكه وهنرييته وفيفي أنها لن تعيش".

"فماذا عن فاينشينك؟ ما هو شعوره بعد أن صار أبًا؟ فأنا لا أراه في الواقع إلا في سهرة الخميس".

"ما يزال على حاله، لم يتغير. ألم تر أنه رجلٌ بارع مجد، وهو زوجٌ مثالي، فهو لا يهوى ارتياد الحانات، فمن المكتب إلى البيت. أما وقت الفراغ فيقضيه بيننا. كما أنه يحث اريكا دائمًا على أن تتحلى بروح المرح والقدرة على الحوار، بل والمزاح. فحين يرى أنه إن عاد إلى البيت متعبًا مهمومًا فعلى زوجته أن تقوم بالتسرية عنه. وهذا هو واجب الزوجة ودورها الوحيد في الحياة، على حد قوله".

فغمغم السيناتور قائلاً: "أحمق".

"ماذا؟.. ولسوء الحظ أن اريكا لديها نزعة ما إلى الاكتئاب، وهو ما ورثته عني يقينًا؛ فهي تبدو عابسةً من حينٍ لآخر، شاردة الذهن، ملتزمة الصمت، وهو ما يثير أعصابه فيوجه إليها اللوم وعباراتٍ بعيدة عن الرقة. وهو يقوم كثيرًا بأفعال تدل على أصله المتواضع، ولم ينشأ- كما نقول- على خلق راقٍ. نعم، أنا أقر صراحةً أمامك بذلك. فقبل رحيلي إلى بونراده بعدة

أيام، قام بإلقاء غطاء آنية الحساء على الأرض ليتحطم، لأنه وجد ملح الحساء زائدًا عما اعتاده".

"سلمت يداه".

"كلَّا، بل على النقيض من ذلك، فنحن لا نريد إدانته، يا إلهي، فمَن منا خالٍ من مثالب وعيوب. فمثل هذا الرجل الماهر النقي المثابر.. حاشا للرب.. كلَّا، توم، فالقشرة صلبة، لكن البذرة طيبة، فهذا ليس أسوأ شيء في الدنيا. وقد عايشت مؤخرًا حالة أكثر أسًى من هذه، فقد كانت ارمجارد تنخرط في بكاء مرير كلما صرنا وحدنا".

"ماذا تعنين! – السيد فون مايبوم؟"

"نعم، توم، وهو ما أدى بي إلى الرحيل من هناك. لكن دعنا من هذا الحديث، لأنني في الحقيقة جئت إليك من أجل مسألةٍ مهمة وجادة للغاية".

"ما هي؟ وماذا عن السيد فون مايبوم؟"

"إن رالف فون مايبوم رجل ودود، توماس، إلا أنه أرعن، فهو يقامر في روستوك وكذلك في فارنيمونده، وقد غرق في الديون؛ ولكنك لن تستشعر ذلك لمجرد قضائك هناك بضعة أسابيع، فالبيت فخم، وكل ما يحيط به على ما يرام، والحليب والنقانق ولحم فخذ الخنزير، كل هذا متوافر هناك بكثرة. وليس هناك في هذه المزرعة ما يعكس الواقع الحقيقي.. وموجز القول أنهما يكابدان في الواقع أسوأ حالات الشقاء، وهو ما سمعته من ارمجارد من خلال عويلها الذي ينفطر له القلب".

"إنها حال مؤسفة، مؤسفة".

"حقًّا، هي حال يُرثى لها، لكن هذا هو ما خبرته عنهما، كما لم تكن

دعوتي لزيارتهما مجردة تمامًا عن الهوى".

"كيف؟"

"ماذا يمكن أن أقول لك، توم! فالسيد فون مايبوم بحاجةٍ إلى مبلغ ضخم، ولما كان يعلم بعلاقة صداقتي الوطيدة مع زوجته، وأنني أيضًا شقيقتك، فقد فكر في الاستعانة بزوجته للخلاص من محنته، واستعانت زوجته بي، فهل فهمت؟"

أخذ السيناتور يخلل شعر رأسه بأنامل يده اليمنى، وقد اكتسى وجهه ببعض العبوس، ثم قال: "أظن ذلك. إذن فالمسألة الجادة المهمة التي ذكرتها، هي أن أدفع مبلغًا مقدمًا من ثمن محصول بوبنراده، كما فهمت. لكنكِ وصديقاكِ أخطأتم العنوان، فأنا، أولاً، لم يسبق لي التعامل مع السيد فون مايبوم، وهذا الأسلوب أراه غريبًا لعقد الصفقات؛ ثانيًا، فقد اعتدنا، جدي الأكبر وأبي وأنا، على أن ندفع بين الحين والآخر مقدمًا لفلاحين نطمئن لشخصياتهم وأحوالهم وسلوكهم، وهو ما يمثل لنا ضمانًا ما. إلا أن ما ذكرتِه منذ قليل عن شخص فون مايبوم، وعن أحواله، لا يسمح بتوافر مثل هذا الضمان".

"لقد جانبك الصواب، توم. وقد سمعت كل ما قلت، لكن الصواب جانبك، فلا علاقة هنا بدفعة المقدم، فالسيد فوم مايبوم بحاجة إلى خمسة وثلاثين ألف مارك".

"ماذا؟"

"خمسة وثلاثون ألف مارك، يسددها خلال أسبوعين على أقصى تقدير، فالسيف مسلطٌ على رقبته، وسأكون أكثر وضوحًا، فهو مضطر للبيع الآن".

"يبيع المحصول قبل الحصاد، يا له من مسكين" أخذ السيناتور يداعب نظارته فوق غطاء المائدة، وهو يهز رأسه ليقول: "إن مثل هذه الحالة لغريبة على مجتمعنا. وقد سمعت عن مثل هذه الصفقات في هِسّن، حين يسقط عددٌ من الفلاحين– ليس بالقليل– فريسةً بين يدي اليهود. فيا تُرى في شرك مَن، مِن هؤلاء القتلة، سوف يقع السيد فون مايبوم المسكين.."

فتملكت الدهشة السيدة بيرمانيدر لتصيح: "يهود، قتلة، أأنت مَن يقول هذا، توم".

وفجأةً يرمي توماس بودنبروك بنظارته فوق المائدة، لتنزلق بعض الشيء على امتداد الجريدة، ثم مال بجذعه نحو أخته وهو يهتز، ليسألها دون أن تسمعه: "أنا أقول هذا"، ثم رفع صوته ليضيف: "اذهبي إلى فراشك، طوني، فأنتِ تحتاجين إلى الراحة".

"نعم، توم، هكذا كانت تخاطبني إيدا يونجمان، إلا إنني أؤكد لك أنني لم أشعر قط باليقظة والانشراح أكثر مما أنا عليه الآن، إذ جئت إليك في مساءٍ يلفه الضباب لكي أبلغك بعرض ارمجارد، أي عرض رالف فون مايبوم في الواقع.."

"إن هذا العرض يقوم على سذاجتك وورطة آل فون مايبوم".

"سذاجة؟ ورطة! أنا لا أعي ما تقصد، توماس. فأنا لست على شيء من هذا، وقد واتتك الفرصة لعمل الخير، ولعقد واحدةٍ من أفضل صفقاتك، في آنٍ واحد".

فصاح السيناتور: "كفى يا عزيزتي، فأنت تنطقين بما لا تعرفين". ثم ارتد للخلف وقد نفد صبره، ثم استرسل: "أرجو المغفرة، لكن براءتك تثير

سخطي. فأنتِ لا تدرين أنك تنصحينني بالقيام بأمرٍ ينحدر بي إلى أدنى درجات الخسة، وتنصحينني بأعمالٍ دنسة، فهل تريدين لي أن أكون انتهازيًّا يستغل الناس على هذا النحو الشرس؛ فأستفيد من محنة أحد الفلاحين فأنكل به، وهو لا يستطيع درء الأذى عن نفسه، فأكرهه على بيع محصول عام كامل مقابل نصف ثمنه المستحق، لأغنم من وراء ذلك أرباح المرابين".

اعترت الدهشة السيدة بيرمانيدر، فأخذت تفكر وهي تقول: "آه، هذه إذن وجهة نظرك في الأمر؟!" ثم واصلت حديثها بحماس لتقول: "لكن لا يتعين عليك، بل لا يجب عليك إطلاقًا، توم، أن تفهم الأمر على هذا الوجه، فأنت لم تُجبره، بل هو الذي يعرض عليك ذلك طواعيةً، لأنه بحاجةٍ إلى هذا المال، ويريد أن يحل مشكلته عبر أصدقائه، سرًّا ودون أن يعلم أحد. ولهذا سعى إلى الاتصال بنا، ومن أجل هذا كانت دعوتي للزيارة".

"موجز القول إنه لم يقدر شخصي ولا طبيعة شركتي التقدير السليم، فأنا أتمسك بتقاليدنا؛ فإننا لم نعقد مثل هذه الصفقات على مدى مائة عام، وهكذا لا يمكن أن أبدأ الآن بمثل هذه المغامرات".

"نعم، توم، أعرف التزامك بالتقاليد وأحترم ذلك. كما أنني على يقينٍ أن والدي لم يعقد مثل هذه الصفقات، حاشا للرب؟ لكني برغم حماقتي فأنا أعرف أنك شخصٌ مختلف، مختلف تمامًا عن والدي، وأن أسلوب إدارتك مخالف لأسلوبه، وقد سلكت سُبلاً لم يسلكها، وأنك فعلت في ذلك ما لم يكن ليفعله هو؛ كما أنك شابٌ وجريء، إلا أن ما أخشاه هو أن تكون قد فقدت جرأتك موخرًا، بسبب هذا الفشل أو ذاك، فإذا تخلى عنك التوفيق الذي كان يلازمك من قبل، فهذا يرجع إلى أنك لا تغتنم الفرصة لعقد

صفقة جيدة، فتضيعها بدافع ظنون وهواجس".

فرد السيناتور بحدة: "آه، أرجوكِ يا بنيتي العزيزة، أنتِ تثيرين أعصابي" ثم أخذ يلتفت يمينًا ويسارًا، وهو يقول: "أستحلفك بالرب أن نغير موضوع الحديث هذا".

"حقًّا، توماس، فقد توترت أعصابك، وأنا أرى ذلك؛ وقد كنتَ على هذه الحال منذ البداية، لذا تعمدت مواصلة حديثي كي أثبت لك أن شعورك بالإهانة هو محض وهم.. فإذا ما سألتُ نفسي عن سر غضبك فلن أملك سوى أن أقول إنك في حقيقة الأمر لست عازفًا تمامًا عن الانشغال بهذا الأمر.

"فإنني- وإن كنت امرأةً حمقاء- أعلم من تجاربي وتجارب الآخرين أننا نثور ضد مقترح عندما نشعر أننا لسنا مطمئنين تمامًا لرفضه، وأن داخلنا يتوق إلى قبوله".

فقال السيناتور: "حسنٌ جدًا"، ثم لاذ بالصمت وهو يعض على لفافة التبغ.

"حسن؟ ها، كلَّا، لأن هذا هو أبسط ما استفدته من تجاربي في الحياة؛ لكن لا مفر من الوضوح، توم، وأنا لا أبغي الإلحاح عليك، فهل بوسعي إقناعك بمثل هذه المسألة؟ كلَّا، فمن أين لي بمعرفة هذه الأمور، وأنا لست سوى امرأةٍ حمقاء.. للأسف.. لكن دعك من هذا، فهو غير مهم. لقد شُغلت بهذه المسألة كثيرًا، وقد تملكني الخوف والهم من أجل أسرة فون مايبوم، ولكني- على الجانب الآخر- شعرت بالسعادة من أجلك، وفكرتُ في الأمر، فقلت لنفسي: إن توم يعاني من اكتئاب منذ زمن، كما عانى من متاعب ما،

لكنه لم يعد يشكو حاله، وقد خسر أموالاً هنا وهناك، وساءت الأحوال، لكن هذا حدث في الوقت الذي تحسنت فيه أحوالي بحمد الرب، فصرت أنعم بالسعادة. وقد واتتني فكرة أن تستفيد أنت من هذه المسألة، فهي صفقة تدر ربحًا وفيرًا يعوض خسارة، ويُرى الناس أن الحظ لم يتخل تمامًا عن شركة بودنبروك. ولو أنك وافقتني لأصبح ذلك من دواعي فخري بأنني شاركت في هذا الإنجاز. فأنت تعلم أنني كنت دائمًا أحلم وأشتاق لأن أقدم ما يعود على اسم عائلتنا بالنفع، لكن.. كفى.. فقد انتهى الأمر.. إلا أن ما يزعجني هو أن فوم مايبوم سيُضطر لبيع المحصول قبل حصاده، توم، وأنه سوف يعثر في المدينة على مَن يشتريه، سوف يعثر يقينًا على أحدهم، وسيكون هذا هو هرمان هاجنشتروم، ذلك المحتال".

فكان أن قال السيناتور في مرارة: "نعم، حقًّا، ولعلي أتساءل إن كنت أترك الفرصة تفلت من بين يدي".

فردت السيدة بيرمانيدر: "أرأيت؟" ثم كررت ذلك ثلاث مرات، فأخذ توماس بودنبروك يهز رأسه فجأةً وهو يضحك ساخطًا.

"يا للسذاجة، إننا نتحدث باهتمام كبير– على الأقل أنت– عن أمر غير محدد الملامح، أمر لا نعرف عنه شيئًا، وأنا أقر أنني لم أوجه لك أي سؤال في هذا الشأن، وعما ينتوي السيد فون مايبوم بيعه، كما أنني لا أعرف شيئًا عن بوبنراده.."

فردت بحماس: "ماذا! فلتسافر إلى هناك، إنها مجرد خطوة إلى روستوك. وهناك تتضح كل الأمور. أما فيما هو مضطرٌ إلى بيعه، فهي مزرعةٌ شاسعة، تنتج يقينًا أكثر من ألف جوال من القمح؛ إلا أنني لا أعرف كثيرًا عن بقية

المحاصيل، مثل الحنطة السوداء والشوفان والشعير، فهل يبلغ إنتاجها خمسمائة جوال؟ وقد يكون أكثر من هذا أو أقل، لست أدري! لكن المسألة تبدو مغريةً، كما أقول لك. إلا أنه ليس بوسعي أن أحسب ذلك بالأرقام، توم، فأنا حمقاء؛ لذا فينبغي عليك السفر إلى هناك". ثم ران الصمت لبرهةٍ، ليقول بعدها السيناتور باقتضاب وتبسم: "هذا الأمر لا يستحق أن نضيع وقتنا من أجله". ثم أمسك بنظارته ليضعها بجيب صدريته، ويزر سترته ليهب واقفًا، ويأخذ في ذرع الغرفة جيئةً وذهابًا بخطى سريعة واثقة حرة، مدللاً بذلك على عدم انشغاله بالأمر. ثم توقف أمام الطاولة، ومال نحو أخته وطوى سبابته ليدق بها على سطح المائدة: "سوف أروي لك قصة، أيتها العزيزة أنطونيا توضح سر موقفي من هذه المسألة، ولعلمي بتعاطفك مع طبقة النبلاء، ونبلاء مكلنبورج على نحوٍ خاص، لذا فإننى أرجو أن تتحلى بالصبر عندما أذكر في روايتي أنني وجهتُ لطمةً لواحد من هؤلاء النبلاء، وأنتِ تعرفين أن بينهم من لا يضمر نحو التجار احترامًا كبيرًا، برغم المصالح المشتركة بين الطرفين، بل إن هذه المصالح تؤكد تفوق المنتِج على التاجر، وهو تفوقٌ لابد من الاعتراف به على وجهٍ ما. فهؤلاء لا يميزون تاجر الجملة عن البائع اليهودي الجائل، الذي نبيع له ملابسنا القديمة معتقدين أننا خدعناه. أما أنا فأفخر أنني لم أترك لدى هؤلاء انطباعًا بأنني التاجر الدنيء المستغل، وإن كان بينهم مَن هو أكثر مني براعة في مسألة التجارة. وقد نشب بيني وبين أحدهم نزاعٌ بسيط حول تحديد الطرف الأقوى، من أجل الحد مِن الفارق الاجتماعي، وهو رجل سمعتِ عنه يقينًا.. لقد كان هو السيد من منطقة "جروس بوجندورف"، فقد كانت بيننا معاملاتٌ امتدت لسنوات. إنه

الدوق شتريلتس، وهو واحد من كبار الإقطاعيين، يضع على عينيه "مونوكول" مربع الزوايا فكنت أعجب كيف لم يجرح نفسه؛ وكان يحرص على لبس حذاء طويل الرقبة ملونًا، ويمسك بسوطٍ ذي مقبض ذهبي، كما اعتاد النظر إلى غيره باستعلاء بفم شبه مفتوح وعينين شبه مغمضتين. أما زيارتي الأولى له، فكانت على نحوٍ بالغ الأهمية، وقد مهدت لها ببرقية، ثم سافرت له، وأذن لي بالدخول إلى مكتبه بعد أن أخبره الساعي بوصولي. وقد لقيت الدوق شتريلتس جالسًا إلى مكتبه، فلم ينهض إلا قليلاً ليرد تحيتي، وانشغل بإتمام عبارةٍ كتبها في دفتر أمامه، ثم التفت نحوي وهو لا ينظر إليَّ ليتحدث عن سعر بضاعته. أما أنا فارتكزت إلى طاولةٍ أمام الأريكة، وعقدت ذراعيَّ وساقيَّ مستمتعًا بهذا الوضع. ومضت خمس دقائق أخرى وأنا على هذه الحال واقفًا، وبعد خمس دقائق أخرى كنت أجلس فوق الطاولة مؤرجحًا إحدى ساقيَّ ليدور بيننا أخذ ورد حتى مضى ربع الساعة، ليقول بلا مبالاة وهو يشير بيده: "ألا تناولت مقعدًا؟"

فقلت: "لماذا؟ فلست بحاجة إليه، فأنا أجلس هنا منذ زمن".

فصاحت السيدة بيرمانيدر: "قلت له ذلك، قلت له ذلك؟" ثم رددت قائلة: "أنا أجلس هنا منذ زمن، جميل" بعد أن تجاهلت كل ما قيل لتنشغل بهذه الطرفة.

"بالطبع، وقد تبدل مسلك الدوق نحوي منذ هذا اليوم، فقد أصبح يصافحني ويدعوني إلى الجلوس، فأصبحنا صديقين. لكن، لماذا أحكي لكِ هذا؟ لكي أسألكِ: هل أجرؤ على تلقين السيد فون مايبوم مثل هذا الدرس، إن نسي في غمار مساومته حول ثمن المحصول أن يقدم لي مقعدًا؟"

هنا لاذت السيدة بيرمانيدر بالصمت، ثم نهضت لتقول: "حسنًا، أنت على حق، توم، وقد قلتُ إنني لا أريد الإلحاح، فأنت أدرى بشؤون عملك، وكفى. فإن تبين لك حسن نيتي نكون قد اتفقنا، تصبح على خير، توم، لا.. انتظر، فعليَّ تقبيل ابنك هانو أولاً، ثم أحيي إيدا الطيبة، لأعود إليك ثانيةً.."

ومضت.

الفصل الثالث

وكان أن صعدت إلى الطابق الثاني لتخترق الممر بحذاء الشرفة، لتجتاز بهوًا كان بابه المفتوح يفضي إلى دهليزٍ بابه الآخر- إلى اليسار- يفضي إلى غرفة ملابس السيناتور. ثم أدارت بحرص مقبض بابٍ آخر لتدخل إلى غرفةٍ رحيبة على نحو غريب، أُسدلت على نوافذها ستائر ذات ثنايا موسومة بالزهور الكبيرة، وقد بدت جدرانها خالية إلا من بعض صور ملونة ثُبتت بدبابيس فوق كساء الحائط الزاهي؛ كانت صورًا لأطفال بشعر أشقر يرتدون ملابس حمراء اللون، كما كان هناك نقش لصورة عُلقت بإطاره الأسود أعلى فراش الآنسة يونجمان، تمثل جياكومو مايربير، وقد التف حوله أبطال رواياته.

أما إيدا يونجمان فقد تصدرت الحجرة جالسةً إلى طاولة ضخمة وهي ترتق جوارب هانو. وكانت هذه البروسية المخلصة قد دخلت العقد السادس من عمرها، غير أن شعرها الجزل لم يتحول كله إلى اللون الأبيض برغم غزو الشيب له مبكرًا، فقد ظل بين بين. وبادرتها السيدة بيرمانيدر محيية: "طاب مساؤك، إيدا". وبرغم أن تحيتها كانت هامسة، إلا أنها كانت مفعمةً بالانشراح، بعد أن بعثت فيها قصة أخيها روح المرح. فأردفت قائلةً: "كيف

حالك أيتها العجوز!"

"إيه، طوني، أأنا عجوزٌ، يا بنيتي؟ ماذا جاء بكِ في هذا الوقت المتأخر؟"

"حقًا، كنت عند أخي في أمر لا يحتمل التأجيل، لكنه باء بالفشل".

ثم تساءلت: "أهو نائمٌ؟" بعد أن أشارت بذقنها نحو مهد الطفل بجوار الحائط الأيسر، وتكاد مقدمته بفراشها الأخضر تلتصق بالباب الكبير المفضى إلى غرفة نوم السيناتور بودنبروك وزوجته.. فأجابت إيدا: "انتبهي فهو نائمٌ بالفعل".

فاقتربت السيدة بيرمانيدر على أطراف أصابعها من مهد الصغير، وأزاحت بحرص الستائر من فوقه، ثم مالت لتتفرس وجه ابن أخيها النائم. فقد كان يوهان بودنبروك الصغير مستلقيًا وموجهًا وجهه إلى داخل الغرفة، وقد أحاط بوجهه شعر طويل ذو لون كستنائي فاتح. وكانت أصابع يده لا تكاد تظهر من ثوب نومه الفضفاض، وقد أراح يديه فوق صدره، وألقى الأخرى بجواره فوق الغطاء، وقد أخذت أصابعه المطبقة تتحرك قليلاً بين الحين والآخر، وقد بدا على فمه شبه الفاغر بوادر حركة كأنه سينطق بالكلام من حينٍ لآخر، ومن أسفل إلى أعلى بدأت تنتشر في وجهه الصغير كله علائم آلام نشأت من ارتعاشة لذقنه، لتصعد إلى منطقة الفم، ليرتعد منها جيبا أنفه الرقيقان وتقطب جبهته الضيقة. ولم تستطع رموشه الطويلة أن تغطي مآقي عينيه المحاطة بهالات زرقاء.

فقالت السيدة بيرمانيدر متأثرةً: "إنه يحلم"، ثم مالت فوق الطفل لتقبل بحرص وجنته التي أشاع النوم الدفء فيها، ثم أعادت الستائر إلى وضعها السابق، وعادت أدراجها إلى الطاولة، لتجد إيدا قد أدخلت كرة الرتق في

جورب آخر، لتعاين الثقب الذي يجب عليها رتقه في ضوء مصباح أصفر.

"أما تزالين تقومين برتق الجوارب، إذن، لم يتبدل حالك".

"نعم، طوني، فالصغير يمزق الكثير منها منذ أن ذهب إلى المدرسة".

"لكنه، والحق يقال، طفلٌ وديع".

"حقًّا، لكنه رغم ذلك.."

"فهل يُقبل على المدرسة؟"

"كلَّا، لا، طوني، بل كان يؤثر تعليمي له، وهو ما كنت أريده، يا بنيتي، فالمعلمون لا يعرفون عن نشأته ما أعرف، كما أنهم لا يعرفون السبيل إلى تعليمه، فالتركيز أمرٌ يشق عليه، فيغلبه التعب".

"يا له من مسكين، فهل عاقبه أحدهم بالضرب؟"

"لا، لا، يا إلهي.. فهم لا يسمحون لأنفسهم بأن يكونوا بهذه القسوة".

"فكيف كان حاله حين ذهب إلى المدرسة لأول مرة؟ هل بكى؟"

"نعم، إنه سريع البكاء، لكن دون صوت، ثم يتشبث بسترة السيد أخيكِ وهو يلح عليه للبقاء بالبيت".

"هكذا! وهل كان أخي يصطحبه إلى هناك؟ فهذه لحظاتٌ شاقة على نفس الطفل، وأنا أشعر بذلك كأنه حدث بالأمس القريب؛ فقد كنت أنتحب، بل أولول، مثل كلب مقيد؛ فقد كان ذلك أمرًا قاسيًا للغاية، لأنني كنت أسعد بإقامتي في البيت، كحال هانو الآن. كما أن جميع أبناء البيوت العريقة يبكون، وقد لاحظت ذلك من أول وهلة، إلا أن الكبار كانوا ينظرون إلينا مبتسمين غير مبالين، يا إلهي! ماذا دهاه.. ايدا؟!"

فجمدت مكانها، ملتفتة نحو مهد الصغير الذي صدرت عنه صرخة

قطعت حديثهما.. ثم تلتها صرخة جزع أخرى تنم عن وجع وخوف، لتتوالى بعدها ثلاث أو أربع صرخات: "أواه، أواه، أواه!" كأنها شكوى تصرخ غضبًا ويأسًا وخوفًا، استغاثة من شيءٍ ما رآه أو وقع له، ثم هب الصغير يوهان من مرقده مغمغمًا بكلمة غير واضحة، محملقًا بعينية العجيبتين في دنيا أخرى وهما لا تدركان من أمرها شيئًا.

"لم يحدث شيء، بل إنه كابوس، آه، كابوس يكون أحيانًا على نحو أبشع مِن هذا".

ثم طرحت بهدوء الجورب جانبًا لتمضي بخطى واسعة بطيئة نحو هانو لتوسده فراشه ثانيةً، مدثرةً إياه وهي تهدهده بصوتها الرخيم. فقالت السيدة بيرمانيدر: "نعم، إنه كابوس، فهل هو مستيقظ الآن؟" لم يكن هانو مستيقظًا، وإن ظلت عيناه محملقتين على اتساعهما، كما ظلت شفتاه تتحركان.. وداعبته إيدا قائلة: "كفاك غمغمة"، ثم سألته: "ماذا تقول؟"

ثم دنت منه كذلك السيدة بيرمانيدر لتسمع ما يصدر عنه من غمغمة وهمهمة يشوبهما التوتر. أما هانو فقال بنبرة متثاقلة: "أريد الذهاب.. إلى بستاني.. كي أروي بصيلاتي.." فهزت إيدا يونجمان رأسها وهي تفسر ما قاله: "إنه ينشد قصيدة شعر.. هكذا، هكذا، كفاك هذا يا صغيري، فلتنم الآن!" فكان أن ردد هانو: "رجلٌ قصير أحدب.. واقف هناك.. يعطس.." ثم تنهد، إلا أن ملامح وجهه تغيرت فجأةً، وأخذ يدور برأسه يمينًا ويسارًا فوق الوسادة بعينين شبه مغمضتين، ثم أنشد يقول بنبرة هامسة متوجعة: "بزغ القمر.. فبكى الطفل، اثنتي عشر مرة دق الجرس، فليمد الرب يده إلى المرضى كافة.." وأخذ يبكي أثناء ذلك بكاءً مريرًا والدمع ينهمر من بين رموشه، فينسال على

خديه ثم انتبه.. ليعانق إيدا، وجال بعينيه المغرورقتين بالدمع بأرجاء المكان، ثم غمغم بشيء عن عمته يوحي بالرضا، ثم عدَّل مكانه بالمهد ليرقد مستغرقًا في النوم. وعادت السيدة بيرمانيدر إلى مكانها بالطاولة لتتساءل: "إنه أمر عجيب، فماذا عن هذه الأبيات، إيدا؟"

فردت الآنسة يونجمان: "هي من كتاب القراءة، الذي يشمل كذلك قصة "قرن الصبي العجيب". فهو كتاب مليء بالأشياء العجيبة.. وقد تعين على هانو حفظها غيبًا. فراح يخبرني بأمر الرجل القصير، أتعرفين قصته؟ إنها حقًا مثيرة للفزع. فهذا الرجل القصير يظهر في كل مكان، محطمًا قدور الطعام، وهو يسرق الأخشاب ويعطل المغزل، ويسخر من الناس الذين يطالبهم بعد ذلك بالدعاء له في صلاتهم! وهو ما فعله بهانو أيضًا فأصبح منشغلاً به كل يوم، أتدرين ماذا كان يقول؟ لقد سألني عدة مرات: "إيدا، إن الرجل لا يفعل ذلك بدافع الشر! أليس كذلك؟ إن ما يدفعه إلى ذلك هو شعوره بالحزن، لكنه يصاب بحزن أعظم بعد ما يفعل ذلك.. فإذا دعونا له في صلاتنا توقف هو عن فعل ذلك"، ولما ودعته والدته مساء اليوم لتذهب إلى الحفل الموسيقي بعد أن تمنت له ليلة طيبة، سألها: "هل يجب عليَّ الدعاء للرجل القصير الأحدب.."

"فهل قام بذلك؟"

"لم أسمعه يصلي، لكن قد يكون من المرجح أنه أدى الصلاة بصمت.. وهناك قصيدة أخرى بعنوان "ساعة رحيل القوافل" لم يحدثني عنها، فقد كانت تبكيه فقط، فما أهون دموع الصغير الذي ينخرط في بكاء مرير".

"لكن، لماذا تصيبه هذه القصيدة بالحزن؟"

"لست أدري.. قد تكون بدايتها، فعندها بكى الآن.. من لحظات وهو الموضع الذي يتوقف عنده.. كما أنه يبكي سائسًا يضطر إلى مغادرة فراشه المصنوع من القش في الساعة الثالثة صباحًا". وكان أن تأثرت السيدة بيرمانيدر بذلك فضحكت. لكنها سرعان ما أمسكت عن ذلك، لتقول جادة: "ولكني أصارحك إيدا بأن هذا أمر يبعث على القلق، خاصةً إذا كان يتأثر بذلك على هذا النحو. فإذا استيقظ السائس في الثالثة صباحًا، فهو يفعل ذلك لأنه سائس، أما الطفل- على قدر معرفتي به- فإنه يميل إلى اقتحام كل هذه الأمور، فيتأثر بذلك تأثرًا عظيمًا.. فيتأذى من ذلك يقينًا، صدقيني.. ولابد من استشارة جرابو في هذا الشأن.."

ثم عقدت ذراعيها ومالت برأسها، وأخذت تضرب الأرض بأطراف أصابعها مستاءةً، وهي تقول مستطردة: "لكن المشكلة هنا أن جرابو تقدم به العمر؛ لكنه بغض النظر عن ذلك، فهو رجل طيب للغاية، من أصحاب الخُلق المحافظ؛ هو بالفعل إنسان طيب القلب.. إلا أنني لا أعول عليه كثيرًا كطبيب، إيدا، وليغفر الرب لي، إن كنت أسأت الحكم عليه. فعلى سبيل المثال، فإن جرابو يعرف بحالة الاضطراب التي يعانى منها هانو أثناء الليل، ويعرف الخوف الذي يداهمه أثناء الكوابيس، هذا ما يعرفه، إنه يعرف كل شيء، فماذا يفعل، إنه لا يفعل شيئًا سوى أن يُسمي لنا هذا العرض، فيذكر مصطلحًا باللاتينية "Pavor nocturnus" (رُعبٌ ليلي).. نعم، يا إلهي، فقد يصلح ذلك في مجال التعليم.. كلَّا، إنه رجل طيب وصديق حميم للعائلة، لكنه ليس طبيبًا بارعًا. فالرجل صاحب الحيلة يبدو مختلفًا، كما يقال. فإن الديك الفصيح من البيضة يصيح. وقد عايش جرابو أحداث عام 1848، وكان

حينذاك حديث السن، فهل عرفتِ عنه أنه حرك ساكنًا للمطالبة حينذاك بالحرية والعدل والقضاء على الامتيازات الطبقية والاستبداد؛ وبرغم أنه عالم، إلا أنني على يقين بأن قوانين الفيدرالية العجيبة، قوانين تلك الحقبة الخاصة بالجامعات والصحافة، قد جمدت مشاعره، فلم يعرب قط عن سخطه، ولم يحتج قط.. بل احتفظ دائمًا بوجهه المستطيل المحايد حتى الآن، لينصح بحمامة صغيرة وخبز فرانتس، وفي الحالات الخطيرة يضيف إلى ذلك "ملعقةً كبيرة من عصير".. تصبحين على خير، إيدا، لكن لا، أعتقد أن هناك أطباء مختلفين عنه تمامًا!.. خسارة أنني لن أستطيع رؤية جيردا.. نعم، شكرًا، فالممر ما زال مضاءً.. تصبحين على خير".

إلا أن السيدة بيرمانيدر، أثناء مرورها بقاعة الطعام فتحت بابها لتدخل إلى غرفة المعيشة لتودع أخاها، ورأت أنوار الطابق كله مضاءةً، بينما توماس يذرع المكان جيئةً وذهابًا، وهو عاقد ذراعيه خلف ظهره.

الفصل الرَّابع

عندما أصبح السيناتور بمفرده عاد ليجلس إلى الطاولة، وقد استعاد نظارته من أجل متابعة مطالعة الجريدة، إلا أنه سرعان ما أشاح بوجهه عن المطبوعة وشخص ببصره في الظلام نحو الستائر، متفكرًا وهو جامد مكانه لا يحرك ساكنًا.

فها هو قد أصبح وحيدًا، لتتبدل سيماء وجهه إلى حد أن مَن يراه لم يكن ليعرفه، وها هي أعصاب فمه ووجنتيه التي- عادةً- ما سيطر وفرض إرادته عليها، قد ارتاحت وتهدلت، وقد زالت أمارات التيقظ والفطنة والظرف والعزيمة، كأنها قناعٌ سقط عن وجهه، كان قد حرص على التشبث به والاختباء وراءه، ليسقط هو في براثن شقاء مضنٍ؛ وها هي عيناه قد احتقنتا وهما تلوذان بوهمٍ، وسكنهما الهم والإحباط فسال منهما الدمع. طرح عن باله كل الأفكار التي تؤرقه، متشبثًا بواحدة دون غيرها، فكرة بائسة وحيدة، هي أنه توماس بودنبروك- ذو الثانية والأربعين- قد أصبح كهلاً واهنًا.

ثم زفر زفرةً عميقة بعد أن مسح بيده جبينه وعينيه برفقٍ، وأشعل دون وعيٍ لفافةً أخرى، برغم علمه بمدى أثر التدخين على صحته، وراح يتابع دخان لفافته متأملاً العتمة، وقد بدا تناقضٌ بين ملامح وجهه المتهدلة وبين عنايته بمظهره عنايةً صارمة، وهو ما يتبدى على شاربه المفتول المعطر وذقنه ووجنتيه الحليقة الناعمة، وشعر رأسه المصفف على نحوٍ صارم، ليغطي قدر الإمكان مبدأ الصلع بخصلةٍ من الشعر الذي يرتد عن سالفيه الرقيقين في كتلتين طويلتين بمفرق دقيق؛ فلم يعد يتهدل على أذنيه مجعدًا، كما حرص على الاحتفاظ به قصيرًا حتى يخفي شيبًا غزاه..

وقد أدرك هو نفسه هذا التناقض، كما كان يدرك تمامًا أنه ليس هناك بالمدينة مَن يغفل عن هذا التناقض بين حيويته المرنة وشحوب وجهه.

إلا أن هذا لا يعود إلى تراجع مكانته كشخصية عامة مؤثرة، فما يزال أصدقاؤه يلهجون بما لا يستطيع حاسدوه إنكار ما ردده العمدة الدكتور لانجهالس بأن توماس بودنبروك هو ذراعه اليمنى، مؤكدًا على ما ذهب إليه سلفه أرفرديك قبل ذلك. أما تراجع مكانة شركة يوهان بودنبروك عن سابق عهدها، فكان حقيقةً يتداولها الناس على قارعة الطريق. وهو ما أُخبر به السيد شتوت- الساكن بشارع جلوكنجيسر- زوجته، وهما يتناولان على طعام الغداء حساء الخنزير.. هكذا أصبح هذا الأمر يقض مضجع توماس بودنبروك، برغم أنه هو نفسه الذي ساهم بالقدر الأكبر في نشأة هذا النظرة.

فقد كان رجلاً ثريًّا لم تمثل أية خسارة تهديدًا حقيقيًّا لكيان شركته، تلك الخسائر التي تكبدها حتى أقساها التي وقعت عام 1866.

وبرغم استمراره، البديهي، في حفاظه على المظهر المناسب، وتقديم

وجبات عديدة في ولائمه التي ينتظرها ضيوفه، إلا أن تصور نهاية نجاحه وسعادته، هذا التصور الذي كان أقرب إلى أنه حقيقة وجدانية أكثر منها حقيقةً تتبدى مظاهرها في الواقع، كان هو التصور الذي ثبط عزيمته إلى حد مريع، جعله حريصًا على ماله، ليبدأ في الاقتصاد في نفاقات الحياة الشخصية على نحوٍ بدا مهينًا بعض الشيء.

فأصبح يصب لعناته على داره الجديدة، بما أنفق في سبيلها من أموال طائلة؛ فقد أحس أنها كانت فألاً سيئًا. كما توقف عن القيام برحلاته الصيفية، واستعاض عنها باصطياف على ساحل البحر، أو بنزهة في الجبال، أو بنزهة ببستان المدينة. كما اعتاد التنبيه بحزم على أن يكون طعامه وزوجته وابنه بسيطًا على نحوٍ لا يخل بمظهر قاعة الطعام الرحيبة، بأرضها المكسوة بالباركيه، وسقفها المرتفع الفخم، وأثاثها الفاخر من خشب السنديان؛ أما أطباق الحلوى فلم تعد تُقدم منذ زمن طويل، إلا في يوم الأحد. إلا أنه احتفظ بمظهره الأنيق، برغم أن أنطون الذي عمل بخدمتهم زمنًا طويلاً كان يردد في المطبخ أن السيناتور أصبح لا يبدل قميصه إلا بعد يومين، بحجة أن غسله يفسد نسيج الكتان الرقيق.

وقد عرف أكثر من ذلك، فقد عرف أيضًا أنه سوف يتم فصله برغم احتجاج جيردا. فلم يكن ثلاثة من الخدم بعدد كاف للعناية بهذه الدار الكبيرة. إلا أن ذلك لم يجد نفعًا: فقد تم الاستغناء عن أنطون بمكافأة مالية مناسبة، وهو الذي كان يقوم أيضًا بدور الحوذي، عندما كان توماس بودنبروك يذهب إلى مجلس الشيوخ.

وقد سايرت مثل هذه الإجراءات المسار البائس الذي كان يجري به

العمل.

ولم يعد هناك أي أثر للروح اليقظة المتجددة التي كان الشاب توماس بودنبروك قد جعلها تسري في متجره.

أما شريكه، السيد فريدريش فيلهلم ماركوس، الذي لم يساهم في رأس المال إلا بالنذر اليسير، ولم يكن له بحال من الأحوال أي تأثير مهم، فقد كان القدر وطبيعته الشخصية قد حرماه من صفة الإقدام والمبادرة.

وبمرور السنين كانت دقته المفرطة قد تنامت إلى حد يثير العجب الشديد. فقد كان يحتاج إلى ربع الساعة من أجل قص السيجار ووضع الفُم في حافظته، وهو يتحسس شاربه ويزفر ناظرًا بطرف عينه. ومساءً، عندما كان نور مصابيح الغاز يحيل أرجاء المكتب نهارًا، كان هو لا يغفل وضع شمعة فوق مكتبه. وكان يمضي كل نصف ساعة إلى دورة المياه ليضع رأسه تحت الماء. وذات ضحى، كان قد وجد أسفل مكتبه جوال حبوب فارغًا، كان أحدهم قد نسيه هناك، فظنه هو هرة وأخذ يطاردها وهو يسب ويلعن، وسط ضحكات كل الموظفين. كلّا، فلم يعد بالرجل الذي كان سيشحذ همة شريكه المثبطة، مشجعًا إياه على العمل. وغالبًا ما كان الخجل يعتري السيناتور، كحاله الآن وهو يشخص ببصره إلى عتمة غرفة المعيشة بنظرةٍ خاملة، حين كان ينفد صبره وهو ينظر بيأسٍ إلى ما يحققه متجره المتواضع الحال من صفقاتٍ تافهة، وهو الحال المتدهور الذي بلغته شركة يوهان بودنبروك.

لكنه كان يفكر بأن عليه الاستسلام لذلك، إلى أن تمر فترة عدم التوفيق هذه. أليس من الأفضل التصرف بهدوء عندما يسيطر هذا الشعور

علينا، فنلتزم السكون لنلملم بصبر شتات قوانا الداخلية؟ ولماذا أسدى أحدهم إليه النصح بأن يطرح عن نفسه قبل الأوان ثوب إحباطٍ ارتضاه ليثير في نفسه أفكارًا وشكوكًا! فهل آن الأوان؟ أكان ذلك وحيًا؟ فتعين عليه أن ينتفض وينهض ليضرب ضربته؟

إلا أنه استبعد هذه الأفكار بكل ما أوتي من حزم. لكن، هل كان الأمر قد بلغ نهاية المطاف منذ انصراف طوني؟ لم يكن ذلك صحيحًا فيما يبدو، فها هو قابعٌ بمكانه متفكّرًا.إنّنا نفقد أعصابنا إزاء اقتراحٍ ما عندما نشعر أننا لا نثق في قدرتنا على مقاومته" فيا لها من شيطان، وبماذا واجهها هو؟ لقد عبر عن ذلك بعبارات شافية قاطعة، على قدر ما أسعفته الذاكرة: "احتكار دنس.. اصطياد بالماء العكر.. استغلال وحشي.. خداع رجل لا يملك من أمر نفسه شيئًا.. ربح ربوي.." ممتاز! إلا أنه سأل نفسه إن كان هذا هو الوقت المناسب للنزال بمثل هذه العبارات. وهي التي لم يكن القنصل هرمان هاجشتروم سيبحث عنها، ولم يكن ليجدها. فهل كان توماس بودنبروك رجل أعمال، رجلاً نزيهًا، أم كان رجلاً متأملاً عديم الضمير؟

حقًّا، كانت هذه هي المسألة، لقد كان ذلك هو سؤاله منذ زمن بعيد، منذ أصبح بوسعه التفكير! فقد كانت الحياة قاسية، ومجتمع الأعمال الخالي من المراعاة والعواطف لهو صورة مصغرة من هذه الحياة.

فهل كان توماس، مثل أسلافه، يقف على قدمين راسختين في هذه الحياة القاسية العملية؟ فغالبًا ما كان، منذ زمن بعيد، ما يجد أسبابًا للشك في ذلك، فكان عليه، منذ صباه، تصحيح مشاعره تجاه هذه الحياة..

إنها القسوة على الآخر، ومعاناة قسوة الآخر، فليس هناك غير القسوة،

بل الإحساس بأنها شيء بديهي – فلِمَ لم يتعلم الدرس كاملاً؟

إنه يتذكر ما كان لكارثة عام 1866 من أثرٍ على نفسه، كما استدعى ما عاناه من مشاعر أليمة داهمته آنذاك.

آنذاك كان قد خسر مبلغًا طائلاً.. آه، لم يكن هذا هو الطامة الكبرى! فقد داهمته هو نفسه وحشية مجتمع الأعمال المروعة بكل قوتها للمرة الأولى، عندما تراجعت كل الأحاسيس الطيبة الرقيقة المفعمة بالحب أمام غريزة الحفاظ على الذات، تلك الغريزة الفجة المجردة المستبدة.

عندما لم يشارك الأصدقاء، أعز الأصدقاء، في مصابهم، فلم يشعر بالتعاطف معهم بل بالريبة، ريبة باردة، ريبة رافضة. ألم يكن يعرف هذا؟ أما أنه استدعى ذلك ليعجب منه؟ ويا له من خجل أحس به من ذلك فيما بعد، في لحظات أفضل شعر أثناءها بالقوة من أنه كان يغضب آنذاك في لياليه المسهدة، وقد تملكه الاشمئزاز، وأحس بجرح غائر رافضًا هذه القسوة القبيحة السافرة.

فكم كان ذلك حماقةً! وكم كانت هذه المشاعر القلقة تافهةً دائمًا! وكيف كان لها أن تنشأ داخله؟ ليعود التساؤل مرةً أخرى: هل كان رجلاً عمليًّا، أم كان حالمًا رقيقًا؟

آه، لقد طرح هذا السؤال على نفسه ألف مرةٍ، ليجيب عليه في أوقات اليُسر تقريبًا هكذا– وفي أوقات العُسر تقريبًا هكذا. إلا أنه كان واضحًا وصادقًا حين لم يُضطر في النهاية إلى الاعتراف بأنه مزيجٌ من هذا وذاك.

وهو الذي قدم نفسه إلى الناس– طوال الوقت– على أنه رجل الأفعال، طالما كان يعتبر نفسه كذلك عن حق– ألم يكن هو كذلك، منطلقًا من

بصيرة واعية، على حد القول المأثور عن جوته الذي كان يؤثر ترديده..

ألم يكن ذلك نتاج الحماس والروح المتوثبة، التي يعود الفضل فيهما إلى إعمال الفكر والتأمل؟ ألم يكن هوانه وقلة حيلته، حفظه الرب من شرهما، هما نتيجة محتومة لهذه الحال غير المحتملة، وهذا التناقض غير الطبيعي والمستفز بداخله؟

فهل كان أبوه أو جده أو جده الأكبر سيشترون محصول بوبنزاده قبل حصاده؟ سيان!.. سيان!.. أم إنهم كانوا أناسًا يتمتعون بالروح العملية والكمال والقوة والجسارة والعفوية، على نحوٍ أعظم منه؛ كان هذا هو الفارق الواضح، يقينًا!..

وكان أن داهمه توتر عظيم دفعه إلى الشعور بالحاجة إلى حركة ومكان ونور. فأزاح كرسيه إلى الوراء، ومضى إلى الصالون ليوقد بعض المشكاوات المتدلية من الثريا أعلى الطاولة الوسطى.

ظل واقفًا هناك يبرم شاربه الطويل متوترًا، وهو ينظر- دون أن يرى شيئًا- في الغرفة الفاخرة، التي كانت مع غرفة المعيشة تحتل مساحة بعرض واجهة الدار كلها، وقد جُهزت بأثاث مموج فاتح اللون، واشتملت على جناح كبير مخصص للعزف، حيث يوجد بها صندوق الكمان الخاص بجيردا، وبجواره حامل مُثقل بدفاتر النوتة الموسيقية، ومنصة من الخشب المحفور، كما ازدانت أبوابها بنقش بارز يمثل ربات الموسيقى.

أما الشرفة، فكانت مملوءة بأشجار النخيل.

ظل السيناتور بودنبروك واقفًا لدقيقتين أو ثلاث، بلا حراك. ثم تمالك نفسه ليعود إلى غرفة المعيشة، ويدخل قاعة الطعام ويضيئها. ومضى إلى

البوفيه ليشرب كوبًا من الماء ليهدئ روعه، أو ليكون قد فعل شيئًا ما على الإطلاق، ليذهب مسرعًا ويديه خلف ظهره إلى داخل البيت.

أما غرفة التدخين، فكانت تحتوى أثاثًا من الخشب داكن اللون. وبحركة آلية فتح خزانة السيجار ليغلقه ثانيةً في الحال، ليرفع غطاء صندوق صغير من خشب البلوط فوق طاولة لعب الورق، الذي كان يضم أوراق لعبٍ ومفكرات وما شابه. ثم عبث ببعض ماركات اللعب، ليسمع رنينها بين يديه ليعيد إغلاق الغطاء ويدور على عقبيه ويمضى.

بجوار غرفة التدخين كانت هناك حجرة أخرى صغيرة بنافذة صغيرة ملونة. وكانت خالية إلا من بضع مناضد متداخلة وضع فوقها صندوق خمر. وكانت هذه الغرفة تفضى إلى القاعة التي كسيت أرضها بالباركيه، وبها أربعة نوافذ عالية مسدلة الستائر بلون النبيذ الأحمر، وتطل على البستان، وهي تحتل أيضًا مساحة بعرض الدار كلها.

كما كانت الحجرة تضم أريكتين واطئتين بلون الستائر الأحمر نفسه، وعددًا من المقاعد بمساند مرتفعة، صُفت بانتظام إلى الجدران. كما كانت هناك مدفأة وُضعت خلف سياجها قطعٌ من فحم اصطناعي، بدت متوهجة من خلال شرائط ورق لامع أحمر كالذهب؛ وأمام المرآة ارتفع فوق لوح من المرمر زوجٌ ضخم من أوانٍ خزفية.

كانت الغرفة مضاءةً كلها بنور شعلات غاز متناثرة، كأنها أُعدت لحفلٍ غادره للتو آخر الضيوف. وقد مضى السيناتور بطول الغرفة ليقف عند النافذة المواجهة للغرفة الصغيرة لينظر إلى البستان.

كان القمر قد علا بين ندف الغمام، بينما كانت أشعة النافورة تتكسر

برفق على أغصان شجرة الجوز. ثم نظر توماس إلى الكشك بنهاية البستان، وإلى الشرفة ومسلتيه وطرق الحصى المنسقة ومناطق الأعشاب والأحواض المستديرة المحروثة.. إلا أن هذا النسق البديع الرقيق لم يكن ليهدئ روعه، بل أثار هواجسه وأشقاه. فكان أن أمسك بمقبض النافذة ليريح جبهته عليه مستسلمًا لأفكاره المعذبة.

فإلى أي سبيل قادته؟ فها هو يتذكر ما قاله فيما مضى لأخته، وكان قد وجد ذلك تافهًا للغاية، بعد أن نطق به مباشرةً، وهو ما أثار سخطه على نفسه. وقد تناول بالحديث الدوق شترليتس ونبلاء الريف، فأعرب أثناء ذلك عن رأيه صراحةً وبوضوح بأنه يقر بتفوق المنتجين اجتماعيًّا على التجار الوسطاء.

هل كان هذا الرأي الصحيح؟ آه، يا إلهي، فلم يكن صواب هذا الرأى أو خطئه من الأهمية بمكان! فهل استدرج للإفصاح عن هذه الأفكار لتأمل ما يعتمل بأعماقه، أو حتى إدراكه؟ وهل كان بوسعه تصور كيف كان أبوه أو جده أو أي من جيرانه سيتتبع هذه الأفكار، وكيف سيعبر عنها؟ إنه فقط الرجل المتمرس بعمله الواثق به هو الذي لا يعرف ولا يعلم غير ذلك، ولا يقدِّر غير ذلك..

فجأةً شعر بالدم يفور برأسه ليمتقع وجهه، لما داهمته ذكرى أخرى أكثر قِدمًا؛ فها هو يمضي مع أخيه كريستيان في بستان منجشتراسه، وقد نشب بينهما أحد تلك الخلافات العميقة المؤسفة.

فقد كان كريستيان، بأسلوبه المستهتر المحرج، قد أعرب أمام كثيرين عن رأي مشين أغضبه هو وجعله يثور ثورةً عارمة؛ فقد قال كريستيان إن

كل تاجر هو في حقيقة الأمر ليس سوى محتال.. أهكذا؟ فهل كانت هذه العبارة الشائنة الوقحة تختلف في جوهرها عن تلك التي أقر بها لأخته منذ قليل؟ تلك العبارة التي استنكرها بقوة وصب عليها جام غضبه.. ولكن، كيف كان تعبير الصغيرة أنطونيا الخبيثة هذه؟ إن الذي يثور..

"كلَّا!" هكذا صاح السيناتور وهو يرفع رأسه دفعة واحدة مبتعدًا عن مقبض النافذة، ليصيح ثانيةً: "لقد انتهى الأمر!"، ثم زفر حشرجةً من حلقه ليتجاوز أي إحساس مقبض من أثر صيحته المفاجئة، ثم دار حول نفسه ليشرع في الذهاب والمجيء خلال جميع الغرف برأس منكسة، عاقدًا ذراعيه خلف ظهره.

ثم كرر: " انتهى الأمر! لابد من وضع نهاية لذلك. إنني أتسكع، إنني أغرق في مستنقع، ولسوف أصبح أكثر رعونة من كريستيان!"

أوه، لقد كان عليه أن يكون ممتنًا للغاية لمعرفته بالحال التي وصل إليها! وهكذا أصبح الأمر بيده ليصحح ما وقع! بالقوة!.. فلنر.. فلنر.. أي عرض قُدم إليه؟ المحصول.. محصول بوبنراده قبل حصاده "سأفعل ذلك!" قال هذا بهمس أليم، حتى إنه أشاح بيده رافعًا سبابته وهو يردد: "سأفعل ذلك".

فقد كان ذلك ما يُسمى "صفقة"؟ إنه الفرصة لمضاعفة رأس المال، تقريبًا أربعين ألف مارك ببساطة، وإن كان في ذلك شيء من التهويل؟.. حقًّا، لقد كان ذلك إشارة، علامة، من أجل النهوض ثانيةً! ليس سوى بداية جديدة، خطوة أولى؛ أما المغامرة المرهونة بذلك، فكفيلة بالرد على كل تأنيب ضمير حي.

فإذا ما وُفق في ذلك، فستعود الأمور إلى مسارها الطبيعي، وستكون بيده

المبادرة ثانيةً، وسوف يسلم الحظ والنفوذ إلى حيرته الباطنية المرنة.

ولسوف يضيع على السادة شترونك وهاجنشتروم هذا الصيد، للأسف! الذي أصبح من نصيب شركة أخرى بالمدينة نفسها، من خلال علاقتها الشخصية! فقد كانت العلاقة الشخصية هي العامل الحاسم في هذا الأمر.

فهي لم تكن صفقة عادية، تم إنجازها ببرود وعلى نحو مألوف. بل كان الأمر أكثر من ذلك، فقد جاءت نتاج وساطة طوني، أشبه بأمر داخلي شخصي، تم إنهاؤه بتحفظٍ والتزام.

آه، كلّا، لا يمكن أن يكون هِرمان هاجنشتروم صاحب هذه الصفقة!.. فسوف يستغل توماس كتاجر الظروف الاقتصادية وكذلك عند البيع، فيما بعد، سوف يعرف يقينًا كيف يستغلها، وهو على الجانب الآخر يسدى للمنتج المعوز معروفًا! الذي لم يكن ليعرفه إلا من خلال صداقة أنطونيا مع السيدة فون مايبوم. إذن فليكتب إليه.. – لا على ورق الشركة الموسوم بشعارها، بل على ورق مطبوع عليه "سيناتور بودنبروك"، سيكتب بأسلوب مفعم بالاحترام، ليسأل إن كان يسمح له بالزيارة خلال الأيام القادمة. إنه على كل حال موقف حرج، أرض زلقة لابد أن يسلك المرء طريقه خلالها بمهارة.. وهو الأجدر بذلك.

تسارعت خطاه وتلاحقت أنفاسه. فجلس للحظة ثم هب ليطوف ثانيةً بكل غرف البيت. وهو يعيد تأمل الأمر كله، ففكر في السيد ماركوس وهرمان هاجنشتروم وكيستيان وطوني، وهو يرى محصول بوبنراده الأصفر الناضج وهو يرفرف، ويسرح بخياله في رخاء الشركة الذي ستحققه هذه الصفقة، فطرد كل الأفكار وأخذ يهز يده ليقول: "سوف أفعلها".

وكان أن فتحت السيدة بيرمانيدر الباب المفضي إلى قاعة الطعام لتصيح: "تصبح على خيرا" فلم يرد لأنه لم يدر بذلك. ثم دخلت جيردا بعد أن ودعت كريستيان، وقد بدا في عينيها المتقاربتين على نحو نادر، بدا في عينيها السمراوين هذا الألق الغامض الذي تبعثه الموسيقى فيهما. وعلى نحوٍ تلقائي، ظل السيناتور واقفًا أمامها ليسألها آليًا عن العازف الإسباني، وعن مصير حفلة الموسيقى، ليؤكد لها بعد ذلك أنه سيخلد للراحة في الحال.

إلا أنه لم يفعل ذلك، بل واصل طوافه مفكرًا في الأجولة المليئة بالغلال، والحنطة السوداء والشوفان والشعير، التي ستكتظ بها مخازن "الأسد" و"الحوت" و"البلوط" و"الزيزفون"، مفكرًا في السعر الذي- أوه ليس هذا السعر على الإطلاق الذي ينوي عرضه على المنتج. وفي منتصف الليل، انسل بهدوء إلى المكتب ليكتب على ضوء شمعة السيد ماركوس إلى السيد فون مايبوم في بوبنراده خطابًا، ثم أخذ يطالعه وقد فار الدم برأسه المثقلة، ليجده أفضل وأذكى ما كتبه طوال حياته.

كان ذلك في ليلة السابع والعشرين من شهر مايو. وفي اليوم التالي فاتح أخته بأسلوب سلس مرح بأنه تأمل المسألة من جميع جوانبها، وأنه لن يترك ببساطة السيد فون مايبوم فريسة للآخرين.

وفي اليوم الثلاثين من الشهر نفسه سافر إلى روستوك، واستأجر هناك عربة ليسافر بها إلى الريف.

كان مزاجه في الأيام التالية قد وصل إلى أقصى درجات الاعتدال، وأصبحت حركته مرنة، فأصبح يداعب كلوتيلده، ويضحك من قلبه من كريستيان، ويمازح أنطونيا، ويلعب مع هانو يوم الأحد ساعةً كاملة على

الشرفة بالطابق الثاني، فكان يساعد ابنه في حمل أجولة غلال فارغة إلى مخزن صغير أحمر كالقرميد، مقلدًا صيحات العمال الممطوطة الجوفاء.

وفي اليوم الثالث من شهر يونيو كان يشارك في اجتماع بمجلس الشيوخ عن أكثر مسائل الدنيا مللاً، مسألة تتعلق بأمرٍ ما من أمور الضرائب، ملقيًا خطبة ممتازة فكهة، فحصد إعجاب الجميع. أما القنصل هاجنشتروم، المعارض له، فقد أصبح عرضة لسخرية الجميع.

الفصل الخامس

هل نسي السيناتور- أم تناسى- فقد كاد يغفل حدثًا أعلنته السيدة بيرمانيدر وأشاعته بين الناس؛ فهي أكثرهم اهتمامًا وإخلاصًا وحرصًا على سجل مذكرات العائلة. وقد كان الحدث هو أنه طبقًا لما ورد بالأوراق يكون السابع من يوليو عام 1768 يوم تأسيس الشركة؛ ولذا فإن العيد المئوي للشركة قد أصبح على الأبواب. وفيما يبدو أن توماس بودنبروك قد أحس بحرج لما ذكَّرته أنطونيا بهذا بنبرة صوتٍ متهدجة، فقد كانت حالته المعنوية المرتفعة قد تراجعت، فما لبث أن آثر العزلة، ولعلها صارت أكثر حدة عن ذي قبل؛ فكان أثناء انشغاله بالعمل يغادر مكتبه ليتجول بالبستان وقد تملكه القلق، وكان من حين لآخر يخفي عينيه بيديه ويزفر متنهدًا، فلم يعد لديه ما يقوله أو يفصح عنه، وإن فعل ففي مواجهة مَن؟ وهو الذي كان قد وجه اللوم إلى السيد ماركوس لأول مرة في حياته، عندما أخبره شريكه باقتضاب بعدم مشاركته في صفقة بوبنرادة، وعدم تحمله لنتائجها كذلك. كما كان قد أقدم يوم الخميس على مفاتحة أخته السيدة بيرمانيدر بمسألة المحصول، أثناء وداعه لها بالطريق، وقد ضغط على يدها برفقٍ هامسًا لها

بكلمات متلاحقة: "آه، طوني، إنني أريد بيع المحصول قبل حصاده" ثم أمسك عن الكلام فجأةً، ليمضي تاركًا أنطونيا تعاني دهشةً ألجمتها، وقد أحست بأن إمساكه بيدها على هذا النحو المفاجئ يخفى قنوطًا متفجرًا. أما كلماته الهامسة، فحملت كثيرًا من هواجسه المكبوتة منذ زمنٍ بعيد. فلما حاولت أنطونيا إثارة الموضوع ذات يوم، مرةً أخرى، كان دافعه إلى الصمت هذه المرة أقوى، وقد اعتراه الخجل من ضعفٍ طرأ عليه في تلك اللحظة، وأحس بمرارةٍ طاغية لإحساسه بعدم قدرته على تحمل نتائج هذه الصفقة.. وقد أحس بالضيق آنذاك وهو يقول بروية: "آه، يا حبيبتي، كم كنت أود إغفال هذه المناسبة ببساطة!".

"أأنت الذي تغفل هذه المناسبة، توم؟ محال، كيف تراودك مثل هذه الفكرة؟ وهل بوسعك تجاهل هذا الأمر الواقع؟ فالمدينة كلها لا يمكن لها إغفال أهمية هذه المناسبة".

"إنني لم أغفل ذلك، بل قصدت أن نقضى هذا اليوم في هدوء؛ فالاحتفاء بالذكرى أمرٌ طيب، إن كنا مطمئنين على أحوالنا الآن وفي المستقبل. فذكرى الآباء هو أمرٌ مهم في حالة تمسكنا بسيرتهم والسير على دربهم. وليت هذه الذكرى تجيء في موعد أنسب من هذا. وموجز القول إنني في حالةٍ لا تسمح لى بالاحتفال بالمناسبات".

"كف عن الحديث بهذا الأسلوب، توم، فأنت لا تعرف مغزى ما تقول، وأنت تعلم أن العيد المئوي لشركة يوهان بودنبروك لن يمر دون احتفال. أنت تعاني توترًا ما، وأنا أعرف سر هذا، ومهما كان السبب، فإنك ستسعد بهذه الذكرى، شأننا جميعًا".

كان الصواب في جانبها. فمثل هذه الذكرى لم تكن لتمر في صمتٍ وهدوء. فلم يمض وقت طويل حتى نشرت جريدة الإعلانات كلمة تشير إلى نشر سيرة هذه الشركة العريقة في يوم الاحتفال، ولم يكن التجار المرموقون بحاجة لمن يذكرهم بذلك. فكانت عائلة كروجر أول من بادر يوم الخميس بالحديث عن المناسبة المنتظرة، وكانت السيدة بيرمانيدر قد اهتمت بعد رفع أطباق الحلوى من المائدة، بأن تضع عليها دفتر سجل تاريخ العائلة بحافظته الفاخرة من الجلد. وأخذت تحتفي- قبل الاحتفال- بتفاصيل سيرة الراحل يوهان بودنبروك، الجد الأكبر لجد هانو، مؤسس الشركة، فتذكر يوم إصابته بالحصبة، وإصابته بالجدري المائي، ويوم هوى من الطابق الثالث فوق الفرن، ويوم هاجمته حُمى شديدة مصحوبة بالهذيان، وأخذت تتلو ذلك بجلالٍ وورع. فلم تُغفل أمرًا ما، فقد ذكرت تاريخ القرن السادس عشر حين كان بودنبروك الأكبر رجلاً مشهورًا! إذ كان عضوًا بمجلس شيوخ مدينة جراباو، كما ذكرت خياط روستوك "ميسور الحال"، وكان هناك خطٌ أسفل هذه الإشارة، وكان الرجل قد أنجب كثيرًا من الأبناء، منهم من قضى نحبه ومنهم من ظل على قيد الحياة، وقد صاحت عند ذكر اسمه: "يا له من رجلٍ رائع"، ثم عكفت على تلاوة بعض الرسائل، وإلقاء بعض قصائد الشعر القديمة من أوراق صفراء مهترئة.

❖

كان أول من تقدم بالتهنئة في يوم السابع من يوليو هو السيد فنتسل بطبيعة الحال، فأمسك بالموسى والمسن وراح يحركهما في الهواء، وهو يقول:

"حقًّا، جناب السيناتور، لقد مر قرنٌ من الزمن. وبوسعي زعم أن نصف هذا الزمن قد انقضى وأنا قائمٌ على العناية بأذقان العائلة الكريمة، ومشاركتها ذكرياتها، وكنت دائمًا أول من يتلقى حديث رب الأسرة، وكان المرحوم السيد القنصل يشتهي الحديث في الصباح، فكان يسألني: "فنتسل! ما رأيك بالحنطة السوداء، هل أقدم على البيع، أم أنك ترى أن سعرها بالسوق يزداد ارتفاعًا؟"

"حقًّا، فنتسل، فأنا كذلك ليس بوسعي التفكير في أيٍّ من هذه الأمور دون مشورتك. وقد كنت أقول أحيانًا إن مهنتك لعملٌ شائق، فإذا أنت فرغت من عملك صباحًا، أصبحت أكثر الناس فهمًا للأمور، بعد أن تكون قد جعلت تقريبًا كل كبار العائلات العريقة تحت حد الموسى، وخبرت سر كل منهم لتصير موضع حسد الجميع، وهذا أمرٌ ممتع للغاية".

"إن ما ذكرته جناب السيناتور ينطوي على جزء من الحقيقة، إلا أنني- إن أذنت لي- أقول إن جناب السيناتور اليوم ممتقع الوجه بعض الشيء".

"هكذا، حقًّا، فأنا أعاني من الصداع، ولن أشفى منه سريعًا كما أظن، لأنني أتوقع أنهم سيشغلونني اليوم إلى حدٍّ ما".

"وهو ما أتوقعه أنا أيضًا، جناب السيناتور، فالضيوف كثيرون، كثيرون للغاية، ولتلقِ فيما بعد نظرةً من النافذة لترى مدى انتشار الرايات، وكذلك فوق "فيشر جروبه"، كما ترفرف الأعلام أيضًا على سفينتي "فولينفيفر" و"فريدريكه أوفرديك".

"فعليك إذن أن تسرع، فنتسل، فلم يعد أمامنا وقت".

في هذا اليوم، لم يبادر السيناتور إلى ارتداء سترة العمل، بل أسرع إلى ارتداء سترةٍ سوداء فوق صدرية بيضاء وسروال فاتح اللون، فقد كان بانتظار

مقدم ضيوف ضحى هذا اليوم، ثم نظر في مرآة الحمام نظرةً أخيرة إلى وجهه، ومر بالمكواة على طرفي شاربه الطويل، ثم زفر زفرةً قصيرة ليمضي إلى حال سبيله.. ثم دبت الحركة.. فهلا انتهى هذا اليوم الآن وهو في بدايته. ألم يعد بوسعه الاختلاء بنفسه للحظات؟ وهل بمقدوره إراحة أعصاب وجهه؟ فعليه، طوال اليوم، القيام باستقبال مئةٍ من الضيوف، متسمًا بالجلال والفطنة، وعليه كذلك أن يعبر في كل مناسبة بيقظة وملائمة، بالعبارات المناسبة المفعمة بالود والوقاروالجد، وبروحٍ مرحة ظريفة رقيقة سلسلة.. لتلي ذلك وليمةٌ بمطعم مجلس الشيوخ، تستمر من العصر إلى وقتٍ متأخر من الليل. والحق أنه لم يكن يعاني صداعًا، فقد كان مجهدًا فحسب. فما أن زايله سلامٌ نعم به في الصباح الباكر حتى داهمه شعورٌ بضيقٍ لا يعلم سببه، ظل يقض مضجعه، فما سر ادعائه؟ ألم يكن دومًا على تلك الحال، حال من يعاني وخز الضمير. إلا أن الوقت لم يعد يسمح له بالانشغال بمثل هذه الأمور. فها هو يدخل قاعة الطعام لتستقبله جيردا بحفاوةٍ، وقد كانت هي الأخرى مرتديةً ثياب الاستقبال، تنورةً من نسيج استكلندي ناعمٍ وبلوزة بيضاء فوقها سترةٌ صغيرة، يتسق لونها مع لون شعرها الكث الأحمر القاني. وقد كشفت بسمتها عن أسنانٍ عريضة متسقة، وبدت بشرة وجهها الجميل أكثر إشراقًا، كما تألقت عيناها المتقاربتان الغامضتان السمراوان بالهالات الزرقاء التي تحيط بهما.

"لقد ظللت ساعاتٍ واقفًا على قدمي، وبهذا يكون بوسعك إدراك مدى حرارة تهانئي لك".

"وها أنا أرى مدى أثر السنين المئة عليك".

"ويا له من أثرٍ عظيم، لكن قد يكون هذا من آثار الحفل وحده.. فيا له من يومٍ جليل".

ثم أومأت إلى طاولة الفطور المزدانة بزهور قُطفت من البستان، لتقول: "لقد أنجزت الآنسة يونجمان هذا العمل، لكن لا تظن أنك سوف تتناول الشاي. فأبرز شخصيات العائلة بانتظارك بغرفة المعيشة، محملين بهدايا هذه المناسبة، وهو ما لم يفتني أنا أيضًا. توماس! اصغ إليَّ، فالآن سوف يبدأ صخب وضجيج الزيارات، وسوف أتحمل ذلك مبدئيًّا، إلا أنني سوف أنسحب في الظهيرة، هذا ما شئت إبلاغك به، وبرغم تراجع درجات الحرارة إلا أن السماء ما تزال صافية، وهو ما يتفق مع الرايات التي ترفرف فوق المدينة، لكن سرعان ما ترتفع درجات الحرارة إلى حد رهيب. فلتدع الفطور وهلم بنا إلى هناك، فقد استيقظتَ متأخرًا، فالآن عليك تلبية نداء معدتك الخاوية. وفي غرفة المعيشة قابلا القنصلة وكريستيان وكلوتيلده وإيدا بونجمان. أما السيدة بيرمانيدر وهانو فبدا عليهما شيء من الإرهاق وهما يحملان هدية العائلة: لوحة تذكارية ضخمة، فكان أن احتضنت القنصلة ابنها البكر في تأثرٍ شديد، وهي تقول له: "يا له من يوم جميل، يا ابني العزيز، فلا تنس شكر الرب على كل نعمائه وهباته.."، ثم بكت.

أصاب العناق السيناتور بشيءٍ من الضعف، كأنما كان بداخله شيء مغلول أطلق سراحه، فإذا بشفتيه ترتجفان وقد أحس باحتياج عميق للبقاء في حضن أمه، مغمض العينين فوق صدرها، متنسمًا عطرها الحاني الذي يضوع من بين ثنايا ثوبها الحريري الناعم، فقبلها ثم ارتد ليمد يده نحو أخيه الذي صافحه، وهو شارد الذهن مضطرب، وهي حالة تصاحبه أثناء

الاحتفالات. أما كلوتيلده فهنأته بودٍ ببعض العبارات الممطوطة، وأما الآنسة يونجمان فقد اكتفت بإنحناءةٍ عميقة عبثت أثناءها بكاتينة ساعتها الفضية المتدلية من صدرها المسطح، وقالت السيدة بيرمانيدر بصوت مشوب بالتأثر: "تعال، توم! فلم نعد، أنا وهانو، قادرين على حملها". هذا برغم أنها كانت تحمل اللوحة وحدها تقريبًا، فلم يكن ذراعا هانو ليتحملا كثيرًا، أما هي فقد أوحت، من خلال عبئها السعيد، بمظر المضحية الشهيدة راضية النفس، أما عيناها فكانتا مغرورقتين وقد ازداد تورد وجنتيها، وكانت تلوك بطرف لسانها شفتها العليا على نحو يجمع اليأس بالعبث.

أما السيناتور فقال: "نعم، أنا آتٍ إليكما، ما هذا؟ تعاليا، فأنا بحاجةٍ إلى عونكما لنصبها". ثم وضع اللوحة إلى الحائط بجوار البيانو، وبقي واقفًا عندها بين أفراد أسرته.

كان إطار اللوحة من خشب الجوز المحفور، يحيط بصورةٍ ورقية وراء زجاج تظهر أصحاب شركة يوهان بودنبروك الأربعة، وقد نُقش أسفل كل منهم الاسم والتاريخ بحروفٍ مذهبة. وقد برزت صورة يوهان بودنبروك، مؤسس الشركة، وهي صورة نُقلت عن لوحة قديمة رُسمت بالزيت، فبدا رجلاً طويل القامة، صارمًا متقدمًا في العمر، وقد أطبق شفتيه متجاوزًا عباءته بنظرة مفعمة بالحزم وقوة الإرادة. كما ظهر بها أيضًا وجه يوهان بودنبروك العريض اللطيف، صديق جان جاك هوفشتده، وهناك كان كذلك القنصل يوهان بودنبروك بذقنه المختنقة بياقة قميصه العالية وأنفه الضخمة المعقوفة بحدة، وفمه العريض كثير التجاعيد، وقد ارتسمت في عينيه أمارات الذكاء والتبتل الديني، ليأتي في النهاية توماس بودنبروك نفسه، وقد

بدا أصغر سنًا عن سنه الآن. وكانت هنا سنبلة نقية مذهبة تتخلل الصورة التي برق أسفلها رقمان متجاوران مهمان مذهبان لعامي 1768 و 1868. وتصدر أعلى رؤوس الجميع قولٌ مأثور، كُتب بخطٍ قوطي بارز، حتى يعمل به الأبناء: "بني، أنجز أعمالك بهمة نهارًا، ولا تؤد منها سوى ما يجعلنا ننام ليلاً ملء جفوننا".

وكان السيناتور قد وقف أمام اللوحة ليتأملها طويلاً، عاقدًا ذراعيه خلف ظهره. ثم قال فجأة بنبرةٍ كانت أقرب إلى التهكم: "حقًا، حقًا، فالنوم ملء الجفون ليلاً لهو أمرٌ حسن". ثم عاد إلى جديته، وإن كانت عابرة، ليقول للجميع: "أشكر لكم جزيل الشكر أيها الأعزاء! إنها هديةٌ رائعة معبرة!.. لكن أين أعلقها؟ في مكتبي الخاص؟".

فأجابت السيدة بيرمانيدر: "نعم، توم، أعلى مكتبك، بغرفة عملك"، ثم احتضنت أخاها لتقوده إلى الشرفة مشيرةً إلى الخارج. حيث كانت رايات من لونين ترفرف في سماء الصيف بلونها الأزرق الداكن، أعلى الدور كافة في "فيشرجروبه"، ومن شارع برايتنشتراسه حتى الميناء، حيث ارتفعت الأعلام فوق "فولينفيفر" و"فريدريكه اوفرديك"، تكريمًا لمالكي السفينتين. ثم قالت السيدة بيرمانيدر بصوت متهدج: "هكذا احتفلت المدينة كلها.. ولقد ذهبت لأتنزه، توم، فوجدت آل هاجنشتروم أنفسهم قد رفعوا الرايات، فهل كان بمقدورهم غير ذلك.. وكم تمنيت رشق نوافذهم.." أما هو فابتسم، ثم قادته عائدةً إلى الطاولة.

"ها هي برقيات تهنئة، توم.. الأولى منها بالطبع، برقياتٌ شخصية من أفراد عائلتنا المقيمين بالخارج، أما البرقيات الأخرى فقد أُرسلت إلى

المكتب، وقد أرسلها أصدقاء عملك". ثم قاما بفض بعض البرقيات التي أُرسلت من هامبورج وفرانكفورت، ومن السيد أرنولدسن وأقاربه في أمستردام، ومن يورجن كروجر من مدينة فيسمار.. وفجأةً امتقع وجه السيدة بيرمانيدر بشدة، لتعطي لأخيها برقية كانت فتحتها وتقول: "إنه رجل طيب، على طريقته الخاصة". وكانت البرقية ممهورةً بتوقيع بيرمانيدر. أما السيناتور فقال: "قد يسرقنا الوقت".

ثم رفع غطاء ساعة جيبه ليردف: "أريد شيئًا من الشاي، فهل تأتون معي؟ لأن الدار بعد قليل سوف تغص بالضيوف".

إلا أن زوجته وافقته بإشارةٍ منها إلى إيدا يونجمان: "لحظةً، توماس، أنت تعرف أن هانو سيذهب حالاً إلى الدرس الخصوصي.. وهو يريد إلقاء قصيدة من أجلك.. تعال هانو، فتخيل أنه لا أحدًا هنا، فلا تنزعج".

كان الصغير يوهان، أثناء العطلة الصيفية في شهر يونيو، قد تلقى درسًا خصوصيًّا في الحساب حتى يتمكن من اللحاق بأقرانه في هذه المادة. ففي مكانٍ ما من ضاحية سانت جرترود، بغرفةٍ صغيرة قائظة، تنبعث منها رائحةٌ لا تسر، كان ينتظره رجلٌ بلحية حمراء وأظافر متسخة، ليدربه على "جدول الضرب" البائس؛ ولكنه شاء قبل ذلك أن يلقى أمام أبيه قصيدة كان قد تدرب عليها جيدًا مع إيدا يونجمان بشرفة الطابق الثانى. وكان قد ارتدى زي بحارة كوبنهاجن ذا الياقة العريضة من الكتان، ومنديل العنق الأبيض، وعقدة البحارة الثقيلة البادية أسفل الياقة، وجلس إلى البيانو عاقدًا ساقيه الرقيقتين، مائلاً برأسه وجذعه بعض الشيء، فبدا على وضع لطيف تطغى عليه الرهبة وعدم الخبرة. كان قد هذب شعره المسترسل قبل أسبوعين أو

ثلاثة، بعد أن أخذ زملاؤه بالمدرسة بل ومعلموه كذلك يسخرون منه. إلا أن شَعر رأسه ظل كثًّا ذا خصلات ناعمة، وقد نما بغزارة في ناحية رأسه لرقبته وفوق فوديه. وكان يحتفظ بجفنيه شبه مغمضين، حتى إن رموشه السمراء الطويلة كانت تتصل بالهالات الزرقاء حول عينيه. إلا أنه كان يدرك ما سيجري، فلسوف يبكي يقينًا، ولن يكون بوسعه إنهاء القصيدة دون بكاءٍ ينقبض له القلب، مثلما حدث يوم الأحد بكنيسة سانت ماريا، عندما قام عازف الأرغن السيد بفيل بعزف قطعة موسيقية فرحة مؤثرة.. سوف يبكي، كما بكى دائمًا عندما كان يُطلب منه أن يعبر عن نفسه، أو يمتحنه أحدهم، أو يختبر إمكاناته أو سرعة بديهته؛ وهو أمرٌ أثير لدى أبيه. فيا ليت أمه لم تحذره من الانفعال! رغبة منها في تشجيعه، إلا أنه أحس بنقيض ذلك.

فها هم قد وقفوا هناك ينظرون إليه، وهم يخشون ويتوقعون بكاءه.. فهل كان من الممكن ألَّا يبكي؟ فرفع جفنيه باحثًا عن عينى إيدا التي كانت تعبث بكاتينة ساعتها وتومئ إليه برأسها، تلك الإيماءة المتحفظة للغاية.

وتملكه شعورٌ ملح للاحتماء بها، لتمضي به بعيدًا فلا يسمع منها سوى: اطمئن، يا صغيري هانو، فأنت لست مضطرًّا لقول شيء.. أما السيناتور فقال باقتضاب: "حسنًا، بني، إننا نصغي إليك". وجلس بمقعدٍ إلى المائدة منتظرًا، ولم يبتسم اليوم على الإطلاق. بل إنه في هذا اليوم كان يضن بالابتسام أكثر مما اعتاد بالمناسبات الأخرى. وسدد إلى يوهان الصغير نظرة مفترسة، بل خالية من أية مشاعر، وهو يرفع أحد حاجبيه. أما هانو فقد استقام ومسح براحة كفه خشب البيانو المصقول، وأخذ يطوف على الحضور بنظرة واجفة،

وقد تشجع قليلاً بنظرات جدته وعمته أنطونيا المطمئنة، فقال بنبرة هامسة وصوت جاف بعض الشيء: "أغنية راعي يوم الأحد.. تأليف أولاند".

فصاح السيناتور: "أوه، عزيزي، لا تفعل ذلك، لا تتعلق هكذا بالبيانو، ولا تعقد يديك فوق بطنك.. فلتأخذ راحتك! أو انطلق في الحديث! وهو ما عليك فعله أولاً، فلتقف هناك بين الستائر! وارفع رأسك.. وأنزل ذراعيك إلى جانبك"، فأنزل هانو ذراعيه، ووقف عند عتبة غرفة المعيشة، رافعًا رأسه تلبيةً لأمر والده، إلا أنه احتفظ بجفنيه شبه مطبقين إلى حد أن اختفت عيناه خلفهما، وقد تكونان اغرورقتا بالدمع. ثم قال بصوت هامس تمامًا: "إن هذا ليوم الرب" ليرتقع صوت أبيه مقاطعًا: "الإلقاء يبدأ بالانحناء يا بني!، كما لابد من أن ترفع صوتك، مرةً أخرى من فضلك! "أغنية راعي يوم الأحد.."

كان ذلك قسوة، كما كان القنصل يدرك بأنه يسلب ابنه ما تبقى لديه من ثبات ومقاومة، إلا أنه كان على الصبي ألا يسمح له بذلك، كان عليه ألا يترك نفسه للتضليل، بل كان عليه أن يكتسب ثباتًا ورجولة.. فكان أن قال مكررًا بعناد متشجعًا: "أغنية راعي يوم الأحد" وهكذا كان قد قُضي على هانو؛ فقد نكس رأسه إلى صدره، وأخذ يجذب الستائر الملونة بيده اليمنى المتشنجة شاحبة اللون بعروقها الزرقاء، وقد برزت من سوار زي البحار المزدان بالهلب. ثم أنشد: "ها أنا وحيدٌ بالمرعى الشاسع". ليتوقف بعد ذلك تمامًا، وقد تلبسته روح القصيدة المقبضة، حتى بلغ تأثره الشديد بحالته حد أن احتبس صوته تمامًا. وقد غلبه شعور بالحنين إلى ليالٍ لزم فيها الفراش عليلاً، يكابد آلام حلقه وآلام ارتفاع درجة حرارة مفاجئ، فكانت إيدا

توافيه بالدواء وكمادات باردة تضعها على جبينه. وكان أن انتحى جانبًا مريحًا رأسه فوق يده المتشبثة بالستار، وانخرط في البكاء؛ فهاج السيناتور وماج، وهو يقول: "إنه أمر مؤسف". ثم قام مواصلاً كلامه وهو يقول: "ما سر بكائك؟ إن بكاءك يعني أنك لم تجتهد حتى تبعث في نفسي السرور في يوم كهذا. فهل أنت صبية صغيرة؟ فإلى أي مصير يؤول حالك إن ظللت هكذا؟ وهل ستبكي في المستقبل إذا تعين عليك الحديث إلى الناس؟" فقال هانو لنفسه قانطًا: "كلا، لن أحادث الناس أبدًا".

أما السيناتور فقد انتهى إلى قوله: "فلتراجع نفسك في ذلك حتى عصر اليوم!"، ثم مضى إلى قاعة الطعام، بينما كانت إيدا يونجمان تجثو أمام مخدومها لتكفكف دمعه.

بينما كان توماس يتناول طعام فطوره على عجل، استأذنته القنصلة وكذلك أنطونيا وكلوتيلده وكريستيان في الانصراف، فقد اتفقوا على تناول طعام الغداء في هذا اليوم هنا لدى جيردا، أيضًا مع آل كروجر، وفاينشينك وسيدات بودنبروك، على أن يتناول السيناتور طعام العشاء في مطعم المجلس، خيرًا كان أو شرًا، مقررًا البقاء هناك حال فقدانه الأمل للقاء العائلة بداره ليلاً. وعلى المائدة المكللة بالزهور، احتسى الشاى الساخن من طبق يوضع أسفل القدح، وتناول على عجل بيضة واحدة، ودخن عدة أنفاس من سيجارته أثناء هبوطه السلم، بينما كان جروبلبين يخترق البستان إلى الممر الأمامي، وقد لف حول عنقه– في هذا الوقت من الصيف– شالاً من الصوف حاملاً حذاءً طويلاً فوق ساعده الأيسر، ممسكًا بفرشاة المسح بيده اليمنى، فيما مسح قطرة طويلة من أنفه، ليلاقي سيده أسفل السلم الرئيسي، حيث

كان الدب البني يقف حاملاً بطاقات الزيارة قائلاً: "أجل، جناب السيناتور، إنه قرن من الزمان.. وفريق من الناس فقير وآخر غني.."

فرد السيناتور: "حسنًا جروبلبين، كل الأمور على ما يرام!" ودس بعض المال في يده الممسكة بالفرشاة، ثم اجتاز الممر إلى مكتب الاستقبال المجاور. وفي المكتب الرئيسي التقاه الصراف مقدمًا له تحيات جميع الموظفين بعبارات التهنئة المنمقة، وكان الصراف يتمتع بقامة طويلة، وعينين مفعمتين بالإخلاص. فشكره السيناتور ببضع كلمات، ثم توجه إلى موقعه بجوار النافذة. وما إن شرع في مطالعة الصحف وفض البرقيات حتى دق الباب المفضي إلى الممر ليهل المهنئون، وكان هؤلاء وفدًا من ستة رجال من عمال المخازن، تقدموا نحوه بخطى واسعة ثقيلة كخطى الدببة، وهم يديرون قبعاتهم بأيديهم، ويزمون أشداقهم على نحو متحفظ. وإذا بالمتحدث باسمهم يبصق عصارة تبغه البني على أرض الحجرة، ويشد سرواله إلى أعلى، ليقول بنبرة متهدجة فجة: "مائة عام، والعقبى لمئات أخرى.." فكان أن أمر السيناتور لهم بعلاوة كبيرة عن هذا الأسبوع، ثم ودعهم. ثم وفد بعضهم ليقدموا باسم موظفي الضرائب التهنئة لرئيسهم. فلما خرجوا التقوا عند الباب بعض البحارة، بقيادة اثنين من الربابنة نيابةً عن العاملين بالسفينتين فولينفيفر وفريدريكه اوفرديك، الراسيتين آنذاك بمرسى الميناء. ثم وصل وفد من حمالي الغلال، وقد ارتدوا قمصانًا سوداء وسراويل وقبعات صلبة مستديرة. وأثناء ذلك كان يتوافد الموظفون فرادى. وقد جاء كذلك الخياط شتوت من شارع جلوكنجيسر، مرتديًا سترة سوداء فوق قميص من الصوف. وكذلك بعض الجيران مثل بائع الزهور ايفرسن الذي قدم التهنئة. وساعي

بريد عجوز أشيب اللحية، متحليًا بقرطين بأذنيه، وكان يعاني من رمد بعينيه، فبدا كالمهرج الأصيل. كان السيناتور قد اعتاد في المناسبات السعيدة أن يخاطبه في الطريق بلقب مأمور مصلحة البريد، وصاح الرجل عند الباب: "ليس من أجل ذلك جئت إليك جناب السيناتور، ما جئت من أجل هذا الذي يشيعه الناس عن هبات تُنفح هنا– ما جئت من أجل هذا..!" إلا أنه برغم ذلك تلقى بعض المال ممتنًّا.. ولم يكن لهذا نهاية، فما إن اقتربت الساعة من العاشرة والنصف حتى كانت الخادمة تعلن أن قرينة السيناتور تستقبل أول الضيوف بالصالون، فغادر توماس بودنبروك مكتبه ليصعد السلم الرئيس، وهناك– أمام باب الصالون– وقف أمام المرآة لنصف دقيقة ليصلح رباط عنقه، ويستنشق عطر الكولونيا من منديل جيبه. وبرغم سخونة جسده، إلا أنه كان ممتقع الوجه، بينما كانت يداه وقدماه تعاني من البرودة. فكان أن تنهد ثم دخل الغرفة المشمسة، ليقبل محييًا كلًّا من القنصل هونيوس تاجر جملة الأخشاب، صاحب الملايين الخمسة، وقرينته وابنته وزوجها السيناتور السيد الدكتور جيسكه. كما جاء أيضًا سادة وسيدات من ترافيمنده، بعد أن قضوا– كعادة العائلات العريقة– شهر يوليو هناك، وقد قطعوا عطلة المصيف فقط من أجل تهنئة آل بودنبروك بالعيد المئوي. وما إن استقروا فوق مقاعد الفوتي لثلاث دقائق، حتى دخل القنصل أوفرديك، ابن العمدة المتوفى بصحبة قرينته المنتمية لآل كيستنماكر. فلما عزم القنصل هونيوس على الانصراف أقبل أخوه، الذي كانت ثروته تقل عن ثروة أخيه بمليون مارك، إلا أنه كان في المقابل يحمل لقب "سيناتور".

وها قد حان وقت بدء الحفل، فلم يكد الباب الأبيض الكبير، المزدان

بنقش الربات العازفات، ليبقى للحظة مغلقًا، وهو يمنح أثناء ذلك فرصة رؤية مسقط السلم الغارق في الأنوار، وكذلك رؤية السلم الرئيسي نفسه الذي لم يتوقف الضيوف عن صعوده أو نزوله. ولما كان الصالون رحيبًا، ولما تحلق الحضور في جماعات يتحاورون، بدا القادمون أكثر عددًا من المغادرين. وسرعان ما ضاق الصالون بالضيوف، لتتغاضى الخادمة عن فتح الباب وإغلاقه، ليجتمع الحضور كذلك في الممر ذي الأرض المكسوة بالباركيه، ليواصلوا أحاديثهم هناك. واختلطت أصوات رجال ونساء مجلجلة عالية، بين مصافحات هنا وانحناءات هناك، ومزاح وقهقهات تردد صداها بين أعمدة مسقط النور وسقف المكان الزجاجي، بينما كان السيناتور يتلقى التهاني على مقدمة الدرج مرةً وأخرى على عتبة الشرفة من ضيوفه، وهم يهمهمون بعبارات رسمية وحارة ومن الأعماق. أما العمدة الدكتور لانجهالس فقد استُقبل بجفاوة من الجميع، وكان رجلاً بدينًا ذا لحية قصيرة بيضاء، وعينين أجهدهما العمل الدبلوماسي. كما جاء أيضًا القناصل إدوار كيستنماكر، تاجر النبيذ، ومعه قرينته سليلة عائلة مولندروف، وكذلك أخوه وشريكه شتفان الذي يُعد أكثر أنصار السيناتور بودنبروك وفاءً، وقد اصطحب معه قرينته التي تتمتع بصحة فائقة الحد، وهي ابنة لأحد ملاك الأراضي. أما أرملة السيناتور مولندورف، فجلست فوق أريكة متصدرة الصالون حينما وصل ابنها القنصل أوجست مولندروف وقرينته يولشن ابنة آل هاجنشتروم، فقدما التهاني، ثم قاما بتحية الضيوف. وكان القنصل هرمان هاجنشتروم قد اتكأ بجسده الضخم على سور الدرج، وقد احتل أنفه الأفطس مكانه فوق شفته العليا، لينفث مُجهَدًا أنفاسه في لحيته الحمراء، وقد

أخذ يجذب أطراف الحديث مع السيناتور دكتور كريمر مدير الشرطة ذي اللحية الكستنائية التي وخطها الشيب، وأحاطت بوجهه المبتسم في شيء من المكر البريء. كما حضر وكيل النيابة الدكتور موريتس هاجنشتروم الذي افترت ابتسامته عن أسنان مدببة مشقوقة، وبرفقته قرينته الجميلة وهي من عائلة بوتفاركن من هامبورج. وقد رأى البعض لحظة أن أمسك الدكتور جرابو العجوز بكلتا يديه يد السيناتور بودنبروك اليمنى، ليدفعه بعد ذلك في الحال المقاول فويجت، بينما كان القس برنجزهايم يرتقي الدرج، وهو مشرق الوجه فاردًا ذراعيه، وقد ارتدى حلة مدنية، فلم يشر إلى مكانته الدينية إلا سترته الطويلة. كما وصل أيضًا فريدريك فيلهلم ماركوس، وبعض من يشغلون مناصب عامة في مجلس الشيوخ ومجلس المواطنين والغرفة التجارية، وقد ارتدوا جميعًا زي التشريفة. وفي الحادية عشرة والنصف كانت حرارة الجو قد بلغت أقصاها، وكانت ربة الدار قد انسحبت قبل ذلك بربع الساعة.. فجأة ارتفع بالطابق الأرضي عند باب مسقط الهواء صخب ثقيل عارم، فبدا ذلك مثل سيل من البشر تدفق إلى الممر، وفى الوقت نفسه رن صوت صاخب مدوٍ ساد الدار كلها، فهرول الجميع إلى السور، وخرجوا متدافعين من أبواب الصالون وقاعة الطعام وغرفة التدخين، ونظروا ليروا سربًا من خمسة عشر إلى عشرين رجلاً بآلاتهم الموسيقية يقودهم رجل وضع على رأسه باروكة كستنائية اللون، ذو لحية بيضاء كلحى البحارة، وقد كشر عن طاقم أسنان عريضة مصفرة، وهو يتحدث بصوت عالٍ. كان القنصل بيتر دولمان قد اصطحب فرقة مسرح المدينة، وراح يرتقي الدرج متباهيًا، وقد أخذ يلوح بيده بباقة من برامج أعدها للحفل. ووسط

هذا الضجيج الغريب بدأت الأصوات تتداخل، وتبتلع الأنغام بعضها البعض لتفقد معناها، وقد طغى عليها صوت آلة الباس الضخمة، التي ينفخ فيها رجل بدين بدت على وجهه ملامح اليأس؛ وهكذا أخذت الجوقة المحتفية بعيد بودنبروك المئوي في العزف، ثم أخذت تنشد أغنية جماعية: "فلنشكر جميعًا الرب" ثم مختارات من "هيلينا الجميلة" لأوفنباخ، ثم ألحقوها بمجموعة من الأغاني الشعبية. كانت هذه فكرة جميلة من أفكار دولمان! هنأه عليها الجميع، ولم يعد بوسع أحد مغادرة المكان قبل نهاية العزف الموسيقي. جلس الجميع أو وقفوا في الصالون وبالممر ليستمعوا ويثرثوا، بينما كان توماس بودنبروك قد وقف مع شتفان كيستنماكر والسيناتور الدكتور جيسكه والمقاول فويجت على جانب الدرج الرئيسي، عند الباب الخارجي لغرفة التدخين، غير بعيد من الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني.

وقف توماس هناك مريحًا ظهره إلى الحائط، مشاركًا في الحديث بكلمة من هنا أو هناك، وهو ينظر أحيانًا شاردًا من فوق السور. وازداد ارتفاع درجة الحرارة واشتدت وطأتها. إلا أنه كان هناك احتمال بسقوط المطر، بعد أن تلبدت السماء بالغيوم، وقد انعكس ظلها المتدافع فوق مسقط النور، وظلت الغيوم تتدافع بسرعة متلاحقةً مما جعل ضوء مسقط النور يهتز ليسبب في النهاية ألمًا للعيون؛ فما أن يخبو وميض الجص المذهب والثريا النحاسية والآلات الموسيقية بالطابق الأرضي حتى يعاود التألق ثانيةً. فلما استقرت الظلال لفترة أطول إذا بخبط واهن لشيء صلب فوق غطاء مسقط النور؛ لقد كانت كريات من البَرَد بلا شك، لتعود بعد ذلك أشعة الشمس لتغمر الدار، وتخترقها حتى الطابق الأرضي.

هناك نوع من حالات الإحباط تجعلنا نُصاب بالإزعاج لمواقف مألوفة، مما يستدعي رد فعل– رغم إرادتنا– فيقهرنا ضيقٌ ممض مضجر صامت.. كان هذا الضيق هو ما أصاب توماس، ضيقٌ بمسلك يوهان الصغير، ضيقٌ بالمشاعر التي بعثتها فيه كل مظاهر هذا الحفل، خاصةً بهؤلاء الذي شعر بأنه غير مكافئ لهم مهما توافرت له النية في ذلك. وقد حاول مرارًا أن يتمالك نفسه، وأن يغير وجهة نظره ليقول لنفسه إن ذلك يومٌ جميل يبنغي أن يغمره بمشاعر الفرح والروح المعنوية المرتفعة. وبرغم أن صخب آلات الموسيقى وضجيج الأصوات ومنظر الجمع الغفير تثير أعصابه، بالإضافة إلى تذكر الماضي- كان تذكر أبيه يبعث فيه أثرًا واهيًا- إلا أن ما كان يطغى على ذلك تأثره بهذه التفاهة وهذا الحرج اللذين دفعا كل شيء هنا، من موسيقى رخيصة مؤذية للسمع، وهذا الجمع المبتذل الذي يثرثر حول أسعار الأسهم، والعشاء.. وهذا المزيج من التأثر والنفور.. كان هذا تحديدًا هو ما استنفد قواه، وأصابه بإحباط مائع..

في الساعة الثانية عشرة والربع، كان برنامج جوقة مسرح المدينة يدنو من نهايته، فإذا بشيءٍ ما يحدث، لم يكن له أثر على المشهد العام للحفل، إلا أنه أجبر رب الدار على الاختفاء لبضع دقائق لأمرٍ ما يتعلق بعمله. فقد ظهر أحدث صبيان المكتب، وكان صبيًّا قصير القامة، غير مكتمل النمو، ذا رأس حمراء تغوص بين كتفيه على نحو غير مألوف، وقد أخذ يرتقي الدرج الرئيس أثناء استراحة الجوقة وارتفاع صخب الجمع الغفير، وهو يفرط في هز إحدى ذراعيه التي بدت طويلة نحيفة على نحو غريب، لكي يكتسب مظهر المطمئن الواثق، وقد حمل في يده الأخرى ورقةً مطوية، لم تكن سوى برقية. وأخذ

يفتش أثناء صعوده بنظرات سريعة خجولة عن مديره، فلما اكتشف وجوده هناك أعلى الدرج، مرق بين صفوف الواقفين في طريقه، مغمغمًا بعبارات اعتذار متلاحقة لم يكن بحاجة لها، إذ لم يكن هناك من اهتم بأمره؛ فقد واصل الجمع أحاديثهم دون الالتفات له، مفسحين له الطريق قليلاً، وكادت نظراتهم الخاطفة لا تلحظ أن الفتى قد انحنى أمام السيناتور بودنبروك مسلمًا إياه البرقية، ليبتعد بها السيناتور عن كسيتنماكر وجيسكه وفويجت من أجل معرفة ما جاء بها. ورغم أن معظم هذه البرقيات لم تكن إلا للتهنئة، إلا أن نظام العمل كان يفرض تسليم أية برقية في الحال، مهما كانت.

كان بالممر المفضي إلى الطابق الثاني فسحة من المكان تمتد بحذاء القاعة إلى سُلم الخدم، حيث يوجد مدخل جانبي يؤدي إلى القاعة. وعلى الناحية الأخرى من بسطة سلم الطابق الثاني كانت هناك كوة مصعد الطعام من المطبخ إلى القاعة، وهناك بجوار الحائط كانت هناك طاولة اعتادت الخادمة تنظيف أواني الطعام الفضية فوقها. هناك، اتخذ السيناتور موضعًا ليفض البرقية، وقد أدار ظهره للصبي الأحدب. فإذا بعينيه تتسعان فجأةً على نحوٍ أثار ذعر من رآه، وبحركة واحدة قصيرة متشنجة التقط أنفاسه بحدة جف لها حلقه، فراح يسعل. فلعله قال: "كل شيء على ما يرام" إلا أن الصخب خلفه لم يسمح لأحد بفهم ما قال، ثم كرر ذلك بنبرة كالهمس. فلما ظل السيناتور واقفًا بمكانه، ولم يستدر ولم تبدر عنه حركة تنم عن عودته، ظل الصبي الأحدب كذلك واقفًا لبرهة، وقد تملكه القلق والتردد وهو يبدل رفع قدميه وخفضهما، ثم أدى ثانيةً انحناءته الغريبة ليهبط سلم الخدم، بينما ظل السيناتور واقفًا بمكانه عند الطاولة، وقد أرخى يديه بالبرقية المطوية؛

وراح يلهث بفم مفتوح بعض الشيء، ويهز جذعه وكذلك رأسه يمينًا ويسارًا دون وعى منه، كمن أصابته نازلة، وأخذ يردد عبارةً لا معنى لها: "هذا البَرَد القليل.. هذا البَرَد القليل.." وما لبث أن انتظمت أنفاسه وهدأت حركة جسده، وقد ارتسمت في عينيه شبه المغمضتين أمارات إجهاد أو شبه انكسار، ثم انتحى جانبًا وهو يهز رأسه هزًّا ثقيلاً. وفتح باب القاعة، ودخل ليسير بخطى بطيئة منكس الرأس، ناظرًا إلى الأرض اللامعة كالمرآة، ليتهالك فوق أريكة ذات لون أحمر قانٍ بركن القاعة بجوار النافذة. وقد ساد السكون هذا الركن الرطب، كما تنامى إليه خرير ماء نافورة البستان، وكذلك طنين ذبابة راحت تصدم زجاج النافذة، فيما لم يصل إليه من الباحة سوى صوت مكتوم. ثم ألقى برأسه مجهدًا فوق إحدى الوسائد الصغيرة ليغمض عينيه، مغمغمًا بصوت هامس: "خيرًا ما حدث، خيرًا ما حدث". ثم تنهد مرتاحًا منشرح الصدر: "ما حدث هو الخير، كل الخير".

هكذا رقد لخمس دقائق، وقد ارتاحت أوصاله وشاع السلام في وجهه، ثم اعتدل وهو يطوي البرقية ليدسها في جيب سترته العلوي، ثم نهض ليمضي إلى ضيوفه. إلا أنه عاد في اللحظة نفسها ليرتمي ثانيةً على الأريكة، وهو يزفر مشمئزًا..

فقد بدأ عزف الموسيقى ثانيةً، بصخبها الأرعن معبرًا عن ركضٍ سريع؛ كان دق الطبل الكبير والصنوج هما إيقاعه الأساسي، الذي لم تسايره بقية آلات العزف، فسبقه بعضها وتخلف عنه البعض الآخر، ليصبح خليطًا فجًا من سذاجةٍ لا تطاق، خليطًا من الصرير والدوي والنفير يمزقه عزف جنوني لناي صغير.

الفصـل السَّـادس

أثناء تجاوزه الصالون بحركةٍ استعراضية، كان أدموند بفيل، عازف الأرغن بكنيسة سانت ماريا، يصيح: "باخ، سباستيان باخ"، فيما كانت جيردا قد جلست أمام البيانو مبتسمةً، وأراحت رأسها فوق يدها، وكان هانو جالسًا فوق مقعدٍ محتضنًا إحدى ركبتيه مصغيًا:

"يقينًا، كما قلتِ، لقد فازت الهارمونيكا على الطِّباق، لقد أعاد صياغة الهارمونيكا بأسلوبٍ حديث، يقينًا، ولكن كيف؟ فهل لي أن أفسر ذلك؟ لقد واصل تطوير أسلوب الطِّباق، ونحن متفقان في ذلك. فأي دافعٍ كان وراء هذا التطور؟ الهارمونيكا؟ كلَّا، لم تكن هي على الإطلاق، ولكنه كان أسلوب الطِّباق، سيدتي الجليلة، إنه الطِّباق، وأنا أسألك عن نتاج تجارب الهارمونيكا المحضة؟ وأنا أحذر، وما دمتُ أملك زمام أمري، فأنا أحذر من تجارب الهارمونيكا المجردة".

كان السيد بفيل مشهورًا بحماسه في مثل هذه المناقشات، وكان حماسه هذا هو الذي يمهد له السبيل، فها هو يشعر بالألفة في هذا الصالون. فقد واظب على حضوره كل أربعاء، فكان يدخل إليه بقامته المشوقة وبنيانه

القوي وكتفيه العاليتين، مرتديًا سترة بنية اللون تصل إلى ركبتيه، ليقبل على بيانو– بشتاين منتظرًا زميلته، ثم يضبطً أوتار الكمان وهو على الحامل الخشبي المحفور، ثم يشرع في عزف ألحان خفيفة بديعة، وقد أخذ يتمايل برأسه بين كتفيه منشرحًا.

كان شعر رأسه قد نما على نحوٍ عجيب، فكانت مجموعةٌ محيرة من خصلاتٍ صغيرة بلون فراء الثعالب، وخطها الشيب، قد جعلت رأسه تبدو كبيرة ثقيلة على نحو غريب، وإن كان تتربع كتاجٍ فوق عنق طويل تبدت منه حنجرةٌ كبيرة للغاية، برزت من ياقة قميصه. وكان له شاربٌ كث مهمَل، بلون شعر رأسه، يبرز من وجهه متقدمًا أنفه الصغيرة المكتنزة. وأما عيناه السمراوان المستديرتان، فكانتا تتألقان بنظرةٍ تنفذ إلى قلب الأشياء حالمةً، حين يعزف، وفيما عدا ذلك كانت تبدو هادئة. وأسفل هذين العينين كانت ترتفع أكياسٌ دهنية منتفخة، كما أن وجهه لم يكن مميزًا، بل كان خلوًا من سيماء الذكاء الفطِن، وكان جفناه غالبًا شبه مغمضين، ودون أن تفترق شفتاه كانت ذقنه الحليقة تبدو في الغالب متهدلةً في استسلامٍ وبلادة، مما يمنح لفمه تعبيرًا ساكنًا يوحى بغباءٍ ولا مبالاة، كأنه راح في سباتٍ عميق. إلا أن مظهره الوديع كان يختلف تمامًا، وعلى نحوٍ نادر، عن صلابة شخصيته واعتزازه بنفسه. فقد كان ادموند بفيل عازف أرغن قديرًا. وفاقت شهرته حدود مدينة أسلافه، حتى إن معهدين أو ثلاثة لتدريس الموسيقى كانوا ينصحون بالاطلاع على كتابٍ صغير ألفه في ترانيم الكنيسة، وقام بنشره. أما مؤلفاته في "التسلل"، وقطع موسيقية وضعها للكورال، فكانت تُسمَع أنغامها في كل الكنائس.

وهذه المؤلفات، وكذلك الألحان التي كان يتقن عزفها أيام الأحد بكنيسة سانت ماريا، كانت سليمةً لا تشوبها شائبةٌ، مكللةً بجلال الالتزام الصارم بالقواعد التزامًا راسخًا ومثيرًا للإعجاب، بما يتفق مع المنطق-الأخلاقي. كان جوهرها مغايرًا لكل الجماليات الدنيوية، وما تعبر عنه كان لا يمس أى شعورٍ إنسانى دنيوي. بل كان يتجلى في هذه التقنية ويتغنى من خلالها ظافرًا، من خلال تلك التقنية التي أصبحت إيمانًا زاهدًا، وقد تحول إلى هدف نهائي قد يصل إلى القداسة المطلقة.

كما كان ادموند بفيل، حقًّا، لا يعير اهتمامًا كبيرًا برضا مستمعيه، ولا يتحدث بحبٍ عن الألحان الجميلة.

ومهما بدا هذا محيرًا، فهو لم يكن إنسانًا جافًّا أو رفيقًا جامدًا. "بالسترينا"، هكذا هتف بلهجةٍ واضحة مثيرة للرهبة. لكن بعد ذلك مباشرةً، وبينما كان يعزف مجموعةً من المقطوعات الفنية العتيقة، كان وجهه يشع رقةً وهيامًا، غائبًا عن الدنيا، وقد استقرت نظرة عينيه على المدى القدسي، كأنه رأى في عزفه العلة الأزلية لكل الأحداث. وهي نظرة العازف التي تبدو شاردةً خاوية، لأنها تستقر في ملكوتِ منطقٍ أكثر عمقًا وطهرًا ونقاءً وضرورةً من مفاهيم كلامنا وأفكارنا.

كانت يداه كبيرتين ناعمتين، بدتا كأنهما خلو من العظام، وقد ساد النمش بشرة يديه.

وبصوتٍ ناعم أجوف، كأن بحلقه غُصةً، كان قد حيا جيردا بودنبروك، لدى إقبالها على الصالون، وهي تزيح الستائر، قائلاً: "محسوبك، سيدتي الجليلة!" وبينما كان ينهض منحنيًا مائلاً على يدها، إذا بيده اليسرى تضغط

على البيانو ليصدر نغمةً طويلة رنانة، فما كان من جيردا إلا أن التقطت الكمان "الستريفاردي" وأخذت تعالج أوتاره بسرعة، وهى منصتةٌ لما يصدر عنه. "إنه لحنٌ من مقام صول الصغير من وضع "باخ "، سيد بفيل. لكن يبدو لي أن مقام "الأمهل" كان مجتزءًا إلى حدًّ ما".

وقام الرجل بالعزف على الأرغن، فما إن ارتفعت أول أنغامه واتصلت، حتى انفتح باب الممر ليدخل يوهان الصغير متسللاً فوق البساط بحرصٍ وهدوء، متجهًا إلى فوتي ليجلس هناك، محتضنًا ركبتيه بيديه، لائذًا بالصمت وهو يصيخ السمع إلى العزف، وإلى ما يدور من حديث.

وكان أن بادرته جيردا أثناء فترة الراحة بالسؤال: "هل تروق لك الموسيقى؟" قالت ذلك وهي تنظر إليه بعينيها المتقاربتين المحاطتين بالظلال، اللتين بعث فيهما العزف بريقًا حانيًا، لينهض هو إثر ذلك متجهًا إلى السيد بفيل الذي أخذ يمر بحنوٍ بيده على شعر رأس هانو ذي اللون الكستنائي الفاتح، الذي التصق بجبهته وفوديه. ثم خاطبه السيد بفيل بنبرةٍ حانية: "فلتسمع يا بني في غير حرج". فأخذ الصبي يراقب حنجرته التي تراوح مكانها في عنقه، ليعود بعد ذلك مهرولاً ليجلس بهدوء بمكانه، وهو يتوق إلى استئناف العزف والحوار.

وعزف جملةً لهايدن، وبضع صفحات لموتسارت، وسوناتا لبيتهوفن.

وفيما كانت تبحث عن دفاتر الـ"نوتة" الموسيقية الجديدة، وهي تتأبط الكمان، إذا بالسيد بفيل، أدموند بفيل عازف الأورغن بكنيسة سانت ماريا، ينطلق فجأةً من عزفٍ حُر للتسرية إلى أسلوب نادر للغاية، وقد تألقت في نظرته بعيدة المدى سعادةٌ حيية. وينساب من بين أصابعه نغمٌ

يتنامى ويزدهر وينسج ويشدو ليرتفع منه "مارش" خافتًا، وسرعان ما يهب عاصفًا ليصبح أكثر وضوحًا وشفافية، مارش عتيق عظيم مدهش جليل في إبداعٍ فني من أسلوب الطِّباق.. صعود، وهبوط، وعبور، وفي الختام كان الكمان يعزف الـ"فورتسيمو"، افتتاحية "مايسترسينجر" لفاجنر.

كانت جيردا بودنبروك تنتصر للموسيقى الحديثة بقوة، إلا أنها أصيبت بإحباط– في البداية– في كسب السيد بفيل إلى صفها، بعد أن اصطدمت برفضه العنيد. فذات يومٍ وضعت أمامه للمرة الأولى على الطاولة مقاطع من عزفٍ على البيانو من أوبرا تريستان وإيزولده لفاجنر. وطلبت منه عزفها لها، فإذا به بعد خمس وعشرين دقة ينهض ليظل يروح ويغدو بين الشرفة والبيانو.

"لن أعزف هذا، سيدتي، أنا خادمك المطيع؛ فهذا لا علاقة له بالموسيقى، صدقيني، فأنا أظن أني أفهم شيئًا من هذا الفن، لكن هذا ليس سوى فوضى، إنه دروشة، هذه هرطقة وجنون. فليس هذا إلا هواءً عبقًا وبخورًا يخطف الأبصار. إنه يقضي على أخلاق الفن! وهو أمرٌ أنا منه براء. ثم تهالك مرةً أخرى فوق مقعد، وأخذ يعزف بينما كانت حنجرته تراوح في مكانها، وراح يبتلع ريقه ويسعل سعالاً جافًا ليعيد غطاء البيانو إلى مكانه بعد خمسة وعشرين دقةً، ويهتف:

"ياللعار، كلَّا! يا إلهي، لقد تطاولت، فلتغفر لي سيدتي الجليلة صراحتي. فأنتِ تمنحينني أجرًا ومكافأة لأيامٍ وسنين مقابل ما أقوم به، ورغم فاقتي إلا أنني سأتقاعد وأصرف النظر عن هذا إن أكرهتني على هذه الترهات..! وهذا الطفل الجالس فوق مقعده! كان قد جاءنا على أطراف أصابعه ليسمع

موسيقى، فهل تشائين إذن أن تسممى روحه تمامًا".

إلا أنها- رغم ثورته- استطاعت استمالته ببطءٍ واستئناس وإقناعٍ، وشيئًا فشيئًا، فقالت: "بفيل، فلتتوخ العدل، وفكِّر في الأمر بهدوء، إن أسلوبه الغريب في عزف الهارمونيكا يحيرك.. لكن تذكر كيف أثار بيتهوفن معاصريه أصحاب الرؤية القديمة.. بل تذكر باخ نفسه! يا إلهي، لقد اتهموه بالافتقار إلى الإطراب والوضوح، ولقد ذكرت قانون الأخلاق.. لكن ما هو تصورك عن أخلاق الفن؟ فإن لم أضل السبيل، فإن هذا يكون على النقيض من المتعة الحسية كافة. حسنًا، سوف تجد ذلك هنا، مثلما تجده عند باخ، تجده أروع وأكثر وعيًا وعمقًا مما هو لدى باخ، صدقني بفيل، فهذه الموسيقى- في عمق جوهرها- أقل غرابةً مما تعتقد".

فغمغم السيد بفيل: "إنها دجلٌ وسفسطة- فلتسامحيني".

إلا أن الصواب كان في جانبها: فهذه الموسيقى كانت في حقيقتها أقل غرابة مما ظن في البداية. وبرغم أنه لم يكن قط متصالحًا تمامًا مع تريستان، فإنه- في النهاية- لبى رغبة جيردا في عزف "موت الحب"، على الكمان والبيانوفورت؛ فأدى ذلك بمهارة كبيرة. وكانت بعض المقاطع من "مايسترسينجر" هي التي أقرها في البداية، على نحوٍ أو آخر.. ثم بدأ حب هذا الفن يتحرك داخله الآن، بقوة ودون مقاومة تعترض سبيله. لكنه لم يعترف به، بل كاد يفزع منه وهو ينكره مغمغمًا.

إلا أن زميلته لم تعد بحاجةٍ إلى الإلحاح عليه، لأنه في حالة حصول المعلمين القدامى على حقهم، فسيجعله ذلك يعقِّد لمساته، وإذا بأثر نظرة عينيه- المشوبة بسعادةٍ حيية- تكاد تكون ساخطة، لينتقل إلى حيوية

ونسيج جمله الموسيقية.

فعسى بعد العزف أن تخف وطأة الخلاف حول علاقة هذا الأسلوب الفني بالجملة المتشددة. وقد يعلن السيد بفيل أنه يرى نفسه الآن- برغم أن هذا الموضوع لا يمسه شخصيًّا- مضطرًا إلى أن يضيف إلى كتابه عن الأسلوب الكنسي ملحقًا عن "تطبيق أنواع الأصوات القديمة في موسيقى ريشارد فاجنر الكنسية والشعبية".

أما هانو، فظل كعهده جالسًا يحتضن ركبتيه بيديه الصغيرتين، ولم يحرك ساكنًا اللَّهُمَّ إلا إذا مر بلسانه فوق أحد ضروسه لينطبق فمه إثر ذلك. كان يراقب أمه والسيد بفيل، وقد اتسعت عيناه من الدهشة، مصغيًا إلى عزفهما، مستمعًا إلى حديثهما؛ وهكذا فهم، وهو ما يزال في مقتبل العمر، الموسيقى كقضيةٍ جادة للغاية، وعرف فيها أمرًا مهمًا عميق المغزى. لم يكن يفهم كل ما يدور من حديثٍ أو نغم، مما يتجاوز استيعابه لتلك الأمور كطفلٍ صغير. فلما كان قد عاد ثانيةً، برغم ذلك، ليقبع مكانه لساعاتٍ بلا حراك أو شعورٍ بالملل، فقد كان دافعه إلى ذلك هو الإيمان والحب والرهبة، ذلك الدافع الذي ملك عليه أمره.

كان قد بلغ السابعة من عمره أو كاد، عندما بدأ العزف على البيانو بمفرده، محاولاً استعادة أنغام ارتبط بها وأثرت في وجدانه؛ فكانت أمه تتأمله مبتسمةً مصححةً له ما يعزف من دقات بحماس غير ظاهر، وهي تشير إلى أن هذا الصوت لا ينبغي أن يغيب، لأنه ينتج- بالتوافق- صوتًا آخر. وكانت أذنه تشهد بصحة ما تقوله.

وبعد أن سمحت له جيردا بالقليل، قررت أن يتلقى درسًا لتعلم البيانو.

فكان أن قالت للسيد بفيل: "أعتقد أنه لا يميل إلى العزف المنفرد. وأنا سعيدة بهذا، لأنه له جوانبه غير الإيجابية. ولا أقصد ارتباط العازف المنفرد بالمصاحبة، رغم أنها يمكن أن تولد أحيانًا حساسية شديدة، وإن كنتُ أنا مبرأةً من ذلك.. إلا أن الخطر يظل قائمًا أن ينزلق المرء على نحو أو آخر إلى عبقرية الأداء. أرأيت، إنني أعرف ذلك جيدًا، وأنا أقر لك صراحةً أن العازف المنفرد لابد أن يكون على درجة عالية من إتقان الموسيقى.. فالتركيز المكثف على الصوت الأعلى وأداؤه وبناؤه الصوتي يفضي بسهولة- لدى أنصاف الموهوبين- إلى إفساد المعنى المتناغم والذاكرة الهارمونية، فيكون تداركه صعبًا فيما بعد. وأنا أحب عزف الكمان وأتقنته إلى حدٍّ بعيد، إلا أنني أرى عزف البيانو أرفع قدرًا.

"وأنا أقول فقط: إن الألفة مع البيانو كوسيلة تلخص أثر الصور الصوتية وأكثرها تنوعًا، آلة لا تفوقها آلة في الإخراج الموسيقي، وهي تعني لي علاقة أكثر حميمية ووضوحًا وشمولاً. أصغ إليَّ، بفيل، فأنا أريد أن أعهد به إليك، لو تكرمت بقبول ذلك! رغم أنني أعرف أن هناك اثنين أو ثلاثة بالمدينة- أظن أنهن سيدات- ممن يعطون دروسًا، لكنهن يدرسن البيانو.. وأنت تفهم ما أقصد.. فليس المهم أن يتدرب المرء على آلةٍ ما، بل المهم هو استيعاب شيء من الموسيقى، أتوافقني في ذلك؟ وسوف أعتمد عليك، وسوف تتحمل المسؤولية. وسوف ترى أنك ستحقق معه نجاحًا مبهرًا للغاية.

"فلديه أيدي آل بودنبروك.. فكل أفراد عائلة بودنبروك يستطيعون حساب الكسور التسعية والعشرية، لكنهم لم يهتموا بالموسيقى قط". وضحكت في النهاية، كما أعلن السيد بفيل قبوله لتولي مهمة التدريس.

ومنذ ذلك الحين، أصبح يجيء كذلك عصر يوم الاثنين، عندما تكون جيردا بغرفة المعيشة ليدرس ليوهان الصغير.

ولم يتبع في ذلك أسلوبًا مألوفًا، بعد أن شعر أنه مدينٌ لحماس الطفل الخفي والمدله بأكثر من مجرد تعليمه شيئًا من العزف على البيانو.

فما كاد يتغلب على المبادئ والأوليات حتى بدأ بأسلوبٍ سهل الاستيعاب للنظرية، في تعريف تلميذه بأسس علم التناغم.

وقد استوعب هانو ذلك، لكنهم كانوا يشهدون له بما كان هو قد أدركه من زمن بالفعل.

وكان السيد بفيل يضع في اعتباره بقدر الإمكان ولع هانو بالتقدم في التعلم، فحرص بكل الحب على تذليل العقبات التي كانت بمثابة حجر عثرة يعرقل خياله وموهبته المتقدة.

ولم يسرف في إكراه الصبي على إظهار مهارة كبيرة في استخدام أصابعه في المران على السلم الموسيقي، فلم يكن ذلك هو الغرض من هذه التدريبات.

أما ما كان يهدف إليه وحققه بسرعة كان أعظم من ذلك، وهو رؤية عامة واضحة شاملة نافذة لكل أنواع الأصوات، وخلق ألفة داخلية شاملة مع مرادفاتها وروابطها التى قادت، بعد وقت ليس بالطويل، إلى كثيرٍ من إمكانات التأليف، وهي ذلك الشعور الحدسي بالسيطرة على العزف، أي على الخيال والارتجال..

وبشعور رقيق مؤثر لبى الاحتياجات الذهنية لهذا التلميذ الصغير، الذي دُلل بسماع الموسيقى، وهي احتياجات كانت متوجهة إلى أسلوب سليم.

فأنعش الأعماق والاحتفاء بمناخها، من خلال التمرين على أغنيات

صغيرة بسيطة. فجعله يعزف الكورال، ولم يدع تناغمًا ينتج من تناغمٍ الآخر دون الإشارة إلى قاعدة هذه التبعة.

وعلى الناحية الأخرى من الستائر، كانت جيردا تنشغل بالتطريز أو القراءة، وهي تتابع مسار الدرس.

وقالت ذات مرة للسيد بفيل: "لقد فاق إنجازك توقعاتي، لكن ألا ترى أنك تبالغ في ذلك، وأنك تتجاوز حدود المألوف؟ فأسلوبك كما أرى فائق الإبداع.. حتى إنه أصبح أحيانًا يحاول الارتجال بالفعل، لكنه لو لم يكن يستحق أسلوبك هذا ولو لم يكن موهوبًا لما كان بوسعه تعلم شيء إطلاقًا".

فهز السيد بفيل رأسه، وقال: "إنه أهلٌ لذلك، فقد كنت أنظر أحيانًا في عينيه فأرى فيهما الكثير، إلا أنه يحتفظ بفمه مغلقًا. فإذا ما احتفظ بفمه مغلقًا، فلا بد أن يحصل ذات مرة فيما بعد في حياته على فرصة للحديث".

فنظرتِ إليه، إلى هذا الموسيقي الربعة بباروكته الثعلبية، وبتلك الأكياس الدهنية أسفل عينيه، وشاربه المنتفش وحنجرته البارزة، ثم مدت يدها إليه وقالت: "شكرًا، بفيل، إن نواياك طيبة. ونحن لم ندرك بعد ما سوف تقوم به نحوه".

أما امتنان هانو لصنيع هذا المعلم وإخلاصه في تعليمه فكان امتنانًا لا مثيل له. فها هو الذي كان عاجزًا يائسًا من استيعاب دروس الحساب، برغم كل الحصص الإضافية بالمدرسة، إذا به يستوعب كل ما يلقنه له السيد بفيل على البيانو. فكان يفهم ويستوعب ذلك على أفضل وجه.

فقد بدا السيد بفيل بسترته الواسعة البنية اللون ملاكًا عظيمًا ينتشله عصر يوم الاثنين من حياته اليومية البائسة إلى ملكوت النغم، ملكوت

الجدية السَّمحة العذبة المواسية.

وكان أحيانًا ما يذهب إلى بيت بفيل ليتلقى دروسه هناك، وهي دارٌ فسيحة عتيقة ذات سطح هرمي بممرات وأركان كثيرة رطبة، يسكنها عازف الأرغن وحيدًا مع مدبرة عجوز.

كما كان أحيانًا يسمح لبودنبروك الصغير بحضور قداس الأحد بكنيسة سانت ماريا، ليجلس بالشرفة العلوية حيث الأرغن، وليس بقاعة الكنيسة السفلى مع الآخرين.

هناك فوق، أعلى من المعمودية، أعلى من القس برينجزهايم فوق منبره، كان الاثنان يجلسان وسط هدير الأنغام التي يطلقها ويهيمن عليها كلاهما، فقد كان يُسمح أحيانًا لهانو أن يعاون معلمه في إدارة الآلات، فيقبل على ذلك بحماسٍ طرِب وفخار. وعندما ينتهي العزف المصاحب للكورال ويرفع السيد بفيل يده ببطءٍ عن العزف، ليدع صوت الـ"باس"- الأساسي يتداعى هامسًا محتفيًا- وبعد استراحة رائعة من الإبداع، وانتهازًا لبدء القس برينجزهايم في الحديث بصوته المنغم، كان نادرًا ألا يحدث أن يبدأ السيد بفيل ببساطة متناهية في التهكم على الخطبة، والسخرية من لهجة القس الفرنكفورتية المفتعلة، ومن حروف كلماته الممطوطة المبهمة أو الحادة، ومن شهقاته ومراوحة وجهه المفاجئة بين العبوس والإشراق.

فيضحك هانو أيضًا، مسرورًا، ضحكًا هامسًا. فقد اتفق رأي الاثنين- بمكانهما المرتفع، دون تبادل النظر أو الرأي- على أن هذه العظة ليست سوى ثرثرة فارغة، وأن الصلاة الحقيقية لهي أعظم قدرًا مما يظنه القس ومعموديته مساهمةً في الارتقاء بالعبادة: أي الموسيقى.

أجل، فقد كان هَم السيد بفيل الدائم هو أن يصل القليل مما يعزفه إلى وعي هؤلاء الموجودين بالقاعة، ومنهم من يحمل لقب السيناتور أو القنصل، ومواطنون وعائلاتهم؛ ولهذا السبب كان يؤثر وجود تلميذه الصغير معه الذي كان يستطيع أن يلفت نظره- على الأقل همسًا- إلى أن ما عزفه كان شيئًا صعبًا غير مألوف.

فقد توصل إلى تقنيات فنية عجيبة للغاية. فابتكر "محاكاة مزدوجة"، فألف لحنًا يمكن قراءته من الخلف ومن الأمام على السواء، ومن ثمة وضع أساسًا كاملاً لعزف ما يسمى بـ "خطوة سرطان البحر".

ولما انتهى من العزف، وضع يديه بحجره وعبس وجهه، وهز رأسه محبطًا "لن يفهم أحد ذلك"، ليهمس أثناء خطبة القس: "كان ذلك محاكاة لخطوة السرطان، يوهان، وأنت لم تعرف ذلك بعد.. إنه محاكاة لموضوع من الخلف للأمام، من آخر نغمة إلى أول نغمة.. إنه شيء صعب للغاية. ولسوف تعرف فيما بعد معنى المحاكاة في الجملة القياسية.. ولكني لن أرهقك بتعلم محاكاة خطوة السرطان، ولن أضطرك إليها، فلست بحاجة إلى إتقانها.

"لكن لا تصدق أبدًا هؤلاء الذين يعتبرون أن هذا عزفٌ بلا قيمةٍ موسيقية. فسوف تجد خطوة السرطان عند كبار مؤلفي الموسيقى، على مر العصور. ولا ينكرها سوى المستهترين وأنصاف الموهوبين. فالتواضع يليق بالكبار، فلا تنس ذلك، يوهان".

وحل عيد ميلاد هانو الثامن يوم 15 أبريل عام 1869، ليعزف هانو أمام أفراد أسرته، ومن بينهم أمه، لحنًا قصيرًا من إبداعه، وكان موضوعًا بسيطًا عثر عليه فوجده غريبًا، فتوسع فيه بعض الشيء.

وكان من طبائع الأمور أن يجد السيد بفيل ما ينتقده باللحن، وهو الذي كان قد أسر إليه بذلك.

"ما هذه النهاية المسرحية، يوهان! إنها لا تتسق مع باقي اللحن. لقد كانت البداية موفقة للغاية، لكن كيف تنزل من مقام "سي الكبير" إلى مقام رابع وسادس من الدرجة الرابعة مع ثالث منخفض. أريد معرفة سبب ذلك. فهذا هزلٌ. ثم إنك تنتهي به إلى ما يشبه الزغردة. وقد استعرت ذلك.. فمن أين جئت به؟ لقد عرفتُ ذلك. فقد استمعتَ لأكثر مما ينبغي، عندما اضطررتُ لعزف أشياء بعينها أمام السيدة والدتك.. فلتغير النهاية، يا بني، ليصبح ذلك شيئًا صغيرًا خالصًا".

إلا أن هانو كان قد أبدى اعتزازًا عظيمًا بهذه النهاية تحديدًا، وكان ذلك من دواعي إعجاب أمه الشديد، أن يبقى اللحن على حاله. فأمسكت بالكمان لتعزف معه الصوت الأعلى، كما عزفت تنويعاته، بينما كان هانو يكرر الجملة ببساطةٍ من الطبقة العليا.

وقد كان لذلك صدى رائع؛ فقبَّل هانو أمه من فرط سعادته، فكان هذا هو ما قدماه للعائلة يوم 15 أبريل.

كان كلٌّ من القنصلة والسيدة بيرمانيدر وكريستيان والقنصل كروجر وزوجته والمدير فاينشينك وزوجته، وكذلك سيدات بودنبروك بالشارع العريض والآنسة فايشبروت قد تناولوا طعام الغداء في الساعة الرابعة لدى السيناتور وقرينته، احتفالاً بعيد ميلاد هانو.

وها هم قد جلسوا بالصالون، وهم يصغون متأملين الصبي الجالس بزي البحارة إلى البيانو، وجيردا تلك الظاهرة الغريبة الأنيقة التي عزفت في

البداية ترنيمةً رائعة من مقام "صول"، لتطلق بعدها بمهارةٍ متقنة فيضًا من محطات موشاة بالدرر. وكان السلك الفضي على مقبض قوس الكمان يلمع في ضوء شعلة الغاز.

كان الانفعال قد بلغ بهانو حد أن شحب وجهه، ولم يأكل شيئًا تقريبًا؛ لكن عليه الآن الاهتمام بعمله الذي بدأه، كان لابد من الانتهاء منه بعد دقيقتين، وقد بلغ انشغاله بذلك أوجه، حتى إنه انطوى على نفسه تمامًا فنسى كل ما حوله.

كانت هذه اللوحة الموسيقية أكثر تناغمًا من إيقاع الطبيعة. ومن الغريب للغاية أنه كان يُعجب بالتناقض القائم بين الوسائط الموسيقية البدائية الأساسية البسيطة وبين النوع الآخر الحميم المتبتل الرقيق، الذي تبرزه وتنتجه هذه الوسائط.

وكان هانو يميل برأسه للأمام وينحرف بها ليؤكد كل مرةٍ على انتقاله من نغمةٍ لأخرى، وهو يجلس على أقصى مقدمة المقعد، ليحاول بالتقديم والتأخير أن يمنح كل توافق جديد درجةً من الحساسية.

وفي الواقع، فعندما كان هانو الصغير ينجح في الوصول إلى مؤثرٍ ما فيحتفظ به لنفسه هو وحده فحسب- كان هذا المؤثر يبدو أقل حساسيةً من حساسيته في الواقع. وكانت أية لمسة فنية لتناغمٍ بسيط تمامًا تكتسب معنى غامضًا دقيقًا من خلال التشديد الجليل المتردد.

وفينما كان هانو يرفع حاجبيه، محومًا جذعه إلى أعلى، كان يمنح كل توافق أو تناغم جديد أو مغامرة قوة تأثيرٍ عصبية مفاجئة من خلال رنة مفاجئة باهتة.

وها هو يصل الآن إلى الختام، الختام المحبب لهانو، ليكلل اللحن كله بـسموٍ فطري. فيطلق تناغم مقام "دو" الصغير مزغردًا من البيانو، ليصحبه انسياب الكمان محيطًا به هامسًا كرنين جرس هامس. فينمو، يتضخم ويدوي ببطء، ببطء، ليضيف هانو "سي" المتنافر المفضي إلى نغم القرار.

وبينما يدوى ويرن عزف الكمان الـ"ستراديفاري" كذلك بهذا الـ"سي"، كان هو يُصعِّد التنافر بكل قواه ليصل إلى الفورتيسمو.

وقد امتنع عن الختام، وضنَّ به على نفسه وعلى المستمعين. فكيف تكون النهاية هذه، هذا الحلول المحرَّر العذب في مقام "سي" الكبير؟

إنها سعادة بلا مثيل، رضا العذوبة الفائق.

السلام! السكينة! ملكوت السماء!.. ليس بعد! ما تزال هناك لحظة التمهل، التردد، التوتر، لحظة لابد أن تكون فوق الاحتمال، حتى يكون مذاق الرضا أكثر عذوبةً.

ما تزال هناك مسحة أخيرة نهائية من هذا الحنين الجامح الدافع، هذه الشهوة لكل هذا الجوهر، هذا الشد الأقصى والعصبي للإرادة التي ما تزال تأبى التحقق والخلاص، إلا أنها كانت تعرف: أن السعادة ليست سوى لحظة.

انتصب جذع هانو ببطء، واتسعت عيناه للغاية، وارتجفت شفتاه المطبقتان، وأخذ يتنسم الهواء بارتجافٍ متدافع من خلال أنفه.. ثم لم يعد هناك عائق أمام السعادة.

فجاءت، جاءته، فلم يستطع لها دفعًا.

فارتخت عضلاته، ووهنت، ونكس، مغلوبًا عل أمره، رأسه إلى كتفيه، مغمضًا عينيه، وشاعت حول فمه بسمةُ شجية تكاد تكون معذَّبة من

رضا بلا مثيل.

وكانت نغمات الكمان تنساب، بتقديمٍ وتأخير، هامسةً، مائجة، موسوسة، تحيط بـ "زغردته" التي أرفقها الآن بنغمة "باس" خافتة، لتهبط إلى الـ"سي"، لتصعد بسرعة إلى "الفورتيسمو"، وتتوقف في ثورة قصيرة يتلاشى صداها.

كان محالاً أن يمتد تأثير هذا العزف من هانو إلى المستمعين أيضًا.

فلم تفهم السيدة بيرمانيدر، على سبيل المثال، أدنى شيء من كل هذا المجهود. إلا أنها رأت ابتسامة هذا الطفل، وحركة جذعه، والميل البريء برأسه الصغير الرقيق المحبوب.. وقد مس هذا المنظر أعماق مشاعرها الطيبة.

"يا لَعزف الصبي! يا لَعزف الطفل!" هكذا صاحت وهي تسرع إليه باكيةً لتضمه بين أحضانها.. وتضيف "جيردا، توم، سوف يصبح موتسارت، مايربير، أو.."

فلما لم تستطع التوصل في الحال إلى اسمٍ ثالث له الأهمية نفسها، اكتفت بأن أمطرت ابن أخيها بالقبلات، وهو ما يزال يضع يديه بحجره، وقد جلس هناك بعيونٍ زائغة منهكًا تمامًا.

ليقول السيناتور هامسًا: "كفى، طوني، أرجوكِ، ما هذا الذي تديرين به رأسه".

الفصـل السَّـابع

لم يكن توماس بودنبروك موافقًا في قرارة نفسه على طبيعة يوهان الصغير الشخصية، أو نموها.

وهو الذي أتى ذات يومٍ بجيردا أرنولدسن إلى موطنه، رغمًا عن الجميع الذين أذهلتهم الدهشة ولفت رؤوسهم، وهو الذي كان يؤمن بقوته وإرادته الحرة بما يكفي لكي يضفي على مهاراته المحافظة ذوقًا راقيًا لم يكن مألوفًا لدى الآخرين.

فهل يصبح مصير ابنه تحت رحمة تحكُّم أمه؛ ابنه، وريثه الذي انتظره طويلاً بلا طائل، ابنه الذي يحمل بعض سمات آبائه في مظهره، وفي جسده؟ وهو وريثه الذي طالما حلم بأنه سيواصل إدارته لأعماله على نحوٍ أكثر نجاحًا وإقدامًا، هل يصبح بطبيعته ووجدانه غريبًا ومستغربًا في مجتمع يعيش فيه، بل كان عليه أن يؤثر فيه؟

وقد ظل توماس حتى هذه اللحظة ينظر إلى عزف جيردا على أنه يوافق عينيها النادرتين اللتين أحبهما، متناغمًا مع شعرها الغزير ذي اللون الأحمر القاني، بل مع مظهرها كله غير المألوف؛ فقد كان العزف إضافةً مثيرة إلى

شخصها المتفرد. فها هو الآن قد أصبح مرغمًا على رؤية مدى الولع بالموسيقى، الغريبة عنه، وقد سيطر أيضًا على ابنه في مثل هذه السن المبكرة، منذ نشأته وتكوين وجدانه، ليصبح ذلك قوة تناصبه العداء، تحول بينه وبين ابنه الذي كان يأمل أن يصنع منه "بودنبروك أصيلاً"، ورجلاً قويًا عمليًا، رجلاً يملك أسباب القوة والنفوذ والهيمنة.

وها هي الحالة المُستفَزة، التي يمر بها، جعلته يرى أن هذه القوة المعادية قد أدت إلى شعوره بالغربة داخل بيته. فلم يكن قادرًا أن يتقرب إلى هذه الموسيقى على النحو الذي تعزف به جيردا وزميلها السيد بفيل، كما كانت جيردا نفسها- بإيثارها المطلق لأمور الفن- عائقًا رهيبًا يحول بينه وبين هذا التقرب.

وهو الذي لم يخطر بباله أن يكون فن الموسيقى غريبًا على هذا النحو على أسرته، كما اتضح له الآن. فقد كان جده يحب العزف قليلاً على الناي، أما هو نفسه، فكان دائمًا ما يحب الاستماع إلى ألحان عذبة تبعث على مرح بسيط أو شجن متبصر أو دافع منعش.

فإذا ما شاء الإفصاح عن إعجابه بأيٍّ من هذه الألحان، كان على يقين من أن جيردا سترفع كتفيها مبتسمةً مشفقةً، لتقول: "من أين لك بهذا، يا صديقي! إن هذا لا يحمل أدنى قيمة موسيقية".

فأصبح يكره هذه "القيمة الموسيقية"، هذه العبارة التي لا تمثل له سوى استعلاءٍ فارغ؛ وهو ما كان يدفعه- حتى في وجود هانو- إلى الاحتجاج على ذلك. وقد حدث أكثر من مرةٍ أن تملكه الغضب، فكان يصيح: "إيه، يا أعز الناس! إن التغني بـ"القيمة الموسيقية" يبدو لى إلى حدٍّ ما وهمًا وأمرًا مجافيًا

للذوق!".

فكانت تجيبه: "توماس، للمرة الأخيرة أقول لك إنك لا تفقه شيئًا من فن الموسيقى. ومهما كان ذكاؤك، فلن تدرك أبدًا أن الموسيقى لهي أعظم من تسرية بسيطة تشنف آذانك بعد تناول الطعام. إنك تفتقد الإحساس بمعنى الابتذال في الموسيقى، وهو ما لا تفتقر إليه في المجالات الأخرى.. برغم أن هذا هو مقياس استيعاب الفن. وبوسعك أن تدرك مدى بُعدك عن الموسيقى بأن تعرف أن تذوقك للموسيقى يختلف عن احتياجاتك وآرائك الأخرى.

"فما سر سعادتك بالموسيقى؟ هل هو هذا الإحساس بالتفاؤل الممل؟ إن كان يحتويه كتابٌ ما، فتطيح به جانبًا غاضبًا أو سعيدًا للغاية؟ تلبية عاجلة لكل أمنية كدتَ تشعر بها.. فهل هناك في الدنيا ما يضارِع لحنًا عذبًا؟.. إن هذا لمثالية رعناء".

أدرك ما قالت. إلا أنه لم يستطع مسايرتها بمشاعره والإحساس بها، فلمَ لا تعني الألحان، التي تنعشه وتؤثر فيه، إلا عدم القيمة- ولمَ تكون الألحان التي تبث فيه الإحساس بالمرارة والحيرة هي نفسها ذات القيمة الموسيقية الأسمى. إنه يقف أمام معبد تُحرم جيردا عليه الدخول من بابه.. بينما ينظر هو إليها بحسرة وهي تتلاشى مع ابنه في أعماق المعبد.

إلا أنه لم يدعها ترى أثر الهم الذي يرقب به هذا الاغتراب الذي أخذ يتنامى، وهو يفرق بينه وبين ابنه الصغير، كما بدا له أن إظهاره لاهتمامه بصالح ابنه أمر مريع.

فهو لم يكن لديه متسعٌ من الوقت نهارًا للقاء الصغير، إلا أنه كان- أحيانًا- أثناء تناول الطعام، يبدي نحوه ودًّا حانيًا يشوبه بعضٌ من قسوةٍ

محذرة. فكان يمر براحة كفه على مؤخرة رأسه، وهو جالسٌ بجواره إلى المائدة في مواجهة زوجته، وهو يقول له: "حسنًا، أيها الرفيق، كيف حالك؟ ماذا فعلنا اليوم! هل ذاكرنا الدروس؟.. وعزفنا على البيانو؟ إنه أمرٌ طيب! لكن لا تفرط في ذلك، وإلا ما بقيت لدينا رغبةٌ للقيام بأعمال أخرى، وفترت همتنا!".

وأثناء ذلك، لا تبدي أيةٌ من خلجات وجهه قلقًا انتابه انتظارًا لتقبل هانو لتحيته أو رده عليها، فلم يكن يبدو على وجهه ما يشي بما يعتمل داخله من إحساسٍ مقبض أليم، حينما سدد إليه الطفل نظرةً حيية من عينيه بلونهما الكستنائي، الصافيتين الظليلتين، لينكب على صحن طعامه لائذًا بالصمت.

لقد كان ضرورة قصوى أن يهتم بعجز هذا الطفل. فأثناء وجودهما معًا، في فترات الراحة مثلاً، أو أثناء انتظار وصول أصناف أخرى من الطعام، كان يرى أن من واجبه إبداء بعض الاهتمام بالصبي، فيختبره، ويستنفر استيعابه لبعض الحقائق الملموسة.. فيسأله عن عدد سكان المدينة؟ وعن الطرق التي تربط نهر "ترافه" بأعالي المدينة؟ وما هي أسماء مخازن الشركة؟ وكان يتحرى في ذلك الحزم واليقظة.

إلا أن هانو كان يلوذ بالصمت. ولم يكن يفعل ذلك على سبيل العناد لوالده أو إيذاء مشاعره. وإنما لأنه كان يشعر بمقتٍ يرثى له أن يتدنى موضوع اختباره إلى عدد السكان والطرق وحتى المخازن، التي لم يُبد نحوها أدنى اهتمامٍ في الأحوال العادية.

ولعله شاء أن يكون قبل ذلك على يقظة تامة، بل إنه تمنى لو تحدث مع

أبيه قبلها- قبل هذا الحديث الذي بدا اختبارًا ساذجًا، وهو ما أصابه بإحباطٍ تام، وقضى على مقاومته قضاءً مبرمًا.

هكذا أصبح ينظر إلى الصحن أمامه بعينين مغرورقتين بالدمع. فكان أن لكزته إيدا وهمست إليه.. بأسماء الشوارع، والمخازن. لكن، آه، لم يكن هذا ليجدي، كان عديم الفائدة! لأنها لم تفهمه. فهو يعرف أسماءها جيدًا، على الأقل بعضها، وكان من اليسير تلبيته أماني أبيه، إلى حدٍّ ما على الأقل، لو كان ذلك بوسعه، لو لم يعقه هذا الشيء الحزين الذي لا يستطيع دفعه.

وها هو ينتبه فَزِعًا على خبط أبيه بالشوكة فوق حزمة السكاكين. فألقى بنظرةٍ على أمه وإيدا محاولاً الكلام، لكن نشيجه خنق أول الحروف، لتفشل محاولته. فهتف السيناتور ساخطًا: "كفى! فلتسكت، لم أعد أريد سماع أي شيء! ولم تعد بحاجة لقول شيء! ولتظل أبكم أحمق بليدًا طوال حياتك!".

هكذا فرغت الأسرة من تناول طعامها في جوٍ من الهم الصامت.

كان الضعف الحالم، وكذلك البكاء، وهذا الافتقار التام إلى اليقظة والحيوية هو محور معارضة السيناتور لولع هانو بالموسيقى.

كان هانو يعاني دائمًا من اعتلال صحته . وكانت أسنانه، تحديدًا، منذ البدء، هي سبب بعض ما يعانيه من اضطرابات ومتاعب أليمة. وقد كادت فترة التسنين- وما يصحبها من تقلصات وارتفاع درجة حرارته- تودي بحياته؛ لتصاب لثته بعد ذلك بالتهابٍ دائم يؤدي إلى تكوين بثور اعتادت الآنسة يونجمان انتظار نضوجها لتفقأها بإبرة.

إلا أن آلامه تعاظمت الآن، في مرحلة تبدل الأسنان. فقد داهمته آلامٌ لم يستطع احتمالها، فكان يقضي لياليَ كاملةً يقاسي الأرق، وهو يئن أنينًا واهنًا،

باكيًا، تحت وطأة ارتفاع درجة حرارة ممضة، لم يكن لها سببٌ سوى الألم.

وكانت أسنانه التي تبدو ظاهريًّا جميلةً للغاية، مثل أسنان أمه، رخوةً ضعيفة على نحوٍ غريب، فقد نمت على شكل غير مستقيم، متداخلاً، وهو ما أدى إلى هذه الحالة السقيمة؛ فكان على الصغير يوهان أن يلتقي في بداية حياته رجلاً رهيبًا هو: السيد برشت، طبيب الأسنان برشت بشارع ميولنشتراسه..

وكان اسم هذا الرجل مرتبطًا ارتباطًا بشعًا بتلك الأصوات الصاخبة في فك أحدهم من شد وجذب، وقلع لجذور أحد الأسنان، لينقبض قلب هانو رعبًا عندما جلس بمواجهة إيدا الوفية، منكمشًا فوق أحد المقاعد بغرفة انتظار السيد برشت، وهو يستنشق هواء المكان ذا الرائحة النفاذة، متصفحًا مجلاتٍ مصورة حتى يخرج طبيب الأسنان من باب غرفة العمليات، مبادرًا بنبرة مهذبة مثيرةً للفزع، وهو يقول: "تفضل".. إلا أن غرفة الانتظار هذه كانت تحوى قوةً جاذبة وإغواءً نادرًا، كان مصدرهما ببغاءٌ كبير غني بالألوان، يقبع بركن قفصٍ نحاسي بعينين صغيرتين مفعمتين وهجًا ثاقبًا. كان الببغاء- لأسبابٍ غير معلومة- يُدعى يوسيفوس، اعتاد أن يردد بصوت حيزبونٍ غضوب: "اجلس.. للحظة"، وبرغم أن هذه الصيحة في مثل هذه الأحوال كان لها أثر السخرية المريرة، إلا أنها كانت تثير في نفس هانو شعورًا بالحب والهلع.

فهل كان هذا الببغاء الضخم، ذو الألوان المختلفة المدعى يوسيفوس، والذي يستطيع الكلام، قد فر من غابةٍ مسحورة بإحدى حواديت "جريم"، التي كانت إيدا يونجمان ترويها له؟ كما كان يوسيفوس يقلد أيضًا كلمة

"تفضل"، التي يقولها الطبيب عندما يفتح الباب، مرددًا لها بنبرة أمرٍ حازمة، مما يجعل المرء يدخل غرفة العمليات وهو يضحك، وهو أمرٌ نادر الحدوث، ثم يجلس هناك بجوار النافذة على مقعدٍ ذي تكوين غريب، بجوار ماكينة تدار بالقدم.

أما السيد برشت، فكان يشبه "يوسيفوس" تمامًا، فكان أنفه معقوفة حادة مثل منقار الببغاء، وقد انكفأت فوق شاربه الذي وخطه الشيب. ومن مثالبه المريعة أنه كان يعاني من التوتر، ولم يكن أهلاً لتلك الآلام التي يلحقها بالغير، والتي كانت من خصائص مهنته.

ثم قال لإيدا يونجمان بوجهٍ ممتقع: "أيتها الآنسة! لا مفر من الخلع". وبينما كان هانو يغرق في عرقٍ ممضٍ بارد، وقد اتسعت عيناه، عاجزًا عن الاحتجاج، عاجزًا عن الفرار، تستبد به حالةٌ نفسية لا تختلف عن حال مجرمٍ يُساق إلى الإعدام، إذا به يرى السيد برشت مقبلاً عليه، وقد دس الكماشة بين طيات كمه، ولمعت على جبين طبيب الأسنان الصلعاء حباتُ عرقٍ صغيرة، وقد زمَّ فمه كذلك من الخوف.

فإذا انتهت هذه العملية المقززة، وبينما يبصق هانو دمه في وعاءٍ أزرق بجواره، وقد امتقع لونه وهو يرتجف واغرورقت عيناه بالدمع، واضطرب وجهه، كان السيد برشت يتخذ مجلسًا بمكانٍ ما ليجفف عرقه، متناولاً بعض الماء.

وبرغم أن البعض قد أكد ليوهان الصغير أن الرجل يفعل من أجله الكثير، وأنه يعمل على وقايته من وجعٍ أشد إيلامًا، إلا أنه عندما قارن الألم الذي يسببه له السيد برشت بالفائدة الإيجابية الملموسة التي يجنيها من وراء

ذلك شاكرًا، فإن كفة الأولى ترجح بكثير؛ إذ كان يعتبر كل تلك الزيارات إلى ميولنشتراسه هي أسوأ ما يتعرض له من عذابٍ غير مفيد.

وتمهيدًا لنمو ضرسي العقل، كان لابد من خلع أربعة ضروس بيضاء جميلة وسليمة تمامًا. وحتى لا يتحمل الطفل ما لا طاقة له به، فقد قُسمت هذه العملية على أربعة أسابيع. فيا لَه من عذاب مقيم ظل يعانيه من انتظار وقوع البلاء، ليقع بعدها فريسةً للإعياء. وما إن تم خلع الضرس الأخير حتى سقط هانو عليلاً، ليلازم الفراش لثمانية أيام، بسبب الإجهاد.

وعلى أية حال، فلم يكن لمتاعب الأسنان هذه تأثيرٌ نفسي فحسب، بل عضوي أيضًا؛ فقد نتج عن سوء المضغ عسرٌ متكرر في الهضم، وكذلك نوبات ارتفاع في درجة الحرارة. وكانت اضطرابات المعدة مصاحبةً لنوباتٍ مؤقتة من انخفاض وارتفاع لضربات القلب والشعور بالدوار. وصاحب هذا استمرار الألم النادر الذي لم تخف وطأته، بل اشتدت عن ذي قبل، وهو ما سماه الدكتور جرابو"Pavor nocturnus" (رُعبٌ ليلي). وما من ليلة إلا واستيقظ خلالها هانو مرةً أو اثنتين وهو يفرك يديه، وقد بدت عليه كل أمارات الخوف غير المحتمل، طالبًا المساعدة أو الرحمة، فيصرخ كمَن حاصرته نيران، أو أراد أحدٌ خنقه، كأن حدث أمرٌ مروع بلا مثيل.

لكن متاعب هانو الجسدية وآلامه لم تحل دون أن يُبعَث فيه شعورٌ حقيقي بخبرةٍ مبكرة، يسميها البعض نضجًا سابقًا لأوانه، وإن كان ذلك قد توارى، في الوقت نفسه، خلف موهبةٍ غالبة وذوقٍ رفيع، لم يظهر أثرهما غالبًا أو واضحًا وضوحًا بينًا، إلا أن ذلك كان يتبدى أحيانًا في شكل تفوق شجي..

فإن سأله أحد أقاربه، مثل جدته أو سيدات بودنبروك من الشارع

العريض: "كيف حالك، هانو؟".. فلا يرد إلا بزم فمه في شيء من الإحباط، أو برفع كتفه التي تعلوها ياقة البحارة الزرقاء.

"فهل تحب الذهاب إلى المدرسة؟"

"كلَّا"، هكذا كان يجيب هانو بهدوءٍ، وبصراحة، معتبرًا أن مثل هذه الأمور الجادة لا تستأهل الكذب في مثل هذه الأحوال.

كلَّا، لم يكن يحب الذهاب إلى المدرسة العتيقة، التي كانت ديرًا في الماضي، هذه المدرسة بطرقها وممراتها وفصولها ذات الطراز القوطي والأسقف المقبية. أما غيابه فكان بسبب حالته الصحية، وانشغاله التام بسبب تعلق أفكاره بنغمةٍ ما أو بمقطوعة موسيقية من عزف أمه أو عزف السيد بفيل لم يكن قد حل لغزها الساحر. فقد كانا أمرين يمنعانه من تحصيل العلوم، وكذلك فإن المدرسين الخصوصيين ومعلميه الذين يدرسون له في سنينه الأولى، بمستواهم الاجتماعى المتواضع، وضيق أفقهم، وعدم اهتمامهم بنظافة أجسادهم، كانوا يدفعونه إلى احتقار شأنهم، بالإضافة إلى خوفه من العقاب.

فالسيد تيتجه، مدرس مادة الحساب، كان رجلاً عجوزًا قصير القامة، يرتدى سترةً سوداء بالية، ويمارس المهنة منذ عهد الراحل مارسيلوس شتنجل؛ وكان السيد شتنجل يعاني من حولٍ بعينيه أدى به إلى استخدام عدسات مستديرة، كان سمك زجاجها في سمك نوافذ الفصل، وقد اعتاد لفت نظر يوهان الصغير كل حصة إلى موهبة والده، وإتقانه وذكائه في عمليات الحساب.

أما علاقة هانو بأقرانه، فكانت سطحية في إجمالها، ولم تتوثق علاقته إلا

بأحدهم منذ الأيام الأولى للدراسة؛ كان طفلاً ينتمي للطبقة الراقية، إلا أن مظهره كان بالغ الرثاثة؛ فقد كان يحمل لقب الدوق مولن. أما اسمه الأول فكان كاي.

كان في مثل قامة هانو، إلا أنه لم يكن يرتدي مثله سترة بحارة الدنمارك، بل حلة بالية باهتة تفتقد لزر هنا أو هناك، وكانت هناك بقعة بمؤخرتها. أما يداه البارزتان من كمين قصيرين للغاية، فكانتا تكتسيان بالتراب والغبار، حتى أصبح لونهما رماديًا على نحو دائم؛ إلا أنهما كانتا دقيقتين وتتمتعان برقةٍ غير عادية، وأصابع طويلة تنتهي بأظافر طويلة مدببة.

وكانت له رأس تماثل يديه، ذات شعر أشعث مهمل غير نظيف، يحمل بطبيعته كل معالم أصلٍ نقي نبيل. كما كان شعره المفروق بإهمالٍ، ذي اللون الأحمر الأصفر، مصففًا للخلف ليبرز جبين أبيض كالمرمر، تتألق أسفله عينان غائرتان ثاقبتان في آنٍ واحد، يميزهما لون أزرق فاتح.

وكانت عظام وجنتيه بارزةً بعض الشيء. أما أنفه الدقيقة، بجيبيها الرقيقين والمعقوفة قليلاً، فكانت من مظاهر شخصيته في هذه السن، مضافًا إليها فمه بشفته العليا الممطوطة.

لم يكن هانو بودنبروك قد التقى الدوق الصغير قبل التحاقهما بالمدرسة، سوى مرتين أو ثلاثًا خلال ذهابه مع إيدا للنزهة، فيخرجان من بوابة "بورجتور" متجهين شمالاً؛ وهناك، خارج المدينة، تحديدًا بالقرب من أول قرية، كان يوجد بيتٌ ريفي صغير لا يحمل أي اسم.

فإذا ما نظر إليه المرء رآه تلاً من القمامة، به بعض الدجاج وكشك

للكلاب ومبنى فقير يشبه الكوخ بسطح أحمر اللون شديد الانحدار، فكان هذا سكن أصحاب البيت، حيث سكن والد كاي ابرهارد، دوق مولن.

كان رجلاً متفردًا يصعب رؤيته، فكان عاكفًا على تربية الكلاب والدجاج وزراعة الخضروات، معتزلاً الناس داخل منزله الريفي. وكان يتمتع بقامةٍ طويلة، وينتعل حذاءً ملونًا، ويرتدي صدريةً من صوفٍ خشن خضراء اللون. وكان أصلع الرأس، بلحية بيضاء ضخمة رهيبة، يمسك بيده سوطًا، برغم أنه لا يملك خيولاً؛ وكان يضع على عينه، تحت حاجبه الكث "مونوكول".

ولم يكن قد تبقى من عائلته سوى هو وابنه بكافة أرجاء البلاد، بعد ما انقرضت فروعها بمرور الزمن؛ وهي التي كانت عائلةً ثرية في الزمن الغابر، ذات نفوذٍ وفخار؛ إلا أنها انقرضت وجف ضرعها. فلم يبق منها سوى إحدى عمات الصغير كاي، التي انقطعت علاقتها بوالده. وكانت تنشر روايات باسمٍ مُستعار في صحف الأسرة.

وكان البعض ما يزال يذكر أن الدوق، بعدما انتقل إلى داره أمام بوابة "بورجتور"، أراد أن ينأى بنفسه عن إزعاج الناس، سواء بالطلب أو العرض أو التسول، فعلق لافتةً على باب داره كتب عليها "هنا يسكن الدوق مولن بمفرده، لا حاجةَ له أو عنده". فلما حققت اللافتة الغرض، رفعها من جديد.

وقد نشأ كاي الصغير في هذا المكان يتيم الأم، بعد أن توفيت الدوقة أثناء ولادته، فقامت امرأةٌ ما، متقدمة في العمر، بإدارة شؤون المنزل. وقد تأثر كاي بنشأته بين الدجاج والكلاب، فأصبح وحشيًّا مثل الحيوان.

هناك، من بعيدٍ، متوجسًا، رآه هانو بودنبروك يقفز مثل أرنب بين ثمار

الكرنب، وهو يلهو مع صغار الكلاب، ويفزع الدجاج بقفزاته في الهواء.

ثم صادفه بالفصل بالمدرسة. وكان قد ظل في البداية على توجسه من المظهر الرث للدوق الصغير كاي. إلا أن الأمر لم يستمر كثيرًا، فقد استطاع بغريزته السليمة اكتشاف ما وراء مظهره الخشن، فرأى جبهته البيضاء وفمه الصغير، وعينيه بمحجريهما الطويلين، ولونهما الأزرق الفاتح، المفعمتين بنظرةٍ مستغربة ساخطة، فأحس بميلٍ كبير نحو زميله هذا دون زملائه الآخرين.

ورغم أنه كان متمسكًا بتحفظه، ولم يجد في نفسه الشجاعة للتمهيد لعقد أواصر الصداقة، ولولا مبادرة الصغير كاي العفوية، لظل كلاهما بعيدًا عن الآخر. حقًا، لقد انزعج الصغير يوهان في بداية الأمر من الحميمية السريعة التي اقترب بها كاي. فقد قام الزميل القصير ذو المظهر الرث بشن هجوم ناري كاسح كالرجال على هانو الوديع، بأناقته الآسرة، ليعرض عليه صداقته، ولم يكن بوسع هانو دفعَ ذلك عن نفسه. وإن لم يكن قد ساعده في مواد الدراسة، لطبيعته الأبية الحرة المنطلقة، التي لم تكن لتتسق مع جدول الضرب الذي كان يراه شيئًا مقززًا تمامًا، مثل بودنبروك الصغير السادر في أحلامه، لكنه أهداه كل شيء ممكن، مثل كرات من الزجاج، وحلقات من الخشب، وكذلك مسدسًا صغيرًا معوجًا من الصفيح، وإن كان هو أعز ما يملك. وكان في أوقات الراحة يمسك بيده ليروي له عن بيته وصغار كلابه ودجاجه، وكان يصحبه ظهرًا قدر الإمكان برغم أن إيدا يونجمان كانت تنتظره أمام باب المدرسة، وبيدها علبة بها خبز محشو بالزبد. وأثناء ذلك عرف أن بودنبروك يُدعى في البيت بـ"هانو"؛ وفي الحال رأى أن

من حقه استخدام اسم التدليل هذا الذي لم يعد يناديه بسواه.

وذات يوم طلب ألا يذهب هانو إلى ميولنفال، بل يصطحبه إلى دار أبيه، لكي يرى الأرانب المولودة حديثًا؛ فلما وافقت الآنسة يونجمان أخيرًا على طلب الرفيقين، مضوا إلى المقر الخطر ليشاهدوا هناك كومة القمامة والخضراوات، وكذلك الكلاب والدجاج والأرانب. وفي النهاية دخلوا البيت، ليجدوا الدوق ابرهارد قابعًا بغرفةٍ واسعة مستطيلة، منخفضة السقف، بالطابق الأرضي، مجسدًا نموذج العزلة العنيدة، جالسًا إلى طاولةٍ ريفية ثقيلة، وهو يقرأ، ليسألهم غاضبًا عن مطلبهم.

وتمسكت إيدا يونجمان بعدم تكرار الزيارة، مصرةً على أنه من الأفضل أن يقوم كاي بزيارة هانو، إن شاء الاثنان البقاء معًا. وهكذا جاء الدوق الصغير ليطالع بدهشةٍ حقيقية، دون توجس، دار والد صديقه الفاخرة لأول مرة. ومنذ ذلك الحين، راح يتردد على داره، ولم يحل بينه وبين ذلك سوى تراكم الجليد في فصل الشتاء، الذي كان بمثابة سدٍ يمنعه عن قطع الطريق الطويل عصرًا، من أجل قضاء بضع ساعات مع هانو بودنبروك.

وها هما قد اجتمعا بغرفة الأطفال الكبيرة بالطابق الثاني، للانتهاء من واجبهما المدرسي، فانشغلا بحل مسائل الحساب الطويلة؛ إلا أنهما لم يصلا إلى نتيجة بعدما ملأ كلاهما جانبي لوحة الإردواز بمسائل جمع وطرح وضرب وقسمة. وهكذا كان عليهما البحث ثم البحث عن الخطأ، حتى يعثرا على الورم الخبيث ليقوما بإزالته: آملين أن يكون ذلك خطأً كبيرًا ليتعين عليهما كتابة كل شيء مرةً أخرى.

ثم يعكفان على استذكار دروس قواعد اللغة الألمانية، ومراجعة قاعدة

"صيغة التفضيل"، فيسجلان ما حفظاه بترتيب ونظام تامين، على سبيل المثال: "العاج شفاف، الزجاج أكثر شفافية، الهواء هو الأكثر شفافية".

ثم يعرجان على دفتر الإملاء، ليستذكرا بعض العبارات مثل تلك: "اسم خادمتنا هدفيج، وبرغم أنها مطيعة للغاية إلا أنها تهمل كنس الأرض". وكان الغرض من هذا التمرين، المليء بالمغريات والشراك، هو التدريب على كلمات تحتوى على حروف يتشابه نطقها، ولكن تختلف في كتابتها. وقد بُذل اهتمامٌ بالغ في وضع هذا التمرين، مما استوجب التصحيح. فإذا أنجزا كل شيء، جمعا أدواتهما ليجلسا على حافة النافذة، ليستمعا إلى ما تقرأه عليهما إيدا. وكانت إيدا الطيبة تقرأ عليهُما "الكوخ الصغير"، الذي تشير إحدى فقراته إلى تعلم الورع، وكذلك "الخزانة الصغيرة"، و"ملك الضفادع"؛ فكانت تتلو ذلك بصوتٍ عميق مثابر، وهي تكاد تغمض عينيها، وتقلب الصفحات بسبابةٍ مبتلة على نحوٍ آلي؛ فهي تكاد تقص تلك الحواديت غيبًا، وهي حكايات ظلت ترددها طوال حياتها.

وقد وقع أثناء هذه التسرية أمرٌ عجيب، فقد نشأ لدى كاي نزعةٌ لمحاكاة القص، ليقوم هو بالرواية؛ وقد أجج هذه الرغبة أن الصبيين كانا قد قرآ، بمرور الوقت، كل ما نُشر من حكايات، كما كانت إيدا تحتاج إلى بعض الراحة من حينٍ لآخر. وقد بدأ كاي برواية قصص قصيرة بسيطة، لتصبح فيما بعد أكثر جرأةً وتعقيدًا، وقد جذبت اهتمامًا أعظم لأنها لم تكن كلها من بدع الخيال، بل كانت تنطلق من الواقع ليلفها بعدها غموضٌ نادر.

وكان هانو يؤثر قصة شريرٍ يمتلك قوة سحر خارقة، استطاع أسر أميرٍ حسن الطلعة يُدعى يوسيفوس، والاحتفاظ به على هيئة طائر غني بالألوان،

وكان الشرير يعذب الناس بفنون سحره الخبيثة.

ولكن كان هناك، في مكان بعيد، "القائد المختار" وقد كبر، ليأتي على رأس جيش لا يُقاوم، أعده من الكلاب والدجاج والأرانب ليهاجم الساحر بجسارةٍ، ويحرر الأمير وسائر الناس، خاصةً هانو بودنبروك بضربة من سيفه، فيخلص يوسيفوس، محررًا إياه من السحر ليعود إلى بلاده، ليتوَّج ملكًا، فينعم على كاي وهانو بأرفع المناصب..

وكان إذا مر السيناتور بودنبروك بغرفة الأطفال، ورأى الصديقين معًا هناك، من حينٍ لآخر، لم يكن ليبدي اعتراضًا على هذه العلاقة، بعد أن لاحظ أن كلاًّ منهما له تأثيرٌ إيجابي على الآخر. فأما هانو، فكان يهذب طباع كاي ويروضه، بل يكاد يرفعه إلى طبقة النبلاء؛ فقد كان يكن له حبًّا حانيًا، وقد راقه لون بشرة يديه الأبيض، مما حدا به إلى أن يطلب من الآنسة يونجمان تنظيف يدي كاي بالفرشاة والصابون.

أما ما كان يلقى ترحيبًا من السيناتور بودنبروك فهو أن هانو كان يتلقى، من الدوق الصغير، شيئًا من فجاجة ووحشية. فلم يكن السيناتور يخفي أن الرعاية النسوية الدائمة، التي ينعم بها الطفل، ليست هي المناسبة لتنمية الرجولة لديه.

فإخلاص وتفاني إيدا يونجمان الطيبة، التي عملت في خدمة آل بودنبروك لأكثر من ثلاثة عقود من الزمن، لا يمكن تقديرهما حقًا بثمن. وهي التي ضحت من أجل رعاية وخدمة الجيل السابق: أما هانو، فكانت تحمله على كفي الراحة، وتحيطه دائمًا بالحنان والاهتمام؛ فقد أحبته حبًّا جنونيًّا، فتجاوزت حدود المعقول في إيمانها البسيط الراسخ بإيثاره وأولويته

على الجميع.

فإذا ما تعلق أمرٌ ما به، كانت تبدي جسارةً مدهشة تتجاوز أحيانًا حد اللياقة. فكانت أحيانًا- عند شراء الحلوى- لا تفوت أدنى فرصة، ولا تستحي في التقاط بعض قطع الحلوى من صحاف العرض دون دفع المقابل.

فقد كانت ترى في ذلك تشريفًا للبائع. كما كانت تبادر أمام نوافذ العرض المزدحمة بمناشدة الناس بحزم، وبلهجة بروسيا الغريبة، إفساح المكان لمحسوبها.

وكانت ترفعه فوق مصاف الآخرين، إلى حد أنها لم تكن ترى أي طفل آخر جديرًا بالاقتراب منه. إلا أن الشعور المتبادل بينه وبين كاي كان أقوى من مخاوفها، وكان لاسمه وقعٌ ما في نفسها.

فإذا ما جلست مع هانو على أريكة في "ميولنفال"، فأقبل عليهما بعض الأطفال، كانت الآنسة يونجمان تسرع بالانصراف، متذرعةً بالتأخر عن الموعد، أو بتعرض الطفل لتيار الهواء. وكانت تبرر ذلك ليوهان الصغير على نحوٍ يجعله يتصور أن جميع أقرانه، فيما عدا هو، مصابون بداء الخنزير. وهو ما لم يكن يقوي الثقة والجرأة اللتين كان يفتقر إليهما على كل حال.

لم يكن السيناتور بودنبروك ملمًّا بمثل هذه التفاصيل، إلا أنه كان يرى أن نمو ابنه الطبيعي، المتأثر بعوامل خارجية، لم يتخذ بعد مساره الصحيح الذي يتمناه هو.

فكان يتمنى أن يقوم بنفسه على تربية ابنه، ليستطيع التأثير على وجدانه كل يوم وكل ساعة! لكنه كان يفتقر إلى الوقت اللازم لذلك، فاضطُر إلى أن يرى- في ألم- فشل بعض ما قام به من تجارب في سبيل ذلك، لتصبح العلاقة

بين الأب والابن أكثر برودة واغترابًا.

وكانت هناك صورةٌ تراود خياله، كان يشتاق لأن يتخذها نموذجًا لابنه: صورة جد هانو الأكبر، كما عرفها هو صبيًا- ذهنًا متيقظًا، ظريفًا، بسيطًا، فكهًا، قويًا..

أليس بوسعه أن يصبح هكذا؟ أكان هذا مستحيلاً؟ ولماذا؟.. ألا يستطيع على الأقل أن يحرمه من الموسيقى التي تبعد الصبي عن الحياة العملية، ولم تكن لتفيد صحته الجسدية يقينًا، كما استنفذت قواه الذهنية.

ألم يقترب كيانه الحالم أحيانًا من حد فقدان الرشد.

وذات عصر أحد الأيام، كان هانو قد نزل وحيدًا إلى الطابق الأول قبل ثلاثة أرباع الساعة من موعد الغداء الذي يبدأ في الساعة الرابعة. وكان قد تدرب على البيانو لفترة طويلة، ليبقى الآن خالي البال بغرفة المعيشة.

فاضطجع على "الشيزلونج"، وهو يداعب أنشوطة البحارة على صدره، وأخذ ينظر بطرف عينه بلا هدف محدد، لتستقر نظرته على مكتب أمه الرقيق المصنوع من خشب الجوز، حيث كانت هناك حافظة مفتوحة، حافظة تشتمل على سجل العائلة.

فكان أن اعتمد برسغه على مسند ظهر "الشيزلونج"، مرتكزًا بذقنه على يده، وأخذ يتأمل هذه الأشياء لبرهة عن بُعد. فقد كان الأب قد انشغل بذلك بلا ريب اليوم بعد الفطور الثاني، وتركها على حالها ليعود إليها من جديد.

كانت بعض الأوراق قد حُشرت بالحافظة، وأوراق منفردة كانت خارجها، وقد وُضِعت فوقها مسطرةٌ من المعدن، والدفتر الكبير بإطاره الذهبي وأوراقه

المختلفة وقد تُرك مفتوحًا.

انزلق هانو متراخيًا من المقعد ليتجه إلى المكتب، حيث كان الدفتر مفتوحًا على الموضع الذي سُجلت فيه شجرة نسب عائلة بودنبروك كاملةً بين أقواسٍ وهوامش وتواريخ وافية، بخط يد العديد من أسلافه، وآخرها بيد أبيه.

فوضع ساقًا على كرسى المكتب، وأسند شعره الكستنائي الفاتح الناعم المموج على راحة كفه، ليأخذ هانو في تفرس الدفتر بجدية يشوبها نقد وازدراء اللامبالاة التامة، مداعبًا بيده الطليقة حافظة قلم أمه التي كان نصفها من الذهب والنصف الآخر من الفضة.

واستعرض بعينيه أسماء الذكور والإناث التي انتظمت تحت أو بجوار بعضها البعض، وقد كُتب بعضها بخط منمق من الخطوط القديمة بحبر شديد السواد أو أصفر باهت، وقد التصق بها شيء من رمل.

كما قرأ أيضًا في النهاية اسمه، كان قد خطه أبوه بسرعة وحروف صغيرة بين اسمي والديه: يوستوس، يوهان، كاسبار، مولود في 15 أبريل 1861، وهو ما بعث السرور في نفسه.

اعتدل قليلاً، وتناولهتراخٍ المسطرة والقلم، ليضع المسطرة أسفل اسمه، ليطوف بعينيه مرةً أخرى فوق غابة الأنساب.

وبملامح جامدة واهتمام غير واعٍ، وعلى نحوٍ تلقائي حالم، جرَّ بالقلم الذهبي خطًا مزدوجًا جميلاً واضحًا بعرض الصفحة كلها، وجعل الخط الأعلى أكثر سمكًا من الأسفل، كما كان عليه فعله بدفتر مادة الحساب..

ثم مال برأسه للحظة، ليختبر ذلك، ليتحول عنه بعدها.

واستدعاه السيناتور بعد تناول الطعام، وأخذ يحدق فيه، وهو يقطب حاجبيه.

"ما هذا. كيف حدث هذا. هل أنت من فعل ذلك؟"

كان عليه التفكير للحظة إن كان قد فعل ذلك، ليقول بعد ذلك على استحياءٍ، خائفًا: "نعم".

"ما معنى ذلك.. كيف طاوعتك نفسك على أن تعبث بالأشياء.. كيف فكرت في ذلك".. هكذا صاح السيناتور، ثم طوى الدفتر بحذر، وصفع به هانو فوق خده.

فانسحب يوهان الصغير إلى الخلف، متحسسًا خده، ليتمتم: "أعتقد.. أعتقد.. أني لن أفعل ذلك مرةً ثانيةً.."

الفصـل الثَّـامن

أثناء سهرات الخميس، عندما كانت الأسرة تجلس لتناول الطعام، محاطةً بتماثيل الآلهة المبتسمة في سكينة على كساء الجدار، لم يعد هناك مؤخرًا سوى مادة حديث جديدة تجعل ابتسامة سيدات بودنبروك بالشارع العريض متحفظةً باردة، إلا أنها كانت تستدعى في ملامح وإيماءات السيدة بيرمانيدر انفعالاً غير مألوف.

فكانت تتحدث، وقد أعادت رأسها للخلف، ومدت يديها باستقامة إلى الأمام، ساخطةً حانقةً، وقد تملكها غضب عميق. وتنتقل من موضوع الحديث الخاص إلى موضوع عام، فتذكر بشرًا غير أسوياء، وتقذف بعبارات مشمئزة، وبصوت يشبه آلة موسيقى نحاسية صغيرة، من أثر حشرجةٍ جافة عصبية ناتجة عن ضعف معدتها، وبنبرة اعتادتها في حالة الغضب لتصدر كلمات مثل تريشكه–الدموع –ا جريونليش –ا بيرمانيدرا

أما الغريب، فكانت الصيحة الجديدة التي كانت تلحقها بذلك، وكانت تلفظها باحتقارٍ ومقت لا يمكن وصفهما. وهي: وكيل النيابة!

وكان الحديث يتوقف إذا ما ظهر المدير فاينشينك بالقاعة، متأخرًا كعادته دائمًا، بسبب تكدس العمل عليه، فيمضي إلى مكانه وهو يحرك قبضتيه بحيوية غريبة عند وسط سترته، ليحافظ على توازنه، بينما يكون قد أرخى شفته السفلى أسفل شاربه ليظهر جرأته.

هكذا يخيم صمتٌ حرج مُقبض على المائدة، إلى أن يتطوع السيناتور بإنقاذ الجميع من حيرتهم، فيشرع في الحديث بيسر تام، كأنه يتناول مسألة تتعلق بإحدى صفقاته، ليسأل المدير عن تطورات القضية، فيرد هوجو فاينشينك بأن الأمور تسير على ما يرام، بل تسير على أفضل ما يمكن بامتياز.. لينتقل بعد ذلك بسلاسة وابتهاج إلى مسألة أخرى.

كان مرتاح البال على نحو أعظم مما سبق، ليطوف بعينيه بجرأة وحشية، ويسأل مرات عديدة عن حال كمان جيردا، دون أن يتلقى إجابة. وكان يثرثر عادةً كثيرًا سعيدًا، ولم يكن هناك ما يزعج سوى أنه أحيانًا كثيرة لا يبالي كفاية بما يقول، ليروي بمزاج جيد للغاية من حين لآخر قصصًا غير مناسبة على الإطلاق. فقد روى- على سبيل المثال- قصة مربية أضعفت صحة طفل أنيط بها رعايته، من خلال انتفاخ كانت تعاني منه. وما كان يجده أمرًا فكهًا بلا شك، أنه يقوم بتقليد طبيب الأسرة الذي كان يصيح: "لمن هذه الرائحة الكريهة! مَن يكون صاحب هذه الرائحة الكريهة!" وكان يلاحظ متأخرًا أو لا ينتبه على الإطلاق أن وجه زوجته قد اكتسى بالحمرة، وأن القنصلة وتوماس وجيردا قد جلسوا بلا حراك، وأن سيدات بودنبروك أخذن يتبادلن نظرات ثاقبة، حتى ديشكن سيفيرين، الجالسة بنهاية الطاولة، قد أحست بالإهانة. ولم يكن سوى القنصل العجوز كروجر الذي كان يضحك ضحكًا

خافتًا.

فيا ترى، ماذا دهى المدير فاينشينك! هذا الرجل الجاد النشط الصلب، وهو الرجل خشن المظهر، المجافي لذوق كل المجتمع، ولم يعرف سوى التفاني في إخلاصه لعمله. إنه هو الرجل الذي أُشيع عنه أنه ارتكب خطأً جسيمًا، مرةً، بل مرات. هو الآن متهمٌ، اتهمه القضاء بأنه مارس مراتٍ عديدة مناورات تتصل بمجال عمله، لم تكن موضعًا للشبهات فحسب، بل توصف بأنها غير نظيفة، بل إجرامية، وقد قُيدت ضده قضيةٌ لا يدري إلى أي مصير ستؤول!

فما الجرم الذي اقترفه؟ كانت بعض حرائق قد شبت ببعض الأماكن، حرائق كبيرة، كانت ستكلف الشركة تعويضًا جسيمًا لصالح المتعاقدين معها. إلا أنه قد أُشيع أن فايشينك- بعد أن أسرع مندوبوه بإبلاغه بهذه الحوادث سرًا، قام بتسجيل التأمين باسم شركة أخرى، وهو يدرك أنه يرتكب جريمة تزوير.

وبذا، يكون على هذه الشركة دفع قيمة التعويض عن الحريق. وقد أصبح أمر التحقيق بيد النيابة، بيد وكيل النيابة الدكتور موريتس هاجنشتروم.

وكان أن انتحت القنصلة بابنها جانبًا، لتقول له: "توماس.. أرجوك.. أنا لا أعي شيئًا.. فكيف يكون لي رأيٌ في هذه القضية!"

فرد هو: "وما عسانا القول بشيء في مثل هذا الأمر. لكن الشك يساورني أن يكون كل شيء على ما يرام. ولكن من الأرجح أن فاينشينك لم يرتكب جرمًا، كما تردد جماعة بعينها من الناس. فهناك عُرفٌ يُعمل به

في مجال الأعمال ذي الأساليب الحديثة، يُسمى "ترخصًا"، وهذا "الترخص" مناورة ليست بريئة تمامًا، وهي مجافية تمامًا للقانون المعمول به، فيراها غير المطلعين على بواطن الأمور أمرًا لا يتفق مع الضمير، إلا أن رجال الأعمال يعتبرونها قانونًا غير مكتوب. كما يصعب فصل "الترخص" عن الجريمة فكلاهما سواء.

"فإن كان فاينشينك قد ارتكب هذا الأمر، فلن يكون، على الأرجح، أسوأ من زملاء له كثيرين أفلتوا من العقاب، إلا أنني لا أتوقع نهاية طيبة لهذه القضية. ولو كان ذلك بمدينة كبيرة، لصدر ربما الحكم ببراءته، إلا أننا هنا، حيث يُنظر إلى كل شيء بعين التعصب والدوافع الشخصية.. كان عليه توكيل محامٍ يستطيع معالجة الأمر على نحوٍ أفضل. ففي مدينتنا هذه، لا يوجد مثل هذا المحامي الضليع، الذكي، صاحب الموهبة الفذة، وصاحب الخطاب المقنع، الفقيه، الخبير بسبل عبور المسالك الوعرة.

"إلا أن رجال القانون بمدينتنا يدعمون بعضهم البعض، بعد أن ارتبطوا بمصالح مشتركة، وولائم غداء، وربما كذلك صلات قرابة، ويجامل بعضهم الآخر. وإن كنت أرى أنه كان على فاينشينك اختيار أحد محامي مدينتنا، لكنه ماذا فعل؟ لقد رأى أنه أنه مضطرٌ لتوكيل محامٍ من برلين، وهو ما يجعلنا في النهاية نفكر أن "ضميره مرتاح"؛ فالدكتور برسلاو هو عفريت من الجن، وخطيب مفوه، وواحدٌ من كبار المحامين أصحاب الخبرة العميقة، وقد سجل أمجادًا في تبرئة المصرفيين الأفاقين من عقوبة الأشغال الشاقة. ومما لا شك فيه أنه سيتولى هذه القضية مقابل أتعاب ضخمة للغاية، وسوف يترافع مرافعة ذكية للغاية. لكن هل سيكلل مجهوده بالنجاح؟ فأنا أظن أن رجال

القضاء النابهين بمدينتنا سيبذلون قصارى جهدهم حتى لا يتأثروا بالمحامي الغريب، بل إن هيئة المحكمة سوف تميل إلى الأخذ بدفوع الدكتور هاجنشتروم .. وماذا عن الشهود؟

" فأما مساعدوه، فلا أظن أنهم سوف يؤازرونه، أو يبدون أي تعاطف معه؛ وهذا يرجع إلى ما نسميه نحن أصحاب النوايا الطيبة، بمسلكه الفظ مع الآخرين، الذي لم يجعل له أصدقاء كثيرين. وهو كذلك على ما أظن، وبإيجاز، يا والدتي. فأنا غير متفائل؛ فإن جاءت النتيجة مخيبة للآمال، فإن ذلك سيكون بمثابة الفجيعة لاريكا. إلا أن الألم يعتصرني من أجل طوني، فأنت ترين أنها على حق عندما تردد أن تولي هاجنشتروم التحقيق قد وافق هواه. فالقضية هي قضيتنا جميعًا، وسوف تطولنا جميعًا نتيجتها السيئة؛ لأن فاينشينك ينتسب بحق إلى عائلتنا، ويشاركنا طعامنا. أما أنا فسوف أتجاهل هذا الأمر، لأني أعرف ما سيكون عليَّ فعله، وسيكون موقفي العلني من القضية كموقف الغرباء، ولن أتابع جلساتها، وإن كنت أهتم بمرافعة برسلاو، لكن لا ينبغي لي إبداء الاهتمام، حتى لا أُتهم بالتأثير على أى نحوٍ.

"لكن طوني، لا أود التنبؤ بمدى حزنها إن تمت إدانته. وسيكون علينا الاستماع لما تردده عن الخوف من الوشاية، ومكائد الحاسدين؛ وإضافةً إلى ما تعانيه من أمور مزعجة، سيكون عليها الخوف أيضًا من ضياع آخر ما كانت تحافظ عليه من شرف أسرة ابنتها.

"آه، انتبهي! فهي ستتمسك ببراءة فاينشينك كلما زاد شكها في ذلك، على أنه قد يكون أيضًا بريئًا، يقينًا، بريئًا تمامًا.. وما علينا سوى الانتظار، يا والدتي، وأن نسلك نحوه ونحو أنطونيا وأريكا مسلكًا متعقلاً، برغم أنني غير

متفائل".

وها هي أعياد الميلاد تقترب هذه المرة في مثل هذه الظروف، وكان يوهان الصغير يرقب بقلب وجل اقتراب موعد العيد، الذي لا يعدله شيء آخر، وهو يتابع نزع أوراق التقويم السنوي الذي صنعته إيدا يونجمان، والذي ازدانت آخر أوراقه بشجرة عيد الميلاد .

وتضاعفت الإشارات، بعد أن عُلقت على حائط قاعة طعام جدته صورةٌ ملونة للخادم "روبرشت"، منذ أول يوم أحد سابقٍ للعيد. وذات صباح وجد هانو قصاصات ورقٍ مذهب، يُسمع حفيفه، قد نثرت على فراش مخدعه، وعلى البساط أمام الفراش، وعلى ملابسه.

وبعد عدة أيام، كان أبوه قد اضطجع عصر ذاك اليوم على "الشيزلونج" بغرفة الجلوس، وهو يطالع صحيفته، بينما كان هانو أثناء ذلك يقرأ قصيدة "ساحرة أندور" من ديوان "سعف النخيل" تأليف جيروك، فإذا فجأة، ككل عامٍ، يُعلن هذه المرة أيضًا عن وصول "رجلٍ عجوز" يسأل عن الصبي. ولما أُذن للرجل العجوز بالدخول، هلَّ بخطى زاحفة، وقد ارتدى ثوبًا من الفراء قُلبت جوانبه الخشنة للخارج، وعلتها قصاصات الورق الذهبي ورقائق الجليد، وغطى رأسه طرطورٌ بنفس الهيئة، وبانت على ملامحه أمارات الجدية، وبدا بلحية بيضاء هائلة نثر فوقها الورق المفضض اللامع، وكذلك على حاجبيه الكثيفين على نحو غير طبيعي.

وقد أوضح ككل عامٍ، بصوت رنان، أن هذا الجراب فوق كتفه الأيسر يحتوى على ثمار تفاح، وثمار جوز ذهبية من أجل الأطفال، الذين بوسعهم أداء الصلاة، ولكن على الجانب الآخر هذه العصا على كتفه الأيمن، أُعدت

من أجل الأطفال الأشرار.. كان هذا هو الخادم روبرشت، دون أن يعني أنه روبرشت الحقيقي، وقد لا يكون في النهاية سوى الحلاق فنتسل، متنكرًا في ثوب أبيه المقلوب، إلا أنه كان هناك على أية حال الخادم روبرشت.

فرتل هانو هذا العام أيضًا صلاة "أبانا الذي في السموات"، يقاطعه النشيج، وقد ارتعد حقًّا مرةً أو مرتين بلا وعيٍ تقريبًا، ليعقب ذلك السماح له بدس يده في الجراب الخاص بالأطفال الصالحين، وقد نسي الرجل العجوز ثانيةً أن يأخذ معه الجراب.

وكان أن حلت الإجازة، وانقضت تلك اللحظات في هناء إلى حد كبير، بعد أن اطلع الأب على شهادة المدرسة التي كانت لابد أن تصدر أيضًا في أوقات عيد الميلاد.. فكان أن أُغلقت القاعة الكبيرة على نحوٍ غامض، ووضعت على المائدة حلوى اللوز بالسكر والفطائر بنية اللون، وقد شهد خارج البيت أيضًا احتفالات بالعيد.

انهمر الجليد وحل الصقيع، وفي الهواء الجاف شديد البرودة صدحت الألحان الشجية والمعتادة بالطرقات، من بيانولا الإيطاليين بستراتهم المخملية وشواربهم السوداء، وقد جاءوا من أجل الاحتفال بالعيد، ووضعت هدايا عيد الميلاد الزاهية في نوافذ العرض. وحول النافورة ذات الطراز القوطي بميدان السوق، أقيمت ألعاب الأطفال المزركشة بمناسبة عيد الميلاد. وأينما مضى المرء كان يشم عبير شجرة التنوب المعروضة للبيع.

وفي النهاية، حل مساء الثالث والعشرين من ديسمبر، ليبدأ الحفل بصالة البيت في فيشرجروبه. وكان حفلاً في أضيق الحدود، فلم يكن سوى بداية، افتتاح، وغناء تمهيدي، لأن القنصلة كانت تحتفظ بحق الاحتفال بالعيد

المقدس، وهناك تكون العائلة كلها، حتى إنه في وقت متأخر من عصر يوم الرابع والعشرين، يكون هناك كل أصدقاء سهرة الخميس، بالإضافة إلى يورجن كروجر من فيسمار، وكذلك تريزه فايشبروت والسيدة كيتلسن، ليجتمعوا بغرفة المنظر الطبيعي. وفي ثوب ثقيل، رمادي اللون بقلم أسود، ووجنتين متوردتين، وعينين متوهجتين، وعبق رائحة "باتشولي" الرقيق، استقبلت السيدة العجوز الضيوف الوافدين تباعًا، وأساورها تصدر وسوسةً عند العناق الصامت.

وقد كانت- في هذا المساء- على حالة من التوتر الخفي يفوق الوصف. وعندما وصل السيناتور مع جيردا وهانو، قال: "يا إلهي، إن حرارتك مرتفعة، يا أمي، لسوف يتم كل شيء على خير وجه".

إلا أنها قبلت ثلاثتهم، وهي تقول: "إكرامًا ليسوع.. وعزيزي الراحل جان.."

وفي الواقع، فإن برنامج الحفل المقدس الذي كان لابد أن يجري على ما وضع خطته القنصل الراحل، وكذلك شعورها بالمسؤولية لإتمام الحفل على نحو مشرف، ذلك الحفل المفعم بالسعادة العميقة الحقيقية، كان يدفعها إلى التحرك من هنا إلى هناك، بلا راحة، من صالة الأعمدة حيث اجتمع كورال كنيسة سانت ماريا، إلى قاعة الطعام حيث كانت ريكشن تضع لمستها الأخيرة على الشجرة وطاولة الهدايا، ثم إلى الممر حيث يقف بعض الفقراء المسنين الغرباء على استحياء حيارى، وهم محاسيب العائلة الطامحون إلى المشاركة بالحفل، لتعود إلى غرفة المنظر الطبيعي، لتحدق بطرف عينها صامتةً في كل كلمة وحركة زائدة عن الحاجة.

وقد خيم الصمت هناك، حتى إنه كان يُسمع صوت البيانولا من بعيد، وهي تعزف ألحانًا رقيقة واضحة مثل أنغام ساعة موسيقية بشارع جانبي ما غطاه الجليد؛ فرغم تواجد أكثر من عشرين شخصًا وقفوا أو جلسوا بالغرفة كان الهدوء أعمق من هدوء الكنيسة، كما خيم جو حذِر كالذي يسود الجنازات، وهو ما أسر به الخال يوستوس إلى السيناتور. وعلى أية حال، فلم يكن هناك ما ينذر بخطر يهدد هذا الجو، من خلال صوت صبياني أرعن. فكانت تكفى نظرةٌ لكي يُفهم أن كل أفراد الأسرة المجتمعين هناك، في مرحلة عمرية واحدة تقريبًا، قد تقبلوا منذ زمن التعبير عن مظاهر الحياة في إطار محدد. فذبول السيناتور توماس بودنبروك قد كشف خداع تعبير وجهه اليقظ الحيوي وروحه المرحة، وجيردا زوجته المرتاحة بلا حراك فوق مقعدها رافعةً وجهها الجميل الأبيض، لتنظر بعينيها اللامعتين على نحوٍ نادر، المتقاربتين بهالاتهما الزرقاء لا تتحول عن مقاطع الثريا الرئيسة، وشقيقته السيدة بيرمانيدر، وابن خاله يورجن كروجر، هذا الموظف الهادئ، بردائه البسيط، وبنات عمه فريدريكه وهنريته وفيفي، وقد أصبحت الأولى والثانية نحيفتين وطويلتين، بينما أصبحت الثالثة أقصر قامة، أكثر بدانة عن ذي قبل، إلا أنه كان هناك نمط وحيد تبدى في تعبير وجوههن، وهو ابتسامة ساخرة حادة موجهة إلى كل شخص وكل شيء بارتياب جمعي.

كأنها تقول دائمًا "حقًّا؟ إننا نشك في ذلك، مبدئيًّا". وفي النهاية، كانت كلوتيلده المسكينة الذابلة، التي ركزت كل أفكارها على طعام العشاء مباشرةً، كان الجميع قد تجاوزوا سن الأربعين، فيما كانت ربة البيت وأخوها يوستوس وزوجته، وكذلك تريزه فايشبروت، قد تجاوزوا الستين بكثير. وكانت

القنصلة بودنبروك العجوز، ابنة شتيفنج، وكذلك السيدة كيتلسن البكماء تمامًا، في السبعينات. وفي ريعان الشباب، لم يكن هناك سوى اريكا فاينشينك، التي كان يمكن ملاحظة أن صدرها النافر يرتفع دون صوت جراء النفس العميق، حين تتجه بعينيها بلونهما الأزرق الفاتح-كعيني السيد جريونليش- نحو زوجها المدير، برأسه الحليقة، وفوديه الأشيبين، وشاربه الرقيق الذي نما داخل شدقيه، واقفًا بجوار الأريكة والمنظر الطبيعي على جدار الغرفة.

فقد كانت تكدرها هواجس عن رد التأمين والحسابات والشهود ووكيل النيابة والدفاع والقضاة، أجل، فلم يكن هناك بالغرفة من لم تساوره هواجس مخالفة لأجواء احتفالية عيد الميلاد، بعد أن خيم على الجمع شعورٌ طاغ غريب رهيب، وفي وعى العائلة كافة، بأن موقف المتهم، زوج ابنة السيدة بيرمانيدر، وهو أحد أفراد الأسرة المتواجدين، قد اقترف جريمة ضد القانون والنظام العام وشرف المهنة، وربما يلحق بهم أيضًا العار؛ إنه حفل عيد الميلاد لعائلة بودنبروك وبينهم متهم!

وكانت السيدة بيرمانيدر قد أراحت ظهرها إلى مسند المقعد، بوقار شديد، بينما ازدادت حدة ابتسامة سيدات بودنبروك بالشارع العريض. فهل استشعر الأطفال ذلك، هذا الجيل الذي يتلمس أولى خطاه، هل أحس هذه الحال المخيفة الجديدة الغامضة تمامًا. فأما الصغيرة إليزابيت، فلم يكن من الممكن الحكم على مشاعرها. وكانت وقد ارتدت ثوبًا قصيرًا ازدان إطاره بشرائط من الساتان، الذي تبدى فيه ذوق السيدة بيرمانيدر، وكانت الطفلة قد جلست على ذراع مربيتها، وقد قبضت يدها الصغيرة على إبهامها،

وراحت تلعقه بلسانها، وقد شخصت بعينين جاحظتين بعض الشيء، ومن حينٍ لآخر كانت تصدر صوتًا قصيرًا متحشرجًا لتهدهدها الخادمة قليلاً. وأما هانو فقد جلس على مقعده الصغير عند قدمي أمه، ناظرًا إليها، وهي تتطلع إلى مقاطع الثريا الرئيسة.

كان كريستيان غائبًا، فأين كان كريستيان؟ فلم يلحظ غيابه أحدٌ إلا في آخر لحظة.

وكان أن ازدادت حركة القنصلة، وهي تحرك يدها على نحو غريب بين شدق فمها وشعرها كأنها تعيد خصلةً ما إلى حالها، ثم أمرت الآنسة سيفرين على عجل، فأسرعت الخادمة متجاوزة فتية الكورال مخترقةً صالة الأعمدة الواقعة بين جناحي البيت، ثم عبر الممر لتقرع باب السيد بودنبروك. وجاء كريستيان بساقيه النحيلتين المنبعجتين، وهو يعرج جراء معاناته من ألم الروماتيزم، ليدخل غرفة المنظر الطبيعي على مهل وراحة، وقد أخذ يفرك بيده جبهته الصلعاء، وقال: "كدت أنسى يا أولاد، اللعنة على الشيطان".

فابتسمت أمه من كلامه قائلةً: "كدت.." ثم لاذت بالصمت. ليستطرد هو: "حقًا، كدت أنسى أن اليوم هو عيد الميلاد.. فقد كنت مستغرقًا في مطالعة كتاب رحلات بأمريكا الجنوبية.. يا إلهي، كم عايشت من أعياد ميلاد أخرى".

وكان قد عقد عزمه على رواية قصة عيد ميلاد عاشه بلندن، بملهى من الدرجة الخامسة، إلا أن هدوء الكنيسة الطاغي على جو الغرفة جعله يتراجع عن ذلك، ليمضي إلى مكانه على أطراف أصابعه، وهو يجعد أنفه.

وكان أن أنشد كورال الأطفال "طوبى لك يا ابنة صهيون!"– وهم الأطفال

الذين كانوا قبل لحظات يأتون بأفعال صبيانية، وصل حدة صخبها إلى أن ينهض السيناتور ليقف أمام الباب ليرغمهم على التزام الاحترام الواجب، وهي مجموعة الأطفال نفسها التي راحت الآن تصدح بترنيمة بديعة رائعة بأصوات مشرقة صاعدة من الأعماق، نقيةً محتفيةً مسبحةً، لتخلب لب الجميع، وتحد من ابتسامة العوانس، ودفعت الكبار إلى النظر في أنفسهم متأملين ما فعلوا بحياتهم، وجعلت الأصغر سنًّا ينسون همومهم للحظات.

أما هانو، فأطلق ركبتيه من أسر يديه، وبدا ممتقع الوجه للغاية، وهو يداعب شرائط أطراف المقعد الذي يجلس عليه، ويلوك بلسانه أحد ضروسه بفم شبه فاغر، وقد شاع بوجهه أمارة مَن يرتعد من البرد. وكان من حينٍ لآخر ينتابه شعورٌ بالحاجة إلى التنفس بعمق، فقد كان قلبه ينكمش على إحساس بسعادة شجية بعيد الميلاد، من جراء الترانيم التي يتغنى بها الكورال غناءً مجلجلاً كرنين الأجراس، لينتشر بين ذرات الهواء في ليلة عيد الميلاد، التي ينفذ فيها عبق شجرة عيد الميلاد من خصاص الباب العالي الأبيض ذي المصراعين، رغم أنه مُحكم الإغلاق.

إنه عيد الميلاد الذي أوقظ عبقه العذب خياله عن الأعجوبة الموجودة هناك بالصالة، التى تعاوده اللهفة عليها كل عام بقلب خافق الوجيب، كأنها منحة السماء.

فيا تُرى، ماذا كان ينتظره هناك بالداخل؟ أيكون هذا الذي تمناه، بالطبع، فهذا ما سيحصل عليه دون أن يطلبه، وهو ما لم يُذكر على أنه محال، فلسوف يتجلى المسرح في الحال أمام عينيه ليقوده إلى مكانه، إنه مسرح الدُّمَى المنتظر الذي شدد عليه في مقدمة بطاقة الأماني التي أرسلها لجدته،

وهو الذي كان الفكرة الوحيدة التي سيطرت عليه منذ مشاهدته لرواية "فيديليو".

حقًّا، لقد جاءت زيارة هانو الأولى للمسرح مؤخرًا عوضًا ومكافأةً له عن علاجه عند السيد برشت. وقد زار مسرح المدينة، فجلس بالصف الأمامي بجوار أمه ليتابع دراما وألحان "فيدليو"، وهو يكتم أنفاسه. ومنذ ذلك الحين، أصبح لا يحلم إلا بمشاهد الأوبرا، وشغف بالمسرح حبًّا، حتى قُض مضجعه.

وأصبح ينظر بحسد لا يوصف في الطرقات إلى الناس، ممن عرف عنهم ارتيادهم للمسرح، مثل عمه كريستيان، وكذلك القنصل دولمان، والوسيط جوش.

فهل يمكنهم تحمل سعادة زيارة المسرح كل مساء. وكم تمنى رؤية صالة المسرح، ولو مرةً واحدة خلال الأسبوع، قبل رفع الستار، ليسمع أصوات الآلات الموسيقية، متأملاً الستار المسدل إلى ذلك الحين. فقد تدله بحب كل شيء بالمسرح : رائحة الغاز والمقاعد والموسيقيين والستار. فهل سيكون إذن مسرح الدُّمَى بالبيت كبيرًا رحيبًا؟ وكيف سيكون حال الستار؟

لابد أن تكون به عين صغيرة. ففي ستار مسرح المدينة ثمة عين للاستطلاع؛ فهل أعدت جدته أو الآنسة سيفرين الديكور اللازم لأوبرا فيدليو؟ فليس بوسع الجدة وحدها إعداد كل هذا. وفي الغد، سيقوم في الحال بإغلاق مكانٍ ما على نفسه لأداء مشاهد التمثيل. فها هم أبطال الرواية يشدُون في خياله، فقد ربطت الموسيقى بينه وبين المسرح برباطٍ وثيق..

وكان أن انتهى كورال الأطفال إلى غناء "اصرخي عاليًا يا أورشليم". كانت الأصوات التي غنت متباينة، قد انتهت بالمقطع الأخير في دعة وفرح، وأخذ

التناغم الصادح يتناهى ليخيم سكونٌ عميق على صالة الأعمدة وغرفة المنظر الطبيعي؛ فاستكان أفراد الأسرة إلى الراحة، فيما عدا المدير فاينشينك الذي أخذ يطوف بعينيه بأرجاء المكان بجرأة وقلة حياء، وكذلك السيدة بيرمانيدر، التي أخذت تصدر تنهدًا خشنًا لم تستطع له دفعًا.

أما القنصلة، فمضت على مهلها إلى الطاولة لتجلس على تلك الأريكة التي لم تعد قائمة بذاتها، منفصلة عن المائدة، مثلما كانت في الماضي.

وكانت قد عالجت وضع المصباح، وأمسكت بالإنجيل الكبير ذي الغلاف الهائل المذهب المحفور، الذي استحال إلى اللون الأصفر بفعل الزمن. ووضعت النظارة على أنفها، وحلت رتاجين من الجلد كانا يحكمان إغلاق السِّفر الكبير. ثم فتحت الكتاب على العلامة المميزة، ليبدو الورق سميكًا خشنًا باهتًا، وقد طُبعت كلماته بحروف ضخمة للغاية، ثم رشفت جرعةً من الماء المحلى بالسكر، وبدأت في قراءة فصل عيد الميلاد.

أخذت ترتل الفقرات المعتادة منذ زمن على مهل وتشديد بسيط مؤثر في القلوب، ونبرة ترتقي فوق السكون الورِع بوضوحها وأثرها وصحوها. إلى أن قالت: "وفي الناس المسرة"، ليرتفع صوتٌ ثلاثي من صالة الأعمدة يشدو بترنيمة "أيتها الليلة الهادئة، أيتها الليلة القدُّوس"، ليشارك فيها كل مَن في غرفة المنظر الطبيعي من أفراد الأسرة بحذر، فغالبية هؤلاء يفتقرون إلى ملكة الحس الموسيقي، وكانت تصدر عن المجموعة من حين لآخر نغمة عميقة نشاز.. إلا أن ذلك لم يؤثر سلبًا على وقع الموسيقى..

أما السيدة بيرمانيدر، فقد غنت بشفتين مرتعشتين؛ إذ كانت العذوبة والشجن تؤثران على نحو أعظم في قلب إنسان عاش حياة حافلة بالأحداث،

فيلقي عليها نظرة متأملاً ماضيه بعينٍ راضية، ساعة احتفال قصير الأجل.. وبرغم أن السيدة كيتلسن لم تكد تسمع شيئًا من كل ما جرى، إلا أنها بكت في صمت بكاءً مريرًا.

وقامت القنصلة لتأخذ بيد حفيدها يوهان وحفيدتها الصغرى إليزابيت وتمضي بهما من الغرفة، ليلحق بها الكبار وخلفهم الجيل التالي. وكان الخدم والفقراء كذلك بصالة الأعمدة. فراح الجميع ينشدون أغنية "يا شجرة الميلاد"، في نفَسٍ واحد، فيما كان العم كريستيان يمضي بالمقدمة، مثيرًا ضحك الأطفال، عندما أخذ- أثناء سير الجمع- يرفع ساقه مقلدًا دمية العرائس، وهو يعاني من غناء "يا شجرة الميلاد"، ليخرج الجميع وأبصارهم شاخصة من خلال الباب العالى المفتوح، وقد شاعت البسمة في وجوههم.

أما القاعة، فقد عبقت كلها بعبير بعض الأغصان المحترقة، وأضاءها وميض شُعلٍ صغيرة بلا حصر. كما ازداد المكان الرحب تألقًا بلون السماء الأزرق الساطع من تماثيل الآلهة البيضاء المزدان بها كساء الجدران.

وكانت شُعل صغيرة تتألق كنجوم بعيدة في فيض النور، صادرةً عن شموع- وضعت بنهاية الصالة بين النوافذ ذات الستائر الحمراء القانية المسدلة- تغطي شجرة الميلاد، التي ازدانت بقصاصات فضية وزهور زنبق أبيض كبيرة، مكللةً بملاك يخطف الأبصار، ومشهد "مِذود" عند جذرها، وقد ارتفعت عالية، فكادت تلامس سقف القاعة؛ فقد كانت هناك طاولةٌ بغطاءٍ أبيض امتدت من النافذة إلى الباب، ومُلئت طولاً وعرضًا بالهدايا، قد صفت فوقها شجيرات ازدانت بالحلوى فراحت أيضًا تتلألأ في ضوء الشموع.

كما توهجت أيضًا صفوف مصابيح الغاز على الجدران، واشتعلت الشموع الكبيرة فوق حوامل الشمعدان المذهبة بأرجاء القاعة الأربعة. وعلى الأرض، كانت ألوانٌ كثيرة من هدايا مصفوفة بجوار بعضها، بعد أن ضاقت بها الطاولة، كما امتدت على جانبي الباب طاولات أصغر حجمًا بغطاءٍ وضعت فوقها هدايا، وزينت بشجيرات مضيئة: إنها هبات الخدم والفقراء من محاسيب الدار. وها هم يمضون بالقاعة منشدين الغناء، وقد شخصت نظراتهم بعيدًا عن ملامح ذلك المكان الذي اعتادوه منذ زمن، ويمرون بالمذود، الذي توسطه تمثالٌ من الشمع للمسيح طفلاً، كأنه يرسم علامة الصليب، ليتوقفوا هناك بخشوع متأملين تفاصيل المشهد.

وقد أصابت حيرةٌ تامة هانو. فما إن دخل الصالة حتى تطلعت عيناه بلهفة إلى المسرح.. مسرح بدا زاهيًا فوق المائدة هناك، على نحوٍ أعظم حجمًا مما لم يطمح إليه خياله. إلا أن مكانه قد تغير، فقد وُضِع بمكان يقابل مكانه في العام الماضي. فانتابه الشك في أن يكون هذا المسرح الخرافي قد أعد بشكل خاص. وبالإضافة إلى ذلك، كان قد وضع عند مقدمة المسرح، على الأرض، شيء كبير غريب، شيء لم يسجله بقائمة أمانيه، قطعة أثاث، تشبه الكومودينو.. فهل كان ذلك من أجله؟

وقالت القنصلة، بعد أن كشفت الغطاء: "تعال، يا بني، الق نظرةً إلى ذلك، فأنا أعرف أنك تهوى عزف الترانيم، وسوف يمدك السيد بفيل بالمعلومات اللازمة.. فعليك بالضغط بقدمك بقوة أحيانًا، وبلطف أحيانًا أخرى.. على ألا ترفع يديك عنه، بل تبدل أصابعك شيئًا فشيئًا"..

أما ما رآه، فلم يكن سوى أرغن، أرغن صغير جميل طُلي باللون البني،

وله مقابض معدنية على جانبيه، ومنافيخ ملونة ومقعدٌ دوار أنيق. فضغط هانو نغمةً رقيقة، فالتفت الجمع عن الهدايا ناظرين نحوه. احتضن هانو جدته التي ضمته حانيةً، ثم تركته بعد ذلك لتتلقى امتنان الآخرين. وبرغم أن الأرغن كان له بمثابة الحلم العظيم، إلا أنه لم يكن لديه الآن وقت للانشغال به أكثر من ذلك. فقد كان فيضٌ من سعادةٍ قد جعله لا يهتم بشيء بمفرده، ليمر بكل شيء مرور الكرام لكي يتعرف على كل شيء..

أوه، ها هو مَقر الملقن، وقد بدا مثل قوقعة المحار، وقد أُسدل وراءه ستارٌ عريض فاخر أحمر اللون، تكتنفه بعض الزخارف. وعلى المسرح، كان ديكور آخر مشاهد الفصل الأخير من "فيديليو"، فها هم أسرى أشقياء عقدوا أيديهم، وبدا "دون فيجارو" بأكمام منتفخة للغاية، واقفًا بلا حراك، بمكانٍ ما، وقد تمكن منه خوف مروع. وها هو الوزير يدنو من خلفه، مهرولاً وقد ارتدى ثوبًا مسدلاً من القطيفة السوداء، وراح يعمل على إنقاذ الموقف، فبدا المشهد مثلما يعرض بمسرح المدينة، بل كاد يكون أكثر بهاءً.

وأخذ يتردد في أذن هانو هتاف الكورال ونهايته، فجلس إلى الأرغن، ليعزف مقطوعةً كان قد حفظها.

إلا أنه عاود النهوض ليتناول الكتاب، سِفر الأساطير اليونانية المأمول ذا الغلاف الأحمر المزدان بصورة مذهبة لـ"بلاس أثينا"، ثم تناول شيئًا من صحنه الملآن بالحلوى وحلوى اللوز المحلاة بالسكر والفطائر بنية اللون، وأخذ يطالع أصغر الهدايا، كأدوات الكتابة ودفاتر الدراسة، إلا أن ما استحوذ على انتباهه كان قلم حبر به عدسة صغيرة من زجاج، ما إن نظر فيها حتى رأى شيئًا كالسحر، منظرًا شاملاً من طبيعة سويسرا. ومرت الآنسة

سيفرين والخادمة بالشاى والكعك، فلما تناول هانو شيئًا من هذا انتبه إلى الجمع هناك عند المائدة، واقفين أو رائحين غادين وهم يتضاحكون، متجاذبين أطراف الحديث، وقد أخذ بعضهم يعرض هداياه مبديًا إعجابه بهدايا الآخرين. وكانت الهدايا من مواد مختلفة مثل: الخزف ومعدن النيكل والفضة والذهب والخشب والحرير والقماش، كما كانت هناك فطائر بنية اللون محلاة باللوز بانتظام، وعلى الجانب الآخر منها كان صفٌ طويل من حلقات اللوز الكبيرة التي كانت ما تزال مبتلة من الداخل بسبب طزاجتها. أما هدايا السيدة بيرمانيدر، التي كانت قد صنعتها أو زينتها، فكانت حقيبة لأدوات التطريز، وأوانيَ توضع تحت النباتات، ورقية، وإحدى وسائد القدم، وقد زينتها بشرائط كبيرة من الساتان.

ومن حينٍ لآخر، كان الجمع يمضى إلى يوهان الصغير، ليضعوا أذرعهم على ياقة البحارة، متأملين هداياه وهم يبدون إعجابًا مستهينًا، مثلما اعتاد الكبار النظر إلى هدايا الأطفال النفيسة. ولم يكن العم كريستيان على شيء من استعلاء الكبار هذا. فلما مر بهانو، وبإصبعه خاتمٌ من الماس أهدته إليه أمه، بدا عليه الإعجاب بمسرح الدُّمى، إعجابًا لا يقل عن إعجاب ابن أخيه، وقال:

"يا لَلهول! يا لَه من مشهدٍ مضحك!" وراح يرفع الستار وينزله متراجعًا خطوةً للوراء ليتأمل المنظر، ثم استطرد فجأةً: "هل كانت هذه أمنيتك؟- إذن كنت ترغب في ذلك!"

قال ذلك فجأةً، بعد أن طاف بعينيه المفعمتين بشجنٍ غريب وأفكار حيرى.

ثم أردف: "لماذا، كيف راودتك هذه الفكرة، هل زرت المسرح ذات مرة؟ أرأيت "فيديليو"؟ حقًّا، إنها تعرض على نحوٍ متقن، فهل أردت محاكاة ذلك؟ أليس كذلك؟ تحاكيها، وتمثل الدراما بنفسك؟ هل تأثرت بالأوبرا؟ أصغ إليَّ يا بني، فأنا أنصحك؛ فعليك ألا تفرط بالانشغال بمثل هذه الأمور، مثل المسرح وغيره، فهي أمورٌ بلا طائل. ولتصدق عمك، فقد أسرفتُ في الاهتمام بمثل هذه الأمور، ولذا لم أوفق في الكثير. فقد إقترفت أخطاءً كبيرة، وهو ما عليك إدراكه".

كان قد أخلص في شرح ذلك بتفانٍ حقيقي، بينما كان هانو يتطلع إليه. وبعد برهةٍ علا البشر وجه عمه الذابل المتهدل ليدفع أحد الشخوص إلى مقدمة المسرح وهو يغني بصوت أجوف متردد أدنى إلى نعيب الغراب: "يا لها من جريمة مروعة!" ثم دفع بمقعد الأرغن أمام المسرح، ليجلس فوقه ليمثل مشاهد درامية، وهو يغني مقلدًا قائد الفرقة وحركات الممثلين. فاجتمع وراءه بعض أفراد الأسرة يتضاحكون، وهم يهزون رؤوسهم فكهين. أما هانو فقد غمرته السعادة وهو يشاهده. إلا أن كريستيان أمسك عن ذلك فجأةً، ولاذ بالصمت، وقد بانت على وجهه أمارات همٍّ قلق، ومسح براحة كفه فوق رأسه وعلى جانبه الأيسر، ليلتفت إلى جمهوره وقد جعد أنفه وارتسم على وجهه القلق. "أرأيتم، ها قد عاودني الألم الآن. فما إن سمحت لنفسي بشيءٍ من المزاح حتى عاد، ليعاقبني ويثأر مني. وهو ألمٌ لا تعرفونه، بل هو عذابٌ، عذابٌ لا يسبر غوره، فالأعصاب هنا قصيرة، كلها، فهي ببساطة أقصر مما ينبغي".

إلا أن أقاربه، الذين لم يهتموا بمزاحه، لم يلقوا بالاً أيضًا إلى شكواه،

ومضوا لا مبالين. أما كريستيان، فقد التزم الصمت، وظل جالسًا لفترة أمام المسرح متأملاً له بنظرات خاطفة شارد الذهن، ثم هب واقفًا ليمر بيده على شعر هانو قائلاً: "حسنًا، يا بني، فلتستمع به، لكن لا تسرف في الاهتمام به، على ألا يشغلك هذا عن أعمالك المهمة. هل تسمعني؟ فقد اقترفت أنا أخطاء كثيرة .. والآن، أنا ذاهب إلى النادي"، ثم توجه إلى الكبار: "أنا ذاهب إلى النادي لبعض الوقت.. فالصحاب هناك يحتفلون أيضًا بأعياد الميلاد، فإلى اللقاء".

ثم مضى، مخترقًا صالة الأعمدة بساقيه النحيلتين المنبعجتين.

في هذا اليوم، قُدِّم الطعام قبل موعده المألوف، مما جعل الجميع يتناولون قدرًا أكبر من الشاي والكعك، فما أن انتهوا من ذلك حتى قُدِّمت إليهم صحيفة من البللور مثقلةً بخميرة ذات حبوب صفراء من قشدة اللوز، كانت مزيجًا من البيض واللوز المسحوق وماء الورد طيبة المذاق. ولكن إذا تناول المرء منها ملعقةً صغيرة فوق طاقته فإنه يصاب بآلام شديدة بالمعدة. ومع ذلك، ومع أن القنصلة طلبت إفساح مساحة بسيطة بالمعدة من أجل وجبة العشاء، فإن أحدًا لم يستجب لذلك. فأما كلوتيلده فقد أتت بعجائب، فكانت تغترف في صمتٍ ممتنة قشدة اللوز، كما لو كانت حنطةً مقشورة. كما قُدِّم للإنعاش هلامٌ من النبيذ في أكواب من زجاج، كان يؤكل معه كعك إنجليزي محلى بالبرقوق. ثم انسحب الجمع تباعًا إلى غرفة المنظر الطبيعي، وتجمعوا بالأطباق حول المائدة.

وصار هانو وحيدًا بالقاعة، بعد ان أُرسلت إليزابيت فاينشينك الصغيرة إلى البيت. أما هو فقد سُمح له بالبقاء للمرة الأولى لتناول الطعام في

منجشتراسه. وأما خدم الدار ومحاسيبها فقد مضوا بهباتهم، فيما كانت إيدا يونجمان تحادث ريكشن سيفرين بصالة الأعمدة متحفظةً، باعتبارها مربية ملتزمة بالحفاظ على الفارق الاجتماعي. وكانت شموع الشجرة الكبيرة قد انصهرت وخبا ضوؤها، ليخيم الظلام على المذود، إلا أن بعض شموع بشجيرات كانت ما تزال تنير الطاولة، وبين الحين والآخر كان يقع غصنٌ في محيط شعلة ما، فيحترق مصدرًا أزيزًا، مما يزيد من قوة العبق السائد بالغرفة. وكانت كل نسمة تهب على الشجيرات تهوي بأحد الشرائط الذهبية فيُسمع لها صوتٌ معدني واهن. وعاد السكون ليخيم ثانيةً، إلى حد أن تسلل عزف البيانولا، يحمله الهواء البارد، من أحد الطرق البعيدة. وهكذا أصبح هانو يستمتع بعبق وأصوات عيد الميلاد، وأخذ يطالع سِفر الأساطير مريحًا رأسه على كفه، وهو يتناول الطعام. فقد تناول بعض الحلوى وحلوى اللوز وقشدة اللوز وفطائر البرقوق على نحوٍ آلي، جريًا على ما اعتاده.

وقد تداخلت مخاوف الضيق، الناتجة عن معدته المتخمة، مع إثارة هذا المساء العذبة ليصبحا فرحًا شجيًا. وقد قرأ عن معارك كان على زيوس خوضها في سبيل الظفر بالسلطان، ومن حينٍ لآخر كان ينصت للحظاتٍ إلى ما يدور بالصالون من حوارٍ مسهب حول مستقبل العمة كلوتيلده، وهي التي كانت أسعد الحاضرين بلا شك في هذا المساء؛ وقد أخذت تتلقى التهاني والانتقاد من الجميع، لتقابل ذلك ببسمة تشع في وجهها الذابل، فترد سعيدة بنبرة متهدجة، وذلك بعد ما وافق دير "يوهانيس كلوستر" على قبولها. وكان السيناتور قد ناور من أجل الحصول على موافقة مجلس الإدارة، برغم تذمر بعض الأعضاء من المحسوبية. وقد تطرق الحديث إلى هذه الجمعية الخيرية،

التي تضارع أديرة نساء الطبقة الراقية في مكلنبورج، وروبرت هين، وريبنتس، الهادفة إلى مساعدة المحتاجات من فتيات الأسر الراقية العريقة، اللائي تقدم بهن العمر على نحو كريم. فوفرت لكوتيلده المسكينة راتبًا ضئيلاً آمنًا. فإن بلغت أقصى درجات الاستحقاق أصبح لها الحق في مسكن آمن نظيف بالدير نفسه.

وأمضى يوهان الصغير بعض الوقت لدى الكبار، قبل أن يعود إلى القاعة التي أصبحت تتمتع بإثارة مختلفة، بعد أن خبا نورها، وزال عنها جلالها الرهيب. فقد غمرته متعة غريبة لما أخذ يجوس بأركانها، وقد تمثلها مسرحًا، بعد انتهاء الرواية، وهو يشاهد ما وراء الكواليس، متأملاً عن قرب زهور زنبق شجرة عيد الميلاد الكبيرة بخيوطها الذهبية، التي تطيح بها نسائم الهواء، وهو يتمسك بشخوص الحيوان والإنسان بالمذود، ويمضي إلى الشموع المضيئة للنجم الشفاف الهائم فوق اصطبل بيت لحم، ثم يكشف غطاء الطاولة، ليرى ما وضع أسفلها من ورق مقوى وأوراق تغليف الهدايا.

كما ذبل شيئًا فشيئًا رونق الحديث الدائر بغرفة المنظر الطبيعي، لتحل محله القضية المؤرقة التي تغافلوا عنها من أجل ليلة عيد الميلاد، رغم أنها لم تغب قط عن ذهنهم؛ أي قضية المدير فاينشينك، حتى إن هوجو فاينشينك نفسه ألقى عنها محاضرة، اتشح خلالها وجهه وإيماءاته باليقظة الغامرة، وهو يروي تفاصيل ما أدلى به الشهود، حيث توقفت القضية بسبب إجازة الأعياد، كما وجه نقدًا لاذعًا للتحامل الذي أبداه رئيس المحكمة الدكتور فيلاندر على نحو واضح، كما تهكم باستعلاء على لهجة الازدراء التي تعمد وكيل النيابة الدكتور هاجنشروم استخدامها في استجوابه وسؤال شهود

النفي، بالإضافة إلى البراعة المتناهية التي فند بها برسلاو أقوال شهود الإثبات، وما أكد له بأنه لا داعي للتفكير الآن في الحكم بإدانته. أما السيناتور، فكان يطرح من حين لآخر بعض الأسئلة من باب اللياقة، بينما كانت السيدة بيرمانيدر، الجالسة على الأريكة رافعةً كتفيها، تغمغم أحيانًا بلعنات قاسية على موريتس هاجنشتروم، وأما الآخرون فالتزموا الصمت.

والتزموا الصمت العميق، حتى أن المدير توقف عن الكلام بعد قليل.

أثناء ذلك، كان الوقت يمر بهانو الصغير مر السحاب، بعد أن خيم على غرفة المنظر الطبيعي سكون مقبض مشوب بالخوف، ظل سائدًا حتى عودة كريستيان في الساعة التاسعة من النادي، حيث أقام الشباب الأعزب الماجن حفل أعياد الميلاد.

دخل كريستيان غرفة المنظر الطبيعي، بعد أن اخترق القاعة، فبدا محتفظًا بين شفتيه ببقايا سيجارة انتهى من تدخينها، وقد شابت الحمرة وجنتيه المتهدلتين، ليقول: "يا لَروعة المجلس، يا صحاب! ايه، فاينشينك! لقد كان علينا دعوة برسلاو ليشهد معنا ما لم يره قط".

فلما رمقته القنصلة شزرًا مؤنبةً له، رد عليها بإيماءة سافرة غير مستوعبة. ثم نهض الجمع لتناول الطعام في الساعة التاسعة. ومثل كل عام في مثل هذا المساء، أقيمت المائدة بصالة الأعمدة، ورددت القنصلة دعاء المائدة بعبارة حارة: "سيدي المسيح، هلم إلينا، حُل علينا ضيفًا، ولتبارك ما أنعمت به علينا". ثم انتهت إلى كلمة حرصت بها على ذكر كل مَن لم ينعم عليه الله هذه الليلة بما أنعم على آل بودنبروك.

ليجلس بعدها الجمع بنفسٍ قانعة إلى مائدة عامرة، افتُتحت بسمك

"الشبوط" الغارق في الزبد ونبيذ الراين، وقد نثر السيناتور بعض فلوس السمك إلى حافظة نقوده حتى لا ينفد منها المال طول العام. أما كريستيان فنظر إلى ذلك بوجه عابس، معتبرً أنه بلا طائل. وأما القنصل كروجر، فلم يكن بحاجة إلى مثل هذه التمائم، بعد أن أمن تقلب أحوال البورصة، كما أنه يحتفظ بشلن ونصف الشلن كتميمة وفرت له الأمان منذ زمن. وقد ابتعد الرجل العجوز، قدر إمكانه، عن زوجته، بعد امتناعه عن مخاطبتها بكلمة واحدة منذ عدة سنوات، لدأبها على الدعم المادي السري لياكوب، الذي حُرم من الميراث، وهو الابن الذي عاش في لندن أو باريس أو أمريكا – فهي وحدها التي كانت تعرف يقينًا إلى أين تقوده حياته المغامرة في الغربة.

وقد اكفهر وجهه عندما تطرق الحوار، في جولته الثانية، ليذكر أفراد العائلة الغائبين. وقد رأى الأم الواهنة وهي تكفكف دموعها؛ وجاء ذكر المقيمين بفرانكفورت وهامبورج، وذُكر كذلك القس تيبورتيوس في ريجا دون أن يُمس بسوء، ورفع السيناتور كأسه بهدوءٍ تام تحيةً لشقيقته، ليشربا نخب جريونليش وبيرمانيدر، اللذين يعتبران على نحوٍ ما في عداد الغائبين. ونال ديكٌ رومي محشو بالكستناء والزبيب والتفاح ثناء الجميع، الذين قارنوا بينه وبين ما قُدم في السنوات الأخيرة، ليتفقوا على أن هذا هو الأكبر منذ زمن، وقدمت كذلك البطاطس المحمرة ولونان من الخضروات والفاكهة المطهية. وكانت قد دارت على الضيوف صحاف لم تكن أيٌّ منها تحمل إضافة أو ملحقًا، بل وجبة أساسية تشبع الجميع.. كما شربوا نبيذ شركة "مولندورف" المعتق.

أما يوهان الصغير، فكان جالسًا بين والديه، وهو يحاول جاهدًا التهام

شريحة من لحم الصدر الأبيض وما اشتمله من حشو، إلا أنه لم يستطع مجاراة عمته تيلده في ذلك، بعد أن ألم به شعور بالإجهاد والتعب. ولم يكن يهمه إلا تفاخره بالإذن له بتناول الطعام مع الكبار، وكذلك بخبز الحليب الذي نثر فوقه الشمر، وقد وضع فوق منديل مطويًا طيًّا بديعًا، وبأكواب نبيذ ثلاثة وضعت أمامه، فيما كان لا يقدم إليه سوى قدح صغير مذهب كان هديةً له من الخال كروجر أبيه بالتعميد.

لكن عندما شرع الخال يوستوس في صب نبيذٍ أصفر داكن في الكؤوس الصغرى، وظهرت المشروبات المثلجة بألوانها الحمراء والبيضاء والبنية، إذا بشهيته تستثار ثانيةً. فعب واحدةً حمراء ثم نصف أخرى بيضاء، رغم أن أسنانه لا تكاد تتحمل آلام ذلك. كما كان عليه في النهاية أن يتذوق تلك البُنية المحلاة بالشوكولاته المثلجة، بالإضافة إلى البسكويت المحمص، وهو يرتشف قليلاً من النبيذ الحلو، أثناء ما كان يستمع إلى عمه كريستيان الذي كان قد شرع في الحديث.

فحكى تفاصيل حفل عيد الميلاد بالنادي، الذي كان بديعًا للغاية، فقال بالنبرة التي اعتاد الحديث بها عند ذكر جوني ثوندرستورم: "يا ربي، لقد كان الصحاب يعبون البونش السويدي كأنه الماء".

فعلقت القنصلة على ذلك، فلم تزد عن قولها "يا للعار"؛ وقد أشاحت بوجهها. إلا أنه لم يأبه لذلك، وأخذ يطوف بعينيه، بينما انتعش طيف أفكاره وذكرياته ليتسلل بسرعة كالظلال إلى وجهه الذابل. ثم تساءل: "هل يعرف أحدكم إلى ما يؤول إليه حاله إن أفرط في احتساء البونش السويدي؟ أنا هنا لا أعني الإسراف في الشراب، لكن ما يتبع ذلك في اليوم التالي، إنها

حالة غريبة مقرفة، أجل.. غريبة ومقرفة في آنٍ واحد".

فقال السيناتور: "إن هذا يكفي تمامًا لوصفها".

أما القنصلة فقالت: "كف عن ذلك، كريستيان، فالأمر لا يهمنا من قريبٍ أو بعيد". إلا أنه لم يبال؛ فقد كان من طباعه العجيبة ألا يولي اهتمامًا في هذه الحال لأي اعتراض. فأمسك عن الكلام برهة، ثم بدا فجأةً أن ما سوف يرويه قد أصبح جاهزًا، فقال ناظرًا إلى أخيه بعد أن جعد أنفه: "أنت تدور حول نفسك، ويداهمك شعورٌ بالغثيان والصداع واضطراب بالأمعاء، وبرغم أن المرء يصاب بمثل هذا لأسباب أخرى، إلا أنك في هذه الحالة تشعر بأنك وسخ".

ثم فرك كريستيان يديه، وقد عبس وجهه تمامًا "إنك تشعر أن الوسخ قد طال بدنك كله، فتغسل يديك دون جدوى، وتحسها رطبة غير نظيفة، وتشعر على أظافرك بالدهن، فلا ينفعك اغتسال، لأن كل بدنك يظل لزجًا غير نظيف، ويصيبك بدنك كله بالضيق والقرف منه، فهل خبرت هذا، توماس.. أتعرف هذا الشعور؟".

فقال السيناتور، وهو يشيح بيده: "نعم، نعم"؛ إلا أن كريستيان استمر على هذا المنوال من عدم اللياقة، التي رسخها فيه مرور الزمن، فلم يشعر أن هذا السرد قد أصاب كل المحيطين به بالحرج، وأن مثل هذا يتنافى مع المكان والمناسبة، فواصل وصفه الحالة المزرية التي يمر بها من أفرط في احتساء البونش السويدي. ثم أخذ يتراجع عن ذلك شيئًا فشيئًا، إلى أن سكت، إيمانًا منه بأنه أعطى مثل هذه الحال حقها من الوصف.

وقبل تناول الزبد والجبن، قامت القنصلة بإلقاء كلمة قصيرة أخرى على

أقاربها، فقالت: "إن لم نكن قد أدركنا ما كنا نتمناه، خلال سني عمرنا، لقصر نظرنا وجهلنا، فإن فيضًا من البركة يظل باديًا للعيان، ما يجعل قلوبنا عامرةً بحمد الرب وشكره. كما أن تعاقب السعادة والشقاء لهو في حد ذاته دليلٌ على أن الرب لم يتخل قط عن عائلتنا، بل سدد خطاها ويسددها نحو نيات عميقة حكيمة لا يجوز للمرء المتلهف أن يتجاسر ويحاول سبر غورها. والآن لنرفع الكؤوس جميعًا بقلوبٍ عامرة بالأمل، لنشرب نخب العائلة ومستقبلها، ذلك المستقبل الذي سيواتي حين يكون المسنون وكبار السن من بين الحاضرين قد واراهم الثرى. إذن، في صحة الأبناء، أصحاب الحق فعلاً في حفل اليوم".

ولما كانت ابنة المدير فاينشينك غائبة، وأخذ الكبار يقرعون الكؤوس، فقد أصبح على يوهان الصغير وحده الطواف حول الطاولة، محييًا الجميع، بدءًا من جدته وانتهاءً بالآنسة سيفرين. فلما تقدم إلى والده أدنى كأسه إلى كأس هانو، وهو يرفع ذقن ابنه ناظرًا إلى عينيه، إلا أنه لم ير شيئًا، بعد أن أسدل هانو رموشه الطويلة الكستنائية، أسدلها حتى اتصلت بالهالات الزرقاء.

إلا أن تيريزه فايشبروت ضمت رأسه بكلتا يديها، لتطبع على وجنتيه قبلتين أحدثتا صوتًا خافتًا، وقالت بحميمية عميقة لم يمنعها الرب منها "لتنعم بالسعادة، أيها الطفل الطيب!".

بعد ساعة، كان هانو قد آوى إلى فراشه الذي احتوته الآن غرفة أمامية، يصل إليها عن طريق ممر الطابق الثاني، وتجاور غرفة ملابس السيناتور من ناحية اليسار. هناك استلقى على ظهره، مراعاة لمعدته التي اضطرت إلى

استقبال كل ما قُدم هذا المساء، ولم تكن قد تصالحت معه بعد، وقد أخذ يتأمل إيدا الطيبة بعينين ملتهبتين، بعد أن جاءت من غرفتها متدثرةً برداء النوم، حاملةً كوبًا من الماء، وهي تديره في الهواء عدة مرات، ليشرب منه بيكربونات الصودا بسرعة، بوجهٍ مكفهر، ثم تهالك على الفراش ثانيةً، وهو يقول: "أعتقد أنني سوف أتقيأ الآن، إيدا".

فقالت: "ما هذا الذي تقوله يا بني، فلترقد على ظهرك بهدوء، لكن كيف الحال الآن، ألم ألوح لك محذرة مرارًا، ومَن لم يستجب؟ إنه صغيري".

"نعم، نعم، فعسى أن ينتهي ذلك نهايةً طيبة.. متى تأتي الهدايا؟"

"صباح الغد، يا صغيري".

"وتوضع من أجلي هنا، وتكون في الحال من نصيبي".

"حسنًا، أيها الصغير يوهان، لكن يجب أن تأخذ حظًا وافرًا من النوم".

ثم قبلته، و أطفأت الأنوار لتمضي إلى حال سبيلها.

وها هو قد صار وحيدًا، واستلقى بهدوء مستريحًا إلى أثر النطرون المبارك، وإذا ببريق صالة الهدايا يلمع أمام عينيه المغمضتين من جديد. فها هو يرى مسرحه، والأرغن الخاص به، وكتابه في الأساطير، وهاتف ينشد من بعيد "اصرخي عاليًا يا أورشليم" يترنم به كورال الأطفال؛ هكذا توهج كل شيء أمامه، فيما كانت حمى فاترة تدوي برأسه، أما قلبه فقد تداعى إليه من معدته المتمردة شيء من الضيق مشوبًا بالخوف، مما جعل وجيبه يخفق مضطربًا. على هذه الحال من الإعياء والإثارة والضيق والتعب والسعادة ظل هانو راقدًا لفترة طويلة مؤرق الجفن.

وفي اليوم التالي، كان المساء الثالث لعيد الميلاد، لنجيء دور هدايا تيريزه

فايشبروت، ليسعد به سعادة مشاهدته لمسرحية مضحكة. وكانت تيريزه فايشبروت قد تركت في العام الماضي مكان إقامتها بالمدرسة الداخلية كله للسيدة كيتلسن، لتحتل الطابق الأول، بينما أصبح لها وحدها أيضًا الطابق الأرضي بالدار الصغيرة بشارع ميلنبرك. وقد زادت معاناتها مما ألمَّ ببدنها السقيم العليل، ما جعل سيسيمى فايشبروت تعتقد بدنو أجلها. وقد تقبلت ذلك بنفسٍ راضية مؤمنة. ولذلك كانت تعتبر منذ سنين أن كل احتفال بعيد الميلاد سيكون آخر حفل تشهده، فلم تدخر جهدًا- رغم وهنها- في إضفاء الجمال على الحفل الذي كانت تنظمه في غرفها الصغيرة، التي تفرط في إشاعة الدفء بها.

وإذ لم يكن بوسعها شراء الكثير، فقد أخذت كل عام تمنح هداياها مما بقي لها من ممتلكاتها المتواضعة، ولا تضع تحت الشجرة سوى تحف لم تعد بحاجة لها، وثقالات أوراق، ووسائد صغيرة لإبر الخياطة وأصصًا زجاجية، وما تختاره من مكتبتها من كتب قديمة ذات أحجام وأغلفة عجيبة، مثل "مذكرات سرية لرجل يراقب نفسه"، وقصائد هيبل الألمانية، و"أمثال كروماخر".. وقد نال منها هانو نسخة من "أفكار بليز باسكال"، كانت صغيرة إلى حد أنه لا يمكن مطالعتها إلا بعدسة مكبرة.

أما شراب "الأسقف"، فكان معينًا لا ينضب. وكان للفطائر البنية المتبلة بالـزنجبيل مذاق طيب للغاية، إلا أنه لم يحدث أن مر مثل هذا الحفل دون مفاجآت أو حوادث أو كوارث بسيطة، يضحك منها الضيوف، وتضاعف الحماس الحقيقي لربة الدار. وكانت تلك الأحداث تعود كل مرة إلى حماس الآنسة فايشبروت الكامن؛ وقد حدث في حفل عيد الميلاد الماضي أن وقع

إبريق طافح بشراب الأسقف ليغرق الشراب الأحمر الحلو كل شيء.. أو تفلت الشجرة المزينة من ركائزها أثناء احتفاء الضيوف بدخولهم غرفة الهدايا. وقد طاف بهانو- وهو يغالب النعاس- مشهدٌ ما وقع بالعام الماضي: وهو ما حدث قبل توزيع الهدايا بقليل، عندما كانت تيريزه فايشبروت تبذل قصارى جهدها في ترتيل فصل عيد الميلاد، حتى إن أحرف العلة اختلطت ببعضها، فكان أن ابتعدت عن ضيوفها لتقف عند عتبة الباب، لتلقي هناك موعظة قصيرة، فبدت حدباء هزيلة، واضعة يديها الواهنتين على صدرها الطفولي، ونزلت شرائط قبعتها على كتفيها، لتقرأ بضوء مصباح مزدان بأغصان شجرة عيد الميلاد مرتلة "المجد للرب في الأعالي"، ثم ذكرت نعم الرب، وقالت إن هذا لهو آخر حفل عيد ميلاد تشهده، وختمت بعبارات الرسل مطالبةً الجميع بالتحلي بروح السعادة، وقد ارتجفت أوصالها كافة، فقد كان بدنها الهزيل كله ينفعل لذلك، ثم مالت برأسها وهي تهزه بقوة وتقول: "أبشروا! وأقولها ثانيةً أبشروا"؛ وفي هذه اللحظة كان المصباح فوقها قد اهتز بشدة وهو يئز وينفث لتشتعل به النار، مما جعل الآنسة فايشبروت تطلق صرخة فزع وتقفز دون وعي بخفة قفزةً بديعة لتتفادى انهمار الشرار فوقها.

فكان أن ضحك هانو عندما تذكر تلك القفزة التي أدتها الآنسة العجوز، بل إنه واصل الضحك لدقائق، مأخوذًا بذلك وهو حائرٌ مضطرب، مستمتعًا بكل ذلك؛ وهو يكظم ضحكه في الوسادة.

الفصـل التاسع

هرولت السيدة بيرمانيدر بحذاء شارع منجشتراسه، وقد بدا على مظهرها بعض الإهمال، حتى إنه لم يكن هناك سوى كتفيها ورأسها التي تشير إشارةً عابرة إلى جلالها المميز لشخصها- هكذا هرولت مهمومة، غير متمسكة سوى بالقليل من وقارها، فبدت مثل ملك مدحور يجر خلفه ما تبقى من فلول جيشه.

كانت على حالٍ يُرثى لها من الشقاء، فها هي شفتها العليا البارزة المرتفعة لأعلى تأخذ في الارتجاف، وهي التي كانت في الماضى تزيدها حسنًا. وقد شخصت عيناها خوفًا، وأصبحتا ترفَّان على نحوٍ غريب. كما بدا شعرها مهوشًا أسفل قبعتها، وامتقع وجهها ذابلاً بلون أصفر، كما كان يحدث لها حين تعاني من آلام المعدة. أجل، كانت حال معدتها على غير ما يرام، وهو ما أدركته أسرتها أثناء سهرة الخميس. فهل كان هناك ما يحول دون وقوع هذه الكارثة؟ فها قد تطرق الحديث إلى قضية فاينشينك، وهو ما استحوذ تمامًا على اهتمام السيدة بيرمانيدر، وقد استبد بها القلق سائلةً الرب والعباد كافة

الإجابة: إنها لا تستوعب، ولا تعي أن ينام موريتس هاجنشتروم مرتاح البال.. وكانت كل كلمة تزيدها اضطرابًا: "إنني ممتنةٌ لكم، لكني لن أستطيع تناول أي طعام"، قالت ذلك، وهي تزيح كل ما قُدم لها جانبًا، رافعةً كتفيها، طارحةً رأسها للخلف، لتنزوي وحيدةً لا تتناول سوى البيرة البافارية المثلجة التي اعتادتها منذ إقامتها بميونيخ، فتلقفها معدتها الخاوية، فتضرب أعصابها لتهتاج ثائرة ثورةً عارمة، وتنهض بعد انتهاء الطعام فتهبط إلى البستان أو الفناء، لتتقيأ هناك معتمدةً على يد إيدا يونجمان أو ريكشن سيفرين. فلما أفرغت ما في جوفها داهمتها آلام تقلصٍ موجع لبضع دقائق، فلما لم يعد هناك ما تتقيأه أخذت تتلوى متألمةً لفترةٍ طويلة.

في الساعة الثالثة عصرًا، كانت السيدة بيرمانيدر قد وصلت إلى ناصية "فيشرجروبه"، فمضت لتهبط مسرعةً الطريق المنحدر نحو بيت شقيقها. وهناك أخذت تقرع الباب، ثم دخلت لتعبر الباحة إلى المكتب، ناظرةً عبر السلم إلى النافذة، ثم أومأت برأسها إيماءة الملهوف، ليلقي توماس بقلمه ويمضي من فوره نحوها مخاطبًا لها بعد أن رفع أحد حاجبيه: "ماذا حدث؟" فقالت: "لحظة، توماس.. فالمسألة ملحة لا تقبل التأجيل".

ففتح باب مكتبه المبطن وأوصده خلفها، وقد أخذ يحدق بشقيقته متوجسًا، بينما أخذت هي تفرك يديها بقفازي الفراء لتقول بنبرةٍ مفعمة بالقلق: "توم، عليك تسديدها.. مؤقتًا، لكن يجب دفعها.. الكفالة، فليس بوسعنا سدادها، فمن أين لي الآن بخمسة وعشرين ألف مارك؟ وسوف تستردها كلها كاملةً في أقرب وقت.. وكما تعلم.. فقد وقع المحظور، حتى.. بإيجاز، فقد انتهى أمر القضية إلى إنذارٍ من هاجنشتروم بالاعتقال الفوري،

أو سداد كفالة قدرها خمسة وعشرون ألف مارك. ويعدك فاينشينك بشرفه أن يبقى بالمدينة لا يغادرها.."

فهز السيناتور رأسه قائلاً: "نعم، أبلغت القَضية هذا الحد حقًا؟"

فقالت: "نعم، لقد كان ذلك هدف الأنذال البائسين"، ثم تهالكت على أقرب مقعدٍ مكسو بغطاء، يمكن غسله، وراحت تبكي بكاءً مريرًا ساخطًا، وهي تردد: "وهم لن يكتفوا بذلك، توم، بل سوف يدفعون به إلى النهاية".

أما هو فكان جالسًا إلى مكتبه الماهوجني، منحرفًا عنه، مريحًا رأسه إلى كفه، واضعًا ساقًا فوق الأخرى، ليقول: "طوني، أصدقيني القول، هل ما تزالين على يقينك ببراءته؟"

فكان أن نشجت مراتٍ عديدة، لترد هامسةً قانطة: "لا، توم، وكيف يتسنى لي ذلك، أنا، تحديدًا، التي كُتب عليها أن تعيش كل هذا الشقاء؟ وإن كنتُ ثابرت في هذا بتفانٍ، إلا أنني لم يكن بوسعي ذلك، فقد عركتنا الحياة، كما تعلم، على عدم اليقين ببراءة أي إنسانٍ إلا بشق الأنفس.. كلا، فقد ساورتني الظنون من زمنٍ في نزاهة ضميره، حتى اريكا.. قد حيرتها أحواله.. وهو ما أقرت به لي باكيةً.. كما حيرتها حاله بالمنزل أيضًا.. إذ كان يزداد فجاجةً بمرور الوقت، فإضافةً إلى قسوته كان يتشدد في مطالبه، فكان يطالب اريكا بالتزام روح المرح حتى يتجاوز مشاغله، فإن بدت مهمومةً قام بتحطيم الأواني. وعساك لا تدري حاله إذا جلس ساعاتٍ إلى أوراق عمله حتى وقتٍ متأخر من المساء.. فإذا سمع طرقًا على الباب قفز صائحًا: من هنا! من هنا!.."

وكان أن لاذ كلاهما بالصمت لتستأنف السيدة بيرمانيدر حديثها بصوتٍ أجش قائلةً: "لكن، لنفترض أنه ارتكب إثمًا، جرمًا، فإن ذلك لم يكن لصالحه بل لصالح الشركة، فحينئذٍ.. يا إلهي، سيدي ومولاي! ففي حياتنا هذه اعتبارات يجب وضعها في الحسبان، توم، لقد صاهرنا، انتسب إلينا.. فهل نلقي بواحدٍ منا في السجن.. اللّٰهُمَّ، رحمتك".

أما هو فقد هز كتفيه.

"ها أنت تهز كتفيك، توم،.. مما يعني أنك تتغاضى عن الأمر، فهل تحتمل تجاوز هؤلاء الحثالة كل حد؟ يجب أن تتدبر الأمر، فلا ينبغي إدانته!.. فأنت الذراع اليمنى للعمدة.. يا ربي! أليس بوسع مجلس الشيوخ إصدار عفوٍ فوري عنه؟.. أقول لك.. قبل مجيئي إلى هنا بلحظات خطر ببالي الذهاب إلى كيمر، لألتمس منه التدخل في القضية.. فهو مدير الشرطة".

"يا لك من طفلة، ما هذا النزق!".

"نزق، توم،؟ - واريكا ابنتي؟"

ورفعت يديها بقفازيها متضرعةً إليه، لتلزم الصمت برهةً، وترسل ذراعيها وقد اتسع شدقاها، وارتجف ذقنها المجعد، لتسيل دمعتان كبيرتان من بين جفونها المطبقة، لتردف بهمسٍ: "وأنا.."

فقال السيناتور: "تماسكي، أنطونيا!"

ثم دنا منها، متأثرًا بحالها وعجزها، فمر براحة كفه على شعرها مواسيًا: "فلنتفاءل قليلاً، فهو لم تتم إدانته بعد، وقد ينتهي الأمر على خير وجه. فلأسدد الكفالة أولاً، وهو ما لم أرفضه بالطبع، لنعتمد بعد ذلك على براعة برسلاو".

فبكت، وقالت وهي تهز رأسها: "كلا، توم، لن تنتهي المسألة على خير؟ لا أظن ذلك، فسوف تتم إدانته ليلقى به في السجن، وعندها تحل باريكا وابنتها أيامٌ صعبة. وقد فقدت هدية زواجها بعد أن أُنفقت في الجهاز والأثاث واللوحات التي لو بعناها فلن نحصل على ربع قيمتها.. أما راتبه فكنا ننفقه عن آخره.. ولم يترك فاينشينك لنا شيئًا. وحتى يتم إطلاق سراحه فإننا ننتقل للإقامة لدى أمي، إن سمحت هي بذلك. وحينئذٍ ستتدهور أحوالنا عما كانت عليه، فإلى ماذا سيؤول مصيرنا ومصيره.. لسوف ينتهي بنا الأمر إلى الجلوس على الأحجار".

ثم بكت.

فقال: "على الأحجار!"

"أجل إنها عبارةٌ ما، صورة بلاغية.. لا، لن ينتهي الأمر على خير.. وها هي نوازل لا تطاق تحيق بي.. لكنني فقدت الأمل، ولسوف يحدث لاريكا ما حدث لى مع جريونليش وبيرمانيدر.

"وبوسعك الآن أن تستوعب الأمر، بوسعك الآن أن تحكم على مثل هذا على نحوٍ أكثر وضوحًا، وكيف ينزل بنا، فهل بوسعنا نحن دفعه؟ أرجوك، توم، هل لنا حيلة في ذلك!" وأعادت تكرار ذلك وهي تشير إليه متضرعة عاجزة، وهي تنظر إليه وقد اتسعت عيناها واغرورقتا بالدمع. وأردفت: "لقد باء كل صنيعي بالفشل واستحال فجيعة.. رغم صفو مقصدي، وهو ما أشهد الرب عليه!.. وقد آمل من أعماقي أن أفلح في تحقيق شيء في الحياة، وأن يكون لى فيها نصيب العزة.. وها هو كل شيء يضيع من بين يدي ليؤول مصيري إلى هذا الختام.. الأخير.."

وأخذت تبكي فوق ذراعه التي أحاطها بها مهدئًا روعها، تبكي حياتها الضائعة التي تحطمت فيها آخر آمالها.

وما إن مر أسبوعٌ حتى صدر الحكم بسجن المدير هوجو فاينشينك ثلاثة أعوام ونصف العام، ليلقى القبض عليه في الحال. وكانت قاعة الجلسة قد شهدت ازدحامًا شديدًا لسماع مرافعة الدفاع. وقد ترافع الدكتور برسلاو مرافعة لم يُسمع بمثلها من قبل. وظل الوسيط سيجسيموند جوش يمضي لأسابيع بطولها وهو يفح من فرط استمتاعه بهذه السخرية، وبهذه الخطبة المنبرية، وبما أحدثته من أثر. وقد شهد المرافعة أيضًا كريستيان بودنبروك. وكان قد وقف خلف الطاولة بالنادي، وقد وضع أمامه حزمةً من الصحف كأنها مستندات القضية، وأخذ يقلد محاكاة كاملة للدفاع.. وقد قال- فيما بعد- بالبيت إن الاشتغال بالمحاماة لهو أفضل مهنة، وإنها حقا المهنة التي تناسبه.

حتى وكيل النيابة الدكتور هاجنشتروم، الذي يهوى الفنون والآداب، فقد أعرب لبعض المقربين منه عن رأيه بأن مرافعة برسلاو كانت- بالنسبة له- متعة حقيقية.

إلا أن موهبة المحامى الشهير لم تمنع أن يربت محامو المدينة على كتفه، ليخبروه بتأدب بأنهم لن يمكنوه من الفوز عليهم.

وبعد أن انتهى الأمر، الذي كان لابد منه، بحبس المدير، بدأ أهل المدينة في نسيان أمر هوجوجو فاينشينك .

إلا أنه أثناء سهرات الخميس، وعلى مائدة العائلة، أقرت سيدات

بودنبروك بالشارع العريض، أنهن قد أدركن- من أول نظرة في عيني هذا الرجل- أنه ليس فوق مستوى الشبهات، وأن شخصه لا يخلو من عوار، ولن تكون نهايته على ما يرام. وقد أبدين الآن ندمهن على سكوتهن على هذه الحقيقة الأليمة، بسبب اعتبارات كان من الأفضل أن لا يضعنها في الحسبان.

الجزء التاسع

الفصـل الأوَّل

غادر غرفة نوم القنصلة السيدان الدكتور جرابو العجوز والدكتور لانجهالس الشاب، وهو ابن عائلة لانجهالس الذي يعمل بالمدينة منذ حوالي سنة، ليلحق بهما السيناتور بودنبروك بغرفة الفطور، ويوصد بابها ليقول: "أيها السيدان، عفوًا، لحظة.." ثم قادهما فوق الدرج، مخترقًا الممر ثم بهو الأعمدة إلى غرفة المنظر الطبيعي، وقد أُوقِدت هناك المدفأة لتحد من حدة برودة ورطوبة طقس الخريف، ثم أردف: "إنكما تتفهمان سبب خوفي، تفضلا بالجلوس، فهل لديكما ما يطمئنني إلى حدٍّ ما؟"

كان الدكتور جرابو قد جلس على راحته، بينما حُشرت ذقنه داخل ياقة قميصه، واضعًا طرف قبعته فوق بطنه، بينما وضع الدكتور لانجهس قبعته على البساط، فبدا رجلاً بدينًا، ذا شاربٍ مفتول وشعر مشدود وعينين حسناوين، وقد بدت عليه أمارات الخيلاء، وأخذ ينظر في يديه الصغيرتين وقد غطاهما شعر أسود.

فكان أن رد الدكتور جرابو: "يا إلهي! جناب السيناتور، ليس هناك ما يستدعي القلق الحقيقي، على أية حال، عفوًا، فما من مريضة تملك قدر

مقاومة سيدتنا القنصلة الجليلة.. يا إلهي، فأنا رجلٌ عالم أدرك أهمية المقاومة، وهي مقاومة غير مألوفة، إن أخذنا تقدم السن في الاعتبار.. وأريد أن أقول.."

فقال السيناتور، وقد اعتراه التوتر: "حقًا، تحديدًا في هذه السن". ثم راح يفتل طرف شاربه الطويل.

واستطرد الدكتور جرابو بوقارٍ: "أنا لم أقل بالطبع أن السيدة والدتك سيكون بوسعها غدًا مواصلة نزهاتها. كما أن المريضة لم تترك لديك مثل هذا الانطباع.

عزيزى السيناتور، نعم، ليس هناك داعٍ لتجاهل تردي حالة الالتهاب خلال الأربع والعشرين ساعةً الماضية. وقد ساورني قلقٌ من الرجفة التي انتابتها أمس بسبب برودة الجو، وهي اليوم تعاني آلام وخزٍ وضيق التنفس، كما ارتفعت درجة حرارتها إلى حدٍّ ما. وموجز القول فليس أمامنا سوى الإقرار بحقيقة واقعٍ مؤسف، وهو تأثر الرئة بعض الشيء".

فأخذ السيناتور ينقل نظره من طبيبٍ إلى آخر، ثم قال: "هو التهابٌ رئوي إذن؟"

فقال الدكتور لانجهالس، وهو ينحنى انحناءة حقيقية واضحة: "نعم، بينمونيا".

أما طبيب العائلة، فقال: "إنه على أية حال التهابٌ رئوي في مراحله الأولى، أصاب الفص الأيمن للرئة، ولسوف نعمل جهدنا لمحاصرته بحرص بالغ".

كان السيناتور يجلس في هدوءٍ تام، متطلعًا إلى وجه محدثه حين قال:

"وهذا يعني أن هناك سببًا لقلق حقيقي".

فرد الطبيب: "قلق، كلاًّ، فعلينا فعل ما قلته، وهو العمل على حصار الداء، والحد من السعال وتخفيض درجة الحرارة. ولسوف يظهر أثر دواء "الكيتين" في الحال.. لكن هناك أمرًا آخر عزيزي السيناتور، فهناك أعراضٌ أخرى لا ينبغي أن تزعجنا، أليس كذلك؟ فإذا حدث أن اشتد ضيق التنفس أو انتابها هذيان بالليل، أو أنها بصقت غدًا كتلة من مخاطٍ بلون أحمر قانٍ من أثر الدم، فهذا أمرٌ طبيعي مألوف وارد الحدوث، فأرجو أن تمهد عزيزتنا الجليلة السيدة بيرمانيبدر لذلك؛ فهي التي تخلص في القيام بالرعاية.. عفوًا، كيف حالها؟ فقد غاب عني تمامًا السؤال عن حال معدتها بالأيام الأخيرة؟"

"ليس هناك جديد، كالعادة، فقد قل اهتمامها بصحتها بالطبع".

"بديهي، ولقد خطرت ببالي فكرةٌ بهذا الشأن، فالسيدة أختك تحتاج إلى قسطٍ من الراحة، خاصةً أثناء الليل، فلم يعد بمقدور الآنسة سيفرين القيام بذلك وحدها. فماذا ترى، عزيزي السيناتور، إذ استقدمنا ممرضةً من أجل ذلك؟ فلدينا ذوات الثياب الرمادية، راهبات الكاثوليك الطيبات اللائي شملتهن دائمًا بعطفك. وسوف يكون من دواعي سرور الأخت الرئيسة أن تقدم لكم خدمةً ما".

"هل ترى ذلك أمرًا ضروريًا؟"

"هو اقتراحٌ، وهو أمر طيب، فلا يمكن تقدير مجهود الراهبات بثمن. فخبرتهن وأسلوبهن المميز أمرٌ مطمئن للمرضى.. تحديدًا بالنسبة لهذه الحالات المرضية المرتبطة بسلسلةٍ من الأعراض الغريبة، كما يقال.. فهدئ من روعك، عزيزي السيناتور، أليس كذلك؟ ولسوف نرى.. سوف نرى،

وسوف نعاود مساء اليوم الحوار حول هذه المسألة".

فقال الدكتور لانجهالس: "يقينًا". ثم أمسك بقبعته العالية، لينهض مع زميله الأكبر سنًا، إلا أن السيناتور ظل بمكانه، فلم يكن قد فرغ بعد من أسئلته، وقد شاء إجراء محاولة أخرى فقال: "سيدي، كلمة أخيرة.. إن شقيقي كريستيان يعانى من توترٍ عصبي وحدة المزاج، وليست له قدرة على تحمل مثل هذه الأمور، فهل تنصحان بإبلاغه بمرض والدته، فأطلب منه العودة؟"

"هل شقيقك كريستيان غير موجود بالمدينة؟"

"لا، بل هو في زيارةٍ قصيرة بهامبورج لإنجاز بعض الأعمال، على حد علمي".

فكان أن التفت الدكتور جرابو إلى زميله ثم صافح السيناتور، وهو يضحك ويقول: "لا داعِيَ لإثارة قلقه أثناء عمله، إنه إزعاجٌ لا مبرر له، وما يزال أمامنا الوقت لإبلاغه بالحضور، إن طرأ شيء على صحة المريضة، ليكون ذلك بمثابة طمأنة لها ورفع لروحها المعنوية".

وكان أن عاد الرجال ليجتازوا بهو الأعمدة والممر، وتوقفوا للحظاتٍ فوق بسطة السلم متناولين شؤونًا أخرى بالحديث، عن السياسة والقلاقل والانقلابات التي وقعت بعد حربٍ انتهت منذ وقت قريب..

"نحن مقبلون على أيامٍ هانئة، أليس كذلك؟ جناب السيناتور؟ فاقتصاد البلاد بحالة جيدة، كما سرت روح جديدة بكل الأرجاء".

فأيد السيناتور بعض ما قيل، مؤكدًا على أن اشتعال الحرب تؤثر كثيرًا على استيراد الحبوب من روسيا، كما ذكر الكمية الكبيرة من القرطم التي اشتراها الجيش، إلا أنه ذكَّر أيضًا بعدم عدالة توزيع الأرباح. وكان أن مضى

الطبيبان إلى حال سبيلهما ليعود السيناتور أدراجه إلى غرفة نوم المريضة، لينشغل بما قاله جرابو الذي يحتمل كثيرًا من التأويل، كما أنه قد أحس أنه تحايل على الإفصاح عن أمرٍ محدد، ولم يكن سوى تعبير "الالتهاب الرئوي" الذي لم يستطع الحد من وطأة البوح به، وهو التعبير الذي كرره الدكتور لانجهالس بلغة علمية. إنه التهابٌ رئوي يُصاب به من في عمر القنصلة. وقد ساوره القلق من زيارة طبيبين في وقتٍ واحد، وهو ما أعد له جرابو ببراعة دون أن ينتبه أحدٌ لذلك تقريبًا، وهو الذي أدرك أنه لا محالة من متقاعد عاجلاً أم آجلاً، على حد قوله؛ ولما كان الدكتور الشاب لانجهالس مرشحًا ليحل محله، فإنه- أي جرابو يجد متعة في إشراكه معه من حين لآخر، مقدمًا هو إياه.

وكان السيناتور قد حرص- لدى دخوله غرفة النوم، بضوئها الخافت- على أن يرسم على وجهه أمارات البهجة والحيوية، وهو الخبير بإخفاء همومه ومتاعبه خلف قناع من الثقة البالغة؛ فما كاد يفتح الباب حتى تلبس القناع تلقائيًا تلبيةً لنشاط الإرادة للحظة قصيرة للغاية.

هناك كانت السيدة بيرمانيدر جالسةً فوق السرير العالي، بعد أن أزاحت ستائره، وقد أمسكت بيد أمها التي ارتكزت على بعض الوسائد، موليةً وجهها نحو الباب، لتطالعه متفحصةً بعينيها الزرقاوين الصافيتين بنظرةٍ تغشاها السكينة. هكذا نظرت إليه بطرف عينها متوجسةً، وقد خلا وجهها تمامًا من أمارات الضعف والوهن. فرغم شحوب لون بشرتها الذي تبدى في بقع تناثرت فوق وجنتيها من أثر ارتفاع درجة حرارتها، إلا أن السيدة العجوز كانت مدركةً لحالتها، بل أكثر إدراكًا ممن هم حولها؛ فقد كانت هي

الأدرى بحالها، فلم تستسلم للمرض، ولم تشأ تجاهل ما يجري حولها. فكان أن سألت توماس: "ماذا قالا، توماس؟" واهتمت بأن تكون نبرة صوتها متماسكةً حيوية، لتنتابها حالة سعال حادة حاولت إخفاءها بزم شفتيها، إلا أنها لم تفلح في ذلك، مما أرغمها على الإمساك بجانبها الأيمن. فراح السيناتور يربت على يدها حتى أنهت نوبة السعال، ليرد قائلاً: "لقد قالا إن والدتنا الحنون ستقف على قدميها خلال أيام، وما يحول دون ذلك أن السعال اللعين قد ترك بالطبع أثرًا هينًا على الرئة".

فلما رمقته بنظرةٍ حادة، قال: "هو ليس تحديدًا التهابًا رئويًا، إلا أنه هناك ما هو أخطر منه. وموجز القول إن الرئة تعاني بعض التهيج، حسبما قالا.. يا ترى أين تكون الآنسة سيفرين؟"

فردت السيدة بيرمانيدر: "لقد ذهبت إلى الصيدلية".

"أرأيتما! ها قد عاودت الذهاب إلى الصيدلية من جديد. كلاًّ، لن يحتمل الأمر أكثر من ذلك، ولو لبضعة أيام، يجب استدعاء ممرضة، فهل توافقاني رأيي هذا؟ انتظرا، فسوف أبعث بمن يسأل رئيسة الراهبات ذوات الرداء الرمادي عما إذا كانت تستطيع الاستغناء عن إحداهن". وهنا حرصت القنصلة على ألا تستنفر نوبة السعال، فقالت بحذر: "صدقني، توماس، إن صارحتك بأنك ترتكب إثمًا برعايتك المستمرة للكاثوليك على حساب ذوات الرداء الأسود من البروتستانت. ولقد أسديت خدماتٍ مفيدة للكاثوليك، وهو ما لم تقم به نحو الأخريات، وأصارحك بأن القس برينجزهايم قد باح لى بشكواه من ذلك مؤخرًا".

"إن شكواه هذه لن تفيده بشيءٍ لأنني مؤمنٌ بأن المرضات ذوات الرداء

الرمادي أكثر أمانةً ووفاءً واستعدادًا للتضحية من أولئك ذوات الرداء الأسود. فصاحبات المذهب البروتستانتي لسن مخلصات، ولسوف يتزوجن جميعًا إن سنحت لهن الفرصة، فهن- باختصار- نسوة لا يختلفن عن غيرهن ممن يؤثرن السعي وراء لذات الدنيا، أما ذوات الرداء الرمادي فهن أكثر من أولئك إخلاصًا. إنهن بالحق أقرب إلى الرب. ولما كُنَّ يحفظن المعروف، فينبغي علينا أن نفضلهن على الأخريات. فالأخت ليندرا لم تدخر وسعًا عندما كان هانو يعانى التقلصات، وأنا آمل ألا تكون مشغولةً بعملٍ آخر.."

فكان أن جاءت الأخت ليندرا لتضع بهدوءٍ حقيبة يدها جانبًا، وتخلع معطفها وقبعتها الرمادية من فوق غطاء رأسها الأبيض، ثم أقبلت على عملها بعبارات وإيماءات رقيقة ودودة، فيما كانت مسبحتها المعلقة بنطاقها تصطك حباتها، وأخذت تعمل ليل نهار على رعاية المريضة المدللة، التي ينفد صبرها أحيانًا، لتنسحب بهدوء تلبيةً للضعف الإنساني الذي كادت تخجل منه لتحل محلها أختٌ أخرى، لتعود ليندرا ثانيةً بعد أن تكون قد نامت ببيتها عدة ساعات. فقد كانت القنصلة بحاجةٍ لرعاية متواصلة بفراشها، وكانت كلما ازدادت حالتهاترديًا كانت تصب كل همها وتفكيرها على مرضها الذي كانت تتابعه بفزعٍ وكراهية ساذجة واضحة. وهي التي كانت- فيما مضى- تؤثر الحياة، فتعلقت بحب الحياة حبًا وديعًا طبيعيًّا، فكانت تؤثر حياة الرفاهية، والحياة في حد ذاتها، إلا أنها في السنوات الأخيرة أصبحت تؤثر الورع وفعل الخير، ساعيةً بكل ما أوتيت لنيل رضا الرب، وليس تكريمًا لذكرى زوجها الراحل فحسب. إلا أن وفاةً هادئة لم تكن من حظها، ورغم معاناتها من بعض المتاعب، إلا أنها كانت صلبة العود فلم تنحنِ قط، كما

ظلت تستمتع بسلامة النظر، وتهوى ما لذ وطاب من الطعام، وترتدي الملابس الفاخرة الغالية، مترفعةً عن الصغائر متجاهلةً لها، مشاركة عن طيب خاطرٍ في ترسيخ المكانة الرفيعة لابنها البكر في كل مكان.

لكن هذا المرض، هذا الالتهاب الرئوي الذي داهم جسدها الصحيح، دون أن يخفف عنها أي تمهيد روحي معاناة المرض العضال..

إنها تلك المعاناة الهدامة التي تقصينا ببطء وألم عن الحياة نفسها، أو عن أسبابها التي استقبلناها بها، والتى تبعث في نفوسنا الاشتياق العذب إلى نهايةٍ، إلى أسبابٍ أخرى، أو إلى السلام.

إلا أن القنصلة العجوز كانت قد أدركت تمامًا أنها لم تتهيأ لاستقبال الموت، على الرغم من منهاجها المسيحي في ممارسة حياتها.

وكانت فكرةٌ غامضة تملأها بالخوف، حال أن يكون هذا هو المرض الأخير، فإن هذا المرض المهيمن سوف يكسر إرادتها في المقاومة في الساعة الأخيرة بسرعةٍ رهيبة وعذابٍ جسدي ليتمم واجبه.

فراحت تكثر من الصلاة، إلا أنها كانت أكثر حرصًا على الاهتمام بحالتها الصحية، فكانت تقوم بقياس النبض ودرجة الحرارة بنفسها، مقاومةً نوبات السعال؛ إلا أن النبض اضطرب وارتفعت درجة الحرارة بعد هبوطها إلى حدٍّ ما، فأخذت ترتجف ارتجافًا نتج عنه هذيانٌ شديد، كما ازدادت حدة السعال مصحوبًا بآلام داخلية، وظاهرية مثل لفظها لكتل دموية. كما شق عليها ضيق التنفس، وقد كان مبعث ذلك كله هو تفشي الداء بالرئة كافة لا بجزء واحد منها فقط؛ فقد بدت أعراضٌ في الفص الأيسر أيضًا، اللّهُمَّ إلا إذا كانت أعراضًا كاذبة، وقد أطلق الدكتور لانجهالس على هذه الأعراض

مصطلح "التداعي"، متفاديًا بذلك التطرق إلى تفاصيلها. ثم أخذ ارتفاع درجة الحرارة يلزم العليلة على نحوٍ دائم، بينما فشلت معدتها في أداء وظيفتها، فخارت قواها شيئًا فشيئًا. فراحت تتابع انهيار قواها، مقبلةً على تناول غذائها المكثف ما وسعها ذلك. كما فاق حرصها على موعد تناول الدواء حرص القائمين على رعايتها، فأصبح هذا كل همها، حتى إن حديثها اقتصر على الأطباء تقريبًا. وبرغم أنها كانت لا ترفض الزيارات- في بداية مرضها- إلا أنها أصبحت تمقتها. وكانت قد استقبلت على كرهٍ منها صديقات وأعضاء أمسية أورشليم، وسيدات المجتمع المتقدمات في السن، وزوجات القسس، ثم سرعان ما تأذن لهن بالانصراف. أما أهلها، فكان يؤرقهم عدم اهتمامها بهم، وكأن لسان حالها يقول: "هل بوسعكم فعل شيء من أجلي؟" حتى عندما سمحت الظروف بدخول هانو الصغير إليها، فلم تفعل سوى أن مسحت بيدها على وجنتيه سريعًا، ثم أمسكت عن ذلك كأنها تقول: "ها أنتم أيها الأطفال، كلٌّ على قيد الحياة بينما دنا أجلي أنا". وعلى النقيض من ذلك، فقد كانت تستقبل الطبيبين بحرارةٍ وترحاب فتحاورهما حوارًا طويلاً.

وذات يومٍ، جاءتها السيدتان ابنتا جيرهاردت، العجوزان، وهما سليلتا باول جيرهاردت، وقد وضعت كلٌّ منهما على رأسها وشاحًا وقبعة تشبه الصحن. ولم يكن هناك بُدٌّ من استقبالهما، ولا يعلم سوى الرب بما قالتا لها، وهما جالستان إلى فراشها. وعندما ذهبتا كانت عيونهما وسيماء وجهيهما قد أصبحت أكثر نقاءً وسكينةً وإصرارًا على البر، بينما كانت القنصلة ترقد في فراشها وقد علت وجهها الأمارات نفسها، فكانت راقدةً هناك في سكينةٍ

تامة وسلامٍ تام على نحوٍ أعظم مما سبق. أما أنفاسها فكانت تتردد في ضعفٍ ووهن. وأخذت حالتها تتدهور شيئًا فشيئًا، فأرسلت السيدة بيرمانيدر في استدعاء الطبيبين، بعد أن ودعت السيدتين جيرهاردت بغمغمةٍ خشنة. وما إن ظهر الطبيبان بباب الحجرة حتى تبدل حال القنصلة، فقد انتبهت ودبت فيها الحركة وتماسكت حتى كادت تعتدل جالسةً، بعد أن أعاد ظهور الطبيبين الحياة إليها فجأةً. فمدت كلتا يديها نحوهما وبادرتهما قائلةً: "أهلاً بكما أيها السيدان، وقد حدث نهار اليوم.."

إلا أنه قد آن أوان مصارحتها بانتشار الالتهاب برئتيها. فكان أن أمسك دكتور جرابو بيد توماس ليقول له: "حقًا عزيزي السيناتور، إننا لم نستطع التغلب على هذا الداء. فقد طال الالتهاب الآن الرئتين. وهو أمر يدعوني في كل الأحوال إلى القلق، وأنت على علمٍ تام بأنني لا أماري فيما أخبرك به، فلا بد من الاهتمام الشديد بهذا الأمر، سواء كانت المريضة في السبعين أو العشرين من عمرها. فإن عاودت سؤالك بشأن إخبار أخيك ببرقيةٍ قصيرة فإنني لن أمانعك ذلك، وإن كنت أفضل عدم حضوره، لكن كيف حاله؟ إنه رجلٌ لطيف، وقد كنت أضمر له دائمًا حبًا من الأعماق. لكن أستحلفك بالرب ألا تذهب بأفكارك بعيدًا عما قلت، عزيزي السيناتور، كلاً، كأن تعتقد مثلاً بوجود خطرٍ مباشر، آه، يا لحماقتي! إذ تفوهت بذلك! إلا أنه يجب علينا، كما تعرف، في حالٍ كهذه أن نعد أنفسنا للمفاجآت، ونحن مطمئنون إلى حالة السيدة والدتك الجليلة، فهي كمريضة لم تخذلنا بل لقد أبدت بسالةً في التعاون معنا، كلاً، إنها ليست مجاملة إن وصفتها بأنها مريضةٌ مثالية! وهو ما يجعلنا نأمل خيرًا، عزيزي السيد السيناتور، دعنا

نأمل خيرًا!".

ثم حانت لحظةٌ لتنعش في نفوس الأهل شيئًا من أملٍ وهمي غير صحيح، بعد أن تبدل حال العليلة على نحوٍ ما، ليطرأ شيء غريب على سلوك المرء كان سيسلكه في حياته. فيتلفظ بكلماتٍ ما غامضةً لا نفهم معناها، كلمات تقطع عليه طريق العودة، وتؤدي به حتمًا إلى الموت.

حتى لو كان أعز الناس لدينا، فلن يكون بوسعنا أن نود أن ينهض، ليقف على قدميه. فإن فعل هذا، فسوف ينشر حوله الفزع، كأنه خارج من القبر.

لكن، كانت هناك بوادر غير مطمئنة تشير إلى مبادئ تدهور، رغم أداء أجهزة الجسد لوظائفها بدافعٍ من إرادة صلبة. فبعد ملازمة القنصلة الفراش لأسابيع، منذ إصابتها بالالتهاب، بدأت قروح تتفشى في جسدها، بل إنها استفحلت، فكان أن أصابها الأرق في البداية، من أثر ما كانت تعانيه من آلامٍ وسعال وضيق تنفس، بالإضافة إلى أنها كانت متمسكةً باليقظة وتعاند النوم، فيما عدا بضع دقائق كانت تفقد وعيها خلالها، بعد أن يكون ارتفاع درجة حرارتها قد أرهقها؛ إلا أنها كانت إذ استردت وعيها تحاور أناسًا ماتوا منذ زمن. ففي غسق ذات يومٍ، إذا بها تقول فجأةً بصوتٍ عالٍ يشوبه الخوف، وإن كان صادقًا: "نعم، عزيزي جان، أنا قادمةٌ!"

وجاء كريستيان من هامبورج، بعد أن عطلته أعماله على حد قوله، ليمكث قليلاً في غرفة نوم والدته العليلة، ويغادرها وهو يمسح بكفه فوق جبهته، زائغ البصر، قائلاً: "أمرٌ مريع، مريع، لن أقوى على احتماله ثانيةً؟"

كما جاء القس برنجزهايم أيضًا، ليرمق الأخت ليندرا بنظرةٍ فجة، ثم

يؤدي الصلاة بالقرب من فراش القنصلة. وكان أن طرأ تحسنٌ عابر: انتباهة، هبوط بدرجة الحرارة مع استرداد وهمي للعافية، وتوقف الألم. فتلا ذلك صيحات بعودة الأمل، فطفرت دموع فرح من عيون الحاضرين.

فقال توماس بودنبروك: "أحبائي، لسوف تبقى بيننا، سوف تبقى رغم كل ذلك، لتشهد معنا أعياد الميلاد، لكنا لن نجهدها كالعادة".

إلا أنه في الليلة التالية، وبعد ذهاب جيردا وزوجها إلى الفراش، إذا بالسيدة بيرمانيدر ترسل في استدعائهما إلى شارع منجشتراسه، فقد راحت العليلة تعاني سكرات الموت، وأخذت الرياح تقذف بالمطر ليرتطم بزجاج النوافذ. فجاء السيناتور وقرينته ليدخلا غرفةً مضاءة بالشموع، موقدة فوق زوج من الشمعدانات، حيث وجدوا الطبيبين هناك. وكان كريستيان قد استُدعي من الطابق الأعلى، وجلس هناك مديرًا ظهره لفراش أمه، منكس الرأس، وهو يشتمل جبهته بيديه. وأصبح الجميع بانتظار وصول أخي العليلة، القنصل يوستوس كروجر، بعدما بعثوا في طلبه، بينما قبعت السيدة بيرمانيدر واريكا فاينشينك بنهاية الفراش، يبكيان بكاءً هامسًا. وقد وقفت كلٌّ من الأخت ليندرا والآنسة سيفرين عاجزتين، فراحتا تتطالعان بحزنٍ وجه القنصلة في لحظات الاحتضار. أما القنصلة فكانت مستلقية على ظهرها، رافعةً رأسها فوق الوسائد، وقد أخذت يداها ترتجفان، وهي تمسح بهما فوق الغطاء بسرعة بلا انقطاع؛ يداها تلك، البديعتان، وقد نفرت عروقهما الزرقاء بعد أن صارتا الآن هزيلتين. أما رأسها الملتف بغطاء رأس، فقد راح يندفع من ناحية إلى أخرى على نحو أثار الفزع، وقد انطبقت شفتاها، وأخذت تفتح فمها وتغلقه وقد زمت شفتيها، وراحت تزفر متألمة

كلما حاولت التنفس. كما بدت عيناها الغائرتان زائغتين، تطوفان بالمحيطين بها، وهما يضجان باللهفة، ثم تثبت نظراتها عند أحدهم، وقد بانت فيها علامات حسدٍ مريرة. فالجميع كانوا مرتدين ملابسهم، ولديهم القدرة على التنفس، وهم على قيد الحياة، ولم يعد بوسعهم سوى الشعور بالمواساة، بالنظر إلى ما آل إليه حالها. وها هو الليل يحل بهم دون أن يتبدل الحال.

فتساءل توماس هامسًا: "كم يستغرق هذا من وقت؟" فانتحى به الدكتور جرابو جانبًا إلى طرفٍ آخر بغرفة النوم، أثناء ما كان الدكتور لانجهالس يقوم بحقن العليلة. ولحقت بهما السيدة بيرمانيدر، وقد غطت فمها بمنديل. وجاء رد الدكتور جرابو: "ليس بمقدورنا تحديد ذلك، عزيزي السيناتور، فقد يستغرق احتضار السيدة والدتك خمس دقائق، كما يمكن أن تظل لساعات على قيد الحياة. فليس بوسعي قول شيء، فالأمر يتوقف على ما يسمى بالالتهاب الخانق".

فقالت السيدة بيرمانيدر: "أنا أعرف ذلك"، وأخذت تهز رأسها بين طيات منديلها فيما يسيل الدمع على وجنتيها، ثم أردفت: "إن ذلك ينتج في أغلب الأحوال عن التهابٍ رئوي، فإذا تكاثف بالقصبة الهوائية فإنه يجعل التنفس عسيرًا.. نعم أنا أعرف ذلك".

فعقد السيناتور يديه، ناظرًا إلى فراش أمه، ثم همس: "يا لهول ما تقاسي!".

كما قال الدكتور جرابو هامسًا، وقد غالبه شعور بأهمية العالِم: "كلا". ثم عبس وجهه البيضوي الوديع، ليقول بنبرة حاسمة: "إن هذا ليست الحقيقة،

صدقني أيها الصديق العزيز، إنه صورةٌ واهمة، فالوعي مشوش، وما يحدث أمامنا ليس سوى رد فعل، صدقني".

فكان أن رد توماس بودنبروك: "فليستجب الرب".

إلا أنه كان بوسع أي طفل إدراك أن القنصلة تتمتع بوعيها كاملاً، وتدركَ ما يدور حولها.. ورجع كلٌّ إلى مجلسه، وهو ما فعله القنصل كروجر أيضًا، الذي كان يقف بجوار الفراش معتمدًا على عصاه، وقد احمرت عيناه. ثم تسارعت حركات العليلة على نحو مثير للقلق والرهبة والفزع، وضيقٍ بلا مثيل، وقد تملكها إحساس بالوحدة، وعجزها عن السيطرة على جسمها، الذي أحكم الموت قبضته على كل أوصاله. أما عيناها الكليلتان المتضرعتان المتسائلتان المغمضتان برأس تدقه حشرجة الموت، فكانتا توحيان أحيانًا بميلهما للتقيؤ، كما كانتا تتسعان حتى تنفر شعيرات حدقتيها مصطبغةً بلون الدم؛ إلا أنها لم تفقد وعيها. وبعد الساعة الثالثة بقليل، انتبه الحاضرون إلى قول كريستيان: "لم يعد بمقدوري احتمال ذلك" فخرج وهو يتساند على الأثاث، مغادرًا المكان وهو يعرج. وكان أنين العليلة الرتيب قد جعل في أغلب الظن كلاًّ من اريكا فاينتشينك والآنسة سيفرين تسترخيان فغشيهما النعاس على مقعديهما، وقد شابت الحمرة وجنتيهما. وفي الساعة الرابعة، كانت الحالة قد تدهورت وساءت، فسارع البعض إلى مساعدة العليلة، وتجفيف عرقٍ نز من جبهتها، وقد أنذر تنفسها بالتوقف التام، فساور الجميع الخوف. ثم كان أن صاحت: "أعطوني شيئًا كي أنام..! أي دواء!" إلا أنه لم يعد بوسعهم إمدادها بما يساعدها على النوم. وفجأةً عاودت إجابة نداءٍ لم يسمعه سواها، كما حدث من قبل، ثم أتبعت ذلك بقول: "نعم

حبيبتي، كلارا، أنا قادمة"، ثم بدأ الصراع ثانيةً، إلا أنه لم يكن هذه المرة صراعًا مع الموت، بل صراعًا مع الحياة في سبيل الموت. فقد قالت وهي تنشج: "أود.. لا يمكنني.. شيئًا من أجل النوم! أيها السادة الأطباء، رأفةً بحالي! شيئًا من أجل النوم!" وأدت كلمة "رأفة" بالسيدة بيرمانيدر إلى النحيب، بينما أحاط توماس رأسه بيديه وأخذ يزفر أنينًا هامسًا. أما الطبيبان، فكان يدركان ما عليهما فعله؛ فعليهما في مثل هذه الحال إبقاء المريض حيًّا لأطول فترة من أجل محبيه، لأن المسكنات كانت تفقد المريض وعيه، وتقضى على تمسكه بالحياة؛ فمن واجب الطبيب المحافظة على حياة المريض بقدر الإمكان، وليس المساعدة على استعجال الموت. بالإضافة إلى الدوافع الدينية والنفسية التي سمعا بها أثناء الدراسة، وإن غابت عن ذهنيهما الآن. وفي الساعة الخامسة، وصل الصراع إلى ذروته، فقد أخذت القنصلة تعاني من تقلصات التشنج، وقد اتسعت عيناها، وراحت تحرك ذراعيها كمن يبحث عن مساندةٍ أو عن أيادٍ ممتدة نحوها. وكانت تردد إجابةً على نداءاتٍ تأتيها من كل صوبٍ وحدب، وتزداد إلحاحًا، صادرةً، ليس عن زوجها وابنتها الراحلين فحسب، بل أيضًا عن والديها وصهريها وأقارب آخرين لبوا نداء الرفيق الأعلى. وكانت تهتف ببعض الأسماء دون ألقابها، مما جعل الحضور لا يعرفون مَن تعني هي بذلك، وأخذت تتلفت حولها، وتصيح: "أجل، ها أنا قادمة.. في الحال.. لقد حانت اللحظة.. إذن.. لا أستطيع.. أيها السادة! الدواء!"

وفي الخامسة والنصف، ارتاحت قليلاً لتتبدى فجأةً في ملامحها المجعدة التي مزقها الألم، أماراتُ بهجة مروعة ووداعة عميقة مخيفة رهيبة، وبسرعة البرق، كانت قد نشرت ذراعيها فجأةً بسرعة غير متوقعة، فلم تنقض لحظةٌ

بين ما قد تكون سمعته وبين تلبيتها لذلك، فهتفت بصوتٍ عالٍ، مسكونًا بالإذعان والوفاء الخالصين، وقد شابهما مزيجٌ من الرهبة والمحبة، فقالت: "ها أنا ذا". ثم لفظت آخر أنفاسها. فتملك الجميع الهلع من هذا الذي ناداها فلبت دعوته على الفور. وكان أن قام أحدهم بإسدال ستائر النافذة وإطفاء الشموع، بينما قام الدكتور جرابو بإغماض عيني الراحلة، ناظرًا إليها بإشفاق.

كان الجميع يرتعد في صباح ذاك اليوم من فصل الخريف الذي صبغ غرفة النوم بلونه الباهت، وقد قامت الأُخت ليندرا بإسدال غطاء على مرآة التزين.

الفصـل الثَّانـــي

من خلال الباب المشرع لغرفة نوم الراحلة كان يمكن رؤية السيدة بيرمانيدر جالسةً تصلي، بعد أن صارت وحيدةً هناك؛ فجثت وقد أحاط بها ثوب الحداد، بجوار الفراش، الذي عقدت يدها فوقه منكسةً الرأس مغمغمة. وقد لاحظت أثناء ذلك دخول أخيها وقرينته إلى غرفة الفطور، ليتوقفا بوسطها بانتظار انتهائها من صلاتها، إلا أن ذلك لم يدفعها إلى التعجل، إلى أن أنهت صلاتها بتنهيدةٍ جافة، فلملمت بعد ذلك أطراف ثوبها على مهلٍ وبجلالٍ، ثم نهضت لتمضي نحو ذويها غير مبدية أية بادرة لاضطراب أمرها، بل حافظت على جلال مظهرها. ثم قالت بنبرةٍ حادة: "توماس، يخيل لي أن الراحلة أمي قد ربت أفعى في بيتها، أقصد سيفرين".

"كيف هذا؟"

"لقد أثارت حنقي إلى أقصى حد، وكدت أجن من مسلكها، فكيف لهذه المرأة الوضيعة أن تضاعف قسوة هذه الأيام على هذا النحو الحقير؟"

"لكن، ماذا حدث؟"

"إنها، أولاً، تتمتع بطمعٍ مزرٍ، فقد اتجهت إلى صوان ملابس أمي لتخرج

منه ثيابها الحريرية، وتحملها على ذراعيها لتذهب بها، فكان أن بادرتها: "ريكشن، إلى أين بهذه الثياب؟" فقالت: "لقد وعدتني بها السيدة القنصلة".

فقلت منبهةً لها بأدبٍ شديد إلى تعجلها: "هل تظنين أن ذلك سيعود عليك بنفعٍ ما؟" إلا أنها لم تقنع بالثياب الحريرية فحسب، بل أخذت مجموعةً من مفارش السرير. لكنها لم تكن الوحيدة، فقد كان هذا هو مسلك الخادمات كافةً، وقد سرَّبن من البيت سلالاً مليئة بثيابٍ وملابس من الكتان، بينما اقتسم الخدم ما نالت أيديهم أمام عيني، لأن مفاتيح الخزائن كانت بيد سيفرين. فلما سألتها: "آنسة سيفرين، أعطني المفاتيح"، فماذا كان ردها؟ كان ردها فجًا وقحًا، فقالت إنها لا تخضع لي ولم تكن بخدمتي، ولم أكن مخدومتها، لذا فإنها ستحتفظ بالمفاتيح حتى تخلي طرفها".

فسألها أخوها: "هل تحت يدك مفاتيح الأواني الفضية– حسنًا، فدعي كل شيء عدا ذلك لمن يكن من نصيبه، وهو أمرٌ لا مفر منه بعد أن فقدتِ السيطرة على هذا الأمر. ولسنا بحاجة لإحداث أي صخب الآن، فالفراش قديم، وسوف نبحث هذا الأمر فيما بعد، فهل تحت يدك قوائم؟ على الطاولة، حسنًا، سوف يتضح الأمر الآن".

ثم دخلوا غرفة النوم ليلتفوا بلا حراك متقاربين أمام الفراش، بعد أن كشفت السيدة أنطوني غطاءً أبيض عن وجه الراحلة. وكانت القنصلة قد وُضِعت في ثوبٍ حريري لتظهر به بالقاعة عصر اليوم، وكان قد مضى على وفاتها ثماني وعشرون ساعة، وكان أن خُلع عنها طاقم الأسنان فتهدل فمها ووجنتاها من أثر الشيخوخة، وبدا ذقنها ناتئًا كزاوية قائمة. وقد اعتصرت

الحسرة ثلاثتهم إذ رأوا جفني أمهم المطبقين بصرامة وقسوة بالغين، فبذلوا مجهودًا كبيرًا في سبيل استعادة ملامح وجه أمهم الذي عرفوه تحت تلك القلنسوة، التي كانت المرأة العجوز تضعها فوق رأسها أيام الأحد، وكذلك الباروكة الكستنائية الحمراء ذات الشعر الناعم المفروق، التى كانت سيدات بودنبروك يتندرن بها أثناء حياتها. فقالت السيدة بيرمانيدر، مشيرةً إلى الزهر المنثور على الفراش: "لقد أرسلت كل العائلات وكل الناس أفخر باقات الزهور، وقد صفت جميعًا بالممر، فلتذهبا أنتما أيضًا، جيردا وتوم، لمشاهدة ذلك فيما بعد، فهي بديعة شجية، وذات شرائط من الساتان الأحمر".

فسألها السيناتور: "متى سينتهي أمر إعداد القائمة؟"

"سننجز ذلك عما قريب توم. فقد باتت جاهزةً تقريبًا، ولم يدخر المصمم ياكوبس جهدًا وسعة في سبيل إتمام ذلك، وكذلك.." توقفت برهةً لتبلع ريقها، ثم أردفت قائلة: "وكذلك تم إحضار التابوت، لكن عليكما التخفف من بعض ملابسكما!؟" ثم أعادت الغطاء الأبيض إلى سابق عهده.

"فالمكان هنا أكثر برودة، أما غرفة الانتظار فقد تم تدفئتها بعض الشيء. دعينى أعاونك في ذلك، جيردا، فعلينا التعامل مع مثل هذا الشال الفخم بحرص..هل تأذنين لى بأن أقبلك؟ فأنتِ تعلمين مبلغ حبي لكِ، رغم أنكِ كنتِ دائمًا تكرهينني.. كلّا، لو أنني رفعت قبعتك فسوف أفسد تصفيف شعرك، هذا الشعر البديع؛ وقد كان لأمي، أيام صباها، مثل هذا الشعر، برغم أنها لم تكن رائعة مثلك، إلا أنني رأيتها بعيني عندما كانت تتمتع بمظهر بديع في وقت ما.. أليس هذا حقًا ما يردده خادمكم جروبليبن: كل نفسٍ إلى الموت؟ برغم أنه رجلٌ بسيط، حقًا، توم، ها هي أهم القوائم!".

أثناء ذلك، كانوا قد رجعوا إلى الغرفة المجاورة ليجلسوا إلى الطاولة المستديرة، وقد أمسك السيناتور حِججًا دوَّن بها أنصبة الورثة الأقربين، بينما كانت السيدة بيرمانيدر ترنو إلى وجه أخيها، وقد اعتراها القلق والاضطراب؛ فقد كان هناك أمرٌ لا يمكن إغفاله، بعد أن سيطرت عليها فكرة مروعة، وهو أمر سوف يدور حوله حوار في الساعة التالية. وكان أن بادر السيناتور قائلاً: "أظن أننا نتمسك بالمبدأ المألوف في إعادة الهدايا، وهكذا يكون.."

فقاطعته قرينته لتقول: "عفوًا، توماس، يبدو لي.. كريستيان، أين هو؟"

فهتفت السيدة بيرمانيدر: "حقًّا، يا إلهي! لقد نسينا كريستيان".

فقال السيناتور: "أجل". وطرح الأوراق من بين يديه ليقول: "فلنستدعِه إذن".

فمضت السيدة بيرمانيدر إلى الجرس، إلا أن كريستيان كان قد فتح الباب في اللحظة نفسها ليدخل الغرفة، وهو يكاد يهرول غافلاً عن إغلاق الباب خلفه بهدوء، ثم توقف وقد قطب حاجبيه، وهو يطوف بعينيه الصغيرتين الغائرتين المستديرتين فوق الجميع دون النظر إلى أحد منهم، ثم أخذ يفغر فاه ويغلقه ليهتز شاربه الكث الأحمر مضطربًا، وقد بدت عليه معاناته من حالة الانفعال والعناد، ثم قال باقتضاب: "عرفت أنكم هنا، وكان عليكم إبلاغي إن كان في نيتكم الحوار حول أمور ما".

فرد السيناتور بلا مبالاة: "كنا على وشك فعل ذلك.. فلتجلس إذن".

قال ذلك، وقد تعلق نظره بأزرار قميص كريستيان البيضاء. أما هو نفسه فقد بدا بملابس حدادٍ لا غبار عليها، وقد ظهرت أساور قميصه بيضاء

تحت كمي سترته السوداء، التي وضع عند ياقتها شريطًا عريضًا أسود اللون، وبانت عليها أزرار سوداء حلت محل تلك الذهبية التي اعتاد التحلي بها. وبينما كان كريستيان يحضر مقعدًا ليجلس عليه، انتبه إلى نظرة أخيه إليه، فمد يده إلى صدره وهو يقول: "أعرف مسألة الأزرار البيضاء، لكن لم يكن بمقدروي شراء أزرار سوداء، أو بمعنى آخر غاب عني ذلك، فقد كنت في السنين الأخيرة مضطرًا إلى اقتراض خمسة شلنات لشراء معجون أسنان، كما اضطررت للذهاب إلى الفراش على ضوء أعواد الثقاب، ولست أدري إن كان هذا ذنبي أم ذنب غيري.. كما أن الأزرار السوداء ليست أهم ما في الحياة، وأنا لا أهتم بظواهر الأمور التي لم تشغل بالي قط". كانت جيردا تنظر إليه أثناء حديثه وتكبت ضحكتها، أما السيناتور فقال: "إن عبارتك الأخيرة لا يمكن أن تكون ذريعة أبدية، يا عزيزي".

"أهكذا، فعساك تدرك ذلك على نحوٍ أفضل مني، توماس، فأنا لم أقل سوى أن مثل هذه الأمور لا قيمة لها عندي، ولطالما مررت في الحياة بتجارب كثيرة، وعاشرت أناسًا آخرين لهم عادات تختلف عن عاداتي اختلافًا بينًا!".

ثم احتد فجأة وقال: "بالإضافة إلى أنني رجلٌ راشد، بعد أن بلغت الثالثة والأربعين، وأمور حياتي هي من شأني، ولن أسمح لأحدٍ بالتدخل فيها".

فدهش السيناتور وقال: "يبدو أنك تتحامل عليَّ يا صديقي، فأنا لم أذكر الأزرار على ما أتذكر، فلترتدِ ما شئت من ملابس حدادٍ، على ألا تظن أنك بهذه النزاهة المبتذلة تسطيع التأثير عليَّ".

"أنا لا أريد التأثير عليك، على أي نحو".

فقالت السيدة بيرمانيدر: "توم، كريستيان، علينا اليوم في هذا المكان، تفادي أية عبارات مستفزة، فهي ما تزال ترقد بجوارنا، ولتستأنف الحديث، توماس، استعادة هدايانا؟ مفهوم". فواصل توماس بادئًا بهداياه الكبرى، وعدَّد من بينها ما هو محتاج إليه بداره، مثل شمعدانات قاعة الطعام، الصندوق الكبير من الخشب المحفور بالقاعة. أما السيدة بيرمانيدر، فقد أبدت حماسًا واضحًا في مسألة الاختيار، فما إن تلاحظ تردد أحدهم في استرداد إحدى الهدايا، حتى تبادر "سأقبل أنا ذلك". وقد بدت عليها أمارت الضحية التي يدين لها العالم بالعرفان. وهكذا آل معظم الأثاث إليها وإلى ابنتها وحفيدتها.

أما كريستيان، فنال شيئًا من الأثاث ومقياس درجة الحرارة، والأرغن، معلنًا اكتفاءه بذلك، إلا أنه أبدى حماسًا وبلغ به الجشع وفاجأ الجميع حين جاء دور توزيع الأواني الفضية ومنسوجات الكتان وأواني الطعام. فأخذ يردد: "وأنا، أنا، آمل ألا تغفلوا نصيبي، بأية حال".

"مَن منا سيغفل نصيبك؟ لقد جعلت من نصيبك طاقم الشاي كاملاً، ومعه صحيفة فضية، أما طاقم الشاي المخصص ليوم الأحد فلن يستعمله أحدٌ سوانا و.."

فقالت السيدة بيرمانيدر: "وأنا مستعدة لقبول طاقم الاستعمال اليومي الموشى بنقش نبات البصل".

فصاح كريستيان: "وأنا!" بعد أن تملكه الغضب الذي كان يعتريه أحيانًا ويتبدى في وجهه، لتظهر وجنتاه أكثر وهنًا، وأردف قائلاً: "أريد أن يكون لي حظٌ من أدوات الطعام. فما هو نصيبي من الملاعق والشوك؟ فأنا أرى أنني

قد حُرمتُ من كل شيء تقريبًا!".

لكن، عزيزي، ما عساك فاعل بمثل هذه الأدوات، وأنت لن تستخدمها.. أنا لا أفهم ذلك، فمن الأفضل أن تظل هذه الأدوات للاستعمال العائلي".

فقال كريستيان مكابرًا: "سآخذها تذكارًا لأمي".

فأجابه السيناتور، بعد أن كاد صبره ينفد: "صديقي العزيز، لستُ بحالة تسمح لي بالهزل، فقد بدا من كلامك أنك تريد وضع قصعة حساء على الكومودينو كتذكارٍ من أمك، فأرجو ألا تظن أننا نغبن حقك، فإن كان حظك من الأثاث أقل، فسوف نُعوضك عن ذلك، وهو ما يسري أيضًا عليَّ".

"أنا لا أريد مالاً، بل مفروشات وأدوات طعام".

"بربك، فيم تستخدمها؟"

إلا أن كريستيان ردَّ على ذلك ردًّا جعل جيردا بودنبروك تلتفت إليه بسرعة، وترمقه بنظرة غامضة، وكذلك نحى السيناتور نظارته على عجل محدقًا في وجهه، أما السيدة بيرمانيدر فقد عقدت يديها بعد أن سمعته يقول "كلمة واحدة أقولها، وهي أنني عازم على الزواج، إن عاجلاً أم آجلاً". قال ذلك وهو يكاد يهمس بسرعة، مضيفًا إلى ذلك حركة خاطفة من يده، كأنه يلقي إلى أخيه بشيءٍ ما، ثم اتكأ بعد ذلك، وأخذ يطوف بنظره بلا هدف، وقد اكتسى وجهه بأمارات الاحتجاج، كما بدا شارد الذهن على نحو غريب. دام الصمت لفترة طويلة إلى أن قال السيناتور: "كريستيان، عليك بالإقرار بأن عزمك على الزواج قد جاء متأخرًا بعض الشيء، كما لابد أن يكون ذلك خطوة حقيقية قابلة للتنفيذ، وليست مثل تلك المتعجلة التي أخبرت بها

والدتك الراحلة من قبل".

أما كريستيان فقد استمر على حاله، وقال وهو لا ينظر إلى أحد منهم: "عزمي على ذلك ظل كما هو، لم يطرأ عليه أدنى تغيير".

"هذا أمرٌ مستحيل، يقينًا، لقد كنت بانتظار وفاة أمك من أجل.."

"نعم، لقد أخذت هذا في اعتباري، لكن يبدو أنك، توماس، تريد القول بأنك وحدك في هذه الدنيا الذي يتمتع بحسن اللياقة ورفاهة الحس".

"لست أدري بأي حق تتكلم هكذا، بالإضافة إلى دهشتي من قولك إنك أخذت ذلك في الاعتبار، إذ تفصح يوم وفاة أمك عن نيتك في الانقلاب عليها".

"لقد جاء ذلك في سياق الحديث، وها هي لم يعد بوسعها معارضة ما انتويت. وإن كانت لم تقدر على ذلك قبل عام أيضًا، لقد جانب أمي الصواب تمامًا. قد يكون ذلك صحيحًا من منظورها هي، وهذا هو ما أخذته بعين الاعتبار طوال حياتها، فقد كانت السيدة قد طعنت في السن، كانت من جيل آخر، تنظر الأمور بمعايير مختلفة".

"حسنًا، وأنا أقول لك إن ذلك هو رأيي في تلك المسألة التي نحن بصددها الآن".

"لن آخذ ذلك في الاعتبار".

"بل ستضع ذلك في اعتبارك".

فنظر إليه كريستيان وهو يصيح: "لن أفعل ذلك.. فهذا يعني أنني أعرف ما أقدم عليه، فأنا رجل عاقل".

"ما تزعمه بأنك رجل عاقل لا يتعدى كونه أمرًا سطحيًّا للغاية، فأنت لا

تعرف ما يجب عليك فعله حتمًا".

"بلى!.. فعليَّ تحمل مسؤوليتي كرجل محترم، فأنت لا تعرف ما حدث، توماس، ولا يمكن ذكر ذلك بوجود جيردا وطوني، فعليَّ تحمل بعض العقبات، فالطفلة الأخيرة، جيزيلا الصغيرة".

"أنا لا أعرف شيئًا عما تسميه جيزيلا الصغيرة، ولا أريد معرفة شيء عنها، وأنا مؤمن أن هناك من يخادعك، لكن مسؤوليتك نحو هذا الشخص الذي تعنيه لقاصرةٌ على واجبك القانوني الذي تريد مواصلة تأديته، كما كنت تفعل حتى الآن".

"شخص.. توماس؟ شخص؟"

فنهره السيناتور بودنبروك: "اسكت!".

هنا أخذ كل أخ يحدق في أخيه عبر الطاولة. وبينما كان توماس قد عبس وجهه، وأخذ يرتجف حنقًا، كان كريستيان يرمقه بعينيه الصغيرتين الغائرتين المستديرتين، اللتين احمرت أشفارهما فجأة. وقد فغر فاه غضبًا، فبدت وجنتاه الهزيلتان وقد تهدلتا تمامًا، وطفحت على بشرته أسفل عينيه بقع حمراء، فراحت جيردا تنقل نظرها من أخ إلى آخر، وقد بدا عليها شيء من أمارات السخرية، بينما كانت أنطونيا تفرك يدها وهي تقول راجية: "لكن، توم... لكن، كريستيان.. إن أمنا راقدةٌ بجوارنا".

فكان أن استرسل السيناتور، فقال: "لقد انتفى عنك إحساس الحياء، ففعلت ما فعلت، وها أنت تتلفظ بهذا الاسم هنا في مثل هذه الأحوال، على هذا النحو من البساطة والتبلد. إن عدم الإحساس لنقمةٌ ومرض".

فقال كريستيان: "أنا لا أفهم معنى حظر ذكر اسم إلينا" وكان قد اشتاط

في غضبه إلى حد أن جيردا راحت ترقبه باهتمام أعظم.

ثم أردف: "وها أنا قد ذكرته، وقد أسمعتك إياه.. توماس، وأنا أنوي الزواج بها لتكون لي أسرة. فلدي حنين إلى الاستقرار والسكينة. كما أنني لا أسمح، هل تسمع ما أقول، أنا لا أسمح لك بالتدخل في شأني، مهما كان من أمرك، فأنا رجل حر، أملك أمر نفسي".

"أنت أحمق. ولسوف تعلم يوم فض الوصية إن كنت تملك أمر نفسك. وقد تدبرنا كل ما يجب فعله، أتفهم، حتى أمنعك من تبديد ثروة أمنا، كما بدَّدتَ الثلاثين ألف مارك من قبل، وسأقوم أنا على إدارة ما بقي من نصيبك، ولن تتسلم إلا مرتبًا شهريًا، هذا ما أعدك به".

"ها أنت تعرف الآن أفضل من غيرك عمن أكره الأم على الإقدام على ما فعلته، لكني أدهش أن الأم لم توكل هذا الأمر لغيرك، لمن هو أكثر مني قربًا، وأكثر إحساسًا بمعنى الأخوة".

ثم استبدت بكريستيان ثورة عارمة، فأخذ يردد ما لم ينبس به يومًا قط، وقد مال فوق الطاولة وأخذ يخبط فوق سطحها بطرف سبابته خبطًا لا ينقطع، وأخذ يحدق بعينيه المحتقنتين وشاربه الكث في أخيه، الذي كان يرمقه بوجهٍ مكفهر، بجفنين شبه مطبقين.

ثم استرسل كريستيان متحدثًا بصوتٍ جاف أجش: "إنك لا تحمل في جنباتك نحوي سوى عدم الإحساس وعدم المبالاة والازدراء. وعلى قدر فهمي، فقد فاض عليَّ برودك حتى أصبحتُ أرتجف من البرد إن اجتمعت بك.. حقًّا، قد يكون ذلك تعبيرًا غير مألوف، لكن هذا هو ما أشعر به، أنت تتجاهلني.. تتجاهلني حتى حين تنظر إليَّ، وحتى ذلك لا تفعله أبدًا،

فمِن أين لك الحق في ذلك، فأنت أيضًا إنسان لست كاملاً، وقد كان والدانا يؤثرانك؛ فإن كنت قريبًا منهما إلى هذا الحد، فأين أنت من إيمانهما، وإن كنت تفتقر حقًّا إلى مودة الإخاء، فكنت أتوقع منك قليلاً من محبة أوصى بها المسيح، لكنك تفتقر إلى المحبة حتى إنك لم تقم مرةً بزيارتي، فلم تعدني مرة في هامبورج بالمستشفى، حيث رقدت هناك أعاني من الروماتيزم".

"كان لديَّ ما يشغلني من مسائل أهم من أمراضك، بالإضافة إلى صحتي".

"لا، توماس، إن صحتك على خير وجه، وإلا ما كان بوسعك الجلوس هنا على حالك هذه، فأنت تتمتع بالعافية التامة، مقارنةً بي"

"عساي أكثر منك سقمًا".

"إذن! لكنت.. لا، إن هذا كثير، طوني، جيردا، إنه يقول إنه أكثر مني سُقمًا، هكذا، فلعلك كنت تلازم الفراش في هامبورج تعاني مرض الروماتيزم الذي يهدد حياتك؟ ولعلك تحملت، بعد أي توتر تافه، عذابًا يدب في أوصالك بلا مثيل، ولعل أعصاب جانبك الأيسر كانت أقصر مما ينبغي. وقد أكد لي أطباءُ ثُقات بأن هذا هو ما أعانيه. فهل مررت يومًا بتجربة أن تدخل غرفتك عشاءً فترى هناك من يقبع على أريكتك ملوحًا لك، ولم يكن ذلك سوى محض وهم".

اعترى السيدة بيرمانيدر الهلع، فصاحت صارخة: "كريستيان، ما الذي تخرف به، يا إلهي، أي شيءٍ تتنازعان عليه حقًّا؟ إنكما تتنافسان على حق السيادة. فإن وصل الأمر إلى هذا الحد، فسوف يكون لي ولجيردا رأيٌ في هذه المسألة!.. وها هي أمنا ترقد بجوارنا".

إلا أن توماس صاح مضطربًا: "وأنت، أيها الرجل، ألا وعيت بأن ما تعانيه ليس سوى نتاج ما اقترفته وتبعات لتكاسلك وانشغالك بذاتك؛ فلتكف عن الانشغال بحالتك، والانكفاء عليها والثرثرة حولها. فإن كان قد مسّك جنون، وهذا ليس ببعيد كما أرى، فلن يكون بوسعي أن أسفح دمعةً واحدة من أجلك، لأن ذلك سيكون ذنبك وحدك".

"لا، بل إنك لن تسفح دمعة واحدة، إذا مِتُ".

فرد السيناتور باحتقار: "لن تموت".

"أنا لن أموت؟ حسنًا، فليكن أني لن أموت، ولسوف تعرف مَن يموت منا قبل الآخر، فهل عليَّ أن أعمل، فإن لم أستطع؟ إن لم أقو على مواصلة العمل، يا أبانا الذي في السماوات، ليس بمقدروي المثابرة على العمل، فهذا يتعبني، فإن كنت تقدر، وإن كان بوسعك فعل هذا، فلتشكر الرب على ذلك، لكن لا تنصب نفسك قاضيًا، فلا بد لك من ذلك، فالرب هو المانح المانع".

ثم واصل حديثه بوجه عابس، منحنيًا فوق الطاولة، بينما خبطه يزداد عنفًا، وهو يقول: "أنت من يأمر الناس بالبر وينسى نفسه، لكن اصبر قليلاً، فليس هذا هو ما شئت قوله أو نقدك به، فأنا لا أعرف من أين أبدأ، وما سوف أقدر على قوله لهو واحدٌ على ألف، بل مليون مما أضمره. لقد أحرزت مقامًا في الدنيا، مقامًا كريمًا، إلا أنك تقف الآن هنا رافضًا بعناد ووعي ما يمكن أن يضلك للحظة واحدة فيختل اتزانك؛ فالاتزان لديك أمرٌ مهم، لكنه لن يكون أهم الأمور. إنك أناني، حقًّا، أنت كذلك، إلا أنني ما أزال أسعد برؤيتك، وكم أحب رؤيتك وأنت ترعد وتتصدر المشهد وتزمجر عواصفك؛ لكن ما هو أسوأ من ذلك هو صمتك. فأسوأ شيء ألا ترد

على ما قيل لك، لتنسحب رافضًا تحمل أدنى مسؤولية، نبيلاً معافًى، وتترك الآخر عاجزًا يعاني الخزي.. إنك خالٍ من الحنان والحب والتواضع".

ثم أخذ يأتي بيديه من خلف رأسه ليلوح بهما أمامه، كمن يذود عن نفسه ضد العالم كافة، ثم صاح فجأة: "آه، لقد سئمت كل هذا، سئمت من آداب اللياقة هذه، والوقار والاتزان والكبرياء والإجلال.. سئمت وطفح بي الكيل" وكان قد أخلص لصيحته الأخيرة، فصرخ بها من أعماقه، معبرًا بها عما تجيش به سريرته من الكراهية والقنوط إلى حدٍّ مفزعٍ حقًّا، نعم، حتى إن توماس انكمش بعض الشيء ليخفض بصره للحظة صامتًا، وقد بانت عليه علامات الإرهاق. ثم قال في النهاية بصوت متهدج: "لقد صرت هكذا أنا، لأني أحببت أن ألا أكون أنت، فإن كانت مشاعري تتجنبك فإن هذا يحدث لأنني أريد أن أحمي نفسي منك، فوجودك وكيانك يمثلان خطرًا عليَّ.. وما قلته هو الحق".

ثم صمت برهةً، ليسترسل بعبارةٍ أدل وأكثر إحكامًا: "لقد ابتعدنا كثيرًا عن موضوعِ الحديث، وها أنت قد شنَّفت آذاني بموعظة عن خُلقي، وهو ليس سوى خطاب مفكك إلى حدٍّ ما، وإن اشتمل على القليل من الحقيقة، لكن الأمر هنا لا يمسني، بل يخصك أنت؛ فقد استبدت بك فكرة الزواج، وأنا أود أن تقتنع بما فيه الكفاية إن قلتُ باستحالة زواجك على هذا النحو الذي تصورته أنت، هو ضربٌ من المستحيل. فأولاً لن تكون الفوائد التي سأدفعها إليك على قدر مشجع".

"لقد ادخرت إلينا بعض المال".

فتمالك السيناتور نفسه، وبلع ريقه ليقول: "هكذا.. ادخرت، هكذا

شئت إضافة نصيبك من ميراث أمك إلى ما ادخرته هذه المرأة".

"نعم، فأنا أطمع أن تكون لي أسرة، وأتطلع أن يعطف عليَّ أحدٌ ما إن مرضت. كما أننا نكمل بعضنا الآخر، وكذلك فكل منا يعاني اضطرابًا ما".

"وبعدها تفكر في تبني أبناء، أو الاعتراف ببنوتهم".

"نعم".

"ثم تؤول ثروتك من بعدك إلى هؤلاء؟"

وما إن نطق توماس ذلك حتى أمسكت أنطونيا بذراعه، هامسةً في أذنه راجية: "توماس، إن أمنا ترقد بجوارنا".

أما كريستيان فأجاب: "نعم، فهذا هو الحق".

فهب السيناتور واقفًا وصاح: "إذن فلن تحقق شيئًا من هذا".

فنهض كريستيان أيضًا ليقف وراء مقعده، ممسكًا به بإحدى يديه، ناظرًا إلى أخيه وقد بدا على وجهه مزيج من أمارات خشية وغضب. أما توماس بودنبروك، فقد عبس وجهه وارتعدت فرائصه بعدما كاد الغضب يصل به حد الجنون، فكرر ما قاله: "لن تفعل هذا، لن يحدث هذا طالما كنتُ على قيد الحياة، وأقسم لك على ذلك، فاحذر، وتوخ الحرص، وكفانا ما بددنا من مال في كوارث وعلى حماقات وأحوال مزرية؛ وها أنت تقامر بإلقاء ربع ميراث أمنا في حِجر هذه المرأة وبطن أبنائها من السفاح بعد أن استحوذ تيبورتيوس المحتال على ربعٍ آخر. وقد جلبت على عائلتنا خزيًا بما يكفي، فلم يعد ينقصنا سوى عقد مصاهرة بعاهرة، ليحمل أبناؤها اسمنا. إنني أمنعك عن هذا، هل تسمع؟ أنا أمنعك عنه".

هكذا دوّى صياحه بالقاعة، لتنزوي على إثره السيدة بيرمانيدر في ركن

الأريكة باكيةً. أما هو فأردف: "وإياك أن تخرق هذا الحظر، وهذا ما أنصحك به. فقد كنت حتى الآن أزدريك وأتغافل عنك، لكن إذا بدر منك التحدي أو تجاوزت حدك، فسوف ترى ما سيحل بك، فاحترس. هذا قولي لك، فلسوف أحجر عليك وأقضي عليك، أدمرك، أفهمت؟"

فقال كريستيان: "أما أنا فأقول لك.."

واستحال حوارهما إلى سجال عشوائي بالكلمات، بلا حدٍّ أو معنى يدعو للأسى، فكان أن عرج كريستيان على أخلاق أخيه ثانيةً، وراح يذكره بمثالب ماضيه وقصص موجعة تؤكد على أنانية توماس، الذي لم يكن قد نساها بعد؛ فقد كان يجترها مرارةً، فجاء رد السيناتور بعبارات مفرطة في الازدراء والتهديد؛ ثم ما لبث أن ندم على ما قاله بعد عشر دقائق. أثناء ذلك، كانت جيردا قد ارتكزت برأسها على يديها، متابعةً الأخوين بعينين مفعمتين بنظرة غامضة، بينما لم تكن السيدة بيرمانيدر قد كفت عن ترديد: "أمنا ترقد بجوارنا، أمنا على مقربةٍ منا". وفي النهاية كف كريستيان يده عن نزال أخيه، وأخذ يروح ويجيء بالطرف الآخر من الغرفة، ثم صاح: "حسنًا، ولسوف نرى". ومضى نحو الباب بشاربه الكث وعينين محتقنتين، تاركًا سترته مفتوحة، وقد أمسك بيده المرسلة منديلاً، وهو يرغي ويزبد، ثم أغلق الباب خلفه.

وعلى إثر الهدوء المفاجئ، كان السيناتور قد وقف منتصبًا، متابعًا اختفاء أخيه، ثم جلس لائذًا بالصمت. ثم أسرع ليمسك بالأوراق، وأنهى ما كان عليه عمله ببعض العبارات. ثم اتكأ وهو يفتل شاربه، غارقًا في التفكير. أما السيدة بيرمانيدر، فقد أخذ قلبها يخفق من شدة الهلع، فقضيتها،

مسألتها الكبرى لم تعد تحتمل تأجيلاً أكثر من هذا، وقد يتعين طرحها للتشاور، وكان يجب عليه أن يرد عليها، لكن، آه، هل حالته الآن تسمح له بأن يتدبر الأمور بدقة ويسر؟ فكان أن نظرت أولاً في حِجرها، ثم حاولت مرغمة سبر أغواره.

"والآن، توم، ماذا عن الأثاث، لقد تدبرت كل شيء بالفعل، فماذا عما يخصنا، أقصد إريكا والصغير وأنا نفسي، باختصار: البيت، ماذا سيكون شأنه؟"

وما إن فرغت من تساؤلها حتى أخذت تفرك يديها خلسة، إلا أن السيناتور لم يجب في الحال، بل ظل برهةً يفتل شاربه متأملاً متدبرًا، ثم تنهد، ونهض ليقول: "البيت؟ إنه لنا جميعًا بالطبع، أنتِ وكريستيان وأنا والقس تيبورتيوس كذلك؛ وهو أمر يبعث على السخرية؛ فنصيبه هو ميراث كلارا، وليس لى الحق في إقرار هذا الأمر وحدي، فهو مسألة تتطلب موافقتكم، إلا أن الوضع الراهن يحتم علينا بيعه على أسرع وجه".

هكذا أنهى حديثه، وأخذ يهز كتفيه، وقد بدا عليه أنه آثر عدم الكلام عن نفسه. أما السيدة بيرمانيدر، التي كانت قد نكست رأسها، فكفت عن فرك يديها وأرسلتهما فجأةً، وبعد برهة كررت حزينة منكسرة: "موافقتنا، يا إلهي، أنت تعرف جيدًا أن لك الحق في اتخاذ ما تراه، أما نحن الآخرين فليس بوسعنا التفكير طويلاً في الموافقة، لكي.." ثم مضت غائبة عن الوعي تقريبًا، بينما شفتها العليا ترتجف: "إذا كان لنا أن نشارك برأيٍ، فهو أن نرجوك بشأن هذا البيت، بيت أمي، بيت والدينا، البيت الذي سعدنا فيه بحياتنا.. فكيف لنا أن نبيعه..!"

فعاود السيناتور هز كتفيه، وقال: "أنا أصدقك القول، يا بنيتي، بأن ما ذكرتيه يؤلمني كما يؤلمكِ، بغض النظر عن أي أمر آخر.. إلا أن هذا ليس سوى عاطفة، فما سوف نقدم عليه هو أمرٌ تم حسمه. فنحن نمتلك قطعة الأرض الشاسعة هذه، فما عسانا فاعلين بها الآن؟ فمنذ زمنٍ بعيد، منذ وفاة والدنا، والمبنى الخلفي آيل للسقوط، وفي قاعة البلياردو ترتع قبيلة من القطط على راحتها، وماذا أفعل بهذا البيت، وأنا امتلك دارًا بالفعل في "فيشرجروبه"، فهل يكون بيعه هو الحل؟ فما رأيك؟ ولمن نبيعه؟ ولو أني بعته لخسرت نصف قيمته، آه، طوني، لدينا ما يكفينا من أراضٍ، بل إنها أكثر بكثير مما نحتاج، والمخازن، وبيتان كبيران، كما أن قيمة هذه الأراضي أقل من قيمة رأس المال السائل. كلا، إن الحل هو البيع.. البيع". إلا أن ذلك لم يلق من السيدة بيرمانيدر آذانًا صاغية، فقد انكمشت جسدًا وروحًا، ناظرةً بعينيها في الفراغ، ثم غمغمت: "بيتنا، ما أزال أذكر حفل افتتاحه.. ولم تكن عائلتنا أقل من الآن، فقد كانت الأسرة كلها موجودة، وحينذاك ألقى العم هوفشتده إحدى القصائد، وقد حُفظت بالدفتر، ومازلت أحفظها: "فينوس، أناديومين"، وما أزال أرى غرفة المنظر الطبيعي، وقاعة الطعام، والضيوف.."

"حقًا، طوني، وقد كان ذلك أيضًا هو ما تذكره من باعوا البيت لجدنا. لكنهم كانوا قد خسروا ثروتهم فاضطروا لمغادرته، وقد كُتب عليهم الموت وقُضي عليهم، فلكل شيء نهاية. فلنسعد نحن، ونشكر الرب أن الحال لم يصل بنا إلى ما آل إليه حال آل راتنكامب. ولسوف نترك هذا المكان في ظروف أفضل مما مروا هم بها".

وأمسك عن الاسترسال لإجهاش أخته في البكاء، ليستحيل إلى أنين طويل موجع. وأدى انخراط السيدة بيرمانيدر في حزنها حد أن لم يخطر ببالها أن تكفكف دمعها الذي سال على وجنتيها. كانت جالسةً، مائلةً إلى الأمام، متهالكةً، فسالت دمعةٌ حارة على يديها الشاحبتين فوق حِجرها، فلم تشعر بذلك.

وكان أن أطلقت سراح صوتها الذي حبسته الدموع، لتقول بنبرةٍ قوية مؤثرة هامسة:

"توم، أنت لا تعلم ما أشعر به الآن، لا، أنت لا تدرك ذلك؛ إن صروف الدهر قد أنهكت أختك ونكبتها، وقد نزل بي كل ما يخطر على قلب بشر؛ فأيًّا كان ما حدث لي مع جريونليش، ثم بيرمانيدر، وما كان من أمر فاينشينك، فإذا كان الرب قد شاء أن تضيع حياتي شيئًا فشيئًا، إلا أنني كنت أجد الملاذ والملجأ الآمن الذي ألوذ به من تصاريف القدر.. وما أزال إلى يومنا هذا ألوذ به، بعد ضياع كل شيء. وبعد الحكم على فاينشينك بالسجن.. سألت أمي أن نعود للعيش معها، فقالت تعالَي، يا بنيَّتي.. توم، لما كنا أطفالاً وكنا نلعب "لعبة الحروب"، كان هناك بقعةٌ محددة كان بوسعنا اللجوء إليها إن أحس أحدنا بالتهديد والخطر، وهناك لا يلحق بنا أذى، بل كان بمقدورنا أن ننعم بالسلام".

ثم اتكأت وغطت وجهها بمنديل، لتنخرط في بكاءٍ مرير. فكان أن أمسك أخوها بيدها.

"أنا أعلم ذلك، عزيزتي طوني، أعلم كل هذا! لكن علينا الاحتكام قليلاً إلى العقل. فقد أصبحت أمنا الحنون بين يدي ربها ولن تعود، فماذا نفعل

إذن بالبيت، فهل نؤجره؟ ألن يحزنك أن يسكن هنا غرباء؟ من الأفضل ألا نرى هذا، بل تستأجرين لكِ ولابنتيك منزلاً صغيرًا جميلاً، أو طابقًا بمكانٍ ما أمام "البوابة" مثلاً.. أم إنكِ تفضلين العيش هنا بين مستأجرين أغراب؟

"كما أن عائلتك ما تزال بجوارك: جيردا وأنا وآل بودنبروك والآنسة فايشبروت أيضًا، ولست أدري إن كانت كلوتيلده تود العيش معنا، فبعد انضمامها للدير لم نعد نراها كثيرًا".

فكان أن أشاحت بوجهها لتزفر تنهيدًا يشبه الضحك، وضغطت عينيها في المنديل، ثم اعتدلت ومالت برأسها إلى الخلف، محاولةً إلصاق ذقنها بصدرها كعادتها، كلما اضطرت لإبراز شخصيتها وكبريائها. ثم رفت عيناها المغرورقتان بالدمع، لتنظر عبر النافذة وقد بدت على ملامحها التماسك وقالت: "سوف أبدي تفهمًا أيضًا، ولسوف أفعل ذلك.. فلا تؤاخذني على بكائي.. وكذلك أنتِ أيضًا جيردا، وهو أمرٌ يمكن حدوثه إن أحسسنا بالضعف، لكنه ضعفٌ خارجي، صدقاني، فأنتما تعرفان أني امرأةٌ صعبة المراس، حقًّا، توم، إن ما سميته رأسمالاً راكدًا قد أدركتُ معناه، وهكذا لن يكون بمقدوري سوى أن أعيد ما قلته له، بأن تفعل ما تراه صوابًا؛ فأنت مَن يحمل عبء تدبير أمورنا، فأنا وجيردا امرأتان، أما كريستيان، فليكن الرب في عونه. فلن نعارضك لأننا نحتكم إلى عواطفنا، وهي ما نحتفظ بها، فلمن تنتوي بيع البيت، توم، وهل ترى أن ذلك سيتم قريبًا؟"

"ليتني أعرف، يا بنيتي، لكني- على كل حال- كنت قد فاتحت الوسيط جوش في الأمر صباح اليوم، فلم يبد اعتراضًا على تولي مهمة البيع".

"سيكون هذا أمرًا طيبًا، طيبًا للغاية، فلدى سيجسيموند جوش ما

يمكن التأثير به، مثل ترجمته لنص إسباني يتحاكى به الناس، لكني لا أعرف اسم الشاعر. أليس هذا بشيء غريب، فلتقر بذلك. لكنه كان أحد أصدقاء والدي، وهو رجل نزيه من أساسه إلى رأسه، كما أنه رجل طيب وهو ما يعرفه الناس عنه، ولسوف يدرك أن هذه المسألة ليست مسألة شراء أو بيع.. فما عساك تطلب ثمنًا لذلك؟"

"مائة ألف مارك هي أدنى ما يمكن قبوله، أليس كذلك؟"

ثم كررت: "مائة ألف مارك هو أدنى مقابل ممكن، توم".

وقد ظلت ممسكة بالباب إلى أن هبط أخوها وقرينته السلم، ثم عادت لتقف بوسط الغرفة وحيدةً، صامتة، عاقدة يديها المتعبتين، وقد اتسعت عيناها هائمةً فيما حولها، وهي تهز رأسها بقبعتها الدانتيل السوداء هزًا بسيطًا متواصلاً، وقد راحت رأسها تميل شيئًا فشيئًا نحو كتفها، من وطأة الأفكار.

الفصل الثَّالث

كان يوهان الصغير ممنوعًا من حضور جحيم احتضار جدته، بعد أن أمر أبوه بذلك ولم يسمح بسماع أدنى اعتراض. وبرغم حذره ذلك إلا أنه في اليوم التالي لصراع القنصلة المرير مع الموت، كان السيناتور جالسًا إلى الطاولة وهو يهمس لزوجته، موجهًا لومًا قاسيًا لمسلك كريستيان الذي انسل لينام، تاركًا أمه على هذه الحال المتدهورة، فلما بررت قرينته ذلك بقولها: "هو يعاني من تلك الأعصاب، توماس".

فرد عليها، ناظرًا إلى هانو نظرةً تأثر بها الطفل، قائلاً إنه ليس هناك مبرر لذلك، فما عانته الأم من آلام يتوارى أمامها المرء خجلاً، ولم ينسحب خوفًا من أن يعانى القليل من رؤية مشهد صراعها.

وهكذا فهم هانو أنه لن يمانع في زيارته لجدته وهي مسجاة في تابوتها. وكان قد عبر في اليوم السابق على الدفن بهو الأعمدة بصحبة والديه، ليدخل المكان الرحب كما رآه ليلة عيد الميلاد، فإذا به يشعر بغربة المكان.

فعلى قائم أسود كانت نسخةٌ من كتاب ثورفالدسن "المسيح المبارك" قد وضعت بالممر، بجوار أصص زهر كبيرة بلون أخضر داكن، وقد صنعت مع

شمعدانات عالية من الفضة شبه دائرة.

وفي كل مكان على الجدران، كان تيار هواء يكشف ورق الحائط الأزرق بلون السماء، وكذلك ابتسامة تماثيل الآلهة البيضاء التي كانت تلتفت عندما يُقدم طعام طيب بالقاعة.

كان يوهان قد توسط أقاربه المتشحين بثياب الحداد، مرتديًا زي البحارة، واضعًا شارة سوداء حول ذراعه، متأثرًا بما فاح من مجموعة باقاتٍ وأكاليل الزهور الممتزجة بعبق عطر آخر غير مألوف؛ وهو ما كان يعرفه أيضًا على نحو غريب. هكذا وقف يوهان الصغير على مقربة من التابوت، ناظرًا إلى الجثمان الجامد المسجى أمامه، متدثرًا بإحكام بنسيج من ساتان أبيض.

لم تكن هذه جدته التي عرفها، لكن ما لفت نظره كانت تلك القلنسوة التي طالما ارتدتها في المناسبات، وقد تدلت منها شرائط بيضاء من الحرير، وكذلك شعرها الكستنائي الأحمر. أما هذه الأنف الحادة والشفتان المطبقتان وتلك الذقن الناتئة، ويداها المنعقدتان الشاحبتان، كل هذا لم تكن ملامح جدته كما كان يعرفها. أما التي رآها فلم تكن سوى تمثال من شمع يثير الفزع. والتفت إلى غرفة المنظر الطبيعي، منتظرًا وصول جدته الحقيقية في أية لحظة، إلا أنها لم تأتِ. فقد ذهبت، وحولها الموت إلى هذا التمثال الشمعي مطبق الجفنين، مزموم الشفتين بإصرارٍ وصرامة شديدين.

كان قد اعتمد على ساقه اليسرى بينما ثنى اليمنى رافعًا كعب قدمه، وقد وضع يدًا فوق أنشوطة البحارة وأرسل الأخرى حرةً. أما رأسه فقد مالت بشعرها الكستنائي الفاتح، وقد تهدلت خصلاته فوق فوديه، مقطبًا حاجبيه فوق عينيه السمراوين المذهبتين اللتين أحاطت بهما هالات زرقاء. وقد

راحت عيناه ترفان وهما تنظران إلى وجه الجثمان نظرة مصدومة متأملة. وكانت أنفاسه تتردد بطيئة مترددة، مشتاقة إلى ذلك العبق الغريب الذي لم تستطع روائح الأزهار حجب انتشاره. وفي النهاية أخذ يتنهد كمن يبكي بلا دمع، مما دفع السيدة بيرمانيدر أن تميل عليه لتقبله وتمضي به.

ظل السيناتور والسيدة بيرمانيدر واريكا فاينشينك يتلقون العزاء لساعات طويلة بغرفة المنظر الطبيعي. ثم دُفنت إليزابيت بودنبروك سليلة آل كروجر. وحضر الجنازة أقرباؤها المقيمون بالخارج، فجاءوا من فرانكفورت وهامبورج، ليتم استقبالهم في دار منجشتراسه للمرة الأخيرة. كانت القاعة وغرفة المنظر الطبيعي وبهو الأعمدة والممر غاصةً بأقارب المتوفاة، حين شرع القس برينجزهايم راعي كنيسة سانت ماريا في إلقاء عظة التأبين بين الشموع الموقدة. وقد بدا القس جليلاً عند مقدمة التابوت، ناظرًا نحو السماء بوجهه الحليق الذي ارتسمت عليه أمارات تجمع عبوسًا متطرفًا وإشراقًا رقيقًا؛ وقد أخذ يعدد مناقب الراحلة بصوتٍ متباين النبرات، فذكر مكانتها وتواضعها وروحها المرحة وطهارتها وكرمها وحسن خلقها. كما ذكر أمسيات أورشليم ومدرسة الأحد، كما أثنى بلكنته العامية على حياتها العامرة الغنية والسعيدة في هذه الحياة الدنيا. ولما شاء اختيار صفة مناسبة لكلمة "نهاية" قال: "أخيرًا: نهاية هانئة ".

أما السيدة بيرمانيدر، فكانت تدري جيدًا واجبها نحو نفسها، ونحو عائلتها، بإبداء الكبرياء والجلال؛ فاتخذت المكان الرئيس هي وابنتها اريكا وصغيرتها إليزابيت بجوار القس، عند مقدمة التابوت المزدانة بباقات الزهور، بينما قنع كل من توماس وجيردا وكريستيان وكلوتيلده ويوهان

الصغير بالمكانة التالية التي احتلها الأقارب من الدرجة الثانية، وكان معهم القنصل كروجر المسن جالسًا فوق مقعد.

كانت أنطونيا تقف هناك منتصبة الهامة وقد رفعت كتفيها نوعًا ما ممسكةً بكلتا يديها بمنديل من قماش الباتيستا. وبدت متباهيةً بالمكانة التي احتلتها في هذا الطقس إلى حد كادت معه تنسى آلامها أحيانًا، وأخذت نظراتها تنتقل بين الجميع، فرأت يوليه مولندورف سليلة آل هاجنشتروم وزوجها.. وقد رأى الجميع أن الواجب يقضي بحضورهم، فجاء آل مولندورف وكيستنماكر ولانجهالس وأوفرديك ليجتمعوا هناك ثانيةً قبل مغادرة أنطونيا بودنبروك لدار والديها، من أجل المواساة وإبداء احترامهم لها، رغم ما وقع لها من جريونليش وبيرمايندر وهوجو فاينشينك. أما القس برنجزهايم فأثارت عظته المشاعر، مُعددًا للحاضرين جسامة خسارتهم، فاستدر دمعًا من عيونٍ ما كانت لتبكي، فنال ثناء هؤلاء. وعندما عرج على أمسيات أورشليم أخذت خليلات الراحلة المسنات يبكين عدا كيتلسن التي لم تكن لتسمع شيئًا، فظلت تنظر شاخصة البصر، وقد غُلف وجهها بملامح الصماء الجامدة، وكذلك الأختان جيرهاردت، سليلتا آل باول جيرهاردت اللتان وقفتا بركنٍ ما وكلٌ منهما تمسك بيد الأخرى بعينين صافيتين، وقد أحستا باغتباط لوفاة صديقتهما، ولم يحسداها لسبب وحيد أن الحسد والغيرة لم يجد مكانًا بقلبيهما. أما الآنسة فايشبروت فأخذت تنظف أنفها بلا انقطاع في منديل بصوت مبتور قوى. وأما سيدات بودنبروك، بالشارع العريض، فلم يبكين، ولم يكن ذلك من عادتهن، كما لم تعد لملامحهن الحدة المعهودة منهن، بل كانت تعبر عن قناعة راضية بعدالة الموت التي تساوي بين البشر.

فلما اختتم القس برينجزهايم بكلمة "آمين"، جاء أربعة رجال ليحملوا التابوت، وقد وضعوا فوق رؤوسهم قبعاتهم المثلثة السوداء، يمشون بوقار مهرولين بعض الشيء إلى حد أن عباءاتهم السوداء ارتفعت وراءهم، ثم مدوا أيديهم فوق التابوت. كان الجميع يعرفون هؤلاء الأربعة، فقد كانوا يُستأجَرون لولائم العشاء الفخمة، ليحملوا صحاف الطعام الثقيلة، ليجتمعوا بعد ذلك بالممرات حيث يحتسون دوارق النبيذ الأحمر الذي اختص مولندروف ببيعه. ولما كانوا قد اشتهروا بإتقان عملهم، كانت كل عائلات الطبقة الراقية والطبقة الوسطى حريصة على الاستعانة بهم دائمًا، كما كانوا يدركون تمامًا أهمية تلك اللحظة التي يحملون أثناءها التابوت، ويمضون به إلى المثوى الأخير، فكانوا يحرصون على إتمام ذلك ببراعة ولياقة.

وقد قاموا برفع التابوت عن الحامل إلى كواهلهم على مرحلتين أو ثلاث برشاقة لم يشعر بها أحد، فلم يدعوا لأحدٍ فرصة الإحساس بهول اللحظة، حين ساروا مخترقين بهو الأعمدة بالتابوت المزدان بالزهور، وقد أخذ يهتز فوق أكتافهم ليختفي على عجل وبسرعة محسوبة. وفيما كان الرجال يتأهبون للخروج إلى عرباتهم، كانت السيدات قد اجتمعن حول السيدة بيرمانيدر وابنتها، وقد توخين الحذر والحرص ليصافحن إياهما وقد غضضن أبصارهن مواسيات بما يجب أن يقال في مثل هذه المناسبات. ومضى الموكب الحافل متشحًا بالسواد بخطى وئيدة في طريق تظله أشجار جرداء، بينما كان قَطر الماء البارد قد وصل المقبرة. فصحب المشيعون التابوت سيرًا على الأقدام في طرق معبدة، بينما كان اللحن الجنازي يصدح خلف غابة صغيرة شبه جرداء، حتى حافة الغابة التي احتوت مدافن آل بودنبروك، وقد ارتفع فوقها

شاهدٌ من الحجر الرملي مزدانٌ بصليب ضخم، على الطراز القوطي. أما غطاء القبر الحجري، الذي نُقش عليه شعار العائلة، فقد تم رفعه ووضع بجوار المقبرة المحاطة بالعشب المبلل.، وكان قد تم تجهيز المكان لاستقبال الوافد الجديد. فقام السيناتور قبل أيام بالإشراف على ترتيبه بعض الشيء، لينحي جانبًا رفات بعض أفراد أسرة بودنبروك الذين مر على دفنهم زمن بعيد.

وبينما كانت ترانيم الموسيقى تتراجع، كان الحمالون ينزلون التابوت بأحبال إلى قبر مبطن بالأحجار، إلى أن استقر في قاعه. فشرع القس برينجزهايم يتحدث أمام القبر المفتوح بنبرة محترفة جليلة مؤثرة مفعمة بالورع، متجاوزًا رؤوس المعزين المنكسة أو المائلة من فرط الحزن، متخللاً هواء الخريف الساكن البارد. وفي النهاية مال فوق اللحد مخاطبًا المتوفاة باسمها كاملاً، ثم رسم علامة الصليب مباركًا إياها. فلما انتهى وبدأ الرجال صلاتهم خاشعين، واضعين قبعاتهم أمام وجوههم، إذا بالشمس تشرق ليرتفع من حينٍ لآخر تغريد طيور متداخلاً مع صوت قطرات المطر المتساقط متناثرًا من أشجار وشجيرات. وكان أن صافح المعزون ولدَي المتوفاة وأخاها مرةً أخرى. وكان توماس بودنبروك قد توسط أخاه كريستيان وخاله يوستوس كروجر أثناء تلقي العزاء، وقد بدت قطرات المطر رقيقة تبرق كالظل بلون فضي فوق معطفه القاتم. وكانت أمارات السمنة قد بدت عليه مؤخرًا، فكانت الإشارة الوحيدة إلى تقدمه في العمر، كما امتلأت وجنتاه فوق شاربه المفتول، إلا أنهما ظهرتا شاحبتين، لا أثر لدمٍ أو حياة بهما، أما عيناه المحتقنتان فأصبحتا تطالعان وجه كل من صافحه باحترامٍ فاتر.

الفصــل الرَّابـــع

بعد ثمانية أيام، وبغرفة المكتب الخاص بالسيناتور بودنبروك، جلس على مقعدٍ مبطن بالجلد رجلٌ مسن، قصير القامة حليق الذقن، بشعرٍ أشيب ناصع البياض ينحدر فوق جبهته وفوديه إلى أقصى حد، وقد مال مرتكزًا بكلتا يديه فوق عصاه بيضاء اللون، مريحًا ذقنه الناتئة المدببة فوق يديه، وهو يرمق السيناتور بنظرةٍ مقززة ثاقبة مريبة، وقد أطبق الشفتين وزمَّ شدقيه، إلا أن توماس بودنبروك كان جالسًا دون أن يبدو عليه اضطرابٌ ما، وقد أخذ يتحدث إلى هذا الشيطان ذي الابتسامة الصفراء.

كان حوارًا بين رئيس شركة توماس بودنبروك وبين الوسيط سيجسموند جوش حول السعر الذي سوف تباع به الدار القديمة بشارع منجشتراسه. وقد دام هذا الحوار لزمنٍ بعد أن رأى السيناتور عرض السيد جوش بخسًا؛ إذ لم يتجاوز 28000 ريال، بينما رأى الوسيط أنه قد يُلقى به إلى النار أو يصاب بالجنون إن هو أضاف إلى هذا المبلغ ريالاً واحدًا. أما توماس بودنبروك، فقد عدد مزايا موقع ومساحة الأرض، إلا أن السيد جوش اتخذ

هيئة مخيفة بعد أن زمّ شفتيه ليلقي خطبةً عن مغامرة مضنية يخوضها، وأسهب في شرح كاد أن يكون له بيان وبلاغة قصيدة شعر.. ها! فمتى وإلى مَن وبكم يمكن بيع هذه الدار مرةً أخرى، وكم مرة على مر السنين والأيام يمكن أن يخطر على بال أحد شراء مثل هذه القطعة من الأرض؟

أليس بوسع صديقه المقرب وولي نعمته أن يخبره بوصول ثري هندي غدًا قادما بالقطار من بوشن، ليقيم بدار بودنبروك؟ فيشعر سيجسيموند جوش بخيبة أمل، نعم خيبة أمل، ثم يحس بالانكسار ليصير إنسانًا مقضيًا عليه لن يكون لديه متسع من وقت لأن ينهض، فقد دنا أجله وحُفر قبره، فلما جذبه هذا التعبير أرفق به أرواحًا شريرة مروعة وثرًى يُهال فوق التابوت.

إلا أن السيناتور لم يعرب عن قبوله، وذكر أنه يمكن تقسيم الأرض على نحوٍ مفيد، مؤكدًا على مسؤوليته نحو إخوته، مصرًّا على سعرٍ لا يقل عن 30.000 ريال، ليسمع من جديد بشعور جمع التوتر بالرضا ردًا معقولاً من السيد جوش. وقد استمر ذلك ساعتين كانتا بمثابة فرصة للسيد جوش ليستنفر كل فنونه الشخصية. فمارس لعبةً مزدوجة في آنٍ واحد، فلعب دور الشرير المداهن "فلتقبل سيدي السيناتور، يا ولي النعم، الصغير 84000 مارك، فهي عرض رجل عجوز أمين!".

قال ذلك بصوتٍ عذب، وهو يميل برأسه جانبًا، مقطبًا وجهه الحانق الدارس، ليبتسم ابتسامةً بسيطة مخلصة وهو يفرد يده، يدًا ضخمة بيضاء بأصابع طويلة مرتعشة، إلا أن هذا لم يكن سوى خداع وافتراء.

فأي طفل يستطيع إماطة هذا القناع المرائي الذي يخفي دناءة هذا الرجل بجذورها الضاربة في أعماقه على نحوٍ بغيض.

وفي النهاية طلب توماس بودنبروك مهلة لتدبر الأمر واستشارة إخوته، قبل أن يعلن قبوله لمبلغ 28000 ريال، وهو مبلغٌ لا يمكن قبوله على الإطلاق. ثم حوَّل دفة الحديث وجهةً أخرى، مستفسرًا عن مدى نجاح تجارة السيد جوش، وكذلك عن صحته.

لم تكن صحة السيد جوش على ما يرام، كما زعم بأنه ليس من المحظوظين، مؤكدًا على ذلك بحركةٍ مسرحية بذراعه؛ فها هي الشيخوخة المضنية تدنو منه، بل إنها قد داهمته ونالت منه، فلم يعد بوسعه أن يدني قدح مشروب "بروج" من فمه مساءً دون أن يهرق نصفه؛ فقد كان إبليس هُو مَن يهز ذراعه، ولم يعد تجدي معه استعاذة. هكذا لم تعد لإرادته السيطرة النافذة، بعدما أدارت له الحياة ظهرها. لكنها لم تكن حياة بائسةً تمامًا، وهو الذي رأى الدنيا بعيونٍ يقظة. ثورات وحروب مرت به أحداثًا عاصفةً، وهدرت أمواجها في قلبه، كما يقال، ها يا للعنة. فقد اختلفت الأيام عن تلك التي وقف فيها في وجه الرعاع الحاقدين كتفًا إلى كتف والد السيناتور القنصل يوهان بودنبروك، أثناء انعقاد اجتماع مجلس المواطنين التاريخي.

كلا، لم تكن حياته بائسةً، ولم يكن وجدانه فاسدًا، وقد كان يشعر بالقوة، أو كما قال فويرباخ "بقدر العزم تكون المُثل".

وحتى الآن، حتى الآن ما تزال روحه غير بائسة، وقد بقي قلبه شابًا ولم يتوقف، ولن يتوقف عن استيعاب أحداث عظيمة، ومُثُله سيصحبها معه إلى القبر ليحيطها بالدفء والإخلاص، يقينًا! لكن هل خُلقت المثل لكي ندركها ونحققها؟ كلاَّ البتة! فنحن لا نسعى لبلوغ النجوم، لكننا نسعى إلى

الأمل.. الأمل وليس تحقيقه، فالأمل هو أفضل ما في الحياة، وقد قال لاروشفكو: "إن الأمل، وإن كان وهمًا، إلا أنه ينفعنا حينما يهدينا إلى آجالنا على صراط مريح"، وقد كان ذلك جميلاً، أليس كذلك؟ حقًا فصديقه المقرب وولي نعمته ليس بحاجة لإدراك ذلك!

فمَن تحمله أمواج الحياة الواقعية على كتفيها فترفعه إلى مكانة سامية لن يكون بحاجةٍ لإدراك ذلك، أما مَن يحلم وحيدًا في غيهب العتمة فهو محتاج لإدراك ذلك.

وربت بيده فجأةً فوق ركبة السيناتور ناظرًا إليه: "إنك سعيد الحظ، بل إنك تقبض على الحظ بيديك، على الحظ الذي اصطفاك وشملك بذراعه القوية، فاحتضنته بذراع قوية.. بيد قوية!". هكذا صحح كلمة "ذراع" إلى "يد"، لأنه لم يتحمل تكرار كلمة ذراع بهذه السرعة، لأن كلمة "ذراع" مرادفة لكلمة "فقير".

ثم التزم الصمت، إلا أنه عاد ليستأنف حديثًا دون مشاركة له من جانب السيناتور بكلمة رافضة ومستسلمة، ليستأنف وهو ينظر في وجهه بحلم معتم لينهض فجأةً ليقول: "ها نحن نتسرى رغم أني جئت من أجل العمل، فقيمة الوقت أعظم من أن تهدرها هواجس. اسمع، فمن أجل شخصك الذي أعرفه، هل وعيت ما أقصد، لأنك.."

فأمسك السيد جوش عن الكلام كأنه يقدح زناد فكره من أجل الإفصاح عن فكرةٍ طيبة، وفي النهاية تشجع ليقول بإيماءةٍ عميقة جزلة ظافرة: 29000 ريال أى 87.000 ألف مارك، هو المقابل لدار والدتك، هل توافقني؟" فأبدى السيناتور بودنبروك موافقته. وكما هو متوقع رأت السيدة

بيرمانيدر الثمن بخسًا، فذكرياتها بالدار تساوى مليون مارك نقدًا. إلا أنها سرعان ما ارتضت المبلغ الذي ذكره أخوها بعد ما شرد فكرها وهي تخطط لمستقبلها.

وقد أصبح الأثاث الكثير الأنيق مبعث سرورها بعد أن آل إليها. وبرغم أن أحدًا لم يتطرق إلى فكرة مغادرتها لدار والديها، إلا أنها بدأت تبحث بحماس عن مسكن آخر تستأجره لنفسها ولابنتها. فكم سيكون فراقها لهذه الدار مؤلمًا بلا شك. وكانت هذه الفكرة تملأ عينيها بالدموع، إلا أن ترقب الحدث الجديد كان يروقها أن تعد هذا نوعًا من بدء حياة جديدة ومشوار رابع. فها هي تتفحص المنازل وتناقش المصمم ياكوب، وقد عادت إلى المتاجر مساومةً في أسعار الستائر ونوع بساط الممرات بقلبٍ خافق، أخذ وجيبه يدق عاليًا بعد أن دبت فيه الحياة.

ومضت أربعة أسابيع، خمسة، ستة، وها هي بشائر تساقط الجليد تعلن حلول فصل الشتاء، فعادت المدفأة إلى صخبها الدافئ، وأخذ آل بودنبروك المحزونون يتدبرون أمر حفل عيد الميلاد هذا العام؛ إلا أن حادثًا وقع فجأةً، حدثٌ مثير، أمرٌ مباغت فاق الحدود كافة، لتتخذ الحياة مسارًا آخر جديرًا بكل اهتمام، وهو ما ناله أيضًا. كان للحدث وقع الزلزال، وأدى إلى توقف السيدة بيرمانيدر عن نشاطها، ثم قالت: "توماس، هل أصابني جنون؟ أم عسى جوش يخرف، إنه أمرٌ محال، أمرٌ غير معقول للغاية، لم يكن ليخطر لي على بال".

ثم أمسكت عن الكلام، ممسكةً فوديها بيديها. وما كان من السيناتور إلا أن هزَّ كتفيه.

"بنيتي العزيزة، إن الأمر لم يُحسَم بعد، إنها فكرةٌ، احتمالٌ طرأ، وإن أنتِ تدبرت الأمر بروية فلن تجديه ضربًا من خيال، نعم هو أمر مفاجئ إلى حدٍّ ما حتى إنني صُدمت لما فاتحني جوش، لكنه أمرٌ وارد الحدوث".

فقالت: "لكنه سيقضي عليّ". ثم جلست على مقعدٍ ولم تحرك ساكنًا. وكان الحدث هو العثور على أحد أبدى اهتمامًا بشراء الدار، وطلب معاينتها من أجل إجراء مساومات جديدة. أما المشتري فكان السيد هرمان هاجنشتروم، تاجر الجملة وقنصل المملكة البرتغالية. فلما سمعت السيدة بيرمانيدر بذلك شُل تفكيرها بعد أن أذهلتها المفاجأة؛ فقد كان ذلك بمثابة صدمة لم تستوعبها ولم تدرك مغزى الفكرة وراءها. لكن، عندما أخذت ملامح المسألة تزداد وضوحًا وصارت زيارة القنصل هاجنشتروم إلى منجشتراسه، بكل بساطةٍ، على الأبواب، تماسكت هي وعادت إليها الحياة. فلم تحتج بل شقت عصا الطاعة. وقد وجدت كلماتٍ، كلمات متأججة ذات نصلٍ باترٍ وأخذت تلوح بها مشاعل وحِرابًا.

"لن يحدث هذا، توماس. لن يحدث طالما كنتُ على قيد الحياة، فلو أنك تبيع كلبًا فستنظر في أمر مَن تبيع له. أما دار أمي! بيتنا! غرفة المنظر الطبيعي.."

"لكنني أسألك عن المانع الحقيقي لذلك".

"المانع؟ فليرحمنا الرب، ما المانع، المانع هو جبالٌ تحول دونه، تمنع هذا الشخص السمين.. توماس، إنها جبالٌ لا يراها، ولا يأبه بها، فقد حُرِم الإحساس بذلك، أيعد الرجل من ذوات الأربع؟ لقد كان آل هاجنشتروم على خصومة معنا أزلية.. منذ أن كان هينريش الكبير سببًا لإلحاق الأذى بجدي

وأبي. فإذا لم يكن هرمان قد سبب لك أذًى أو لم يضع حجر عثرة في طريقك، فلأنه لم يستطع ذلك.. لقد كنا أطفالاً لما لطمته على قارعة الطريق، وكان لهذا الفعل مبرراته، أم أخته يولشن الفاتنة فكادت أن تمزق وجهي، هذه مسائل صبيانية حقًّا، إلا أنهم كانوا، إن أصابنا مكروه ينظرون إلينا بعيون تطفح شماتة وتشفيًا. وكنت أنا من أتاح لهم هذه الفرصة، لكنه أمر الرب، إلا أنك، توم، تعرف أفضل من غيرك مبلغ الأذى الذي سببه لك القنصل، وكم مرة اعترض طريقك بوقاحة؛ فهل أنت بحاجةٍ إلى أن أذكرك بذلك. وما إن وُفقت اريكا في النهاية إلى زواج سعيد أكل الغيظ كبدهم، وظلوا كذلك، حتى قضوا عليه، بيد أخيهم، هذا القط، شيطان النيابة.. وها هم الآن يتبجحون.. ولا يخجلون.."

"طوني، انصتي إليّ؛ فمن ناحية المبدأ لم يعد لنا رأيٌ في هذه المسألة بعد أن تعاقدنا مع جوش، الذي له حرية عقد صفقة مع من يشاء. وإن كنت بلا شك أوافقك أن بالأمر شيئًا من سخرية القدر".

"سخرية القدر؟ حقًّا، توم، أتسمي ذلك هكذا. أما أنا فأعتبر ذلك خزيًا، أراه لطمةً على الوجه، ويا لها من لطمةٍ! ألم تفهم مغزى ذلك؟ أستحلفك بالرب أن تتدبر مغزى هذا، توم. إنه يعني نهاية آل بودنبروك والقضاء عليهم قضاءً مبرمًا، يعني أننا نتقهقر ليحتل مكاننا آل هاجنشتروم بكل ما لهم. لكن، لا، توماس، أنا لن أشارك أبدًا في هذه المهزلة، لن أنزل إلى هذا الحضيض، دعه يأتي، وليجسر على المجيء هنا لمعاينة الدار. أما أنا فلن ألقاه، صدقني، وسوف أغلق الباب بالمفتاح على نفسي وابنتي وحفيدتي، وسوف أمنعه من الدخول، هذا ما سوف أفعله".

"فلتفعلي ما تشائين، عزيزتي، لكنكِ تنسين آداب اللياقة والحفاظ عليها، وهل تظنين أن القنصل هاجنشتروم سوف يشعر بالإهانة بما ستفعلينه معه، لا، بل ألف لا، يا بنيتي، فهذا لن يحزنه أو يفرحه، بل سيصيبه بدهشة، دهشة يقابلها بعدم مبالاة أو اهتمام. لكن المشكلة هي أنك تعتقدين أن له نفس مشاعرك التي تحسين بها تجاهه؛ وهذا غير صحيح، طوني، فهو لا يضمر لكِ كرهًا على أية حال، فهو لا يكرهك كما لا يكره غيرك، فهو رجلٌ ناجح محظوظ راضٍ حسن النية، صدقيني. وقد أكدت لك مرارًا أنه سيقدم على تحيتك على أفضل وجه إن تمالكتِ نفسك ولم تتجاهليه بروح عدائية، مغضبةً متعالية. فإذا وقف في طريقي وعارضني في هذا الأمر أو ذاك في الشأن العام، وهو ما لا يؤاخذ عليه، فلعله كان تاجرًا أكثر مهارة مني، وسياسيًّا أفضل مني، وهذا لا يجعلك تضحكين على هذا النحو المرير الغريب. لكن فلنعد إلى مشكلة الدار. إن هذه الدار القديمة أوشكت على فقدان أهميتها لعائلتنا منذ زمن بعيد مقارنةً بداري الجديدة التي استردت هذه الأهمية. ولا أقول هذا من أجل تهدئة روعك على أية حال، بالإضافة إلى بساطة فكرة الشراء التي خطرت ببال هانجشتروم؛ فقد ارتفعت أسهم هذه الأسرة، وصاهرت آل مولندورف فأصبحت على قدم المساواة مع أرقى العائلات من ناحية الثروة والمكانة، إلا أنه كان هناك ما ينقصها، وهو المظهر الذي كانت لا تسعى إليه حتى الآن ترفعًا ونزاهة. وهذا المظهر ليس سوى تأسيس تاريخ، أي اكتساب شرعية؛ وفيما يبدو أنها تصبو الآن إلى ذلك، آملة إحراز جزء منه باقتناء دار مثل دارنا هذه.. ولكِ أن تعرفي أن القنصل سيبقي كل شيء على عهده السابق، فلن يغير من طراز البناء، كما سيترك على

الباب لافتة "Dominus providebirt"، إلا أنه من دواعي الإنصاف أن نقر بأنه هو وحده من أعان شركة "شترونك- هاجنشتروم" على هذا الازدهار الموفق".

"برافو، توم، آه، كم كنت أسعد لو ذكرته بكلمة نقد واحدة! كم كان سيسعدني أن أسمع منك نقيصةً واحدة! وهذا هو كل ما أريد! يا إلهي، لو كان لي مثل فكرك، فماذا كنت سأضيف إليه! ولكنك ها أنت ذا.."

"لكنك تعرفين أنني لا أستفيد في الواقع من فكري هذا".

"لكنك تقف الآن أمامي، متناولاً القضية بهدوءٍ غريب، مفسرًا لي مسلك هاجنشتروم. آه، فلتقل ما شئت، فبين جوانحك مثل قلبي، إلا أنني مؤمنةٌ أنك بهذا الهدوء المصطنع الذي تعرف في قرارة نفسك أنه ليس سوى رد على ما أقاسيه، فلعلك تواسي نفسك بذلك.."

"ها أنتِ تصيحين. إنِ هذا الذي أصطنعه هو ما سوف يحدث، أرجوكِ، وكل شي غير ذلك لا يخص أحدًا سواي".

"صارحني، توم، أرجوك، أيكون هذا هذيانًا؟"

"هو كذلك".

"كابوسًا؟"

"لِمَ لا".

"إنها كارثة مفجعة".

"كفى! أرجوكِ".

هكذا جاء القنصل هاجنشتروم إلى منجشتراسه مصطحبًا السيد جوش الذي دخل خلف القنصل إلى غرفة المنظر الطبيعي، وقد أمسك بقبعته

الجيزويتية متأملاً ما حوله، وقد انحنى مستريبًا بعد أن جاوز الخادمة التي حملت بطاقتي الزائرين، ووقفت هناك لتبقي على الباب مفتوحًا.

كان هاجنشتروم يُعد نموذجًا لأهل المدن الكبرى، كما يعد مثالاً نمطيًّا للمترددين على أسواق المال، بمعطفه من الفراء السميك الثقيل الذي يصل حد قدمه، وقد ارتدى تحته حلةً إنجليزية شتوية بلون أصفر يميل إلى اللون الأخضر، وقد صُنعت من نسيج متين، كما كان يتسم ببدانة مفرطة، حتى إن أسفل ذقنه امتد ليملأ الجزء الأسفل من وجهه تمامًا، وهو ما لم تستطع لحيته القصيرة الشقراء إخفاءه، بل إن فروة رأسه مشذبة الشعر كانت تتجعد مع كل خلجة من جبينه أو حاجبيه. أما أنفه الأفطس فكان منبسطًا فوق شفته العليا، وكان يعاني من صعوبة التنفس، وهو ما كان يمر خلال شاربه، فكان يستعين بفمه فيشهق من خلاله شهقات طويلة مصحوبة دائمًا بزفرة مرهقة، ناتجة عن مفارقة اللسان البطيئة لفكه الأعلى وسقف حلقه. وامتقع وجه السيدة بيرمانيدر لدى سماعها ذلك الصوت الذي تعرفه منذ زمن بعيد، فأخذت تبحث أثناء ذلك عن مشهد خبز الليمون ونقانق شتراسبورج وفطيرة كبد الأوز، مما كاد يهز كبرياءها الصلب للحظة، وقد جلست على الأريكة واضعةً فوق شعرها المفروق الناعم عمامة الحداد، مرتديةً ثوبًا أسود اللون، كانت سترته مشغولة بتطريز حتى قمتها.

ودخل الرجلان إلى أخيها السيناتور، الذي آثر تحمل المسؤولية نحو أخته التي أبدت له إيماءة تعني عدم اهتمامها لتبقى جالسة بمكانها، بينما مضى السيناتور إلى وسط الغرفة مستقبلاً ضيفيه، فحيا الوسيط جوش بحرارة، وصافح القنصل بلباقة تامة، ونهضت هي أيضًا متوجهة إلى الرجلين معًا

بانحناءة متحفظة، لتشارك بعد ذلك أخاها دون إبداء اهتمام كبير بدعوة الضيفين بالقول والإشارة. وأطبقت جفنيها تقريبًا إعرابًا عن عدم اكتراثها ومبالاتها. ثم جلس الجميع، وبعد بضع دقائق تحدث القنصل وتلاه الوسيط. وأبدى السيد جوش اعتذاره عن الإزعاج بتواضع واهم مستفز يكمن خلفه خبث فاضح، ليذكر بعد ذلك أن القنصل يود التجول بغرف الدار بوصفه المشتري المحتمل، فعقب القنصل بالطلب نفسه ثانيةً بعبارات مختلفة، وبنبرة أعادت إلى ذاكرة السيدة بيرمانيدر صورة فطائر الليمون المحشوة فقال: "إنه- في الواقع- قد راودتني فكرة استحالت إلى أمنية آمل تحقيقها لنفسي ولأهلي، على ألا يكون السيد جوش قد عقد النية على جني ربح وفير من وراء ذلك، ها.. ها، على أنني موقن من إتمام الصفقة على نحوٍ يرضى جميع الأطراف". وكان لمسلكه الطبيعي غير المتكلف أثره لدى السيدة بيرمانيدر، خاصةً أنه كان يتوجه بالحديث كله تقريبًا إليها كنوع من المجاملة لها، بل أسهب في تعداد مبررات دوافعه لذلك وبنبرة تحمل شيئًا كالاعتذار. فقال: "إنه فسحة المكان، مكان أكثر رحابة، فداري بشارع ساند، قد لا تتصورين ذلك سيدتي الجليلة، وأنت أيضًا سيدي السيناتور، فداري هناك أضيق مما يحتمل. ولا نكاد نستطيع التحرك خلالها، وأنا لا أقصد بذلك المناسبات الاجتماعية، فهي لا تسع سوى الأسرة: هونيوس ومولندورف وأسرة أخي موريتس.. فنكون فيها كالسردين، فلماذا نحتمل ذلك، أليس كذلك؟" تكلم بنبرةٍ تحمل بعض السخط، وقد أفصحت إيماءاته وحركات يديه: سوف تدركون ذلك، إنني لست مضطرًا لقبول ذلك.. و إلا كنت غبيًا.. لكن، والحمد للرب، لاينقصنا عند الحاجة القدرة على

التدبر.

ثم استرسل قائلاً: "على أنني كنت أنتظر حتى تحتاج تسرلين وبوب إلى دار، لكي أتنازل لهما عن داري، آملاً في دار أكثر رحابة، إلا أنه.."

لكنه أنهى هذه العبارة ليقول: "لقد نما إلى علمكما منذ سنين خطوبة ابنتي تسرلين إلى بوب، الابن البكر لأخي وكيل النيابة. فلا يصح إرجاء الزواج أكثر من هذا.. فيكفي سنتان. إنهما ما يزالان في مقتبل العمر، وهذا أمرٌ جيد، لكن.. باختصار، كيف أنتظرهما لأضيع فرصة سنحت لي الآن، إنه شيء لا معنى له في الواقع".

هكذا خيم على الغرفة جو التوافق، وإن كان الحديث قد توقف بعض الشيء عند هذه المسألة الأسرية، وهذا الزواج المنتظر؛ فقد كان زواج أبناء وبنات العم والخال من الأمور المألوفة في المدينة، ولم يكن ثمة حرج في السؤال عما سيفعله الأهل من أجل المستقبل، وأين سيقضي الزوجان شهر العسل، وقد خططا للسفر إلى الريفييرا أو نيس أو غيرهما، وقد كانت هذه هي رغبتهما، فما المانع، أليس كذلك. كما ذكر القنصل الأبناء الأحدث سنًا، فتحدث عنهم بارتياح وانشراح إلى حدٍّ ما وهو يهز كتفيه، فقد أنجب خمسة أولاد. أما أخوه فلديه من الأبناء والبنات أربعة.. حقًّا، شكرًا، فهم جميعًا بخير، ثم عاود ذكر الأسرة وازدياد عدد أفرادها وضيق المكان ببيته، فقال: "حقًّا، إن هذه الدار مختلفة، وقد استطعت إدراك ذلك من الخارج وأنا أقترب منها، إنها جوهرة، جوهرة بلا شك، على أن يظل هذا التشبيه في سياقه هذا فقط، ها.. ها!، وكسوة الحائط هذه، وأنا أقر لكِ سيدتي الجليلة بأني أثناء حديثي لا أستطيع التوقف عن الإعجاب بهذا الكساء، إنها في الوقع غرفة

رائعة.. وأنا أفكر في أنك أقمت طوال حياتك في هذا المكان إلى الآن".

فقالت السيدة بيرمانيدر بنبرة قد تكون صادره عن حلقها: "إقامة غير متصلة، إلى حدٍّ ما".

فابتسم القنصل بحنو، وهو يكرر: "غير متصلة.. حقًّا".

ثم نظر إلى السيناتور بودنبروك والسيد جوش، فلما رآهما منشغلين بالحوار، اقترب هو بمقعده من السيدة بيرمانيدر الجالسة على الأريكة، ومال نحوها إلى حد أن زفيره راح يتردد أسفل أنفها، إلا أنها بوازع الأدب لم تبتعد عنه تلافيًا لأنفاسه، فجمدت مكانها وانتصبت قدر إمكانها، ثم نزلت بنظرها إليه وكذلك بحاجبيها، إلا أنه لم يلحظ ما كانت عليه من اضطرار ومشقة.. ثم قال: "قولي لي، سيدتي الجليلة، ألم نعقد صفقةً ذات يوم، كانت في الواقع حينئذٍ.. ماذا كانت؟ صفقة طعام، حلوى، أليس كذلك، لكن صفقتنا الآن هي دار كاملة.."

أما السيدة بيرمانيدر فقد ازداد تصلب عنقها عن ذي قبل، فقالت: "لا أذكر ذلك" بعد أن دنا منها بوجهه على نحو حرج لا يطاق..

فقال هو: "ألا تذكرين؟"

"كلا، فأنا لا أذكر شيئًا عن هذه الحلوى، ولكن ما يعلق بذاكرتي قد يكون شيء مثل فطائر الليمون المحشوة نقانق دسمة، لقد كان ذلك فطورًا لا يستسيغه الذوق على الإطلاق، ولم أعد أذكر أكان طعامك أم كان لي؟ فقد كنا حينذاك أطفالاً. أما ما يخص الدار فالأمر بيد السيد جوش وحده". ثم سددت نظرة استغاثة عاجلة نحو أخيها، فأدرك محنتها فأسرع لإنقاذها بأن استأذن السيدين إن كان يناسبهما أن يبدءا في معاينة الدار، فأبدى الاثنان

استعدادهما لذلك، وودعا السيدة بيرمانيدر مؤقتًا على أمل لقاء آخر. فقاد السيناتور ضيفيه إلى خارج قاعة الطعام، وصحبهما في هبوطٍ وصعود، مستعرضًا غرف الطابق الثاني والغرف الملحقة بممر الطابق الثاني والغرف الملحقة بممر الطابق الأول، وكذلك الطابق الأرضي والمطبخ والقبو، إلا أنهم لم يعاينوا المكاتب؛ إذ كان ذلك أثناء قيام موظفي التأمين بعملهم فعرجوا على سيرة المدير الجديد، فأشاد هاجنشتروم مرتين متتاليتين بنزاهته، بينما لزم السيناتور الصمت إزاء ذلك. ثم اخترقوا البستان القاحل الغارق في جليدٍ شبه ذائب، وألقوا نظرةً على "البوابة" ليعودوا إلى الفناء الأمامي، حيث توجد غرفة الغسيل، لينطلقوا من هناك إلى المبنى الخلفي بعد أن مروا بحذاء الممر المعبد بين الجدارين، ثم عبر الفناء الخلفي حيث توجد شجرة البلوط. وهناك لم يكن سوى آثار مبان قديمة مهملة، فرأوا عشبًا وحشائش نبتت من خلال أحجار الفناء المعبد. أما سلم المبنى فكان آيلاً للسقوط، ولم تنزعج قبيلة القطط بقاعة البلياردو إلا قليلاً بعد أن فُتح الباب، ولم يدخل المكان أحد، فالأرض هناك لم تكن آمنة.

وكان القنصل هاجنشتروم منشغلاً في صمت بالخطط والمشاريع، وكان يعلق دائمًا "نعم، حسنًا" غير مبالٍ، مشيرًا إلى عدم استمرار الحال على ما هو عليه بالطبع، إذا تملك الدار.

وبالإيماءة نفسها، وقف كذلك برهةً على الطبقة الطينية الصلبة فوق الأرض المنبسطة، ناظرًا إلى أرض المخازن المقفرة ليكرر: "نعم، حسنًا"، ثم دفع "سيرَ رافعةٍ" سميكًا تالفًا بخطافٍ صدئ في نهايته، ظل بمكانه هامدًا لسنواتٍ طويلة، فأخذ الـ"سير" يتأرجح قليلاً كالبندول، ليعود هو أدراجه.

ثم قال: "جناب السيناتور، لك الشكر على ما بذلت من مجهود، وأعتقد أننا انتهينا" ولم ينطق بعد ذلك بشيء تقريبًا طوال الطريق المفضي إلى المبنى الأمامي الذي اخترقه بسرعة، وظل على حاله هذه حتى بعد أن عاد الضيفان إلى غرفة المنظر الطبيعي، فلم يجلسا بل ودعا السيدة بيرمانيدر ليصطحبهما توماس بودنبروك إلى السلم، وقادهما عبر الباحة. وما إن انتهيا من المصافحة حتى انفرد القنصل هاجنشتروم بمرافقه الوسيط جوش، ليتجاذب معه أطراف حديث حار.

عاد السيناتور إلى غرفة المنظر الطبيعي ليلقى السيدة بيرمانيدر معتدلة في جلستها بجوار النافذة، وقد بدت مهمومة، وهي تغزل بإبرتين طويليتين من الخشب رداءً صغيرًا من صوف أسود اللون، من أجل حفيدتها الصغيرة إليزابيت، ناظرةً بطرف عينيها، مما أدى بتوماس إلى أن يضع يديه في جيبي سرواله وراح يذرع المكان ذهابًا وإيابًا صامتًا، ثم قال: "لقد تركته مع الوسيط، وما علينا سوى الانتظار، ولكني أعتقد أنه سوف يشتري الدار والأرض، فيقيم هنا ويستغل الأرض على نحوٍ أو آخر". أما هي فلم تنظر إليه، محافظة على انتصاب هامتها، مواصلة عملها.

ثم قالت بنبرة عميقة: "يقينًا سوف يشتريه، سيشترى كل شيء، ولم لا يشتريه؟ أليس كذلك؟ وإلا كان ذلك ضربًا من الهزل".

ثم رفعت حاجبيها فوق نظارتها التي اضطرت إليها أثناء العمل، والتي لم تهتم بإصلاح وضعها، وأخذت تركز نظرها على الإبرتين، وهي تغزل بهما بسرعة شديدة ليصدر عنهما صوت خافت.

وحل عيد ميلاد المسيح، أول عيدٍ غابت عنه القنصلة، وأقيم الحفل بدار

السيناتور يوم الرابع والعشرين من ديسمبر، دون حضور سيدات بودنبروك بالشارع العريض وكروجر وقرينته العجوزين. وكان توماس قد أنهى لقاءات "يوم الأنجال"، ولم يشأ دعوة من شاركوا في حفل عيد الميلاد أثناء حياة القنصلة من أجل تقديم الهدايا لهم. وهكذا اقتصر الأمر على السيدة بيرمانيدر واريكا فاينشينك وإليزابيت الصغيرة وكريستيان وكلوتيلده المنضمة للدير والآنسة فايشبروت. ولم يكن هناك ما يحول بين الأخيرة وبين أن تحصي، في ليلة الخامس والعشرين، ما ارتبط بهذه المناسبة من حوادث مألوفة في غرفتها الصغيرة الحارة.

وقد غابت جماعة "محاسيب العائلة"، الذين كانوا يحصلون على أحذية وثياب من الصوف، كما ألغي غناء كورال الصبية ليرتفع الغناء بغرفة المعيشة بترنيمة "الليلة الهادئة المقدسة"، فكان غناءً بسيطًا للغاية. كما رتلت تريزه فايشبروت بعد ذلك فقرةً من فصل عيد الميلاد على نحوٍ متقن، وذلك عوضًا عن قرينة السيناتور التي رفضت تمامًا القيام بذلك. ثم مضوا إلى القاعة الكبيرة وهم يترنمون بالفقرة الأولى من "شجرة الميلاد" بصوتٍ غير مرتفع.. هكذا كان الحال، فلم يكن هناك ما يدعو لتنظيم حفل كبير مبهج، وهكذا اقتصر الحديث على الدعاء للراحلة، وعلى مسألة بيع الدار، واستئجار السيدة بيرمانيدر لطابق منير بدار ظريفة أمام بوابة "هولستن"، وتطل على "ليندن بلاتس". كما تناول الحديث تبعات إطلاق سراح هوجو فاينشينك.. أثناء ذلك كان يوهان الصغير يعزف على البيانو لحنًا دربه عليه السيد بفيل، كما شارك والدته في عزف سوناتات لموتسارت، ورغم بعض أخطاء وقع فيها إلا أن العزف كان له أثرٌ طيب ليقبل عليه الجميع يقبلونه مهنئين، لتصحبه

إذا يونجمان بعد ذلك إلى مخدعه، بعد أن بدت على وجهه أمارات إرهاق نتاج تقلصات معوية لم يكن قد شُفي منها. أما كريستيان، فقد ظلت علاقته بأخيه على عهدها السابق، علاقة لا تشرفه كثيرًا، بعد ذاك الصدام بغرفة الفطور حول أفكاره عن الزواج. وقد ظل يطوف بعينيه فيمن حوله عساه يجد من بينهم من يشفق على "عذابه" المزعوم بجانبه الأيسر، ثم مضى إلى النادي، ولم يعد إلا لتناول طعام العشاء المألوف.. وبعد أن انتهى آل بودنبروك من حفل عيد الميلاد هذا، كانت السعادة تغمرهم.

ومع حلول عام 1872، كانت دار القنصلة الراحلة قد انتهى عهدها، فغادرته الخادمات، مما حدا بالسيدة بيرمانيدر إلى شكر الرب لرحيل سيفرين بما استولت عليه من ثيابٍ حريرية وملابس داخلية لينتهي كذلك صراعها المرير معها حول إدارة شؤون البيت. ثم جاءت عربات نقل الأثاث إلى منجشتراسه ليبدأ إخلاء الدار القديمة، فذهب الصندوق الكبير من الخشب المحفور والشمعدانات المذهبة وغيرها، مما ورثه السيناتور وقرينته إلى دارهما في "فيشرجروبه". وكان كريستيان قد انتقل مع أسرته إلى مسكن من ثلاث غرف قُرب النادي، كما انتقلت السيدة بيرمانيدر وابنتها وحفيدتها إلى الطابق المنير بميدان "ليندن بلاتس"، الذي كان قد أُثث أثاثًا فاخرًا، وكان مسكنًا صغيرًا جميلاً حمل بابه لافته نحاسية لامعة كُتب عليها بخط رقيق ا. بيرمايندر– بودنبروك– أرملة. وما كاد يرحل أهل الدار من منجشتراسه حتى وصل فريقٌ من العمال شرعوا في هدم المبنى الخلفي، ليملأ غبار الملاط الجو.. وكانت قطعة الأرض قد آلت ملكيةً خالصة للقنصل هاجنشروم، بعد إصراره على شرائها، مزايدًا على سعر عرضه أحدهم من

بريمن على السيد سيجسيموند جوش، ليشرع بعدها في تجديد الدار التي آلت إليه بأسلوبه العملي المتقن، الذي لقى إعجاب الناس منذ زمن.

فما إن حل فصل الربيع حتى كان قد انتقل مع عائلته للإقامة بالدار، التي تركها على حالها قدر الإمكان، فيما عدا بعض تغييرٍ ارتآه لازمًا وبعض تجديد وتغييرات ضرورية من أجل مسايرة روح العصر الجديد؛ فتم الاستغناء– مثلاً– عن كافة الأجراس التي كانت الأحبال تستخدم في تشغيلها، لتحل محلها أجراس كهربية.. كما أزيل المبنى الخلفي تمامًا ليرتفع مكانه مبنى جديد متجدد الهواء مواجهًا لـ "فيشر جروبه".

وكانت السيدة بيرمايندر قد أقسمت مرارًا لأخيها توماس بأنه لن تكون هناك قوة على ظهر الأرض ترغمها على رؤية دار والديها. إلا أن التمسك بذلك كان مستحيلاً. فكان الطريق يقود قدميها بالضرورة إلى المرور السريع على المحال ونوافذ العرض التي تم تأجيرها بالمبنى الخلفي، لجني أعظم فائدة من ورائها، أو الواجهة الهرمية الجليلة على الناحية الأخرى، حيث كتب اسم القنصل هرمان هاجنشتروم أسفل عبارة: Dominus providebit

بعد ذلك، وأمام أناس كثيرين على قارعة الطريق، أخذت السيدة بيرمانيدر– بودنبروك في النحيب مولولة. وقد طرحت رأسها للوراء كأنها طائرٌ أقبل على التغريد وهي تضغط بمنديلها على عينيها، معاودةً إطلاق صيحات نحيب، معبرةً بذلك عن الاحتجاج والشكوى في آنٍ. ودون اهتمامٍ بالمارة أو تحذير ابنتها أطلقت العنان لدموعها. كان ذلك بكاءها الطفولي التلقائي المريح الذي لم يفارقها أثناء العواصف التي حطمت سفينة حياتها.

الجـــزء العاشـــر

الفصل الأوَّل

غالبًا ما كان توماس بودنبروك يتساءل- في وقت الضيق- عمن يكون هو، وبأي حق يتعالى حتى ولو قليلاً على أيٍ من مواطنيه، الذي قد يكون بسيطًا، محافظًا، أو ضيق الأفق. فهل قوة الدفع الخيالية ومثالية صباه الواعية قد تبخرتا.

فالعمل أثناء اللعب واللعب بالعمل، وبشيءٍ من الجدية وشيء من المرح معًا، نطمح إلى أهداف لا يقر لها المرء إلا بالقيمة الرمزية. فتلك الحلول الوسط المريبة- المرحة، والأفكار الوسط، تحتاج إلى التجديد والمرح والروح الطيبة. لكن توماس بودنبروك كان يشعر بالإرهاق والإحباط على نحوٍ لا يمكن وصفه.

وهو قد حقق ما كان يسعى إليه، وأدرك بحق أنه تجاوز منذ زمن قمة مستوى الحياة، إن كان هناك ثمة قمة مستوى للحياة، وسط تلك الظروف البسيطة المتواضعة. ففيما يتعلق بأعماله، فقد تراجعت ثروته بشدة بشكل عام، كما بدأت أحوال الشركة في التدهور.

وبرغم ذلك، فقد كان يحوز ما يربو على ستمائة ألف مارك، بعد حصوله

على نصيبه من ميراث أمه من دار منجشتراسه وقطعة الأرض.

كما عانى رأسمال الشركة من الركود منذ سنوات طويلة. أما الصفقات التي تقدر بالملاليم فلم يطرأ عليها أي تحسن، بل ازدادت سوءًا، وذلك منذ زمن مسألة محصول بوبنراده، ولوم السيناتور لنفسه بعد تلك اللطمة التي تلقاها. والآن، حينما انتعش كل شيء محققًا تقدمًا رائعًا، بعد اشتراك المدينة في الاتحاد الجمركي، فقد استطاع صغار التجار- خلال سنوات قليلة- أن يصبحوا تجار جملة مرموقين؛ فأصاب الركود شركة يوهان بودنبروك، فلم تحقق أي مكسب من منجزات هذا الوقت. فإذا ما سُئل عن سير أعماله، كان المدير يرد بإشارة خاملة مستاءة بيده، ويقول: "آه، ليس هناك ما يبعث على السرور.." وكان أحد المنافسين النشطين وأحد الأصدقاء المقربين من هاجنشتروم قد عبر عن ذلك بقوله إن توماس بودنبروك لا يمثل للبورصة سوى قطعة حُلي، فأصبحت تلك النكتة- التي سخرت من اهتمامات السيناتور- مدعاة لإعجاب وتهكم المواطنين، كنتاج عظيم للجدل الفصيح.

فإذا ما كان السيناتور قد عانى من الإحباط وفتور الهمة، جراء ما صادفه من سوء حظ، أثناء انهماكه في العمل من أجل اسم الشركة العتيقة، التي خدمها آنذاك بحماس بالغ، فإن طموحه في مجال العمل العام قد تجاوز حدودًا لم يكن ليتجاوزها.

فمنذ سنوات، منذ فوزه بعضوية مجلس الشيوخ، كان قد حقق في هذا المجال أيضًا كل ما سعى إليه؛ فلم يعد هناك سوى مواقع ليرتقيها ومناصب ليتقلدها، إلا أنه لم يعد هناك فتحٌ جديد؛ فلم يعد هناك سوى الحاضر

وبعض الحقائق التافهة، لكن لا مستقبل ولا خطط طموحة.

وبرغم أنه استطاع توسيع مدى نفوذه في المدينة، وهو ما لم يستطع أحد غيره إنجازه، ولم يعد بوسع أعدائه إنكار أنه الذراع اليمنى للعمدة؛ إلا أنه لا يستطيع أن يتبوأ منصب العمدة لأنه كان تاجراَ، وليس مثقفًا، فلم يتم تعليمه الثانوي، ولم يكن حقوقيًا أو يحمل مؤهلاً أكاديميًّا. لكنه كان هو الذي استطاع ملء وقت فراغه بقراءات في التاريخ والأدب والشعر، حتى إنه فاق كل المحيطين به في الفكر والاستيعاب والثقافة الداخلية والخارجية. إلا أنه لم يستطع مقاومة حنقه على افتقاره للمؤهل النظامي، الذي حرمه من تبوء المنصب الأرفع في إمارته الصغيرة التي ولد فيها.

"كم كنا أغبياء" هكذا قال لصديقه ونصيره شتفان كيستنماكر، ولم يكن يعني سوى نفسه، ثم أردف: "إذ آثرنا مبكرًا العمل على إتمام دراستنا!" فأجابه شتفان كيستنماكر: "أجل، أجل، أنت محقٌّ تمامًا.. فماذا كان الداعي لذلك؟"

وقد أصبح السيناتور يعمل غالبًا الآن وحده بغرفة مكتبه، جالسًا إلى مكتبه من خشب الماهوجني، لأنه– أولاً– لم يكن هناك من يراه وهو يضع رأسه على راحة كفه متأملاً، إلا أن شريكه السيد فريدريش فيلهلم ماركوس كان– على الأرجح– هو مَن أرغمه على هجر مكانه بجوار النافذة بالمكتب الرئيس، بما جُبل عليه الشريك من دقة مفرطة مزعجة في إعادة ترتيب أدوات عمله، وهو يمسح على شاربه.

وبمرور السنين، أصبحت حذلقة السيد ماركوس العجوز وخيلاؤه مرضاَ عضالاً، لكن ما جعل توماس بودنبروك مؤخرًا يرى في ذلك أمرًا لا

يحتمل ومثيرًا للأعصاب ومهينًا، كان أنه لاحظ جزِعًا أنه هو نفسه أصبح يقوم بمثل هذه الأفعال. فها هو، الذي كان فيما مضى يمقت كل الصغائر للغاية، قد نشأ لديه نوعٌ من التكلف، وإن نتج عن حالة نفسية ومزاج مختلفين.

وكان يشعر بفراغٍ وجداني، فلم يكن أمامه هدفٌ يثير حماسه، أو عملٌ يرتبط به، يقبل على إنجازه بفرح ورضا.

إلا أن دافعه إلى العمل، وعدم قدرته الذهنية على الراحة ونشاطه، وهي أمورٌ كانت مختلفةً تمامًا عن رغبة أسلافه الطبيعية الراسخة في العمل، كانت: تحديدًا أمورًا مفتعلة، ضغطًا عصبيًّا؛ فلم تكن سوى مخدر مثل مخدر السجائر الروسية الصغيرة الحارة التي كان يدخنها دائمًا.. فلم تغادره ولم يعد يحكمها، فسيطرت عليه وتحولت إلى عذابٍ حينما تفرقت إلى كمية من أمور من عدم.

فأصبح ملاحقًا من خمسمائة من صغائر أمور لا قيمة لمعظمها إلا في المحافظة على بيته، والعناية بمظهره؛ فراح يؤجلها بدافعٍ من إحباط، ولم يستطع ذهنه الاحتفاظ بها معا؛ لأنه كان يبدد وقتًا في التفكير فيها بما لا يتناسب مع قيمتها.

وكان الذي يسميه أهل المدينة إعجابه بنفسه قد تصاعد إلى حدٍّ أصبح معه يخجل من ذلك، دون أن يقوى على تغيير هذه العادات التي تفاقمت.

كان قد استيقظ من نومٍ غير مؤرق، وإن كان غير مريح وغير منعش؛ ومنذ تلك اللحظة، وإلى أن دخل غرفة ملابسه بمعطف النوم ليلقى هناك السيد فنتسل، الحلاق العجوز، كانت الساعة قد بلغت التاسعة . فكان قد

استيقظ مبكراً للغاية فقضى ساعةً ونصف في العناية بملبسه، حتى شعر أنه جاهزٌ وقادر على بدء يومه، ليهبط إلى الطابق الأول لتناول الشاي.

فقد كان يسرف في العناية بمظهره. وهي سلسلةٌ تبدأ تفاصيلها من الاغتسال بالحمام لتنتهي بإزالة آخر ذرة غبار علقت بسترته، ليمر بالمكواة لمرة أخيرة على طرفي شاربه. وكان قد أحكم تنظيم ذلك تنظيمًا صارمًا. حتى أصبح التكرار الدائم لهذه اللمسات البسيطة، التي لا تحصى، تبعث في نفسه اليأس كل لحظة.

إلا أنه لم يكن ليغادر الغرفة قبل أن يتأكد أنه لم ينس شيئًا، أو أنه عالجه بتسرع، خشية فقدانه شعور الانتعاش والهدوء والحيوية، وهو ما كان يفقده بالفعل بعد ساعةٍ واحدة فيضطر إلى تجديده.

وقد أخذ يوفر من كل شيء، على ألا يعرضه ذلك لانتقاد الآخرين، فيما عدا ما يخص ملبسه، الذي كان يحيكه له أفضل خياط بهامبورج. ولم يدخر شيئًا في سبيل الحفاظ على ذلك وكمال هيئته.

وكان هناك بابٌ، بدا كأنه يفضي إلى غرفةٍ أخرى، لكنه كان يُغلَق على خزانةٍ واسعة اقتطعت من غرفة الملابس. هناك كانت السترات والسموكينج وحلل الردينجوت والفراك المناسبة لكل فصول السنة وكل المناسبات، حسب طبقاتها الاجتماعية، قد عُلقت على صفوفٍ طويلة من مشِاجب فوق حوامل خشبية مقوسة. بينما رُصت على عدة مقاعد طبقاتٌ من السراويل، وقد طويت ثناياها بعناية. أما الملابس الداخلية المتنوعة الوفيرة، التي كان دائمًا ما يتم استبدالها وغسيلها واستهلاكها وتعويضها، فكانت توضع بخزانةٍ فوقها مرآةٌ كانت قاعدتها مغطاة بالأمشاط والفرشات والمستحضرات

الخاصة بالعناية بشعر الرأس واللحية. ولم يكن يقضي وقتًا طويلاً بهذه الغرفة في الصباح فقط، بل قبل كل وليمة وكل اجتماع للمجلس وكل لقاءٍ عام؛ باختصار، كان يفعل ذلك قبل لقائه بالناس وتحركه بينهم، بل حتى قبل وجبات الطعام اليومية ببيته، حتى ولو لم يكن هناك غير زوجته ويوهان الصغير وإيدا يونجمان. فإذا ما خرج كانت ملابسه النظيفة وأناقة حلته المتحفظة، والخالية من كل شائبة، ووجهه الذي غسله بعناية، ورائحة البريانتين المثبت لشاربه، وماء غرغرة الفم المرطب مُر المذاق، تمنحه الشعور بالرضا والتأهب، مثل ممثلٍ أتم كل تفاصيل قناعه قبل أن يظهر على خشبة المسرح.

حقًّا! لم يكن مظهر توماس بودنبروك سوى مظهر ممثلٍ يستهلك حياته كلها ويخضعها في أقل تفاصيلها اليومية شأنًا في سبيل منتجٍ وحيد، منتج استنفد كل القوة، باستثناء بعض السويعات القليلة التي خصصها من أجل الراحة والاختلاء بنفسه.

أما ما كان يفتقر إليه تمامًا فكان هذا الاهتمام الحي الحقيقي، الذي كان سيضحي من أجله بكل شيء، ليخلصه من الفقر الوجداني والخواء الباطني؛ وهو خواءٌ مستحكم، إلى حد أنه أحس به كمدًا ثقيلاً ملموسًا مقيمًا وغامضًا. وهو خواءٌ ارتبط أيضًا بالتزامٍ باطني عنيد وصميم صُلب من أجل إخفاء وهنه، والحفاظ على مظهره بشتى السبل. فإن أنجز هذا، فإنه يكون قد قام به مصطنعًا مكرهًا، بوعي، إلى حد أن كل كلمةٍ، كل حركة، كل فعلٍ مهما كانت ضآلته، تصبح تمثيلاً مرهقًا مستفزًا.

أثناء ذلك، كانت تطرأ تفاصيل نادرة، احتياجاتٌ غريبة كان هو نفسه

يقر بها بدهشة، ورغمًا عنه. فعلى النقيض من أناسٍ، لا يلعبون أدوارًا بل يكتفون بالمشاهدة غير الملحوظة، كان هو لا يحب تجاهل نور النهار أو أن يتوارى في الظل، ليرى الناس أمامه في ضوءٍ ساطع؛ بل كان يفضل أن يراه هؤلاء الذين كان يؤثر فيهم، رجل مجتمعٍ محبوبًا، أو رجل أعمال نشطًا، أو مدير شركة وممثلاً لها، أو كخطيب جماهيري، أفضل من أن يروه كتلة مجردة تتوارى في الظل. فقد كان هذا فقط ما يمنحه الشعور بالاستقلال والأمان، بتلك النشوة المتولدة عن ذاتها، التي يسعى بها إلى نجاحه. أجل، كانت تلك الحالة الشملة للمبادأة هي التي أصبحت شيئًا فشيئًا ما يستطيع تحمله. فإن وقف بوليمة وبيده كأس نبيذ، متحدثًا بعباراتٍ بارعة، وبدا بملامح لطيفة، وأبدى إيماءاتٍ مجاملة فتنطلق روح مرحٍ واستحسان، فيكون بوسعه- رغم شحوبه- أن يبدو توماس بودنبروك بهيئته المعهودة؛ أما ما كان أشد وطأةً فهو أن يقبع مكانه خاملاً من أجل الحفاظ على سيطرته على نفسه.

ثم يتصاعد داخله تعبٌ وقنوط، ليكدرا عينيه، فيفقد السيطرة على أعصاب وجهه وانتصاب قامته. إلا أنه كان هناك أملٌ وحيد يداعبه، وهو الاستسلام لهذا اليأس الشاحب، وأن ينتشل نفسه من كل ذلك ليضع رأسه على وسادةٍ باردة ببيته.

❖

كانت السيدة بيرمانيدر قد تناولت طعام العشاء وحدها، في "فيشر جروبه"، لأن ابنتها- التي كانت قد دعيت إلى ذلك أيضًا- كانت قد زارت زوجها في السجن عصر هذا اليوم، فشعرت، كعهدها بمثل هذه الحال، بالتعب والإعياء، فآثرت البقاء بالمنزل.

أثناء تناول الطعام، تحدثت السيدة أنطوني عن هوجو فاينشينك، الذي كانت حالته المعنوية محزنة للغاية، وتساءلت عن موعد تقديم التماس بالعفو لمجلس الشيوخ، وفرص نجاح ذلك.

كان الأقارب الثلاثة قد جلسوا بغرفة المعيشة، حول المائدة الوسطى المستديرة، في ضوء مصباح الغاز الكبير.

فأما جيردا بودنبروك، فقد جلست قبالة أخت زوجها، وانشغلت بعملٍ يدوي؛ فقد مالت السيناتورة بوجهها الجميل على غزل حريري، ليبدو شعرها الغزير متألقًا بلونه القاني.

وأما السيدة بيرمانيدر، فقد أخذت تعمل بحذر على تثبيت شريط من الساتان، رائع كبير الحجم أحمر اللون، فوق سلة صغيرة صفراء اللون، كانت تعدها هدية لواحدة من معارفها.

وأما السيناتور، فقد انتحى جانبًا من المائدة، جالسًا على فوتي مبطن عريض، بمسند ظهر منحرف، وأخذ يطالع صحيفةً ما واضعاً ساقًا فوق أخرى، ليسحب من حين لآخر أنفاسًا من سيجارته الروسية، ليزفرها عاصفةً من دخان رمادي فاتح من خلال شاربه.

كان ذلك مساء يوم أحد من أيام الصيف. وكان هواء فاتر رطب يهب من خلال النافذة العالية المفتوحة.

ومن المائدة، كان يمكن رؤية النجوم بين غمام يسبح بهوادة فوق أسطح الجيران الهرمية الغبراء.

وعلى الناحية الأخرى، كان محل الزهور الصغير ما يزال مضاءً. وعلى مسافة منه، بالشارع الساكن، كان يُسمع عزف نشاز لآلة أكورديون.

ومن حين لآخر، كانت الأصوات ترتفع بالخارج. ومرت فرقة من البحارة يغني أفرادها ويدخنون، وقد تأبط كل منهم ذراع الآخر، بعد أن غادروا حانة مريبة، ليتجهوا منتشين إلى أخرى أكثر ريبةً، بينما تتردد أصواتهم الخشنة وخطاهم المترنحة بشارع جانبي.

وكان أن نحى السيناتور الجريدة بجواره على المائدة، ووضع نظارته بجيب سترته، ليمسح بيده على جبينه وعينيه، ويقول: "ركيكة، ركيكة للغاية هذه الصحف. وفي كل مرة أتذكر ما قاله جدي عن طعام مائع ماسخ: له طعم من يتدلى لسانه خارج النافذة.. وأن انتهي منها خلال ثلاث دقائق مملة، فهي بدون محتوى.."

فتركت السيدة بيرمانيدر ما كان بيدها من عمل لتنظر من فوق النظارة إلى أخيها، وتقول: "أجل، يعلم الرب، أنك سوف تكرر هذا ثانيةً، ولك العذر في ذلك، ففيم سيكون المحتوى؟ ولقد قلتُ من زمن، لما كنت ما أزال صبيةً حديثة السن حمقاء، إن هذه الصحف المحلية لهي أوراق بائسة. إلا أنني أيضًا أقرأها، لأن ليس أمامي في الغالب غيرها. لكنني لا أجد أية إثارة في أن ينشر أن تاجر الجملة فلان أو فلان يحتفل بيوبيل زفافه الذهبي. فعلينا قراءة صحف أخرى، مثل كيونجسبرجر هارتونجشه تسايتونج، أو دي راينيشه تسايتونج. فهناك سوف.."

ثم أمسكت عن الكلام. وأخذت الجريدة بيدها وفردتها ثانيةً، وبينما كانت تتكلم كانت تطوف بعينيها على أعمدة الصحيفة محتقرةً شأنها. ثم تسمرت نظرتها على موضع به خبرٌ صغير من أربعة أو خمسة سطور.. فوجمت لتمسك بنظارتها وتفغر فاها ببطء، وتشهق مرتين جزعًا، وهى تقرأ الخبر إلى

نهايته.

"مستحيل!.. غير معقول!.. جيردا.. توم.. أكان بوسعك أن تتغاضى عن ذلك!.. إنه أمرٌ مروع.. ارمجارد المسكينة! أكان قدرها أن تُبتلى بذلك.."

فرفعت جيردا رأسها عن عملها، والتفت توماس فزعًا نحو أخته. فأخذت السيدة بيرمانيدر تقرأ مشدوهةً، وبنبرةٍ مرتفعة عميقة مرتعدة، مؤكدةً على كل كلمة من هذا الخبر عن المصاب الأليم، الذى جاء من روستوك، ويدور حول انتحار رالف فون مايبوم، أحد مُلاك مزارع خيول، بعيارٍ ناري ليلة أمس بغرفة مكتبه في هرّنهاوس في بوبنراده. ويُرجَّح أن يكون سبب الانتحار ضائقة مالية. وقد ترك السيد فون مايبوم خلفه زوجة وثلاثة أبناء".

هكذا ختمت ما قرأته لتدع الصحيفة تهوى بحجرها، وترتد إلى الخلف ناظرةً إلى أخيها وزوجته بصمت، مذهولة بعينين مفعمتين بالشكوى.

وكان توماس بودنبروك قد أشاح بوجهه عنها أثناء قراءتها للخبر، لينظر من بين ثنايا الستائر إلى عتمة الصالون. "بعيارٍ ناري" هكذا تساءل بعد دقيقتين من الصمت، ليضيف هامسًا بعد فترة صمت أخرى ببطء وسخرية: "نعم، نعم، فيا لَه من فارس". ليغرق مرةً أخرى في أفكاره. وقد بدت السرعة التي يفتل بها طرف شاربه بإصبعيه على طرف نقيض من نظرته الغائمة المحدقة الزائغة. ولم يكترث بكلمات أخته الشاكية، أو بما تتوقعه عن مصير صديقتها ارمجارد، كما لم يلاحظ أن جيردا لم تلتفت إليه، وهي ترمقه متطلعةً بعينيها السمراوين المتقاربتين، وقد أحاطت بهما هالات زرقاء.

الفصـل الثَّـــاني

لم يكن بوسع توماس بودنبروك الاحتفاظ بنظرته المتشائمة المحبطة نحو ما تبقى من حياته، ومستقبل يوهان الصغير. فقد حال بينه وبين ذلك روح عائلته، وهذا الاهتمام البار المتوراث- من الماضي وإلى المستقبل- بالتاريخ الحميم لبيته، وهذا الأمل المنطلق من الحب، أو التطلع الذي كان يعلقه أصدقاؤه ومعارفه من أهل المدينة وأخته، بل كذلك أيضًا سيدات بودنبروك بالشارع العريض على ابنه، كان هو الذي قد أثر على أفكاره.

فكان يقول لنفسه بضميرٍ مستريح، إنه مهما كان شعوره الشخصي بالضعف والإحباط، إلا أنه كان من حقه أن يرى في وريثه الصغير دومًا أحلامًا تتجسد مستقبلاً في البراعة، والعمل المنطلق المثمر، والنجاح، والربح، والنفوذ، والثراء، والكبرياء.. ومن هنا تصبح حياته الباردة الزائفة حياةً دافئة بهمومٍ ومخاوف وآمالٍ حقيقية.

فكيف يكون الحال، إن نظر هو نفسه إلى أيامه السالفة، بمنظورٍ مريح، إلى عودة باكورة الزمن القديم، زمن الجد الأكبر لهانو؛ فهل كانت هذه الآمال ستكون مستحيلة تمامًا؟

لقد ناصب الموسيقى العداء، فهل كانت لها في الواقع علاقةٌ بهذا الشأن؟ ولابد من الإقرار أن حب الصبي للعزف الحر بلا نوتة كان يشهد على تطلعٍ ليس مألوفًا تمامًا، وهو الذي لم يحقق في الدرس المنتظم لدى السيد بفيل تقدمًا غير معتاد على الإطلاق.

إن الموسيقى، بلا ريب، كانت من تأثير أمه، ولا عجب أن كان لهذا التأثير اليد العليا في سنوات طفولته الأولى.

ولكن لقد آن الآوان. فبعد أن مُنح الأب فرصته كذلك للتأثير على ابنه، واكتسابه إلى حدٍّ ما إلى جانبه، وإحراز ضغط ذكوري مضاد للتأثير الأنثوي الممتد إلى هذه اللحظة، جاء قرار السيناتور بألا يضيع هذه الفرصة دون أن يغتنمها.

كان هانو قد بلغ آنذاك الحادية عشرة من عمره، عندما انتقل وصديقه الدوق الصغير مولن بصعوبة إلى الصف الرابع، برغم رسوبه في مادتي الحساب والجغرافيا. وهكذا أصبح عليه الالتحاق بالتعليم الفني، حتى يتولى إدارة شركة أبيه مستقبلاً. وكان والده قد سأله عن رغبته في ممارسة مهنته هذه، فرد عليه بالموافقة؛ إلا أن إجابته كانت إجابةً ساذجة ممزوجةً بالرهبة، فلما ألح عليه بالسؤال حتى يحصل منه على إجابةٍ أكثر دقة، باءت محاولته بالفشل. ولو كان السيناتور قد أنجب ولدين، لجعل أصغرهما يتم تعليمه، إلا أن الشركة كانت بحاجةٍ إلى وريثٍ ليديرها. لكنه برغم ذلك كان يظن أنه يحسن صنعًا بصغيره إذ وفر عليه دراسة اللغة اللاتينية؛ فقد كان يرى أن التعليم الفنى أكثر يسرًا، وأن هانو سوف يتقدم في تحصيله للتعليم الفني على نحوٍ أسرع من تحصيله لعلومٍ أخرى تخلف عنها بسبب بطء إدراكه غالبًا،

وشروده الحالم، ورقة بنيانه.

فإن وُفق يوهان بودنبروك ذات يومٍ إلى إنجاز ذلك الذي خُلق من أجله، وما تعقده عليه عائلته من آمال، فلسوف يهتم هو في المقام الأول بتنمية لياقته البدنية من ناحية، وترسيخ وإعلاء شأن الرعاية العقلانية، وصلابة الشخصية، من ناحية أخرى.

كان يوهان بودنبروك، ذو الشعر الكستنائي، قد رفع شعره من فوق جبينه، مصففًا إياه إلى الخلف مائلاً بعض الشيء، وقد انتقل المفرق إلى جانب رأسه إلا أنه كان لا يزال يحتفظ بخصلاته الناعمة متهدلةً على فوديه، ولم تزل رموشه الطويلة وعيناه الكستنائيتان. وقد اختلف، في المدرسة وخارجها، عن أقرانه أصحاب المظهر الإسكندنافي، ذوي البشرة الشقراء، والعيون الزرقاء بلون الفولاذ. وبرغم نمو قامته في الآونة الأخيرة، إلا أن ساقيه في الجوربين الأسودين، وذراعيه تحت كميه المنفوشين بلونهما الأزرق القاني، كانت تتسم بنحافة ورقة سيقان وأذرع البنات. وكانت الهالات شبه الزرقاء، التي ورثها عن أمه، ما تزال حول جفنيه وعينيه. وكان يزم فمه على ذلك النحو المخزي، ويقبض شفتيه بعض الشيء كمن يرتجف من البرد، وهو يلوك بطرف لسانه أحد ضروسه شاردًا.

أما الدكتور لانجهالس، الذي حل محل جرابو العجوز، وورث كل مهامه، وأصبح طبيب أسرة بودنبروك، فقد أرجع هزال هانو وشحوب لونه إلى سببٍ رئيس، وهو عدم قدرة جسد الصغير على إنتاج القدر الكافي من كرات الدم الضرورية. ومن أجل تعويض هذا الضعف، نصح الدكتور لانجهالس باتباع نظامٍ غذائي ناجع للغاية، وهو تناول كميات وفيرة من زيت كبد الحوت،

زيت جيد، دسم، كثيف، ليتناول هانو مرتين باليوم زيت كبد الحوت بملعقةٍ من الخزف. وقد حرصت إيدا يونجمان، بتكليف صارم من السيناتور على الالتزام بمواعيد تناول الدواء.. وظهر- في بداية الأمر- أن معدته لا تحتمل زيت كبد الحوت، فصار يتقيأ بعد كل مرةٍ من تناوله، إلا أنه سرعان ما اعتاد ذلك، بعد أن أعقب تناوله للدواء مباشرةً تناول كسرةٍ من خبز الشعير، فيلوكها على مضض وهو يكتم أنفاسه. وفيما عدا ذلك كله كانت متاعبه ناتجةً عن نقص كرات الدم الحمراء. أما الدكتور لانجهالس فقد علق على ذلك، بعد فحص لأظافره، بأن ذلك ليس سوى أعراضٍ جانبية، إلا أنه يتحتم القضاء على هذه الأعراض بلا هوادة. وأما علاج أسنانه من حشوٍ أو خلع عند الحاجة، فقد اختص به السيد برشت القاطن بشارع مولنشتراسه مع ببغائه يوسيفوس. وأما انتظام عملية الهضم، فكان علاجه هو زيت الخروع، المتوافر بكل مكان؛ فملعقة كبيرة من زيت الخروع الجيد، بقوامه السميك، اللامع كالفضة، كانت تنزلق من الحلق بمرونة السمندر، ويشعر به المرء أينما حل أو رحل، كما يظل مذاقه ورائحته عالقين بالفم لثلاثة أيامٍ.

آه، لماذا كان كل هذا شيئًا مقززًا لا يطاق. وكان هانو قد أُصيب بالفعل بالمرض فلزم الفراش، بعد أن عانى من عدم انتظام غريب لضربات قلبه، فأقدم الدكتور لانجهالس، لمرةٍ أخيرة وتحت وطأة ضغط عصبيٍ ما، على وصف دواءٍ سعد به هانو. ولم يكن هذا الدواء سوى حبوبٍ من الزرنيخ. فرغم ما كان لزيت كبد الحوت وزيت الخروع من آثارٍ ناجعة، إلا أن السيناتور وافق رأى الدكتور لانجهالس تمامًا على أنهما لن يكفيا وحدهما لجعل يوهان الصغير رجلاً متين البنيان، نابهًا، إنْ لم تتوافر لديه هو نفسه

النية لذلك. فممارسة بعض التدريبات الرياضية- على سبيل المثال- بإشراف السيد فريتشه، الذي ينظمها مرةً في الأسبوع بضاحية المدينة بساحة "بورجفيلدج"، يستغلها صبيان المدينة لإظهار إقدامهم وفتوتهم وبراعتهم ونباهتهم، وكذلك من أجل تنمية هذه السمات.

إلا أن هانو أثار سخط أبيه، بعزوفه عن هذه الممارسة المفيدة للصحة، مبديًا نحوها غضاضةً مشوبة بالصمت والتحفظ والاستعلاء إلى حدٍّ ما. لماذا لم يكن على علاقة بزملائه بالمدرسة وأقرانه، وهم رفاق درب حياته فيما بعد. وما سر إيثاره لـ"كاي" القصير، الذي كانت تكتنفه بعض الريبة، برغم حسن طويته، وهي صداقة بلا مستقبل.

وعلى وجهٍ أو آخر، كان يُرجى من الصبي منذ البداية أن يعرف السبيل إلى اكتساب ثقة واحترام مَن يحيطون به، ومن سيكبر بينهم، وهم مَن يحتاج إلى تقديرهم طوال حياته، مثل ولدي هاجنشتروم الذي بلغ أحدهما الرابعة عشرة، بينما كان الآخر في سن الثانية عشرة، وكان كلٌّ منهما فتى بارعًا، قويًا، جسورًا، يخوض مباريات ملاكمة بمعنى الكلمة بإحدى الغابات القريبة؛ وكانا يتفوقان على غيرهما في ممارسة النشاط الرياضي، فكانا يسبحان بمهارة كلب البحر، كما كانا يدخنان السيجار، ولديهما استعدادٌ لاقتراف كافة الآثام؛ فأصبح أقرانهما يرهبون جانبهما ويبدون نحوهما ودًّا واحترامًا. على أن ولدَي عمهما الدكتور موريتس هاجنشتروم، وكيل النيابة، كانا أرق حاشية وأرق حسًا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى كانا قد تفوقا في تحصيل العلم، يحدوهما الطموح والحماس، ويتمتعان بالهدوء ودأب النحل والفطنة، فأصبحا قدوةً لزملائهما، كما كانا شديدي الحرص على إحراز المرتبة الأولى

وأعلى الدرجات، وهو ما حققاه ليكتسبا احترام زملائهما ممن هم دونهما ذكاءً وفطنة. وبعيدًا عن رأي المعلمين، كان زملاء هانو يرون أنه، في أفضل أحواله، ليس سوى تلميذ متوسط المستوى، بالإضافة إلى رقته؛ وهو مَن كان بحاجة إلى شيء من الشجاعة والقوة والجرأة واليقظة، إذا به يتجنب كل ذلك متخاذلاً.

وكان السيناتور بودنبروك إذا مضى إلى غرفة ملابسه بشرفة الطابق الثاني يتناهى إلى مسامعه أنغام الأرغن، أو صوت "كاي" الغامض الهامس، راويًا لإحدى قصصه، صادرةً عن الغرفة المتوسطة لغرفتين أخريين بهذ الطابق؛ وهي غرفةٌ انتقل إليها هانو بعد بلوغه سن الحرمان من مشاركة إيدا يونجمان غرفةً واحدة. كما كان يكره التدريب والنظام اللازمين لممارسة الرياضة، فكان يردد على سبيل المثال: "إنها خلوٌ من أية متعة، فلماذا تسعى أنت إليها، فلتحل اللعنة على هذه التمارين". وكانت عبارة "عليها اللعنة" قد سمعها من والده كذلك.

إلا أن هانو كان يرد قائلاً: "فلنرجئ مناقشة هذا الأمر إلى حين زوال رائحة العرق والبيرة عن السيد فريتشه، ولو ليومٍ واحد. حقًّا، كاي، فلندع هذا جانبًا، وأكمل روايتك. فما حكيته لي عن عثورك على خاتمٍ بالمستنقع لم تتمه بعد منذ زمن".

فيقول كاي: "حسنًا، على أن تقوم بالعزف إذا أبديت لك إشارةً" ليواصل كاي روايته بعد ذلك.

ولو صدقت رواية كاي، فإنه في وقتٍ ما، ذات ليلة خانقة وفي مكان غريب مجهول، كان قد نزل منحدرًا زلقًا بلا قرار. فلما وصل إلى سفحه رأى

في ضوء ألق الماء الشاحب مستنقعًا قاتم اللون تظهر على صفحته فقاعات ببريق الفضة، تصدر عنها أصواتٌ متفجرة، إلا أن واحدةً منها، بدت مثل الخاتم، راحت تعاود الاقتراب من الضفة لتنفجر هناك. وبعد محاولاتٍ عديدة محفوفة بالمخاطر نجح في اصطيادها، إلا أنها لم تنفجر، بل شعر أنها خاتمٌ صلب ناعم الملمس، فظن أن لهذا قوة خارقة، فاستعان به في تسلق المنحدر اللزج الخطر، فلما بلغ قمته رأى على مقربة منه قلعة سوداء غارقة في ضباب أحمر يخيم عليها صمت القبور، وقد أحيطت بحراسة مشددة، لكنه استطاع الدخول إليها. وهناك استعان بالخاتم السحري لفك طلاسم سحرية نال عليها أعظم آيات الامتنان.

وفي تلك اللحظات النادرة، كان هانو يتجه إلى الأرغن ليعزف عليه ألحانًا متناغمة عذبة.. وإن لم تكن هناك معوقات معضلة، فإن هذه الحكايات يمكن عرضها على مسرح العرائس مصحوبة بالموسيقى.

لم يكن هانو يمارس الرياضة إلا نزولاً على أمرٍ واضح حاسم من أبيه، فكان كاي الصغير يتطوع لمشاركته.

ولم يختلف الأمر بالنسبة للتزلج على الجليد شتاءً، والاستحمام بحمّام السيد اسموسّن الخشبي، بالقرب من ضفة النهر صيفًا. فقد قال الدكتور لانجهالس "الاستحمام! والسباحة! فعلى الصبي الاستحمام والسباحة" وهو ما اتفق مع رأي السيناتور تمامًا.

أما ما كان يحول بين هانو وبين ممارسة السباحة والتزلج وغيرهما من نشاط رياضي، فكان في الغالب مشاركة ولدَي القنصل هاجنشتروم، وتفوقهما في هذا النشاط. وبرغم أنهما كانا يقطنان دار جدته، إلا أن ذلك لم

يردعهما قط عن إهانته وإيذائه بعنفهما، فكانا يقومان بقرصه ويسخران منه ويدفعانه إلى الجانب الخشن من مدرج التزلج. وفي حمام السباحة كانا يهاجمانه بأصوات مخيفة.. ولم يكن هانو يجد في الهروب خلاصًا منهما، فكان يتوقف مرسلاً ذراعيه المماثلين لأذرع البنات، وقد بلغ الماء العكر مستوى بطنه تقريبًا وسط جزر خضراء من أعشاب علف الأوز، مقطبًا حاجبيه مطبقًا شفتيه بعض الشيء، ناظرًا إليهما نظرةً غائمة منكسرة، وهما يشقان طريقهما نحوه بقفزات واسعة سريعة مثيرة للزَبَد، مطمئنين إلى الفوز بالفريسة، ليطوقه الصبيان، ولدا هاجنشتروم، بعضلاتهما القوية، ويغرقا رأسه في الماء لفترة طويلة حتى يتجرع كمية كبيرة من الماء العكر، ليصارع بعدئذٍ من أجل التقاط أنفاسه وهو يترنح..

لكن كان هناك من استطاع الثأر منهما؛ ففي عصر أحد الأيام، عندما كان ولدا هاجنشتروم يغرقان رأسه تحت الماء، إذا بأحدهما يصرخ فجأةً مولولاً من الألم، فلما رفع ساقه البدينة إذا بالدم يسيل منها، ليبرز على مقربة منه الدوق كاي مولن، الذي احتال للدخول إلى حمام السباحة، ليغوص حتى يصل إليهما دون أن يلحظاه، لينشب أسنانه في ساق أحدهما كالجرو المسعور، وقد تألقت عيناه الزرقاوان تحت خصلات شعره الأشقر الأحمر المبلل بالماء. وقد نال الدوق الصغير عقابًا بليغًا، وطُرد من الحمام بحالةٍ يُرثى لها. إلا أن ولد هاجنشتروم القوي أصبح يعاني من عرجٍ مؤلم أثناء عودته إلى منزله.

وكان السيناتور بودنبروك قد صب اهتمامه في تربية ابنه على التغذية والنشاط الرياضي، لكنه كان حريصًا على تنمية فكره وتلقينه دروسًا من

تجارب الحياة العملية، التي كان غليه أن يعيشها. وشيئًا فشيئًا راح يقربه من مجال عمله في المستقبل. فأخذ يصطحبه في جولاته التجارية، ويمضي به ليسمعه حواراته مع رجال الإطفاء على رصيف الميناء، وهم يتحدثون باللهجة الألمانية العامية، الممتزجة بالدانمركية، وكذلك مشاوراته مع مديري مكاتب المخازن الضيقة المعتمة، وليسمعه أوامره التي يلقيها إلى العمال بالخارج، وهم يتصايحون صيحاتٍ ممطوطة جوفاء، حاملين أجولة الغلال إلى الصوامع.

وكان توماس بودنبروك منذ صباه يؤثر ويهتم بهذا الطرف من العالم، المتمثل في الميناء والسفن والمخازن والصوامع، حيث تمتزج رائحة الزبد برائحة الماء والقطران والحديد المشحم. فلما لم يأنس من ابنه حفاوةً بهذه البقعة من الدنيا، حرص هو على استنفار هذا الاحتفاء.. فكان يسأله عن أسماء السفن المسافرة إلى كوبنهاجن؛ وهي نايادن وهامشتادت وفريدريكه أوفرديك، ليعلق بعدها قائلاً: "ها أنت يا بني قد عرفت ذلك على الأقل، وهو أمرٌ مهم. وسوف تلاحظ أيضًا أسماء أخرى.. فهناك من بين هؤلاء الحمالين مَن يحمل اسمك يا عزيزي، لأنه عُمِّد باسم جدك، كما أن هناك كثيرًا من أبنائهم من يحمل اسمي.. أو اسم والدتك.. لذا يتلقى هؤلاء هدايانا كل عام.. أما هذا المخزن، فلن نخاطب العاملين به، فليس لنا شأنٌ بهم، لأنهم يعملون لدى منافسينا".

وذات مرةٍ قال له: "هل تجيء معي، هانو؟ فهناك سفينةٌ جديدة من سفن شركتنا سوف أقوم اليوم بتدشينها.. فهل تأتي معي؟"

فوافقه هانو على ذلك، ليمضي بصحبة والده، ليسمعه هناك وهو يخطب،

ويراه محطمًا قنينة الشمبانيا فوق مقدمة السفينة، وهي تهبط فوق منحدر شُحِّم بمادة من الصابون الأخضر، لتنزلق إلى الماء وقد اضطرم حولها الزَبَد.

وفي بعض المناسبات، كأحد السَّعف، الذي يتم فيه طقس تثبيت الإيمان، أو كرأس السنة، كان السيناتور ينتقل بعربته من دارٍ لأخرى، ليزور عائلاتٍ تجمعه بها علاقاتٌ اجتماعية. ولما كانت قرينته تتذرع بحجة إصابتها بتوترٍ أو صداع، حتى لا تشارك في مثل هذه المناسبات، كان يطلب من هانو مرافقته، فكان الصبي يرحب بذلك، ويستقل معه العربة. ثم يجلس بجوار أبيه بغرف الاستقبال لائذًا بالصمت، وهو يتابع- بنظرةٍ شاخصة واهتمام- مسلك أبيه السلس اللبق المتنوع الحاني؛ فيراه وهو يضع ذراعه بود وتواضع على كتف العقيد السيد فون رنجلن، حكمدار المركز الذي أكد له بأنه يعرف قدر الشرف الذي أولاه إياه بزيارته هذه. ورآه بموضع آخر وهو يستقبل مثل هذه العبارة من آخرين بهدوء وجدية، وكيف أجاب عليها بموضع ثالث بمجاملة مبالغة ساخرة.. كان يؤدي كل ذلك بحفاوةٍ نابعة عن تجربة عميقة بالقول والفعل، متعمدًا لفت انتباه ولده وإثارة إعجابه، آملاً أن يكون أثر ذلك بمثابة الدرس.

إلا أن يوهان الصغير كان قد شهد ما لا طاقة له به، ولاحظت عيناه، الكستنائيتان الخجولتان بالهالات الزرقاء التي تحيط بهما، فوق ما تحتملانه. فهو لم يشهد فقط ذلك الود الأكيد الذي كان والده يسعى من خلاله إلى التأثير على الآخرين، وهو ما رآه بنظرة ثاقبة معذِبة، بل إنه أدرك أيضًا افتعال هذا الود، كما لاحظ ازدياد زهد أبيه في الحديث، وشحوب لونه بعد كل زيارةٍ وهو يرتاح بركن العربة مغمضًا عينيه المحتقنتين. فما أن يبلغا باب الدار

التالية حتى كان الفزع يتملك هانو، وهو يرى أباه وقد وضع على وجهه هذا قناعًا يمد هذا الجسد بطاقةٍ مرنة مفاجئة متجددة. وكان يوهان الصغير لا يتصور المظهر والحديث والمسلك والتأثير، والتعامل بين الناس وبعضهم البعض، على أنها أمورٌ ساذجة، طبيعية، وشبه عدم وعي في تمثيل مصالح عملية مشتركة مع البعض، أو الوصول لتحقيقها مع البعض الآخر؛ بل كان يرى ذلك نوعًا من الأغراض الشخصية، مجهودًا متعمدًا مصطنعًا. وبدلاً من المشاركة السليمة البسيطة، تحل براعة صعبة ومرهقة للغاية للحفاظ على المسلك وانتصاب القامة.

وعندما فكر أنه يُنتظَر منه كذلك المشاركة- يوماً ما- بالقول والفعل فى اللقاءات العامة، وتحت ضغط كل النظرات ، أغمض هانو عينيه برجفة من الاحتجاج الخائف .

آه، إلا أن هذا لم يكن ما سعى إليه توماس بودنبروك بغية التأثير في نفس ابنه؛ فقد كان يستهدف تخليصه من حيائه، وأن يستنفر فيه استيعابًا للحياة العملية؛ فلم يخطر بباله شيء غير ذلك. فكان إذا طلب هانو قطعةً أخرى من الحلوى أو شيئًا من القهوة بعد تناوله الطعام، كان يبادره قائلاً: "يبدو لي أنك يا عزيزي تؤثر نعيم الحياة، وفي سبيل ذلك عليك أن تصبح تاجرًا بارعًا، حتى تكسب الكثير من المال! ألا تطمح إلى ذلك؟"

فيوافقه الفتى على ما قال.

وأثناء المآدب التي كان يقيمها السيناتور لأسرته، كانت العمة أنطوني أو العم كريستيان يسخران كعادتهما من العمة كلوتيلده المسكينة، فيقلدان كلامها الممطوط الهين؛ فكان هانو تحت وطأة ما تناول، على غير العادة، من

نبيذٍ أحمر ثقيل، يسلك المسلك نفسه ليخاطب العمة كلوتيلده بشيء من التهكم. وهنا كان يضحك توماس بودنبروك كثيرًا من أعماقه، ضحكًا باعثًا على البهجة، يكاد يكون ممتنًّا، كأنه نال نصيبًا مما يرتضيه ويسعد به. بل إنه آزر ابنه وشاركه في هذه المداعبة: وهو الذي كان قد اعتاد على استخدام هذا الأسلوب ضد قريبته المسكينة.

لقد كان ذلك أمرًا مبتذلاً، يأمن جانبه، وهو يبدي تفوقه على كلوتيلده، محدودة الأفق والخانعة والهزيلة والجائعة دومًا، إلى حد أنه كان يشعر بالوضاعة برغم البراءة المصاحبة لذلك. كان يشعر بهذا كارهًا له، مثلما كان يضطر كل يوم إلى مقاومة ذلك كارهًا يائسًا في حياته العملية، عندما يعجز، من جديد، عن فهم موقفٍ أو تجاوزه، وهو يحاول سبر أغواره ليستغله دون إحساس بالحياء، فكان يقول بعدها لنفسه: هذه هي البراعة في تصريف أمور الحياة.

آه، كم كان سيفرح، كم كان سيسعد، ويسر مفعمًا بالأمل إذا ما أبدى يوهان الصغير أدنى إشارة إلى هذه البراعة في تصريف أمور الحياة.

الفصـل الثَّـالث

كان آل بودنبروك قد تخلوا منذ سنوات عن عادتهم في السفر إلى المصيف. حتى لما أفصحت قرينة السيناتور- في الربيع الماضي- عن رغبتها في زيارة والدها العجوز في أمستردام، لتعاود مصاحبته في العزف على الكمان بعد أن حُرِما من ذلك لسنواتٍ، فإن زوجها لم يوافق إلا على مضض. أما سفر جيردا ويوهان الصغير والآنسة يونجمان السنوي إلى ترافيمنده للاستجمام، أثناء عطلة الصيف، فكان أمرًا مفيدًا لصحة هانو.

فهل يمكن لأحدٍ ما إدراك مدى السعادة بقضاء عطلة الصيف على الشاطئ؟

إنها الخلوة والسكينة وراحة البال لأربعة أسابيع، بعد أيام الدراسة المملة الحافلة بالشقاء. هي خلوة السكينة التي يستمتع فيها بعبق أعشاب البحر، وصوت الموج الوديع حين يداعب الشاطئ. أربعة أسابيع، زمنٌ لا يمكن تحديد مدى التنبؤ ببدايته أو قياسه، أما التفكير في نهايته فمُحال؛ وأما الحديث عن ذلك فليس سوى فجاجة آثمة. لذا لم يستوعب الصغير صياح بعض المعلمين قبيل انتهاء الدراسة بعباراتٍ مثل: "سوف نواصل هذه

الدروس أو تلك بعد العطلة.."

فقد بدا هذا الرجل، هذا الرجل غير المعقول، بحلته اللامعة من النسيج المتين، كأنه فرحٌ بـ"بعد العطلة"، أيمكن أن يفكر في هذا! هكذا إذن كان كل ما لا يمت للأسابيع الأربعة بصلةٍ قد تراجع إلى غورٍ عميق رمادي.

فما أحلى الاستيقاظ من النوم في أحد البيتين السويسريين اللذين يربط بينهما مبنى ضيق، ويقع مع "محل الحلويات" والمبنى الرئيس للمنتجع على خطٍ واحد.

كان الصباح الأول بعد يومٍ مر خلاله بالتجربة المريرة في مراجعة شهادة المدرسة، بغض النظر عن نتيجتها السلبية أو الإيجابية، وبعد السفر بعربة مثقلة بالمتاع. فها هو إحساسٌ بالانشراح يسري بأوصاله، فإذا به يستيقظ منتبهًا، فيفتح عينيه ليطوف بنظرةٍ متفائلة هانئة على الأثاث العتيق بطرازه الفرنكي، بغرفته الصغيرة النظيفة.. وقد كان ذلك ليس سوى لحظة حيرة ممتعة عامرة بالنشوة، ليطمئن بعدها أنه الآن في ترافيمنده لأربعة أسابيع بلا نهاية. وهكذا ظل مرتاحًا على ظهره لا يحرك ساكنًا في سريرٍ مستطيل من الخشب، بلي فراشه بفعل الزمن؛ ومن حينٍ لآخر كان يغمض عينيه، وقد أحس بخفقان قلبه مضطربًا سعيدًا.

وبينما كانت إيدا يونجمان ووالدته تنعمان بالنوم، كان نور النهار الأصفر يغشى الغرفة بعدما اخترق الستار المقلم، وكان السكون ما يزال يخيم على المكان كله، حتى إنه لم يُسمع سوى حركةٍ رتيبة ناعمة قادمةً من أسفل البيت، حيث كان خادمٌ يقوم بإعادة تمشيط الحصى أمام المنتجع، وكذلك صوت طنين ذبابة لا تكف عن الارتطام بالزجاج بين الستار والنافذة،

بينما تبدى ظلها المديد في خطوطٍ زجزاجية فوق فراش السرير المقلم. سكون! فقط صوت التمشيط والطنين الرتيب! وهذا السلام الرهيف الذي بُعث حيًّا سرعان ما غمر يوهان الصغير بالمشاعر الجميلة نحو عزلة الشاطئ الراقية الجليلة، التي شغفها حبًا لا مثيل له. كلَّا، فالحمد للرب، فإلى هنا لا يصل أحدٌ من هؤلاء أصحاب الحلل اللامعة ذات النسيج المتين، الذين يمثلون على الأرض علوم الحساب وقواعد اللغة؛ لن يصلوا إلى هنا، فهذا المكان البعيد مكلفٌ للغاية.

فلما غمرته السعادة وثب من فراشه، ليعدو حافي القدمين نحو النافذة، ويرفع الستار، وحلَّ الرتاج الأبيض ليفتح أحد مصراعي النافذة، مقتفيًا بناظريه أثر الذبابة التي طارت إلى طريق الحصى وأحواض الزهور ببستان المنتجع. وكان كشك الموسيقى، المواجه لمباني المنتجع والقائم بين أشجار الزان ما يزال مهجورًا يعمه السكون. وها هي "المنطقة المضيئة" التي استعارت اسمها من الفنار الواقع إلى يمينها، وهي منطقةٌ ترقد تحت سماءٍ ملبدة بغمامٍ أبيض، تبدأ بعشبٍ قصير تتوسطه مناطق جرداء، ليرتفع فيما بعد نباتها القوي الذي يظلل الشاطئ، لتظهر بعد ذلك الرمال بين كبائن خشبيةٍ صغيرة خاصة، ومقاعد على الشاطئ. وقد غشى نور الصبح البحر الساكن، الذي استحالت مياهه إلى خطوطٍ خضراء زرقاء مستويةً ومتكسرة. ووصلت سفينةٌ لتتخذ طريقها المحدد ببراميل طُليت بلونٍ أحمر. كانت السفينة قادمةً من كوبنهاجن، لكنه لم يعر اسمها انتباهًا، فليكن "نايادن" أو "فريدريكه أوفرديك".

راح هانو يستقبل هواء البحر المعبق بروائح كالبهار، فيتنسمه إلى أعماقه

فرحًا مرحبًا بنظراتٍ ودودة ممتنة قانعة. هكذا كانت غرة أول أيام الأسابيع الأربعة، اليتيمة، التي بدت فاتحتها سعادةً بلا نهاية. إلا أن الأيام الأولى انقضت بسرعةٍ محبِطة..

فكان يتناول فطوره بالشرفة، أو في ظل شجرة الكستناء الضخمة، المواجهة لملعب الطفال، حيث عُلقت أرجوحةٌ كبيرة.

كان كل شيء يبث السرور في نفس هانو، حتى الرائحة المنبعثة من الغطاء الذي بسطه النادل على الطاولة، بعد أن غُسل على عجل، ورائحة مناديل الورق الحريري، وتلك المنبعثة عن خبزٍ لم يألفه، ورائحة البيض الذي كان يُحتسى هناك بملاعق صُنعت من العظام. كان كل شيء يجري في نسقٍ يسيرٍ متحرر. هكذا كانت الحياة هناك هانئةً منظمة تتيح فسحةً من الوقت بلا مثيل، حياة لا يشوبها كدرٌ ما. فها هي فرقة الشاطئ الموسيقية قد اتخذت مكانها هناك، صباحًا، لتعزف مقطوعات الصباح، بينما يستلقي هو مرتاحًا بجوار مقاعد الشاطئ، وهو يداعب حالمًا راضيًا رملاً ناعمًا نقيًا، ويطوف بعينين شاردتين بالبقعة الخضراء الزرقاء من البحر، التي لا تدرك نهايتها الأبصار، والتي يصدر عنها صوت نسيمٍ حانيًا قويًا منعشًا هادرًا ليشنف أذنيه، مخلفًا دوارًا لطيفًا واسترخاءً هادئًا يذهب بالشعور بالزمان والمكان. ثم تأتي متعة السباحة المختلفة عن العوم بحمّام السيد أرنولدسن؛ فقد كان الماء هناك خاليًا من عشب علف الأوز، وقد راق لونه الأخضر في صفاء البللور، كاشفًا عن قاعٍ رملي يكاد يكون مستويًا مدغدغًا باطن قدمه، على نقيض ألواح أرض الحمام اللزجة، إضافةً إلى بُعد المسافة بينه وبين ولدي القنصل هاجنشتروم، اللذين يقضيان إجازتهما بالنرويج أو تيرول، حيث كان

القنصل يفضل القيام برحلة استجمام طويلة أثناء الصيف، فلِمَ لا؟ ثم يعقب السباحة نزهةٌ لاستعادة الدفء، بالسير بطول الشاطئ، وصولاً إلى صخرة موفنشتاين، لتتبع ذلك وجبةٌ سريعة على مقاعد الشاطئ. وقبل موعد الذهاب إلى الغرفة للتزين من أجل قاعة طعام "تابل لدى هوت"، كان يصعد للراحة بغرفته قبل أن تُمد مائدة الطعام العامرة. وهناك تجتمع عائلاتٌ عديدة من أصدقاء آل بودنبروك، ومن أهل هامبورج، بل أيضًا بعض الإنجليز والروس كانت تغص بهم القاعة الكبرى. أما على مائدتهم الصغيرة العامرة، فكان هناك رجلٌ بثياب سوداء يقوم بصب حساء من آنية فضية براقة، ثم يُقدم أربعة أنواع من طعامٍ شهي، متبلًا على نحوٍ أفضل مما يُطهى بالبيت، وقد أعد أيضا على نحوٍ أعظم احتفائيةً ، كما كانت الشمبانيا تُحتسى على مواضع عديدة على الطاولة الممتدة .

كان يرتاد المدينة أيضًا بعض من ينشدون الراحة من عملهم طوال الأسبوع، ويلعبون الروليت. ومن بين هؤلاء القنصل بيتر دولمان، الذي ترك ابنته بالمدينة؛ فكان يروي بلهجةٍ عامية ونبرةٍ مجلجلة قصصًا خادشة للحياء تجعل سيدات هامبورج يضحكن إلى حد السعال، فيطلبن منه التوقف للراحة؛ وكذلك السيناتور الدكتور كريمر، مفتش الشرطة العجوز، وعمه كريستيان، وصديقه من أيام الدراسة السيناتور جيسكه، الذي جاء بدون أسرته، وأخذ يدفع حساب كل ما يتناوله كريستيان. ثم ينتقل الكبار بعد ذلك لتناول القهوة وسماع الموسيقى بمخيم محل الحلوى، فيما كان هانو يجلس على مقعدٍ أمام سلم المعبد، مستمتعًا بالسماع. وكان قضاء وقت العصر بين ساحة الرماية واضطبلٍ يقع إلى يمينِ البيتينِ السويسريين، حيث

جُمعت الخيول والحمير وكذلك الأبقار التي اعتادوا هم شرب حليبها الدسم الدافئ بين الوجبات. كما كان بوسعهم السير بحذاء الصف الأول للوصول إلى المدينة الصغيرة، وقد يستقلون زورقًا من هناك إلى الـ"بريفال" الحافل شاطئُه بأحجار الكهرمان، أو لعب مباراة كروكيت بملعب الأطفال. كما كان بمقدوره الاستماع إلى حكايات إيدا يونجمان على أحد المقاعد المنبسطة، بالتل الأخضر خلف الفندق، حيث عُلق هناك جرسٌ كبير لإعلان بدء وجبات الطعام. إلا أنه كان يؤثر العودة إلى البحر ليتأمل الأفق السحيق ساعة الغروب، والوقوف أعلى البرج ملوِّحًا بمنديله للسفن الضخمة، والاستماع إلى صوت ارتطام الموج الواهن بالصخور ارتطامًا هينًا ودودًا. وهذا الصرير الرقيق الرائع الذي يغمر المكان كله، كان يناجي يوهان الصغير حانيًا، ويقنعه بأن يغمض عينيه في رضًا بلا مثيل.

لكن إيدا يونجمان انتزعته من ذلك، وهي تقول: "تعال يا بني، هانو، فلابد أن نذهب الآن، فقد حان موعد العشاء. وقد يصيبك أذى لو فضلت البقاء هنا".

كان يعود من البحر دائمًا بقلبٍ سليم مفعم بالسكينة والرضا، وفيما كان يتناول طعام عشائه، محتسيًا الحليب أو بيرة الشعير السوداء المركزة، كانت أمه تأكل في جماعة أكبر بشرفة المنتجع الزجاجية. وما كاد يرقد في فراشه من الكتان، الذي أبلاه الدهر، بوجيب قلبٍ سليمٍ مطمئن مع إيقاع موسيقى السهرة الهادئ، إذا بالنوم قد غشيه دون أدنى شعورٍ بالفزع أو الحمى.

وكان أن لحق السيناتور بأسرته يوم الأحد، بعد اضطراره كآخرين للبقاء بالمدينة، من أجل إنجاز أعماله، ليبقى هنا حتى صباح يوم الاثنين.

وبرغم المثلجات والشمبانيا والرحلات على ظهر الحمير أو بالقوارب الشراعية في البحر، كان يوهان يضيق ذرعًا بأيام الأحد التي تكدر السكينة والتمتع بخلوة الشاطئ. فكان البستان والشاطئ يزدحمان بالكثيرين من زوار أهل المدينة لمكانٍ ليسوا أهلاً له، وهم مَن كانت إيدا يونجمان تنعتهم بشيءٍ من سخريةٍ عفوية بلقب: "ذباب اليوم الواحد من أهل الطبقة الوسطى". وكانوا يقبلون على احتساء القهوة والسباحة، ويسمعون الموسيقى، فكان هانو يتمنى الاعتزال بغرفته إلى أن يرحل هؤلاء المتآنقون المكدرون للسكينة التي كانت تعاوده حين تعود الأمور إلى عهدها السابق يوم الاثنين، وتُرفع عنه رقابة عيني أبيه، ونظراته المتفرسة المدققة طوال يوم الأحد؛ وهو ما كان قد تحرر منه طوال أيامٍ ستة.

وكان أن انتهت أربعة عشر يومًا، فأخذ هانو يقول لنفسه، مؤكدًا لمن حوله بأنه لم يبق من الإجازة سوى قدرٍ يماثل عطلة الملاك ميخائيل. إلا أن هذا لم يكن سوى مواساةٍ واهمة، بعد أن اتخذت الإجازة منحنى الهبوط على نحوٍ مذهل، ليتمنى القبض على كل ساعة ليمنعها من التقدم، متعلقًا بكل نسمةٍ تهب من البحر، حتى لا تتبدد سعادته أمام عينيه.

إلا أنه لم يكن هناك ما يحول دون مرور الزمن، فيهطل المطر بعد سطوع الشمس، وتطارد رياحُ البحر رياحَ البر، وينسحب الدفء المطمئن الحميم أمام عواصف هادرة لا تتجاوز ماء البحر، ولا تبدو لها نهاية. وأحيانًا كانت رياحٌ من الشمال الشرقي تدفع موجًا أخضر قانيًا إلى المرفأ الصغير، لتفرش الشاطئ بأعشاب ومحار وقنديل بحر، منذرة بالهجوم على الكبائن؛ ليغطي الزَبَد بعدها البحر العكر الهائج.

كما كانت أمواجٌ عالية عاتية تتلاحق في هدوءٍ عنيد يبعث على الرهبة، لتدنو بجلال بدواماتٍ خضراء قانية متلألئة، فترتطم بالرمال عارمةً صاخبة بأزيزٍ، مرعدةً.

وفي أحيانٍ أخرى، كانت رياحٌ غربية تؤدي إلى انحسار مياه البحر، لتكشف عن قاعٍ رائع غير مستوٍ وعمق سحيق، وتبدو الشواطئ القاحلة على مدى البصر. بينما يهطل المطر كالسيل لتمتزج السماء بالأرض، وتحمل الرياحُ الأمطارَ فترتطم بزجاج النوافذ لتنساب فوقها بحرًا يحول دون الرؤية. هنا كان هانو في معظم الأحيان يلوذ بقاعة المنتجع، عاكفًا على البيانو الذي كان متهالكًا شيئاَ ما جراء عزف الفالس و"رقصة الاسكتلندي"، فلم يصلح لعزفٍ متقن مقارنةً ببيانو البيت.

إلا أنه كان بوسعه الوصول إلى مؤثراتٍ مسلية بنقيق نغماته التي تفي بالغرض.

لكن ها هي أيامٌ أخرى شاعرية تعود، متعافيةً جفلت عنها الرياح ليسودها الدفء، ويعود الذباب الأزرق ليطن تحت شعاع الشمس بالمنطقة المضيئة، ويتمدد البحر مطمئنًا فيصبح سطحه مرآة تومض، خلوًا من كل نسمة وحركة.

فلما لم يعد على نهاية الإجازة سوى ثلاثة أيامٍ، قال هانو لنفسه ولمن حوله بأنه ما يزال هناك وقتٌ يماثل إجازة عيد الفصح كلها.

وبرغم ما شاب هذا الحساب من عوار، فإنه نفسه لم يصدق ذلك، كما هيمن على قلبه منذ زمن الإقرارُ بأن الرجل ذا الحلة اللامعة بنسيجها المتين كان على حقٍّ في أن للأسابيع الأربعة نهايةً، ليستأنف بعدها ما توقف عنده

ويتجاوزه.

وها قد جاء يوم الرحيل، لتقف العربة المثقلة بالمتاع أمام المنتجع. وكان هانو قد ذهب مبكرًا لوداع البحر والشاطئ، كما ودع العاملين بعد أن حصلوا على إكرامية، وهكذا أيضًا فعل مع كشك الموسيقى وأحواض الزهور، بل مع أيام الصيف كافةً. وكان العاملون بالفندق قد انحنوا أمام العربة التي شقت طريقها إلى الطريق الرئيس المفضي إلى المدينة الصغيرة، فمضت بحذاء "الصف الأمامي"، فيما كان هانو قد أراح رأسه إلى ركنٍ بالعربة، ناظرًا عبر النافذة متجاوزًا ببصره إيدا يونجمان القابعة بمواجهته فوق المقعد الخلفي بعينين مفعمتين بالحياة، وبشعرها الأشيب وعظام جسدها البارزة. بينما كان الغمام الأبيض قد كسا سماء هذا الصباح، وأخذت الريح تلاحق موج نهر ترافه الواهن، وقد أخذت قطرات المطر تخبط زجاج النافذة من حينٍ لآخر.

وعند نهاية الصف الأمامي، كان البعض يقبع أمام الأبواب وهم يرتقون شباكهم، بينما هرول صِبيةٌ حفاة خلف العربة متطلعين إليها في فضول، ليظلوا بعد ذلك هناك حيث يعيشون.. فلما تجاوزت العربة آخر دارٍ، مال هانو إلى الأمام ملقيًا آخر نظرةٍ على الفنار، ثم عاد ليريح ظهره وقد أغمض عينيه. أما إيدا يونجمان فقالت بصوتٍ دافئ مواسيةً: "لنا عودة في العام القادم، يا بني، هانو". ليتأثر هو بكلماتها، فتختلج ذقنه مرتجفةً، وينساب دمعه من بين رموشه الطويلة. وكان هواء البحر قد لفح وجهه ويديه. إلا أن آماله خابت في أن تجعله إجازة المصيف أكثر قوةٍ وأصلب عودًا. وقد كان مدركًا لهذه الحقيقة المخيبة للظنون، هو الذي تملك كيانه التبتل للبحر وإيثار السكينة، وقد جعلته هذه الأسابيع الأربعة أكثر رقةً ودعة مما كان،

مستغرقًا في أحلامه بحِسٍ أكثر رهافة.

بل إنها نالت من قدرته على مواجهة مسائل حساب السيد تيدجه ببسالة، وحفظ أزمان حوادث التاريخ وقواعد اللغة غيبًا، ومواجهة الخوف من الغد، وحصص الدراسة وولدَي هاجنشتروم اللدودين، وإحباط آمال أبيه التي كان يعلقها عليه.

إلا أن رحلة العودة صباحًا، المصحوبة بزقزقة العصافير أثناء اختراق الطريق الملوكي المبلل، قد بعثت في نفسه شيئًا من الانشراح، فأخذ يتخيل كاي ولقاءه به، وكذلك السيد بفيل ودرس البيانو، والبيانو نفسه والأرغن أيضًا.

ولما كان اليوم التالي هو يوم الأحد، الذي يعقبه يوم بدء الدراسة، فلم يكن هناك بعد ما ينذر بالخطر. آه، إنه يشعر بشيءٍ من الرمل داخل حذائه الطويل، فعقد النية على أن يطلب من العجوز جروبلبين الحفاظ على الرمل بالحذاء.

هكذا، سوف تعود الأمور إلى مسارها السابق بحلة النسيج المتين وإزعاج ولدَي هاجنشتروم، وغيرها؛ فليحدث ما يحدث. أما هو، فسيعود بذكريات البحر والبستان وذكرى قصيرة للغاية عن خرير الماء الصادر عن موج واهن في سكون المساء والوافد من بعد مستغرقًا في سبات غامض ليرتطم بالحصن؛ سوف تواسيه الذكرى وتحميه من كل مكروه.

ثم ظهرت العبارة، ثم شارع اسرائيلسدورف وجبل أورشليم، ووصلت العربة إلى بورجفيلد التي ترتفع إلى يمينها أسوار السجن، حيث يقبع العم فاينشينك، لتمضي بحذاء شارع بورجشتراسه، وعبرت كوبرج متجاوزةً

الشارع العريض، ليكبح الحوذي خيله وهي تهبط "فيشر جروبه" شديدة الانحدار..

وها هي الواجهة الحمراء ومظلتها بركائزها البيضاء، وعندما انتقلوا من حرارة الظهيرة بالشارع إلى رطوبة الممر الحجري، كان السيناتور قد خرج من المكتب، وقلمه بيده ليرحب بهم.

وشيئًا فشيئًا، وبدموعٍ خفية، كان يوهان الصغير قد جرب الحنين إلى البحر، والعودة للخوف وللسأم المريع، متمثلاً دائمًا ولدَي هاجنشتروم أمامه، مستعيذًا بمواساة كاي والسيد بفيل والموسيقى.

وما إن رأته سيدات بودنبروك بالشارع العريض والعمة كلوتيلده حتى توجهن إليه بالسؤال عن شعوره نحو المدرسة، بعد العودة من الإجازة، وأخذن يغمزن بعيونهن متهكمات، وقد خبرن مشاعره بغرور الكبار الغريب الذي يرين به كل شؤون الصغار على نحو سطحي، ومثير لمرحهن قدر الإمكان. وقد واجه هانو هذه الأسئلة بثبات.

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام من العودة، جاء إلى "فيشرجروبه" الدكتور لانجهالس، طبيب العائلة ليتعرف على تأثير البحر.

وبعد مشاوراتٍ طويلة إلى حدٍّ ما مع السيناتورة، جيء بيوهان ليخضع- وهو شبه عارٍ- لفحصٍ دقيق- لحالته الراهنة- على حد قول الدكتور لانجهالس، وهو يعاين أظفاره.

وكان أن قام بفحص عضلات هانو الضعيفة، وعرض صدره، وحالة قلبه، مستفسرًا عن كل أمور حياته، وبزل بطرف إبرة قطرة دم من ذراع هانو النحيف ليحللها ببيته، فبدا عمومًا غير راضٍ تمامًا.

"لقد لوحتنا الشمس، إلى حدٍّ ما" قال هذا وهو يحتضن هانو الواقف أمامه، ثم وضع يده الصغيرة بشعيراتها السوداء على كتفه، متطلعًا إلى السيناتورة والآنسة يونجمان "لكننا ما نزال نتمسك بوجهنا العابس".

لتقول جيردا بودنبروك: "إنه يشعر بالحنين إلى البحر".

"هكذا، إذن.. أنت تؤثر الإقامة هناك!" هكذا تساءل الدكتور لانجهالس، وهو ينظر إلى وجه يوهان الصغير بعينيه الجريئتين.. ليتغير لون وجه هانو.

فما مغزى هذا السؤال، الذي بدا واضحًا أن الدكتور لانجهالس ينتظر ردًّا عليه؟

ليتصاعد داخله أمل خيالي غريب، مبعثه إيمان حالم بقدرة الرب، رغم أنف كل أصحاب الثياب ذات النسيج المصقول كافة. "نعم.." كان هذا هو ما نطق به، وهو يسدد بعينين متسعتين نظرة حادة إلى الدكتور. إلا أن الدكتور لانجهالس لم يكن يقصد بسؤاله شيئًا بعينه.

"حسنًا، فسوف يظهر أثر البحر والهواء النقي فيما بعد.. سيظهر فيما بعد!" قال وهو يربت على كتف يوهان الصغير، ويبعده عنه وهو يهز رأسه نحو السيناتورة وإيدا يونجمان– هزة رأس الطبيب الخبير المطمئن المشجع، الذي يتعلق المرء بعينيه وشفتيه– ثم نهض منهيًا الفحص.

أما التفهم العميق للوعته نحو البحر، هذا الجرح الذي يندمل ببطء كبير، والذى تنكأه أوهى أمور الحياة اليومية، فيلتهب ويدمى من جديد، فقد وجده هانو لدى عمته أنطوني التي كانت تستمع بمتعة جلية إلى ما يحكيه عن حياته في ترافيمنده، متعاطفة مع إطرائه المشتاق الصادر عن قلب مفعم بالحياة.

فقالت: "نعم، هانو، ما كان حقيقيًّا سيظل حقيقيًا. وترافيمنده مكان جميل، أتدري، فإلى أن قدمي بالقبر، فسوف أسعد بذكرى أسابيع الصيف الجميلة التي قضيتها هناك، وأنا فتاة صغيرة حمقاء.

"وقد أقمت لدى أناسٍ أحببتهم، وأظن أنهم أيضًا أحبوني، لأني كنت آنذاك زهرةً متفتحة وأشياءً أخرى، كادت تكون كلها طيبة– ويمكنني أن أفصح عن ذلك بعدما صرت امرأةً عجوزًا. وما أريد قوله لك إنهم كانوا أناسًا طيبين، محافظين، أصحاب قلوبٍ نقية ونفوس صافية، إضافةً إلى أنهم كانوا أذكياء ومثقفين راضين للغاية؛ لم أقابل مثيلاً لهم طوال حياتي. أجل، لقد كانت هذه علاقة ملهمة، غير مألوفة. أتدري، لقد تعلمت هناك ما لم أتعلمه طيلة حياتي من معارف ورؤى.

"ولو لم تتبدل الأمور آنذاك، وجرى ما جرى، بإيجاز: مثلما عودتنا الحياة، لكنت، أنا الحمقاء، قد استفدت أشياءً أخرى.

"أتريد أن تعرف مدى غبائي آنذاك؟ لقد كنت أبغي الحصول على النجوم الملونة من المحار. فحملت في منديلٍ كميةً كبيرة من المحار إلى البيت، ووضعتها بعنايةٍ بالشرفة تحت أشعة الشمس حتى تتبخر.. لتتبقى بذلك النجوم! نعم، حسنًا.. عندما عدت إليها، وجدت هناك بقعة بللٍ كبيرة إلى حدٍّ ما. يفوح منها شيء من عفن الطحالب.."

الفصـل الرَّابــع

أصدر مجلس الشيوخ في أوائل عام 1873 قرارًا بالموافقة على التماس العفو عن هوجو فاينشينك، ليُطلَق سراح المدير السابق قبل نصف عامٍ من انقضاء مدة عقوبته.

ولو صدقت السيدة بيرمانيدر القول لكان عليها أن تُقر بأنها لم تتلق هذا الحدث بسعادةٍ كبيرة، وأنها كانت تؤثر استمرار الحال على ما هو عليه حتى النهاية.

فقد كانت تعيش بسلامٍ مع ابنتها وحفيدتها في ميدان "ليندن بلاتس"، كما كانت على اتصال بدار "فيشر جروبه"، وكذلك مع صديقتها وزميلتها ارمجارد فون مايبوم، سليلة آل فون شيلينج، التي استقر بها المقام بالمدينة، بعد وفاة زوجها.

وقد أدركت منذ زمنٍ أن إقامتها خارج أسوار مدينة أسلافها لن يكون مقامًا كريمًا يليق بها، ولم تعد تشعر بميلٍ إلى العودة لعهدها السابق لتنتقل إلى مدينةٍ كبيرة في وطنها الموحد، أو إلى خارج البلاد، بعد تذكرها لما حدث لها في ميونيخ، وشعورها بما أصاب معدتها من ضعفٍ وحساسية دائمين،

وحاجتها المطردة إلى السكينة.

وقالت لابنتها: "بنيتي العزيزة! أريد معرفة أمرٍ، أمر جاد، هل ما تزالين تضمرين الحب العميق لزوجك؟ وهل يؤدي بك الحب إلى الانتقال معه بابنتك حيثما ذهب؟ بعدما لم يعد له مكانٌ هنا، للأسف؟"

وقد أصبح الانفصال أمرًا متوقعًا، بعد رد السيدة اريكا فاينشنيك، ابنة جريونليش؛ إذ بكت بدموعٍ معبرةً عن كل شيء، وهو رد أمها نفسه الملتزم بتحمل المسؤولية، حين سألها أبوها ذات يومٍ عن مثل هذا الأمر في فيلتها بهامبورج..

كانت رهبة هذا اليوم تشبه رهبة اليوم الذي أُلقي فيه القبض على فاينشنك، حينما عادت السيدة بيرمانيدر بزوج من السجن، بعربة مسدلة الستائر، لينزل ببيتها بميدان ليندنبلاتس، وبعد أن حيا زوجته وابنته محتارًا مضطربًا، بقي بالغرفة التي خُصصت له، وأخذ يدخن السيجار من الصباح المبكر حتى وقت متأخر من الليل، دون أن يجرؤ على الخروج إلى الشارع؛ بل إنه كان- في أغلب الأحيان- لا يتناول الطعام مع أسرته؛ فظل هكذا رجلاً أشيب يتملكه الذعر.

ولم ينل السجن من صحته الجسدية على الإطلاق، فقد كان هوجو فاينشينك دائمًا متين البنيان، إلا أن حزنًا شديدًا للغاية كان يحيط به، فأصبح منظر هذا الرجل مروعًا، وهو الذي لم يرتكب شيئًا مغايرًا لما يقدم على فعله بجرأة معظم زملائه المحيطين به كل يوم. ولو لم يكن قد تم القبض عليه لكان يشق طريقه الآن بلا شك وهو مرفوع الرأس، وبضمير مستريح مطمئن، هو الذي انكسرت روحه المعنوية تمامًا من خلال الواقعة

المهنية وحقيقة إدانة القضاء له، وهذه السنوات الثلاث التي قضاها بالسجن.

وقد أكد أمام المحكمة بإيمان عميق أن هذه المناورة الجريئة التي قام بها لصالح شركته ولنفسه ليست سوى أمر متعارف عليه في عالم الصفقات، وهو ما شهد به أيضًا الخبراء.

أما القانونيون، السادة، الذين لا يفهمون، طبقًا لرأيهم الشخصي، أي شيء من هذه الأمور، ويعيشون حسب مفاهيم أخرى وبرؤية مختلفة تمامًا، فقد أدانوه بالاحتيال؛ فجاء هذا الحكم الذي أيدته سلطة الدولة، ليهز تقديره لذاته إلى حدٍّ لم يجرؤ معه على النظر في وجه أي إنسان.

ثم انهار كل شيء، سيره المختال الجريء، وهو يحرك خصر سترته، محافظًا على توازنه بقبضتي يديه، ونظرة عينيه بحركتها الدائرية، التي كان يتعالى بها على جهله وضحالة ثقافته، وهو يطرح أسئلته ويروي حكاياته! لقد انهار كل هذا إلى حد دفع أهله إلى الشعور بالفزع تجاه انكساره وتخاذله، وضياع كرامته على هذا النحو الأليم.

وبعد أن قضى السيد هوجو فاينشينك ثمانية أو عشرة أيام منشغلاً على نحوٍ ما بالتدخين، بدأ في مطالعة الصحف وتحرير الرسائل. وكانت نتيجة ذلك- بعد مرور ثمانية أو عشرة أيام- أن قال بكلمات غير محددة إنه سيحصل على وظيفة بلندن، إلا أنه يريد أن يذهب مبدئيًّا وحده إلى هناك، إلى أن يستطيع ترتيب الأمور بنفسه، ثم يستدعى زوجته وابنته إن اتخذت الأمور مسارها الصحيح. وكان أن اصطحبته زوجته بعربة مسدلة الستائر إلى محطة القطار، ورحل دون أن يودع أحدًا من أقربائه. وبعد عدة أيام، استلمت زوجته خطابًا مرسلاً من هامبورج يخبرها فيه أنه حزم أمره بأنه لن

يجتمع بزوجته وابنته على أية حال، ولن يسمعا عنه شيئًا إلى أن يكون قد وفر لهما ظروف حياة لائقة.

فكان ذلك آخر إشارة وصلت من هوجو فاينشينك.

فلم يسمع أحدٌ عنه أي شيء بعد ذلك. وبرغم أن السيدة بيرمانيدر، وهى المتمرسة في مثل هذه الأمور، الخبيرة بها، قد قدمت فيما بعد عدة طلبات بشأن زوج ابنتها، متضمنة أسبابًا مهمة لتبرير دعوى الطلاق بسبب الهجر سيء النية؛ برغم ذلك ظل مختفيًا، مما أدى إلى بقاء اريكا فاينشينك وصغيرتها إليزابيت لدى أمها، بالطابق المنير بميدان "ليندنبلاتس".

الفصل الخـامس

كان الزواج الذي أثمر يوهان الصغير ما يزال، كعهده الأول، مثار حديث أهل المدينة؛ وكما كان كلا الزوجين على شيء من غرابة الأطوار والغموض، كما اتخذ هذا الزواج الهيئة نفسها من الغرابة والغموض.

وبغض النظر عن حقائق ظاهرية ضنينة، فقد كان إلقاء بعض الضوء على هذه العلاقة من أجل سبر شيء من أغوارها، يبدو مهمةً صعبة، لكنها مجزية.

ففي غرف المعيشة وغرف النوم، وفي النوادي والملاهي، بل وفي البورصة كذلك، أخذ الناس يتناولون سيرة جيردا وتوماس بودنبروك، فكان حديثهم أكثر كلما عرفوا أقل.

متسائلين عن تعارفهما ومشاعرهما؟ وقد تذكروا هذا الإصرار القديم الذي كان توماس بودنبروك قد أعلنه قبل ثمانية عشر عامًا، عندما كان في الثلاثين من عمره. "هي، لا سواها"، كان هذا هو شعاره، وهو أيضًا ما آمنت به جيردا يقينًا. فقد ظلت في أمستردام حتى بلغت السابعة والعشرين، وهي ترفض مَن يتقدمون لخطبتها، ولم تقبل سواه.

فاعتقد الناس أنه زواجٌ عن حب. ومهما كانت صعوبة استيعابهم لذلك، إلا أنهم آمنوا أن هدية زواج جيردا، البالغة ثلاثمائة ألف، لم تلعب إلا دورًا ثانويًا.

أما الحب نفسه، أي ما يعرفونه هم بالحب، فلم يروا سوى أثر قليل منه بين الاثنين منذ البداية.

فمنذ البداية، لم يروا أكثر من التأدب، تأدب غير مألوف تمامًا وصحيح وجدير بالاحترام، في تعاملهما كزوجين، لم ينتج عن برود مشاعر واغتراب، وإنما عن ثقةٍ ودراية من نوع فريد صامت عميق، تبدت في احترام ومراعاة راسخين متبادلين.

وهو ما لم تنل منه السنون، ولم يكن هناك تغييرٌ أظهرته الأيام، إلا ذلك الناشئ عن فارق السن. فمهما كان هذا الفارق ضئيلاً إلا أنه قد بدأ في الظهور الآن على نحو ملفت.

فقد نظر الناس إليهما، فرأوا أن الرجل- البدين بعض الشيء- قد نال منه الهرم بشدة، بينما ما تزال زوجته في ريعان الشباب.

وقد رأوا توماس بودنبروك وقد بدأت الشيخوخة تنال منه، برغم إعجابه بنفسه الذي بدا غريبًا؛ فكانت الشيخوخة هي الكلمة الوحيدة المناسبة لذلك.

بينما لم يطرأ أي تغيير على جيردا أثناء الثمانية عشر عامًا هذه. فقد بدت محتفظةً ببرودها العصبي نفسه، الذي كانت تعيش فيه ويشع منها.

وقد احتفظ شعرها الأحمر القاني باللون نفسه، كما ظل وجهها على عهده من الحسن وبياض البشرة، كما حافظت على قوامها الرشيق ومظهرها الراقي. وظلت الهالات الزرقاء محيطةً بأركان عينيها الصغيرتين المتقاربتين

السمراوين.

ولم يكن هناك مَن يأمن هذين العينين. فقد كانت نظراتهما غريبةً، ولم يستطع أحدٌ حل لغز ما كُتب فيهما.

وكانت هذه المرأة مثيرةً لريبةٍ غير مبررة، بكيانها البارد المنطوي المنغلق المتحفظ، ولم يكن سوى الموسيقى هي التي كانت تشع قليلاً من الدفء في حياتها.

وقد استعان الناس بخبرتهم الإنسانية، المشوشة إلى حدٍّ ما، ليسبروا غور قرينة السيناتور بودنبروك. وقد كان بعض هؤلاء يتمتع ببعض الدهاء، ليدرك أن الماء الساكن غالبًا ما يكون عميقًا.

ولما شاءوا الوقوف على شيء من أحوالها، أو حتى التعرف على شيء من أمورها وفهمه، فقد قادهم خيالهم المتواضع إلى افتراض أنه لن يكون هناك شيء آخر غير أن جيردا الجميلة تخون- على نحوٍ ما- زوجها الذي تقدم به العمر.

وبرغم التزامهم الحرص، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً، حتى أجمعوا على أن جيردا بودنبروك: "قد تجاوزت في علاقتها مع الملازم "فون تروتا" حدود العرف"، وهو تعبيرٌ متحفظ.

أما رينيه ماريا فون تروتا، المولود ببلاد الراين، فكان ملازمًا ثانيًا في إحدى فرق المشاة المرابطة بالمدينة. وكانت الياقة الحمراء تتسق مع شعره الأسود المصفف إلى جانب رأسه، وقد رفع إلى الخلف خصلاته الغزيرة عن جبهته البيضاء.

وبرغم أنه كان طويل القامة قوي البنيان، فإن مظهره كله وإيماءاته

وكذلك أسلوب حديثه وصمته لم تكن تتناسب مع هيئته العسكرية.

وكان يؤثر وضع يده بين أزرار سترته شبه المفتوحة، فإذا جلس أراح صدغه فوق كفه، وإذا انحنى كان يفتقر أثناء ذلك إلى الصرامة، ولم يكن يُسمع صوتٌ لضرب عقبيه بعضهما ببعض، وكان يتعامل مع زيه العسكري فوق جسده الخالي من العضلات كتعامله مع الزي المدني باستهانة ورعونة.

كما ساهم في دعم هذا الانطباع العام لمظهره غير العسكري ذلك الشارب الصبياني الدقيق الذي ينحرف فوق شدقيه، والذي لم يكن يستطيع رفع طرفيه أو منحه بعض الكثافة.

أما الأغرب فيه فكانت عيناه: فقد كانتا واسعتين لامعتين على نحوٍ غير مألوف، وقد بلغ لونهما الأسود حد أن ظهر عمقهما متوهجًا بلا قرار؛ عينان إن استقرتا على الوجوه أو الأشياء شابهما الهيام والجدية والألق..

ومما لا ريب فيه أنه التحق بالجيش رغم إرادته أو مكرهًا، لأنه برغم قوة بنيانه، فقد كان يفتقر إلى الهمة أثناء الخدمة، ولم يكن محبوبًا من زملائه؛ لأنه لم يكن يكاد يشاركهم اهتماماتهم ومتعهم، أي اهتمامات ومتع ضباطٍ صغار عادوا قبل قليل من حملة مظفرة.

فقد كان يُعتَبر شخصًا غريب الأطوار، غامضاً فظًا، يؤثر التنزه وحيدًا، ولا يحب الخيال أو القنص أو اللهو. كما لم يكن ليحب النساء، ولا يشغل باله سوى الموسيقى؛ فكان يعزف على عدة آلات، وكان يحضر بهيئته المسرحية غير العسكرية، الغريبة، كل حفلات الأوبرا والحفلات الموسيقية، متابعًا لها بعينيه المتألقتين، بينما كان يحتقر النوادي والملاهي.

كما كان- على كل حال- لا يؤدي سوى الزيارات الضرورية للعائلات

الراقية. وفيما عدا ذلك، كان يرفض كل الدعوات، وقصر اتصاله على بيت بودنبروك، بل أفرط في ذلك، حسب رأي الجميع، ورأي السيناتور نفسه.

ولم يدرك أحدٌ ما يعتمل داخل توماس بودنبروك، وخاصةً في شأن ذلك الأمر؛ لكن كان من الصعب للغاية أن يغفل سائر الناس حنقه ومقته وعجزه!

وبدأ الناس يتندرون به، ولعلهم أحسوا بالشفقة نحوه، ولم يظهروا هذا الإحساس حينما تراودهم أدنى فكرة عن مدى حساسيته المروعة تجاه ما يمكن أن يعرضه للسخرية؛ وهو الذي كان منذ زمن قد رأى ذلك يدنو منه من بعيد، وقد توقعه قبل أن يخطر ببالهم شيء من هذا القبيل.

وكذلك كانت خيلاؤه، تلك التي كانت مثار تندر الناس، كان مبعثها غالبًا هذا القلق.

وقد كان هو أول من أدرك مرتابًا ما طرأ من علاقة سلبية بين مظهره هو وبين برود جيردا الغريب الذي لم تغيره السنون.

والآن، ومنذ تردد السيد فون تروتا على بيته، أصبح عليه مجابهة همومه وإخفاؤها بما تبقى لديه من قوة؛ كان لا بد من ذلك حتى لا يكون إفصاحه عن ذلك هو ما يعرضه لسخرية المجتمع منه.

أما جيردا بودنبروك والضابط الشاب غريب الأطوار، فقد توافقا، كما هو متوقع، على حب الموسيقى.

وكان السيد فون تروتا يجيد العزف على البيانو والكمان والفيولا والفيولنسيل والناي. وكان السيناتور يعلم بالزيارة التالية عندما يرى مساعد السيد فون تروتا حاملاً صندوق التشيللو على ظهره، مجتازًا مقدمة

نافذته الخضراء أمام مكتبه الخاص، ليتوارى أثره داخل البيت.

فلم يكون من توماس بودنبروك إلا أن يظل جالسًا إلى مكتبه، منتظرًا رؤية صديق زوجته وهو يدخل إلى بيته. إلى أن تتنزل عليه- من الصالون- الأصوات المتناغمة بالطرب والشكوى والتهليل، بالتزامن مع ارتفاع الأيدي الممتدة بحرقة لتتشابك، وبعد كل النشوة الملغزة الغامضة، يتوارى ذلك في وهن وشهيق في ظلام وسكون. فهي تكر عاصفةً، تبكي، تنشج، وتتعانق وهي ترغي وتزبد على نحو غير بشري كما تشاء!

إلا أن الأسوأ، والمؤلم بحق فكان السكون الذي يتبع ذلك، ذلك السكون الذي كان يسود الصالون لوقتٍ طويل، طويل؛ سكون عميق لا نهائي إلى حدًّ مثير للفزع. فلم تكن هناك خطوةٌ تهز السقف أو مقعدٌ يتحرك، بل سكونٌ هادئ ممتد صامت كتوم.. ليجلس توماس بودنبروك وقد تملكه خوف شديد، إلى حد أنه كان يئن أحيانًا أنينًا هامسًا.

فما الذي كان يخشاه؟ فها قد رأى الناس بعيونهم السيد فون تروتا وهو يعاود دخول البيت، وقد رأى هو ما يتصورونه: هو نفسه، المتقدم في العمر، خائر القوة، مكدر النفس، جالسًا في مكتبه عند النافذة، تحت، وفوق، زوجته الحسناء مع عشيقها، يعزفان الموسيقى، وغير الموسيقى.

هكذا بدت الأمور في عين هؤلاء، وهو ما كان يدركه. برغم أنه يعرف أيضًا أن "عشيق" لا تفي بوصف السيد فون تروتا.

كم كان سيشعر بالسعادة لو أنه أطلق عليه هذه الصفة، وارتضاها على هذا النحو، فيستطيع أن يفهمه ويزدريه على أنه شابٌ نزق أحمق حقير، يغلف نزقه بالفن في سبيل كسب قلوب النساء. فحاول بكل السبل أن

يراه كذلك، مستلهمًا روح أسلافه وحدها، مستعينًا بها: الريبة الرافضة التي يتمتع بها التاجر الراسخ المقتصد، التي يقاوم بها طبقة العسكر المقامرة النزقة، غير الخبيرة في التعامل؛ فهو الذي كان يلقب السيد فون تروتا بالـ"ملازم" سرًّا وجهرًا، احتقارًا لشأنه، وهو يدرك تمامًا أنه أبعد ما يكون عن وصف هذا الشاب به.

فماذا كان يخشى توماس بودنبروك؟ لا شيء.. لا شيء ذا بال، آه، لو أنه تحقق من شيءٍ ما، شيء بسيط، آه لو كان هناك شيء يلمسه بيديه، شيء بسيط عنيف ليدرأه عن نفسه. فقد كان يحسد هؤلاء بالخارج على تصورهم الساذج للأمر. إلا أنه، وهو بمكانه، ورأسه بين كفيه مصغيًا متألمًا، كان يدرك تمامًا أن لفظي الغدر والخيانة الزوجية لا يمكن إطلاقهما على ما يحدث أعلى مكتبه من غناء وسكون عميق.

أحيانًا كان يمتد بصره إلى أسطح المنازل الهرمية الغبراء، والمارة بالشارع، ثم يتأمل صورة أسلافه واللوحة التذكارية أمامه، هدية العيد المئوي للشركة، مستعيدًا ذكريات بيته ليقول لنفسه بأن ذلك هو نهاية المطاف. ولم يكن بحاجةٍ إلى ما حدث حتى يصبح أضحوكة، معرضًا اسمه وعائلته للسخرية ليقضَى الأمر. كان يرتاح إلى هذا التفسير البسيط المنطقي الصحيح، وهو فكرة واردة يمكن التعبير عنها مقارنةً بالغرق في فكرة اللغز المهين والفضيحة الغامضة التي تحدث أعلى مكتبه.

أصبح ذلك فوق احتماله، فأرجع مقعده للخلف ليغادر مكتبه، لكن إلى أين؟

ليصعد إلى المنزل. ولكن إلى أين يتجه؟ إلى الصالون ليحيي السيد فون

تروتا باستعلاء، ويدعوه إلى العشاء، ليتلقى إجابةً بالرفض كما تكرر ذلك عدة مرات؟

وقد أصبح غير محتمل أن يتجاهله الملازم تمامًا، رافضاً كل دعواته الرسمية، مؤثرًا اللقاء الحر المنفرد مع زوجته.

أم ينتظر؟ بمكانٍ ما، ربما بغرفة التدخين، ينتظر حتى يمضي هو إلى حال سبيله ليلقى جيردا ليناقشها في الأمر، أو يستجوبها؟- لم يستجوب جيردا، لم يناقشها. في ماذا؟

فقد تأسس ارتباطه بها على التفاهم والمراعاة والصمت. ولم تكن هناك ضرورة تستدعي أن يجعل من نفسه أضحوكة. فإذا تذرع بالغيرة، فسوف يعني هذا أن الناس بالخارج على حق، ويعني الجهر بالفضيحة وشيوعها.. فهل شعر بالغيرة؟ على من؟ على ماذا؟ آه، ليس هناك شيء من هذا القبيل.

فمثل هذه الأمور قد تدفعه إلى مسلك خاطئ، أحمق، وربما إلى المواجهة والخلاص. آه، كلَّا، فهو لم يشعر سوى ببعض الخوف، بعض العذاب وبعض الخوف يلاحقه في كل هذا.

وكان أن مضى إلى غرفة ملابسه ليمسح جبهته بشيءٍ من الكولونيا، ليعود أدراجه إلى الطابق الأول، وقد صمم على كسر حاجز الصمت المخيم على الصالون، مهما كان الأمر. لكنه ما إن أمسك بالمقبض الأسود المذهب للباب الأبيض حتى انفجرت الموسيقى هادرةً مرةً أخرى ليرتد على عقبيه.

فهبط سلم الخدم مجتازًا الدهليز والممر البارد، ليصل إلى البستان، ليعود إلى الدهليز حيث الدب المحنط، ثم إلى بسطة السلم الرئيس القائم بجوارها حوض أسماك الزينة، ليقف هناك عاجزًا عن الوصول إلى الراحة، مصغيًا

متربصًا يغلب عليه الخزي والكدر. أسيرًا لخوف يلاحقه من فضيحة خفية أو علنية.

وفجأةً، في هذه الساعة، أثناء ما كان يرتكز على جدار ممر الطابق الثاني، ناظرًا إلى مسقط السلم حيث ساد السكون، إذا بيوهان الصغير يغادر غرفته ليهبط سلم الشرفة إلى الممر، ساعيًا إلى إيدا يونجمان لإنجاز أمرٍ ما.

وقد شاء المرور، بكتاب بيده، بحذاء الجدار، خافضًا بصره ليحيي أباه هامسًا، إلا أن السيناتور خاطبه قائلاً: "حسنًا، هانو، ماذا تفعل؟"

"أعمل، يا أبي، أنا ذاهب إلى إيدا لأترجم شيئًا معها".

"فكيف حالك، وماذا يشغلك؟"

ظل هانو خافضاَ رموشه، باذلاً مجهودًا واضحًا من أجل رد شافٍ ينم عن بديهة حاضرة، ثم بلع ريقه بسرعة ليقول: "عليَّ استذكار نص من وضع "نبيبوس" ومسائل في الحساب التجاري، وقواعد لغة فرنسية، وأنهار شمال أمريكا.. وتصحيح موضوع تعبير بالألمانية.."

ثم لاذ بالصمت، يائسًا من أنه لم يقل في النهاية "كذلك"، بعد أن قرر خفض صوته، لأنه لم يعد بوسعه ذكر شيء آخر، فجاءت إجابته مقتضبة غير وافية. "ولا شيء غير ذلك" قال ذلك بقدر ما استطاع من حزم، وإن لم يرفع ناظريه.

إلا أن أباه بدا غير مكترث بذلك. فظل شارد الذهن، وقد أخذ بيد هانو الطليقة ليداعبها بلا وعي، وهو يتحسس مفاصلها الرقيقة، ملتزمًا الصمت. وبدا أنه لم يفهم شيئًا مما قيل.

وفجأةً إذ بهانو يسمع شيئًا لا علاقة له بما دار من حديث، سمع همسًا

متوجسًا أدنى إلى التوسل، صوت أبيه الذي لم يسمعه من قبل، وهو يقول "الآن يكون الملازم قد قضى ساعتين لدى أمك، هانو".

فإذا بيوهان الصغير تتسع عيناه الكستنائيتان الصافيتان المفعمتان بالحب، ليطالع وجه أبيه فيراه وجهًا لم يعهده من قبل، رأى جفنين ملتهبين أسفل حاجبيه الرائقين، بينما انتفخت بعض الشيء وجنتاه اللتان ارتفع فوقهما طرفا شاربه المفتول.

والرب وحده يعلم ما أدركه هانو، إلا أنه كان هناك شيء مؤكد شعر به كلاهما عندما التقت نظراتهما في هذه الثواني؛ فقد تلاشى كل شعور بالاغتراب والجفاء بينهما والإكراه وسوء الفهم. فها هو توماس بودنبروك الآن قد تخلى عن قدراته وبراعته وحيويته المبهرة فصار خائفًا معذبًا، فكسب ثقة ابنه وإخلاصه. لكنه لم يفطن إلى ذلك، بل حاول مواراته ليأخذ هانو في هذه اللحظة بشدة أعظم عن ذي قبل، ليختبره في تدريبات عملية لمستقبل حياته، ويمتحن قدراته الذهنية ملحًا بعبارات حازمة عن رغبته في امتهان وظيفته التي يتمسك هو بها، وينفجر غضبًا لدى أدنى إيماءةٍ معارِضة أو مخذلة.

فقد بدأ توماس بودنبروك، البالغ من العمر ثمانية وأربعين عامًا، يعد ما تبقى من أيام عمره بانتظار الموت. وقد ساءت حالته البدنية فأصبح يعاني فقدان الشهية والأرق والدوار والرجفة، لترغمه هذه الأعراض على استشارة الدكتور لانجهالس عدة مرات.

إلا أنه كان مُصرًّا على اتباع تعليمات الطبيب، فلم تعد قوة إرادته قادرةً على تلبية ذلك، بعد أن تراجعت خلال سنواتٍ اكتنفها الخمول وشرود

الذهن والأرق، فأخذ يستغرق في النوم صباحًا، برغم أنه كان كل مساء يقرر ساخطًا أن يصحو مبكرًا لكي يقوم بجولة قبل تناول الشاي، طبقًا لنصائح الطبيب. إلا أنه في الواقع لم يفعل ذلك سوى مرتين أو ثلاثًا.. وكان هذا هو حاله في كل شؤونه الأخرى.

فقد كان استنفاد إرادته الدائم دون تحقيق المراد قد جعل ثقته بنفسه تتآكل، ليستسلم للإحباط. وقد شق عليه الامتناع عن الاستمتاع بالسجائر الروسية الصغيرة الحارة، المهدئة لأعصابه، وهي التي اعتاد على تدخينها بشراهة منذ صباه. وقد صارح الدكتور لانجهالس دون مواربة فقال: "أصغ إليَّ، دكتور، إن حرماني من السجائر هو واجبك.. وهو واجبٌ يسيرٌ للغاية ولطيف للغاية، حقًّا! أما الالتزام بهذا الامتناع فهو من شأني! وما عليك سوى غض الطرف عن ذلك.. فأنا أريد أن نتعاون من أجل صحتي، إلا أن توزيع الأدوار في هذا الشأن غير عادل؛ فحصتي أعظم في هذا العمل. لا تضحك، فهذا ليس نكتة.. فأنا أشعر بغربة شديدة.. فأدخن.. هل تتفضل؟" ثم قدم له سيجارة..

لقد أصبحت كل قواه تتخاذل، ولم يكن يمده بالقوة سوى إيمانه بأن كل هذا لن يستمر طويلاً، ومصيره إلى زوالٍ عاجل. وكانت تداهمه تهويمات غريبة مفعمة بالحدس، فغالبه عدة مرات شعورٌ بأنه لا يجالس أهله، وإنما انسحب وحيدًا إلى غربةٍ غائمة، لينظرهم من هناك قائلاً لنفسه: سوف أموت قريبًا. فيستدعي مرات عديدة هانو مخاطبًا إياه: "إن أجلي أقرب مما نتصور، فلتتأهب! فها أنا راحلٌ مبكرًا.. هل فهمت أن ترددك يعذبني! فهل حزمت أمرك الآن؟..

"نعم- نعم- هذا ليس ردًّا، هذا ليس الرد الذي أنتظره.. فهل حسمت أمرك ببسالة وارتياح، هذا هو سؤالي.. أتظن أن لديك مالاً يكفيك فلم تعد بحاجةٍ إلى فعل شيء؛ فما لديك قليلٌ تافه، ولسوف تعتمد على نفسك تمامًا. فإن شئت أن تعيش، أن تعيش حياةً آمنة، فسوف يتعين عليك العمل، العمل الشاق، الصعب، أصعب مما قمتُ أنا به.."

إلا أن هذا لم يكن كل ما في الأمر، فلم يكن مستقبل ابنه وبيته هو كل ما شغل باله، لكنه أمرٌ آحر، أمرٌ جديد مختلف استولى عليه، سيطر على أفكاره المنهكة.. فما كاد يرى نهاية حياته قريبةً ملموسة، ولم تعد بعيدة كضرورة حتمية نظريًّا، لا تؤرقه.. حتى بدأ في النبش في أفكاره وفحصها ليختبر علاقته بالموت وقضايا الغيب.

فأثبتت أولى نتائج هذه المحاولات أن روحه غير قانعة، وغير ناضجة، وغير مستعدة للموت.

فهذا الإيمان الفطري بمسيحية الإنجيل الحالمة، الذي استطاع والده ربطه بمعنى التجارة العملي، وهو ما حافظت عليه أمه بعد ذلك، كان، كله، غريبًا عنه. فمنذ بداية وعيه، بدأ شكه في كل شيء ونهايته بعيني رجلٍ دنيوي، مثله في ذلك مثل جده. ولأنه كان بحاجةٍ أعظم إلى عمقٍ أبعد، وفكر أنضج، ودراية أرحب بالغيب، فلم يجد ما يكفيه في السطحية المريحة ليوهان بودنبروك الكبير. أما هو، فقد وجد إجابةً تاريخية عن مسائل الخلود والأبدية؛ فقال لنفسه إنه عاش في أسلافه، وسوف تستمر حياته في خلَفه. ولم يكن هذا ليتفق فقط مع روح عائلته، ومع وعيه الشخصي، واستيعابه لتاريخ انتمائه للطبقة المحافظة، بل كان دعامته التي ارتكز عليها نشاطه

وطموحه وكل أمور حياته.

إلا أنه اتضح الآن أنه غير قادر، ولو لساعةٍ واحدة، على اكتساب السكينة والتأهب.

وبرغم أن توماس بودنبروك كان يفتعل- من حينٍ لآخر- ميلاً ما نحو الكاثوليكية، إلا أنه كان مؤمنًا تمامًا بإحساسٍ حقيقي عميق إلى حد تعذيب الذات، وبشعورٍ واعٍ صريح صلب متبتل، بالبروتستانتية.

كلَّا، ففي مواجهة الأقصى والأخير، ما من سنَدٍ خارجي أو شفاعة أو غفران أو إيهام أو مواساة، بل يتحتم على المرء العمل الشاق المضني، وحيدًا تمامًا، معتمدًا على ذاته وقواه الشخصية، من أجل حل اللغز قبل فوات الأوان، وأن ينجز استعدادًا بينًا، أو يهوي صريعًا للقنوط..

هكذا يئس توماس بودنبروك من ابنه الوحيد بعد أن خيب رجاءه، ليبدأ لاهثًا خائفًا في البحث عن الحقيقة التي لابد من عثوره عليها بمكانٍ ما..

كان ذلك في منتصف صيف عام 1874، عندما كانت جُزر غمامٍ بيضاء كالفضة تسبح في سماء زرقاء قانية، وبين أغصان شجر الجوز كانت العصافير تزقزق، كأنها تلح في تساؤل؛ بينما ارتفع صدى خرير ماء النافورة وسط إكليل الزنبق الفارع بلونه البنفسجي، وقد امتزج للأسف عبق الليلك برائحة عصيرٍ حملته نسمةٌ دافئة من معمل السكر القريب.

وكان أن دُهش العاملون عندما غادر السيناتور مكتبه في أوج ساعات العمل، ليمضي ببستانه عاقدًا يديه خلف ظهره، ليسوي الحصى، أو ينقي النافورة من الطمي، أو يعدل فرع إحدى الزهور. وكان حاجباه الرائقان، الذي كان يرفع أحدهما، يعطيان انطباعًا بالجد واليقظة، بينما كانت أفكاره تتخذ

مسارًا بعيدًا في غياهب العتمة، مسارًا خاصًّا مضنيًا للروح. كما كان يجلس أحيانًا على قمة الشرفة الصغيرة الذي تكتنفه أوراق العنب من كل جانب، وهو ينظر شاردًا، متجاوزًا البستان وجدار منزله الخلفي الأحمر.

كان الهواء دافئًا رطبًا، كأن أصوات السلام حوله تناجيه بوداعةٍ، وتصعد إليه تهدهده. فإذا أرهقه إشخاص بصره في اللاشيء، وتعب من الوحدة والصمت، أغمض عينيه من حينٍ لآخر فيتماسك، ليقصي السكينة عن نفسه بسرعة، ويقول بصوت مرتفع إلى حدٍّ ما: لابد أن أعمل فكري، لابد أن أنظم كل شيء قبل فوات الأوان.

لكن هنا في هذا الكشك، وفي مقعده الهزاز الصغير من البامبو الأصفر، قضى أربع ساعات كاملة مستغرقًا تمامًا في كتاب كان يبحث عنه، حتى وقع عليه مصادفةً.. بعد الفطور الثاني، توجه ولفافة التبغ بفمه بغرفة التدخين إلى ركن عميق بالمكتبة، ليعثر عليه خلف مجلدات أنيقة، فتذكر أنه اشتراه بلا وعي ذات يوم قبل عدة سنوات من تاجر كتب بثمن زهيد. كان مؤلفًا كبيرًا مطبوعًا على ورق خفيف أصفر طباعةً رديئة، كما كان تجليده أيضًا رديئًا. وكان يحتوي على الجزء الثاني فقط من نظريةٍ عن ما وراء الطبيعة.. فأخذه معه إلى البستان ليستغرق الآن في قراءته، صفحةً صفحة. ليتملكه رضًا غريب عميق يستحق الامتنان. وشعر بقناعة لا مثيل لها، وهو يرى عقلاً عملاقًا متفوقًا يسيطر على الحياة، هذه الحياة العاتية المروعة الساخرة للغاية، من أجل إخضاعها وإدانتها، إنها قناعة المعذَّب الذي يحفظ آلامه دومًا، متحرجًا بضمير معذب، حاجبًا إياها عن قسوة الحياة وفتورها؛ وفجأةً يتلقى من يدي عظيمٍ حكيم حقه الأول المبهج في المغاناة في الدنيا، أفضل

عالم يخطر على قلب بشر؛ إلا أنه ثبت على نحو ساخر أنه أسوأ كل هذه العوالم التي يمكن أن تخطر ببال. لكنه لم يفهم كل شيء؛ فالمبادئ والشروط ظلت مبهمةً، أما عقله الذي لم يتمرس على مثل هذه الأمور فلم يستطع متابعة مثل هذه المسارات الفكرية. إلا أن تعاقب النور والظلام، والانتقال المفاجئ من اللبس الخامل والحس الغامض إلى الرؤية الساطعة جعله يلهث لتنقضي الساعات دون أن يرفع بصره عن الكتاب، أو يغير من وضعية جلسته على المقعد.

وقد تغاضى في البداية عن قراءة بضع صفحات، ليسرع دون وعي متعجلاً الوصول إلى المسألة الرئيسة المهمة. ولم يتوقف إلا عند هذه الفقرة أو تلك التي استوعبها. إلا أنه عثر على فصلٍ شامل قرأه من أول إلى آخر حرفٍ وهو يزم شفتيه، مقطبًا حاجبيه في جدية، وقد شاعت في وجهه أماراتٌ جادة تمامًا وجامدة، يكاد يختفي منها أي أثر للحياة، ولم تتأثر بأية حركة حوله. كان الفصل يحمل عنوان: "عن الموت وعلاقته بعدم فناء جوهرنا في ذاته".

كانت بعض سطور قد فاتته، عندما جاءت الخادمة تدعوه إلى الطعام، فأومأ إليها، وعاد ليقرأ تلك السطور، ليغلق الكتاب ناظرًا حوله وهو يشعر بكيانه كله وقد تمدد على نحو هائل، وتملكته نشوة غامضة ثقيلة، وغام عقله وسَكِر تمامًا بشيء غير معقول، جديد مغرٍ، مرحبًا مذكرًا بأول لوعة حب متلهفة. إلا أنه عندما أودع الكتاب بدرج طاولة البستان بأيدٍ باردة مترددة، كانت رأسه المتوهجة قد عجزت عن التفكير، بعد أن غلبه ضغط غريب وتوتر مروع، كأنه يوشك على الانفجار.

فماذا كان هذا؟ سأل نفسه عندما كرَّ عائدًا إلى المنزل، ليصعد السلم الرئيس إلى قاعة الطعام، حيث جلس إلى أسرته.. ماذا حدث لي؟ ماذا أُلقيَ إليَّ؟ ماذا سمعت، أنا، توماس بودنبروك، نائب هذه المدينة، ومدير شركة يوهان بودنبروك للغلال..؟ أكان هذا مكتوبًا عليَّ؟ هل بوسعي تحمله؟ لست أدري، ماذا كان هذا وما عرفته قط؛ لقد كان كثيرًا، أكثر مما يتحمله عقل مواطن بسيط مثلي..

ظل طوال النهار على هذه الحال الغالبة من العناء، الغامضة، الثملة، الشاردة. إلا أنه عندما حل المساء، كان قد فقد قدرته على رفع رأسه، فمضى مبكرًا إلى فراشه لينام ثلاث ساعات بعمق لا يدرك قراره، كما لم ينم طوال حياته. ثم صحا بحبٍ نما في قلبه. وقد نام وحده بفراشه، بعد انتقال جيردا للنوم بغرفة إيدا يونجمان التي سكنت مؤخرًا إحدى غرف الممر الثلاث، لتكون على مقربةٍ من يوهان الصغير.

كان الظلام قد خيم تمامًا على ما حوله، بعد أن أسدلت تمامًا ستائر كلا النافذتين العاليتين. وقد استلقى على ظهره في سكون عميق ووحدة خفيفة الوطأة، وقد أخذ يتأمل الظلام.

فجأةً حدث ذلك: كأن الظلام قد انحسر أمام عينيه، كان جدار الليل المخملي قد تصدع منفرجًا ليكشف النورُ عمقًا بلا قرار ورؤيةً أبدية. "سوف أعيش!" هكذا هتف توماس بودنبروك بصوت عالٍ بعض الشيء، وقد أحس أثناء ذلك بصدره يرتجف من أنينٍ داخلي. لقد كان هذا "هو"، "سوف أعيش"! "هذا" سيعيش.. و"هذا" ليس أنا، إنه ليس سوى خداع، ليس سوى خطأ سوف يصححه الموت.. إنه إذن هكذا، إذن هكذا!.. لماذا؟

عند هذا السؤال، كان الليل قد أرخى عليه سدوله، فلم يعد يرى أو يعرف أو يفهم أي شيء، ليغرق بعمقٍ في الوسادة بعد أن أعماه وأنهكه نزرٌ يسير من الحقيقة، فأحس أنه بحاجةٍ إلى الصلاة حتى يوافيه ذلك من جديد، ليعيد إليه النور. وقد وصل. فرقد بيدين منعقدتين بلا حراك، وسُمح له بالمشاهدة.. فماذا كان الموت؟ لم تبد له إجابةٌ عن ذلك في كلماتٍ بسيطة أو جزلة، فقد شعر بها، كان يمتلكها في أعماقه. كان الموت حظًّا، عميقًا إلى حد لا يمكن إدراكه إلا في لحظات رحمة كهذه. كانت العودة من تيهٍ معذب تفوق الوصف، كان تصحيحًا لخطأ جسيم، تحررًا من قيود وحواجز مقززة—تعويضًا عن مصابٍ أليم، فهو يستحق الرحمة ثلاثًا، كل من أدرك جزءًا هذه المعاني العدمية! فما الذي سينتهي؟ وما الذي سيتحلل؟ جسده هذا.. شخصه هذا وفرديته، هذا العائق الثقيل العنيد المعيب والكريه الذي يحول دون التحول إلى آخر، التحول إلى أفضل.

ألم يكن كل إنسان خطأً وعثرة؟ ألم ينزلق هو إلى اعتقال معذِّب منذ ولِد؟ سجن! سجن! عوائق وقيود في كل مكان! ومن خلال قضبان نافذة فرديته، يحدق الإنسان قانطًا في أسوار محيطة بحياته خارجها إلى أن يأتيه الموت، ليدعوه للعودة إلى داره وحريته.

الفردية!.. آه، ماذا يكون المرء، ماذا يستطيع، ماذا عنده ليبدو مسكينًا، أشيب، عاجزًا ومملاً؟ أما الذي لا يكونه المرء، ولا يستطيعه، ولا يملكه، فهو ما يتطلع المرء إليه بذلك الحسد التواق الذي يستحيل حبًّا، لأنه يخشى أن يستحيل كرهًا.

إنني أحمل داخلي البذرة، البداية، القدرة على كل أهلية ونشاط في هذه

الدنيا.. فأين كان يمكن أن يكون مكاني لو لم أكن هنا! مَن وكيف كنت سأصير، لو لم أكن أنا، ولم يكن مظهرى الشخصي هذا يحصرني، ويفصلني وعيي عن الآخرين الذين ليسوا أنا!

الجهاز العضوي! الدفق الأعمى الأرعن المؤسف للإرادة الملحة! وأن تنسج هذه الإرادة حرةً في ليل بلا مكان أو زمان! لهو حقًا أفضل من أن تتبدد في سجنٍ يحتاج إلى نور شعلة الذكاء المرتعشة المتأرجحة!

فهل تمنيت أن تتصل حياتي في ابني؟ في شخص أكثر خوفًا، أكثر ضعفًا، أكثر ترنحًا؟ حمق صبياني مضلَّل! بماذا يفيدني ابنٌ؟ لست بحاجة إلى ابنٍ!.. فأين سأكون عندما أموت؟ إلا أن هذا واضحٌ بينٌ، بسيطٌ تمامًا! سأكون في كل هؤلاء الذين قالوا دومًا "أنا"، ويقولون وسيقولون: خاصةً في هؤلاء الذين يقولونها أعظم كمالاً، أشد قوة، أكثر فرحًا..

هناك في مكانٍ ما بالعالم يكبر صبي، مجهزًا جيدًا، ناجحًا، موهوبًا لكي يطور قدراته، مرتفع الهامة، غير عابس، نقي، قاسٍ، يقظٌ، واحدٌ من هؤلاء الذي تُسعد طلعته السعداء ويصيب الأشقياء بالقنوط، هذا هو ابني.

ها هو أنا، قريبًا.. قريبًا.. حالمًا يحررني الموت من الجنون الشقي، فأنا لست هو، ولا أنا..

هل كرهت الحياة ذات يوم، هذه الحياة النقية القاسية القوية؟ حمق وسوء فهم! لم أكره إلا نفسي لأنني لم أستطع تحملها، إلا أنني أحبكم.. أُحبكم جميعًا، أيها السعداء، وقريبًا سأتوقف عن أن يفصلني عنكم سجنٌ ضيق، قريبًا سأحمل داخلي هذا الذي يحبكم، سيتحرر حبي لكم وسيكون عندكم وفيكم.. عندكم وفيكم جميعًا!

بكى، دفن وجهه في الوسادة وبكى، وارتعدت أوصاله، وتصاعدت نشوته بسعادةٍ لا تُقارَن بأية حلاوة معذِبة في العالم.

لقد كان هو هذا، هذا كله، الذي ملأه منذ عصر أمس بالنشوة والغموض، الذي تحرك في قلبه وأيقظه كحُبٍ ينمو في قلب الليل.

وبينما سُمح له الآن بمعرفته وإدراكه- لا بكلمات أو أفكار مرتبة، وإنما بكشف روحي مفاجئ بداخله- كان قد أصبح حرًّا ونَعِمَ بالخلاص التام متحررًا من جميع الموانع والقيود الطبيعية والمصطنعة.

أما أسوار مدينة أسلافه، التي أغلقها على نفسه بإرادته الواعية، فقد انفتحت أمام عينيه على العالم، العالم كافة، الذي رأى منه هذا الطرف أو ذاك أيام صباه، والذي وعد الموت به بكل ما فيه.

وأما صيغ إدراك المكان والزمان الخادعة، وكذلك التاريخ، والاهتمام بالاستمرار التاريخي في شخص الخَلَف، والخشية من فناءٍ وتحللٍ ما أخيرًا- كل هذا حرر روحه، ولم يعد يعوق إدراكه لأبدية الخلود.

لا شيء يبدأ ولا شيء ينتهي. بل لا يوجد سوى حاضر بلا نهاية، وتلك القوى الكامنة فيه التي تدفعه، بالحب المفعم بالحلاوة المعذِّبة النافذة المتلهفة، إلى حب الحياة، والذي كان شخصه ليس سوى تعبيرٍ خاطئ عنها- سوف تعرف دومًا سبلها إلى هذا الحاضر.

سوف أعيش! هكذا همس في الوسادة، وبكى و.. ولم يعد يدري في اللحظة التالية سر ذلك. فقد تعطل ذهنه وتلاشت معرفته، ولم يعد فجأةً بداخله من جديد سوى عتمةٍ بكماء.

لكنها ستعود! أكد ذلك لنفسه. ألم أمتلكها؟.. فلما أحس أن النوم

والغفلة سوف يغشيانه، حلف قسمًا مغلظًا ألا يدع هذه السعادة الرهيبة تفلت من بين يديه، ولكنه سيجمع قواه ويتعلم ويقرأ ويدرس حتى يحكم امتلاكه بقوة للرؤية كلها التي أخرجت كل ذلك.

إلا أن ذلك لم يتحقق؛ ففي صباح اليوم التالي، حين استيقظ بشعورٍ واهٍ بالخجل من تهويمات الأمس، أدرك عدم إمكانه تحقيق شيء من هذه النوايا الطيبة.

فقد استيقظ متأخرًا، وكان عليه المشاركة في مناقشات جلسة هيئة المواطنين. وهنا تملكته ثانيةً الحياة، بشؤونها العامة والتجارية والأهلية، في هذه المدينة التجارية، متوسطة الحجم، بطرقها وأركانها ودورها ذات الأسطح الهرمية.

كان ما يزال منشغلاً بفكرة استئناف خطته الرائعة، عندما بدأ يسأل نفسه عما إذا كانت مشاهداته بتلك الليلة ستكون عونًا له في الواقع، وعلى المدى، أم أنها ستتركه وحيدًا في مواجهة الموت.

فانتفضت غرائزه المحافظة ضد ذلك. كما انتفض إعجابه بنفسه: إنها خشيةٌ من دورٍ عجيب هزلي. أتوجد هذا الأشياء أمام عينيه، وهل تليق به، هو السيناتور توماس بودنبروك، مدير شركة يوهان بودنبروك؟

ولم يعد بوسعه أن يعود أبدًا إلى إلقاء نظرة على هذا الكتاب، الذي يحتوي كنوزًا كثيرة، ناهيك عن تلك الأخرى التي تحتويها بقية فصول هذا المؤلَف العظيم.

فدقته المفرطة المتوترة، المهيمنة عليه من سنين، تستهلك أيام حياته. وقد وهنت إرادته في تنظيم معقول مثمر لوقته، بعد أن أصبح يلهث من أجل

إنجاز خمسمائة من أمور فارغة ومسائل عملية تافهة كانت تصدع رأسه. وبعد مرور أسبوعين تقريبًا على عصر ذاك اليوم، الذي تلقى فيه درسًا لا ينسى، كان قد اقتنع بأن يهجر كل هذا، فأمر الخادمة بحمل كتابٍ أُلقي بإهمال بدرج طاولة البستان لتصعد به في الحال لتضعه بالمكتبة.

وهكذا حدث أن توماس بودنبروك، الذي فرد يديه ناشدًا حقائق عليا متناهية، قد باخ حماسه ليتدنى إلى مفاهيم وصور اعتاد ممارساتها الدينية منذ طفولته.

فأخذ يسترجع ويتذكر ذلك الإله الخاص الشخصي، أب أبناء البشر، الذي بعث جزءًا من جوهره، من ذاته إلى الأرض ليُعَذَب ويُسفَح دمُه من أجلنا، وهو الديَّان يوم القيامة، الذي عند قدميه يثاب الأبرار، حيث يبدأ هناك سبيل الأبدية.

فهل هذه القصة كلها، المبهمة بعض الشيء، والغريبة بعض الشيء، التي لا تتطلب تفهمًا، وإنما إيمان مستسلم، والتي تتشبث الأيدي بكلماتها البسيطة في مواجهة الخوف الأخير.. أتكون هي الحق؟

آه، هنا كذلك، لم يصل إلى السلام. إنه هو هذا الرجل الذي يعض بالنواجذ على رفعة مقام بيته وزوجته وابنه واسمه وعائلته؛ هذا الرجل المنهك، الذي حافظ على سلامة وصحة بدنه بالجهد والإبداع، هو الذي عانى لأيامٍ عديدة من السؤال عما سيؤول إليه المصير: إن كانت الروح ستصعد إلى السماء بعد الموت مباشرةً، أم أنها ستنتظر بعث الجسد.. وأين يكون مستقر الروح حتى ذلك الحين؟ هل أخبره أحدٌ عن ذلك بالمدرسة أو الكنيسة؟

فما مدى المسؤولية عن ترك الإنسان في هذه الحيرة؟ فكاد أن يمضي إلى القس برينجزهايم يسأله النصح والمواساة، إلا أنه لم يقدم على ذلك خشية تعرضه للسخرية.

وفي النهاية نفض يديه من كل شيء، مسلمًا الأمر كله للرب. ولما لم يكن قد وصل إلى نتيجة مرضية حول ترتيب قضاياه الأبدية، فقد قرر العمل مخلصًا على شؤونه الدنيوية، حتى يستطيع إنجاز خطة شغلت باله طويلاً.

وذات يومٍ، بعد تناول طعام الغداء، وبغرفة المعيشة حيث تناول والداه القهوة، سمع يوهان الصغير أباه وهو يبلغ أمه بأنه ينتظر اليوم المحامي الدكتور فلان ليضع معه وصيته، التي لا يريد تأجيل صياغتها إلى أجلٍ غير مسمى.

وفيما بعد، كان هانو، بعد أن تدرب لساعةٍ على البيانو، ثم شاء اجتياز الممر، إذا به يلقى أباه مع رجلٍ يرتدى سترةً سوداء طويلة، وهما يرتقيان السلم الرئيس.

وقال السيناتور باقتضاب "هانو!"، ليتوقف يوهان الصغير، ويبتلع ريقه، ليرد على عجلٍ هامسًا: "نعم، بابا.."

ليستطرد والده: "لديَّ عملٌ مهم مع هذا السيد، وما أرجوه منك، هو أن تقف أمام هذا الباب (وأشار إلى باب غرفة التدخين) وأن تحرص، أتسمعني؟ كل الحرص على ألا يزعجنا أحد".

"نعم، بابا" قال يوهان الصغير، ووقف عند الباب الذي أُغلِقَ خلف الرجلين.

وقف هناك ممسكًا بيده أنشوطة البحارة على صدره، وهو يلوك بلسانه ضرسًا لم يكن يطمئن إليه، مصغيًا إلى الأصوات الجادة المكتومة الصادرة عن الغرفة. وقد مالت رأسه بخصلات شعره الكستنائي المتهدلة فوق فوديه، مقطبًا حاجبيه، بينما كان يرف بطرف عينيه الكستنائيتين اللتين تحيط بهما هالاتٌ زرقاء، وهو ينظر نظرةً يشوبها تعبيرٌ صادم متأمل، يشبه تمامًا ذلك التعبير الذي ارتسم في عينيه عند محمل جثمان جدته، بعد أن تنسم رحيق الزهور والعبق الآخر الغريب الذي تآلف معه على نحو نادر.

وكان أن جاءت إيدا يونجمان وقالت: هانو، صغيري، أين كنت، وما هذا الذي تفعله هنا!".

وجاء صبي المكتب الأحدب، وبيده برقية، ليسأل عن السيناتور.

وفي كل مرةٍ كان الصغير يوهان يفرد ذراعه بكُم البحارة المطرز عليه المرساة، وهو يهز رأسه، ويقول بعد برهةٍ من الصمت هامسًا بجزم: "غير مسموح لأحد بالدخول، فأبي يكتب وصيته".

الفصـل السَّـادس

كان ذلك بفصل الخريف، عندما داعب الدكتور لانجهالس عينيه الجميلتين مثلما تفعل النساء، وقال: "الأعصاب، سيدي السيناتور.. إن الأعصاب هي السبب في كل هذا، ومن حينٍ لآخر تضعف الدورة الدموية. فهل تأذن لي في اقتراح؟ فعليك بشيءٍ من الراحة هذا العام، فبعض أيام الأحد التي تنسمت خلالها هواء صيف البحر لم تكن بالطبع كافية.. ونحن في نهاية سبتمبر، وما تزال الإقامة في ترافيمنده متاحةً، ولم يغادرها الجميع بعد. فلتسافر إلى هناك لتقضي بعض الوقت على الشاطئ. فأربعة عشر يومًا أو ثلاثة أسابيع كفيلة بإصلاح بعض الأمور".

فأمن توماس بالإيجاب على ذلك. وما إن عرف المحيطون به بالقرار حتى عرض كريستيان مرافقته، فقال ببساطة: "سأذهب معك، ولن تمانع في هذا يقينًا". وبرغم أن السيناتور كان لديه كثير من مبررات الاعتراض إلا أنه أمن على ذلك بالإيجاب.

أما حقيقة الأمر، فكانت أن كريستيان الآن قد صار متحكمًا في وقته أكثر من ذي قبل. فقد رأى- بسبب تأرجح حالته الصحية- أنه من

الضروري استئناف نشاطه التجاري الأخير في وكالة الشمبانيا والكونياك. وكانت الصورة الواهمة لرجلٍ يجلس أثناء الغسق على الأريكة قد فارقته لحسن الحظ. إلا أن العذاب الموسمي بجانبه الأيسر قد ازداد سوءًا، مصحوبًا بأعراضٍ عديدة لا تحتمل، كان كريستيان يتابعها بعنايةٍ ليصفها وهو يقطب أنفه، حيثما أقام أو رحل.

وكانت عضلات البلع كسابق عهدها، تفشل مرارًا أثناء الأكل، فتظل القضمة بحلقه ليطوف بعينيه الصغيرتين الغائرتين المستديرتين.

وغالبًا ما كان يعاني- كسابق عهده- من مخاوفه الغامضة والقاهرة من إصابة لسانه بالشلل المفاجئ، أو كتفه أو أطرافه، أو حتى قدرته الذهنية.

وبرغم أن شيئًا من هذا لم يحدث، إلا أن تخوفه من وقوع ذلك كان أكثر سوءًا. فقد حكى ما وقع له ذات يومٍ بإسهاب حين كان يعد لنفسه كوبًا من الشاي؛ وبدلاً من أن يضع عود الثقاب المشتعل فوق الفرن، وضعه فوق قارورة الكيروسين المفتوحة، ولم يكن ذلك ليقتله وحده، بل كذلك كل ساكني المنزل والمساكن المجاورة، على أبشع نحوٍ.

كان هذا مبالغةً مفرطة. إلا أن ما وصفه بإسهابٍ وإلحاح وجهدٍ بليغ من أجل التعبير عنه كان شذوذًا مقززًا، وهو ما أدركه مؤخرًا في نفسه، وكان يتبدى في أنه في أيامٍ بعينها، أي في جوٍ سيء بعينه وفى حالةٍ نفسية بعينها، لا يستطيع رؤية نافذة مفتوحة دون أن يتملكه إلحاحٌ بغيض غير مبرَر للقفز منها.. بدافعٍ وحشي لا يمكن مقاومته؛ كان نوعًا من الجموح اليائس الفارغ.

وذات يوم أحدٍ، أثناء ما كانت العائلة تتناول طعامها في فيشر جروبه،

روى كيف أنه استجمع كل قواه المعنوية ليزحف على يديه وقدميه إلى النافذة المفتوحة ليغلقها، وهنا صاح الجميع رافضين مواصلة الاستماع إليه.

وقد كان يكثف رواية مثل هذه الأمور وغيرها بارتياح مروع. أما ما لم ينتبه إليه ويدركه وظل مجهولاً وازداد سوءًا، فكان افتقاره الغريب إلى آداب اللياقة، الذي أصبح يتضاعف على مر السنين، ليتحول إلى إحدى سمات شخصيته.

وكان أمرًا منكرًا أن يروي نوعًا من القصص لم تكن لتروى إلا في النادي على أكثر تقدير، ولكن كانت هناك كذلك بوادر صريحة تدل على فقدانه للحياء.

فقد شاء أن يستعرض أمام زوجة أخيه جيردا، المتعاطفة معه، متانة جواربه الإنجليزية، وكيف أنه أيضا صار نحيفًا، فغالبته الجرأة أن يرفع أمام عينيها سرواله الفضفاض "الكاروه" إلى ما فوق الركبة.. "انظرى ها هنا، كيف أصبحت نحيلاً.. ألا يلفت هذا الانتباه، أليس هذا أمرًا غريبًا؟" كان يقول ذلك مهمومًا، وهو يشير بأنفٍ مقطب إلى ساقه النحيلة والمنبعجة بقوة في سرواله الداخلي الأبيض الصوفي، الذى برزت أسفله ركبته الهزيلة.

ولما كان قد أهمل كل أعماله التجارية، فقد أخذ يبحث عن قضاء ساعات النهار، التي لا يذهب أثناءها إلى النادي، بسبل مختلفة. وكان يؤثر أن يوضح صراحةً أنه برغم كل العوائق لم يتوقف قط عن العمل توقفًا تامًا.

فقام بدافع من الحرص على العلم، دون تحديد لغرض عملي، بتنمية قدراته اللغوية، فبدأ مؤخرًا بدراسة اللغة الصينية. وقد أنفق في سبيل ذلك مجهودًا كبيرًا طوال أربعة عشر يومًا.

وفي هذا الوقت، كان منشغلاً باستكمال معجم إنجليزى- ألماني، بدا له ناقصًا. ولكن لما شعر بحاجته الملحة لتغيير الهواء ثانية، ولما كان الأمر في النهاية يقتضي رفيقًا ما للسيناتور، فإن عمله هذا لم يحل بينه وبين مغادرة المدينة.

فسافر كلا الأخوين إلى البحيرة، ولم يتبادلا الكلام تقريبًا؛ بينما كان المطر يخبط على سطح العربة عبر الطريق الزراعي الذي لم يكن سوى بركة ماء.

أما كريستيان، فراح يطوف بنظريه كمن يترقب شيئًا مريبًا، فيما جلس توماس يرتعش متدثرًا معطفه، وعيونه المحتقنة مفعمةٌ بنظراتٍ كليلة، بينما كان طرفا شاربه المفتولان يتجاوزان وجنتيه الشاحبتين.

هكذا وصلا عصرًا إلى بستان المنتجع، حيث ارتفع صرير عجلات العربة، وهي تمضي فوق الحصى. وهناك كان يجلس الوسيط العجوز سيجيسموند جوش في الشرفة الزجاجية للمبنى الرئيسي، يحتسي شراب الروم. فنهض وزام من بين أسنانه ليجلسا إليه، ليحتسيا مشروبًا ساخنًا أثناء ما كان المتاع يُحمَل إلى الداخل.

كان هناك بالإضافة إلى السيد جوش- من مرتادي المنتجع- قليلٌ من الناس: أسرةٌ إنجليزية، وامرأة هولندية عزباء، وأحد عزاب مدينة هامبورج الذين آثروا الآن قضاء القيلولة قبل تناول وجبة "تابل لدى هوت"، بعد أن خيم سكونٌ عميق على المكان كله، فلم يعد يُسمع سوى وقع قطر المطر.

وكان السيد جوش لا ينام نهارًا، بل كان يفرح إن استطاع اقتناص بعض ساعاتٍ من النوم ليلاً. كانت حالته الصحية على غير ما يرام، وكان يستغل

هواء المنتجع في هذه الساعة لعلاج ارتعاش مفاصله.. لعنها الرب! فهو لايستطيع بالكاد الإمساك بقدح شراب الـ"جروج"!- ولم يعد بوسعه الكتابة إلا نادرًا، حتى إن ترجمته للأعمال الكاملة لمسرحيات لوب دي فيجا كانت تتقدم ببطءٍ شديد للغاية. فراح يعاني من حالة ضيقٍ هائلة فأخذ يطلق عبارات الهرطقة دون مرحه المعتاد، فكان يقول: "فلتدعنا نمضي إلى هناك"، فبدا هذا عبارةً أثيرة لديه، فقد كان يكررها غالبًا خارج سياق حديثه تمامًا.

فماذا عن السيناتور؟ وكيف كان حاله؟ وما هي المدة التي قرر السيدان قضاءها هنا؟ آه! فقد أرسله إلى هنا الدكتور لانجهالس بسبب حالته العصبية. هكذا كانت إجابة توماس بودنبروك. وكان لابد من التلبية برغم رداءة الطقس. فما عسى المرء فعله حيال الرهبة من تعليمات الطبيب! وقد كان يشعر حقًا بإعياءٍ ما، فليظلا هنا إذن حتى تتحسن حالته..

"عمومًا، فأنا أيضًا أعاني من حالة متردية للغاية" هكذا قال كريستيان، بعد أن فاض به الحسد والمرارة من أن يتحدث توماس وحده عن نفسه. وعندما تأهب لذكر الرجل الذي يومئ إليه، وقارورة الكيروسين، والنافذة المفتوحة، كان أخوه قد غادره ليستلم مفاتيح الغرف.

لم تتراجع حدة هطول المطر، بل إنه نبش الأرض وأصبحت قطراته تتراقص فوق صفحة مياه البحر التي انحسرت عن الشاطئ، مرتعدةً من رياح الجنوب الغربي. ولف كل شيء غلالةٌ رمادية. فأصبحت السفن البخارية تمر مثل الظلال والأشباح لتختفي في الأفق الغائم.

ولم يجتمع حول مائدة الطعام سوى الضيوف الأجانب، بعد أن مضى

السيناتور مع الوسيط جوش للنزهة، وقد ارتدى معطفًا من المطاط وحذاءً مكسوًا، فيما ظل كريستيان هناك بمحل الحلويات ليحتسي شراب الـ"بونش" السويدى مع سيدة البوفيه.

مرتين أو ثلاثًا عصرًا، عندما كانت الشمس تبدو على وشك السطوع، كان يحضر إلى "تابل دى هوت" بعض المعارف من المدينة ليتجاذبوا أطراف الحديث قليلاً، بعيدًا عن أسرهم: السيناتور دكتور جيسكه، زميل كريستيان أيام الدراسة، والقنصل بتر دولمان الذي لم تكن حالته هو أيضًا على ما يرام، فقد أصيب بوعكةٍ بعد تناوله ماء "هيونداي– جانوس– فاسّر"؛ ليجلس الرجال بعدئذٍ مرتدين المعاطف أسفل سقف الخيمة المواجهة لكشك الموسيقى، الذي لم تعد تعزف فيه الموسيقى، فيحتسون القهوة ليهضموا الوجبات الخمس، وهم يتحادثون متطلعين إلى بستان المنتجع الخريفي. وأخذوا يتناقشون حول آخر أحداث المدينة، مثل الفيضان الذي أغرق أقبية كثيرة، واضطر ساكني المناطق المنخفضة إلى استخدام القوارب، وكذلك حول الحريق الذي شب بمخازن الميناء وانتخابات مجلس الشيوخ.. وكان قد تم بالأسبوع الماضى انتخاب ألفريد لاوريتسن بـ"شركة شتويرمان ولاوريتسن لتجارة البقالة جملة وقطاعي". وقد أبدى السيناتور بودنبروك اعتراضه على ذلك.

وقد جلس هناك متدثرًا معطفه ذا الياقة، مدخنًا السيجار، معلقًا ببعض العبارات على هذه المسألة من الحديث. فقال إنه لم يصوت لصالح السيد لاوريتسن عن اقتناعٍ كبير. وأن لاوريتسن بلا شك رجلٌ نزيه وتاجرٌ ممتاز، إلا أنه من الطبقة المتوسطة، وينتمى إليها بمعنى الكلمة؛ فقد كان أبوه يُخرج

الرنجة المحفوظة بيده من البرميل، ويلفها ليبيعها للخادمات.. والآن أصبح تاجر القطاعي نائبًا في المجلس.

وكان خلافٌ قد دب بين جد توماس بودنبروك وبين ابنه البكر لأنه اكتسب حانوتًا من خلال الزواج. هكذا كانت الأوضاع آنذاك، لكن المستوى الآن يتردى، حقًّا؛ لقد بدأ المستوى الاجتماعى لمجلس الشيوخ في التردي، فمجلس الشيوخ يتجه إلى الديمقراطية عزيزى جيسكه، وهذا حالٌ لا يطمئن. فكفاءة التاجر ليست وحدها كافيةً، وأرى أنه لابد من طلب المزيد. ففكرة وجود الفريد لاوريتسن ببهو المجلس، بقدميه الكبيرتين، ووجهه الذي يشبه وجوه البحارة، يُعد بمثابة إهانة لي.. ولست أدري ما يخالجني من شعور.. إنه أمر ضد كل قواعد اللياقة وإيجازًا منافٍ للذوق".

إلا أن سيناتور جيسكه كان مستاءً بعض الشيء؛ فهو في النهاية أيضًا ابن مدير للمطافئ.. لا، فلكل مجتهدٍ نصيب. ومن أجل هذا كانت الجمهورية.

"على أية حال، لا ينبغى عليك الإفراط في التدخين، بودنبروك، فأنت بهذا لا تنتفع بهواء البحر"، فقال توماس بودنبروك، وهو يلقي بالمبسم، ويغمض عينيه: "أجل، سأتوقف عن هذا الآن".

كان المطر الذى لم ينقطع قد عاد لتشتد حدته، ويحجب الرؤية، بينما كان الحوار يمضي في مسارٍ رتيب. فجاء ذكر الفضيحة الأخيرة بالمدينة، وهي جريمة تزوير لتاجر الجملة كاسباوم، بشركة "ب. فيليب كاسباوم وشركاه"، الذي يقبع الآن خلف القضبان. إلا أن هذا لم يفتح الشهية للحديث، فقد وُصِفت فعلة كاسباوم بالحماقة، ولم تهتز لها سوى الأكتاف. إلا أن السيناتور دكتور جيسكه قال إن تاجر الجملة قد احتفظ بروح الفكاهة برغم ذلك،

فقد طلب بمكان إقامته الجديد مرآةً للحمام، كانت تفتقر إليها زنزانته. فقد قال: "إنني لن أقيم هنا بضع سنين بل سنينًا طويلة. إذن فلابد أن يكون لي مرآة". وقد كان- مثل كريستيان بودنبروك وأندرياس جيسكه- تلميذًا للراحل مارسيلوس شتنجل.

ودون أن تتأثر ملامح وجوههم، عاود الرجال الضحك الضنين من خلال أنوفهم. وطلب سيجيسموند جوش مشروب "روم الجروج"، ضاغطًا على حروف كلماته، كأنه يريد أن يقول: بماذا تفيدنا الحياة الرديئة؟ أما القنصل دولمان، فقد وافق على قنينة أكوافيت، كما عاود كريستيان احتساء البونش السويدي، ولم يمض كثيرٌ من الوقت حتى كان توماس بودنبروك يدخن من جديد.

وقد تواصل الحوار رتيبًا هينًا، وبملل مريب لامبالٍ، متأثرًا بالطعام والشراب والمطر، في تناول الصفقات، وأعمال كلٍّ منهم على حدة، إلا أن هذا الموضوع لم يبعث الحيوية في أحدهم.

فقال توماس بودنبروك بضيقٍ: "أه، ليس في هذا الأمر ما يسر"، ثم طرح رأسه على مسند المقعد.

وتساءل السيناتور جيسكه، وهو يتثاءب: "حسنًا، وأنت يا سيد دولمان، هل استسلمت تمامًا للاكوافيت؟"

فقال القنصل: "ألا تحتاج النار للوقود، فها أنا لم أعد أشرف على المكتب إلا كل بضعة أيام. فالمثل يقول: الشعر القصير يسهل تمشيطه".

"وها هي شركة شترونك وهاجنشتروم قد سيطرت على شيء ذي قيمة"؛ هكذا قال متأففًا الوسيط جوش، الذي ارتكز برسغه بعيدًا على الطاولة،

مريحًا رأسه العجوز الشرير على يده.

"بجوار كومة القمامة لا يُشتم للمرء رائحةٌ كريهة" قالها القنصل دولمان بنبرةٍ هامسة ماجنة، مما جعل الجميع يشعرون بضيقٍ من التهكم اليائس. ثم أردف: "و.. أنت، يا سيد بودنبروك، هل ما تزال تقوم بعملٍ ما؟"

فأجاب كريستيان: "لا، فلم يعد بوسعي فعل شيء الآن".

وبسبب إداركه للمناخ السائد، فإنه عمل على تعميق ذلك، فشرع فجأةً في إمالة القبعة على جبهته، ليتحدث دون تمهيدٍ عن مكتبه في فالباريزو، وعن ثندرستورم..

"أنعمل في مثل هذا الجو الحار، ارحمنا يا رب! نعمل.. لا، يا سيدي".

وأثناء ذلك كانوا ينفخون دخان سجائرهم بوجه رئيسهم.. الرحمة يارب!".

وكانت حركاته وسكناته تشي بامتياز بتراخٍ هو مزيج من التحدي السافر وحسن النية. أما أخوه فلم يحرك ساكنًا.

وحاول السيد جوش أن يصل بقدح الـ"جروج" إلى فمه، إلا أنه أعاده من جديد إلى المائدة، وهو يزوم لينهض معتمدًا قبضتيه على ذراعه القوية، ثم هوى بالكأس مرةً أخرى على شفتيه الدقيقتين، فأهرق الكثير ليتجرع الثمالة حانقًا.

"آه منك ومن ارتجافك هذا، جوش! عليك أن تدع الأمر لمساره مثلما أفعل. هذا الهيونداي جونس اللعين.. إنني أُصاب بالشلل لو لم أشرب لترًا كاملاً كل يوم، هذا هو ما آل إليه حالي، فإذا شربته أصابني الشلل عن حق. فهل تدري بحالة مَن لا يستطيع الانتهاء من غدائه يومًا ما.. أقصد إذا بقي في معدتك؟" ثم سرد تفاصيل كاملة مقرفة عن حالته استمع إليها كريستيان

بودنبروك باهتمامٍ مروع، ليقطب أنفه، ويرد على ذلك بوصفٍ لعذابه وصفًا موجزًا مكثفًا.

واشتد المطر من جديد. فهطل عموديًا بغزارة، ليشيع جوًا رتيبًا مقفرًا في سكون بستان المنتجع. ليقول سيناتور جيسكه الذي أفرط في الشرب: "حقًّا، إن الحياة خاملة".

فقال كريستيان: "لقد كرهت البقاء على قيد الحياة".

فقال السيد جوش: "دع الأمور إلى مجراها".

ليقول سيناتور جيسكه: "ها قد جاءت فيكن داهلبك".

كانت هذه هي مالكة اصطبل الماشية، وقد مرت بالرجال حاملةً وعاء الحليب مبتسمةً. كانت امرأة بدينة وقحة تناهز الأربعين.

فتابعها سيناتور جيسكه بعينين متأجحتين شهوةً، وقال "يا لهما من نهدين!" فعقب القنصل دولمان على ذلك بنكتةٍ إباحية، مما دفع بالسادة إلى الضحك من جديد من خلال أنوفهم ضحكًا متحفظًا مزدريًا.

ثم نودي بالنادل المتحفز.

فقد صاح دولمان: "لقد انتهيت من زجاجتي، شرودر، ونستطيع دفع الحساب كذلك، وهو ما لابد منه، وأنت سيد كريستيان؟ آه، فلسوف يدفع جيسكه لك".

هنا دبت الحياة في سيناتور بودنبروك، الذي كان متدثرًا بمعطفه ذي الياقة، واضعًا يديه بحجره، ولفافة بشدقه، غير مشارك تقريبًا فيما يجري حوله، فإذا به فجأةً ينتفض ويقول بحدة: "أليس معك مال الآن، كريستيان؟ إذن، فلتسمح لى بسداد هذا الشيء البسيط".

فكان أن انفردت المظلات ليغادر الجميع الخيمة، بحثًا عن بعض التنزه.

ومن حينٍ لآخر، كانت السيدة بيرمانيدر تزور أخيها. فكان كلاهما يمضيان للتنزه عند "موفنشتاين"، أو إلى كشك الموسيقى. بينما كانت حالةٌ غريبة من الانشراح غير مبررة تغمر أنطونيا بودنبروك كل مرة.

فكانت تعيد تأكيدها على الحرية والمساواة بين الناس، مستنكرةً- على عجلٍ- أي نظام طبقي، مهاجمةً بقسوة الامتيازات والعسف، مطالبةً صراحةً بسيادة مبدأ لكل مجتهدٍ نصب.

فإذا ما عرجت على حياتها الشخصية، أجادت الحديث، مما كان بمثابة مسامرة طيبة لأخيها؛ فقد كانت هذه المخلوق السعيد بغير حاجةٍ إلى كتمان شيء أو السكوت عنه؛ أي شيء مهما تضاءل شأنه، طالما بقيت على قيد الحياة. فلم تسكت عن نفاقٍ أو إهانة تمس حياتها. كل شيء كل فرحٍ أو ترح كانت تقابله بطوفان من كلامها المبتذل الصبياني، الذي يفي تمامًا بحاجتها في التعبير. ولم تكن معدتها على ما يرام، إلا أن قلبها كان حرًّا طليقا إلى حدٍّ لم تعرف هي مداه. فلم يكن يضنيها شيء تتكتمه، وبذا لم تكن تشقى بآثار ماضيها.

فقد أدركت أنها بُليت بمصيرٍ تعِسٍ أليم، إلا أن كل هذا لم يترك لديها أثرًا يضنيها، أو عبئًا يثقل عليها؛ فهي في أعماقها لا تؤمن بهذا، اللَّهُمَّ إلا ما كان حقيقةً يقر بها الجميع، فكانت تستغله مفاخرةً، وتذكره بإشارة بالغة الجدية.. وكانت تنزلق إلى هوة التوبيخ، فتستدعى بكل أسى حقيقي الأشخاص بأسمائهم الذين ألحقوا بحياتها وبأسرة بودنبروك كذلك الضرر، والذين تضاعف عددهم مع الزمن.

فتذكر "تريشكه-الدموع! جريونليش! بيرمانيدر! تيبورتيوس! فاينشنك! وكيل النيابة سيفرين! كم كانوا أفاقين، توماس، ولسوف ينزل بهم غضب الرب ذات يوم، وهو ما أؤمن به!".

وعندما صعدا إلى معبد البحر، كان الغسق قد حل، معلنًا تقدم الخريف. فوقفا حيال إحدى الغرف المفتوحة على الخليج، حيث تفوح هناك رائحة الخشب، كمثيلتها من كبائن مبنى الشاطئ، التى غُطيت جدرانها البدائية بكتاباتٍ وحروف أولى وقلوب وأقوالٍ مأثورة. فظلا بجوار بعضهما البعض لينظرا- عبر المنحدر ذي العشب الرطب، والشاطئ الحجري الضيق- إلى البحر العكر.

فقال توماس بودنبروك: "يا لهذه الأمواج الهائلة تكر وتفر، تكر وتفر، واحدةً تلو الأخرى بلا نهاية، بلا هدف، مجدبةً، ضالة.

"إلا أن لها أثرًا يهدئ الروع مواسيًا، مثل كل أمرٍ بسيطٍ ضروري. وقد تعلمت حب البحر أكثر فأكثر، وقد فضلت الجبال عنه ذات يوم، فقط لأنها ترتفع عاليًا. إلا أنني لا أفضل الآن زيارتها، وأعتقد أن هذا أمرٌ يصيبني بالخجل والخزي؛ فهي مفرطة في الطغيان والتنافر والتنوع العظيم، وهو ما قد يشعرني بالخنوع التام.

"فيا لهؤلاء البشر الذين يؤثرون رتابة البحر؟ ويبدو كأنهم هؤلاء الذين تأملوا طويلاً وبعمق لتحقيق قضايا باطنية، حتى لا يضطروا إلى طلب شيء معين، على الأقل ظاهريًا، وهو البساطة.. وهو نفسه أبسط الأمور التي يسعى إليها المرء عندما يقدم على صعود الجبال، بينما يفترش الآخرون رمال البحر وينعمون بالهدوء. إلا أنني أعرف تلك النظرة التي يتطلع بها كل طرف إلى

هدفه.

"إن النظرة الواثقة، العنيدة، السعيدة، المفعمة بروح الإقدام والإصرار والإقبال على الحياة، هي تلك التي تتطلع من قمةٍ إلى قمة. أما على شواطئ واسعةٍ لبحرٍ يدفع بأمواجه، مستسلمًا لقدرٍ غامض، فنجد النظرة الحالمة الغائمة القانطة العالمة، التي تعمقت ذات مرة بمكانٍ ما في حيرة مضنية.

"العافية والمرض، هذا هو الفرق. فهناك يقدم المرء على الصعود إلى التنوع المدهش لظواهر الطبيعة المتعرجة المرتفعة المدببة، ليقيس قدرته الحيوية التي لم يستنفدها بعد. لكننا نستريح هنا للبساطة العريضة لظواهر الأشياء، مرهقين بالحيرة الباطنية".

أما السيدة بيرمانيدر، فلاذت بالصمت، وقد تملكها شعورٌ بالرهبة مزعج، مثل البسطاء الذين يصيبهم الخرس عندما يستمعون فجأةً إلى كلامٍ طيب وجاد. فمثل هذا الكلام لا يتحدث به أحدا هكذا خطر ببالها، وهي تسدد نظراتٍ جامدة في المدى، هاربةً من عينيه. وعلى سبيل الاعتذار عن أنها أحست بالخزي تجاهه، تأبطت ذراعه.

الفصل السَّابع

كان الوقت شتاءً، وكان عيد الميلاد قد انقضى، ليحل شهر يناير، يناير 1875. وكان الجليد قد غطى الرصيف بطبقةٍ جامدة مُزجت بالرمال والرماد، وتكدست على جانبي نهر الطريق أكوام عالية، لتزداد غبرة وتصدعًا وترهلاً، وابتلت أرض الطريق، وتساقط قطر الماء من الأسطح، إلا أن السماء قد علت ذلك صافيةً، واستحالت إلى لونٍ أزرق رقيق، وبدت مليارات من ذرات الضوء متألقةً كحبات بللور تومض متراقصة.

وكانت الحياة صاخبة في المدينة، فقد كان مساء الأحد موعد انعقاد السوق. أسفل بواكي مجلس الشيوخ ذات القمم المدببة، قام القصابون بنصب حواملهم، وأخذوا يقومون بوزن بضاعتهم بأيدٍ مضمخة بالدماء. أما في السوق نفسها، حول النافورة، فقد أقيمت حلقة السمك. فجلست هناك نساءٌ بدينات يضعن أيديهن في فراءٍ رث، وأقدامهن بجوار أواني الفحم، ليبعثن فيها الدفء، وهن يحرسن السمك البارد المبتل، صائحاتٍ بعبارات ترحيبٍ تحث ربات البيوت والطاهيات على الشراء.

لم يكن هناك خطر التعرض للغش، بل كان المرء على ثقةٍ بأنه يستطيع

شراء أسماك طازجة. فقد كانت جميع الأسماك تقريبًا ما تزال حية، وهي أسماكٌ سمينة بضة.. وكان بعضها سعيد الحظ برغم ضيق المجال، إلا أنها كانت تسبح في دلاء مياهٍ دون عناء. بينما كان البعض الآخر منها يستلقي على ألواح، مُعذَّبًا بعيونٍ جاحظة مروعَة، وخياشيم نشطة متمسكة بالحياة، ضاربةً بقسوةٍ ويأس بذيولها، إلى أن يقبض أحدهم عليها في النهاية لينحرها بمديةٍ حادة دامية يُسمَع لها صرير. أما أسماك الثعابين الطويلة السمينة، فكانت تتحور متلويةً متخذةً أشكالاً نادرة.

وكانت هناك أوانٍ عميقة تعج بسرطانات من بحر البلطيق. وأحيانًا ما كانت سمكة تشبه سمك موسى تنكمش بحركةٍ عصبية جزعًا، وتسقط بعيدًا عن اللوح، على الأسفلت اللزج المتسخ بالنفايات، لتجري صاحبتها خلفها لتستعيدها حانقةً، وهي تلعنها بأقذع سباب.

وفي الظهيرة، كانت الحركة قد نشطت بالشارع العريض. تلاميذ مدارس بحقائبهم فوق الظهور قد جاءوا إلى هناك، ليملأوا الجو بالضحك والثرثرة، وهم يقذفون بعضهم البعض بالجليد شبه الذائب. وتلاميذ من المدارس التجارية ينتمون إلى عائلاتٍ راقية، وقد غطوا رؤوسهم بقبعات بحارة الدنمارك، يرتدون ملابس أنيقة حسب الموضة الإنجليزية، بحافظات نقود بأيديهم، كانوا يمرون دون أن ينقصهم الاعتزاز بالنفس، متباهين بتسللهم من مدارسهم الثانوية؛ بينما كان بعض الأهالى المتسمين بالوقار بلحاهم البيضاء، وعلى وجوههم سيماء الإيمان بالعقيدة الليبرالية الوطنية، وهم يدفعون عصيهم إلى الأمام، متطلعين باهتمامٍ إلى واجهة مجلس الشيوخ، المزدانة بالقرميد المزجَّج، والتي قامت على بوابتها حراسةٌ مزدوجة.

فقد كان مجلس الشيوخ منعقدًا. فكان اثنان من جنود المشاة يرفل كلٌّ منهما بمعطفه رافعًا بندقيته إلى كتفه، قاطعًا مسافةً محددة، وهما يخوضان بلا اكتراث كتلة الجليد الموحلة شبه الذائبة. فكان يلتقيان في منتصف المسافة أمام المدخل لينظر كلٌّ منهما إلى الآخر ليتبادلا كلمةً ما، ثم يفترقان كلٌّ من حيث أتى. وأحيانًا ما كان يدنو ضابطٌ رافعًا ياقة معطفه، واضعًا يديه بجيبي سرواله، مقتفيًا أثر آنسة صغيرة، مستمتعًا بإعجاب سيدات العائلات حديثات السن؛ وحينئذٍ كان كلٌّ منهما يقف أمام كشك الحراسة الخاص به، ناظرًا إلى نفسه من أعلى إلى أسفل ثم يؤدي التحية.

وكان ما يزال أمامهما بعض الوقت حتى يؤديا التحية لأعضاء مجلس الشيوخ، إذ كان الاجتماع سينفض بعد ثلاثة أرباع الساعة، ليحل غيرهما محلهما.. إلا أن أحد الجنديين سمع فجأةً حركةً قصيرة غامضة بداخل المبنى، وفي اللحظة نفسها لمع الفراك الأحمر لحاجب المجلس أوليفلت، ليخرج بقبعته المثلثة متسلحًا بسيفه- وهو الذي ظل منشغلاً للغاية- ليصيح هامسًا "انتباه!" ثم ينسحب مسرعًا مرةً أخرى، بينما كان صدى دبيب خطى يرتفع على بلاط المجلس قادمًا من الداخل.

فاتخذ جنديا المشاة وضع الاستعداد، فضما الكعبين، ونصبا العنق، ونفخا الصدر، ووضعا البندقية عند القدم ليؤديا التحية بالدق بالقبضتين. ومن بينهما، مرق بسرعة رجلٌ متوسط القامة، على رأسه قبعةٌ صلبة مستديرة منتفخة، وقد رفع قليلاً أحد حاجبيه الرائقين، وتجاوز طرفا شاربه المفتول وجنتيه الشاحبتين. كان السيناتور توماس بودنبروك قد غادر مجلس الشيوخ قبل ختام الاجتماع. ثم انعطف يمينًا، وبذلك لم يكن قد شق

طريقه إلى داره. فبدا مستقيمًا نظيفًا نظافةً تامة وأنيقًا، وهو يمضي متواثبًا كعادته بحذاء الشارع العريض، حيث كان دائمًا ما يرد تحياتٍ من كل صوبٍ وحدب. وبيديه قفازان من الجلد اللامع بلون أبيض، حاملاً عصاه بمقبضها الفضي تحت ذراعه اليسرى، وخلف الياقة السميكة بدا رباط الفراك الأبيض. إلا أن رأسه المعتنى بها بدت مؤرقة. وقد لاحظ أناسٌ مختلفون مروا به أن الدموع أخذت تترقرق في عينيه المحتقنتين فجأةً، مطبقًا شفتيه بحرص على نحوٍ غريبٍ وحذر للغاية. وكان أحيانًا ما يبتلع ريقه، كأن فمه امتلأ باللعاب، ثم لوحظ في حركة أعصاب وجنتيه وفوديه أنه يضغط فكيه بعضهما ببعض.

"ماذا حدث، بودنبروك، لقد تسللت من الجلسة، إن هذا لأمرٌ غريب!" كان هذا ما قاله له أحدهم، ولم يكن قد رآه بعد في بداية شارع ميولنشتراسه. ولم يكن هذا سوى شتفان كيستنماكر، الذي وقف أمامه فجأةً، وهو صديقه المعجب به، المؤيد لكل آرائه في القضايا العامة. وقد كانت له لحيةٌ كاملة وخطها الشيب وحاجبان كثان وأنفٌ طويل متسع المسام. وكان قد قام قبل بضع سنين- بعد أن ربح مالاً وفيرًا- بالانسحاب من تجارة النبيذ التي أصبح شقيقه إدوارد يديرها وحده. ومنذ هذا الوقت، أصبح يعيش على معاشه الشخصي. ولما كان يخجل بعض الشيء من وضعه هذا، فقد كان يدعي الانشغال بكثيرٍ من الأعمال.. فكان يمسح بيده على مفرق شعره الأشيب، الذي صففه مموجًا بالمكواة، ويقول "إنني أجتهد، فقد وُجد الإنسان في الدنيا ليجتهد؟"

فكان يقضي الساعات الطويلة بالبورصة، متخذًا مسلك المهتم، دون أن

تكون له أدنى علاقة بما يجري هناك. كما تقلد مناصب عديدةً لا أهمية لها. وباختصار، فقد جعل من نفسه مديرًا لمصلحة حمّامات السباحة في المدينة، كما اجتهد في عمله كمحلفٍ ووسيط ومنفذ للوصايا، ليمسح بعد ذلك عرق جبينه.

ثم كان أن كرر "هناك جلسة، بودنبروك، وأنت تتنزه".

فقال السيناتور هامسًا، وقد تحركت شفتاه بلا إرادة "آه، أنت هو إذن.. إنني لم أقو على رؤية أي شيء لعدة دقائق، وأعاني آلامًا غير محتملة".

"آلام؟ أين؟"

"آلام أسنان؛ فمنذ الأمس، لم أستطع أن أغمض عيني ليلاً.. ولم أذهب بعد إلى الطبيب، لأنني كان لديَّ الكثير من العمل ضحى اليوم، ولم أشأ التغيب عن الجلسة. والآن لم أقو على الاحتمال، وها أنا في طريقي إلى برشت".

"فأين موضع الألم؟"

"هنا، أسفل، ناحية الشمال.. أحد الضروس.. وهو بالطبع قد نخره السوس، مسببًا ألمًا غير محتمل.. وداعًا كيستنماكر! أنت تتفهم أنني في عجلةٍ من أمري.."

"حقًّا، أتعني أنني لست أيضًا كذلك؟ فلديَّ من الأعمال ما يفوق الوصف، وداعًا، عمومًا أتمنى لك شفاءً عاجلاً! فلتخلعه، الخلع في الحال هو الحل المناسب دائمًا".

واصل توماس بودنبروك سيره، ثم ضغط فكيه ببعضهما البعض، رغم أن هذا كان يؤدي إلى ازدياد الحالة سوءًا. كان ألمًا وحشيًّا، حارقًا ومتداعيًا، ألمًا

مروعًا امتد من ضرسٍ مصاب إلى كامل الجانب الأيسر للفك الأسفل. واستحال الالتهاب إلى مطرقةٍ متوهجة تدق هناك، مما أدى إلى انتشار حرارةٍ محمومة في الوجه، ليتداعى لها انهمار دموعه. كما أدى الأرق ليلاً إلى اضطراب أعصابه على نحوٍ هائل. فأخذ يستجمع قواه أثناء الكلام حتى لا يحتبس صوته.

في شارع مويلنشتراسه، دخل إلى دارٍ مطلية بلونٍ أصفر مائل إلى البني، فصعد إلى الطابق الأول حيث عُلقت هناك لافتة من النحاس كُتب عليها طبيب أسنان. لم ينتبه إلى الخادمة التي فتحت له الباب. وفي الممر، كانت تفوح رائحة شرائح اللحم المقلي والقنبيط الدافئة. وفجأة اشتم الرائحة النفاذة لغرفة الانتظار التي اقتيد إليها. وكان أن صرخ صوت امرأةٍ عجوز "تفضل بالجلوس.. لحظة!" ولم يكن هذا سوى يوسيفوس، القابع بالجزء الخلفي للغرفة بقفصه الأبيض، وقد أخذ يرمقه بخبثٍ من طرف عينيه الصغيرتين السامتين.

جلس السيناتور إلى المنضدة المستديرة محاولاً التسرية عن نفسه، بقراءة النكات في كتاب "الأوراق الطائرة"، إلا أنه سرعان ما أغلقه مشمئزًا ليضغط على وجنته بمقبض عصاه البارد، وأغمض عينيه الملتهبتين متنهدًا. كان كل ما حوله غارقًا في السكون، فيما عدا يوسيفوس الذي أخذ يعض القضبان المحيطة به، فيصدر عنها أصوات قضمٍ وصرير. وكان السيد برشت هو السبب في إطالة فترة الانتظار، برغم أنه لم يكن لديه ما يشغله.

نهض توماس بودنبروك بسرعة ليتناول من منضدةٍ صغيرة إبريقًا ليشرب كوبًا من الماء له رائحة ومذاق غاز الكلور. ثم فتح الباب المفضي إلى الممر،

وصاح بنبرةٍ متحفزة بأن يتكرم السيد برشت بالإسراع قليلاً، لو لم يكن هناك مانع، لمعاناته من الآلام. فظهر عقب ذلك، عند باب غرفة العمليات، طبيب الأسنان بشاربه الذي وخطه الشيب وأنفه المعقوفة وجبهته الصلعاء قائلاً: "تفضل"، ليصيح يوسيفوس أيضًا "تفضل"، فلبى الدعوة دون أن يضحك. وقد ظن السيد برشت الذي امتقع وجهه أن الحالة سيئة.

أسرع كلاهما خلال الغرفة المضاءة نحو المقعد الكبير الدوار، المجهز بمسندٍ للرأس ومسندين للذراعين مبطنين بقطيفةٍ خضراء، كان أحدهما قريبًا من النافذة. وأخذ توماس بودنبروك، أثناء تأهبه للجلوس، يصف باقتضابٍ ما يعاني منه، ثم أرجع رأسه للخلف مغمضًا عينيه. فعّدل السيد برشت من وضع المقعد بعض الشيء، وبدأ يعالج الضرس بعمودٍ فولاذي صغير ومرآة، بينما كانت راوئح صابون اللوز تفوح من يده، ورائحة اللحم المقلي والقنبيط من فمه. ثم قال بعد برهة، بعد أن ازداد وجهه امتقاعًا: "نحن مضطرون للجوء إلى الخلع".

فقال السناتور، مغمضًا عينيه على نحو أكثر إحكامًا: "فلتفعل ذلك".

ثم حلت فترة استراحة، ليبدأ السيد برشت في تجهيز شيءٍ ما عند صوان ليخرج بعض الأدوات. ثم اقترب من جديد من المريض ليقول: "سوف أبدأ بالتنظيف قليلاً". ثم شرع في الحال في تنفيذ هذا القرار، فوضع على اللثة كثيرًا من سائل ذي رائحةٍ لاذعة. عقب ذلك طلبَ بودٍ هامس من السيناتور البقاء في حالة سكونٍ، وفتح الفم إلى أقصى حد، ثم شرع في العمل.

فكان أن أمسك توماس بودنبروك بكلتا يديه بمسندي المقعد المبطنين بالقطيفة. ولم يكد يشعر بوضع الكماشة وحزكتها، إلا أنه لاحظ صرير

الآلة في فمه، وكذلك الضغط المتزايد، وآلامه المتنامية الجامحة التى طالت رأسه كلها، بما يشى بأن كل شيء يسير على أكمل وجه. فقال لنفسه إن الأمر للرب، ولتجرِ الأمور في مسارها. إلا أن هذه العملية تجاوزت حدود الاحتمال، ووصلت حد الكارثة، فأصبحت آلامًا غير إنسانية مزعجة مزقت أوصال دماغه.. فقال لنفسه سوف أجتاز كل هذا، وما عليَّ سوى الانتظار.

استغرق هذا ثلاث أو أربع ثوانٍ. وقد انتقل المجهود العضلي المهتز من السيد برشت إلى جسد توماس بودنبروك كله؛ فرُفع قليلاً في مقعده ليسمع حشرجةً خافتة صادرةً من حنجرة طبيب الأسنان.. وفجأةً، أحس بدفعةٍ رهيبة، هزة قوية، وكأن عنقه سيُدَق، وصحب ذلك كسرٌ قليل وقرقعة وطقطقة. ففتح عينيه بسرعة.. فأحس بزوال الضغط، إلا أن رأسه كانت ترعد، والألم يدوي ساخنًا في الفك الملتهب المُعَالج على نحوٍ فظ. وتبين بوضوح أن هذا ليس هو الهدف، ليس هو الحل الحقيقي للمسألة، وإنما كان كارثةً مبكرة لم تؤد إلا إلى ازدياد الحالة سوءًا.. أما السيد برشت فكان قد تراجع مستندًا إلى صوان الآلات، وبدا كملاك الموت، وقال "إنه التاج، كان هذا ما توقعت".

بصق توماس بودنبروك قليلاً من الدم في القصعة الزرقاء المجاورة له، لأن اللثة كانت قد أُصيبت بجرحٍ . ثم تساءل شبه مغيب "ماذا توقعت؟ وماذا عن التاج؟"

"لقد كُسر التاج، سيدى السيناتور.. وأنا أخشى.. أن يكون الضرس مصابًا إصابةً غير عادية.. إلا أنه كان من واجبى الإقدام على هذه التجربة".

"وما العمل؟"

"فلتدع لي الأمر كله، سيدي السيناتور.."

"فما هو الذي سيحدث؟"

"يجب نزع الجذور بواسطة الكماشة.. وهي أربعةٌ".

"أربعة؟ إذن فهناك أربع مرات شد وجذب بالضرورة".

"للأسف".

"حسنًا، سنكتفى اليوم بهذا!" قالها السيناتور وأراد النهوض بسرعةٍ، إلا أنه بقى جالسًا وطرح رأسه إلى الخلف. ثم قال: "سيدي العزيز، لا تكلفني ما لا أحتمل، فحالتي ليست على ما يرام.. فقد حل بي الإرهاق، فهل تتكرم بفتح هذه النافذة للحظة".

ففعل السيد برشت ذلك، ثم أجاب: "سوف يناسبني الأمر تمامًا، سيدي السيناتور، إن واعدتني غدًا أو بعد غد في الساعة التي تناسبك، لنتشاور ثانيةً. وسوف نؤجل موعد إجراء العملية إلى هذا الحين. وعليّ أن أقرر، أنا شخصيًا.. أن أسمح لنفسي مرةً أخرى بإجراء مضمضة وتنظيف من أجل الحد من الألم مؤقتًا".

ثم قام بعملية المضمضة والتنظيف، ليمضي بعدها السيناتور وهو يهز كتفيه أسفًا لما تكبده السيد برشت من طاقة، وقد شحب لونه فصار بلون الجليد.

"لحظة واحدة.. من فضلك" هكذا صاح يوسيفوس عندما مر الاثنان بغرفة الانتظار، وهو ما كرره مرةً أخرى عندما كان توماس بودنبروك يهبط السلم.

"بواسطة الكماشة.. نعم، نعم هذا في الغد، فما عساي فاعل الآن؟ العودة

إلى البيت للراحة ومحاولة النوم". إن ألم الأعصاب يبدو مخدرًا، فلم يشعر إلا بحرقة شديدة غامضة بفمه. إذن هي العودة للبيت.. فمضى على مهلٍ، مخترقًا الطرق، وهو يرد بآلية التحيات التي تلقى إليه، بينما كانت عيناه شاردتين متأملتين.

بلغ "فيشرجروبه"، وبدأ ينزل من الرصيف الأيسر. وبعد عشرين خطوةً داهمه الإعياء. سوف أذهب إلى هناك لأشرب في الحانة كأسًا من الكونياك، كان هذا ما خطر بباله وهو يعبر نهر الطريق.

وعندما اقترب من منتصف الطريق حدث له التالي: كان على وجه الدقة كمن سُلب عقله، وتُطوِّح به قوةٌ عنيدة بسرعةٍ متنامية هائلة في حلقاتٍ واسعة مكثفة، راحت تضيق وتضيق لتقذف به في النهاية بقوةٍ وحشية قاسية إلى مركز الحلقات الصلب كالحجر، فدار حول نفسه نصف دورة ليهوي مفتوح الذراعين فوق الأسفلت المبتل.

ولما كان انحدار الشارع شديدًا فقد كان جذعه منخفضًا على نحوٍ أعمق بكثير من ساقيه. وكان قد سقط على وجهه، لتنتشر تحته في الحال بقعة من الدماء، وتأخذ في الاتساع، بينما كانت قبعته تتدحرج على نهر الطريق، وقد علقت بمعطفه الفراء الفضلات، وابتل بماء الجليد؛ أما يداه في قفازيه البيضاوين اللامعين فقد استقرتا ممددتين في حفرة.

هكذا ظل راقدًا حتى جاءه بعض الناس، وعدلوا وضعه.

الفصل الثَّامن

صعدت السيدة بيرمانيدر السُّلم الرئيس، وهي تلملم ثوبها من الأمام بيدٍ وتضغط فراء ذراعيها الكبير البني باليد الأخرى على وجنتها. وكان سقوطها وتعثرها أكثر من صعودها، وقبعتها المقببة غير مستويةٍ فوق رأسها، أما وجنتاها فكانتا ملتهبتين، وبدت نقاط عرقٍ صغيرة على شفتها العليا البارزة. وبرغم أنها لم تصادف أحدًا، إلا أنها لم تكف عن الكلام وهي تصعد مهرولةً، ومن حينٍ لآخر تفلت منها فجأةً كلمةٌ أثناء همسها، مجسدةً خوفها في صيحةٍ عالية. وقد قالت: "ليس هناك شيء، إن هذا لا يعني شيئًا، لا قدر الرب،.. فهو يعرف ما يفعل، وأنا أؤمن بهذا.. إن هذا لا يعني شيئًا بكل تأكيد.. آه، يا ربي، سوف أصلي لك كل يوم".

كانت تهذي ببساطة بأي شيء بدافع الخوف، وقد أسرعت فوق السلم إلى الطابق الثاني متجاوزةً الممر.. كان باب الغرفة الأمامية مفتوحًا، وهناك التقتها زوجة أخيها.

كان وجه جيردا بودنبروك الجميل الأبيض قد شاع فيه الفزع والنفور تمامًا، وكانت عيناها المتقاربتان السمروان، اللتان تحيط بهما هالاتٌ زرقاء،

تنظران وترفان حانقتين، وقد وشاهما القلق والهم. وعندما تعرفت على السيدة بيرمانيدر، أشارت إليها بسرعة، ومدت ذراعيها نحوها، وعانقتها وهي تدفن رأسها في كتفها.

فهتفت السيدة بيرمانيدر "جيردا، جيردا، ماذا جرى! ماذا حدث!.. ماذا يعني هذا! أتقولين سقط؟ فاقد الوعي؟ كيف حاله؟ لن يكتب الرب ما هو أسوأ.. صارحيني أستحلفك بالرب الرحيم".

إلا أنها لم تحصل على إجابةٍ في الحال، بل شعرت فقط بقشعريرة تمتد إلى بدن جيردا كله، ثم سمعت همسها فوق كتفها.. وقد فهمت منه:

"يا لمنظره عندما جاءوا به! وهو الذي لم يسمح طيلة حياته أن تُرَى ذرةُ غبارٍ على ثيابه... إنه هوان ومهانة أن تكتب له هذه النهاية".

وفاجأهما صوت حركةٍ مكتومة. فقد انفتح الباب المفضي إلى غرفة الملابس، ووقفت إيدا يونجمان به بمئزرٍ أبيض وبيدها قصعة. وكانت عيناها محتقنتين. فلما رأت السيدة بيرمانيدر تراجعت لتفسح لها الطريق. وكان ذقنها يرتعش مجعدًا.

كانت الستائر العالية المزدانة بالزهور تهتز بأثر الهواء، عندما دخلت أنطونيا وخلفها زوجة أخيها إلى غرفة النوم. فاستقبلتهما رائحة الكاربول والكحول الطبي وأدوية أخرى. وفي السرير العريض من خشب الماهوجني، تحت غطاءٍ أحمر، رقد توماس بودنبروك على ظهره مجردًا من ملابسه في رداء نومٍ مغزول. كانت عيناه شبه المغمضتين منكسرتين حائرتين، وأسفل شاربه الأشعث تحركت شفتاه بغمغمة، بينما كان صوتٌ كالغرغرة يصدر عن حلقه بين الحين والآخر.

وكان الطبيب الشاب لانجهالس مائلاً عليه، رافعًا رباطًا مدمًّى من فوق وجهه، غامسًا آخر في قُصيعة فوق الكومودينو. ثم يضع رأسه على صدر العليل منصتًا ويجس نبضه.. وعلى إحدى الوسائد قرب الفراش، جلس يوهان الصغير منصتًا بوجهٍ شارد إلى الأصوات التي يصدرها والده خلفه. بينما كانت الملابس المتسخة معلقةً بمكانٍ ما على أحد المقاعد.

قبعت السيدة بيرمانيدر على جانب الفراش، ممسكةً بيد أخيها الباردة الثقيلة، محملقةً بوجهه.. وقد بدأت تدرك أن الرب كتب عليه الأسوأ، وهو الأعلم بما يقدِّر أو لا يقدِّر.

فانتحبت قائلةً "توم! ألا تعرفني؟ ماذا جرى لك؟ هل انتويت هجرنا؟! لا، أنت لا تنوي هجرنا؟ آه، لن يحدث ذلك". إلا أنها لم تتلق أي شيء يشبه إجابةً ما. فتطلعت مستنجدةً بالطبيب لانجهالس، الذي كان يقف هناك، وقد خفض عينيه الجميلتين، وبدا عليه أمارات لم تخل من بعض الخيلاء، معبرةً عن مشيئة الرب.. وعادت إيدا يونجمان ثانيةً لمد يد العون حيثما كانت الحاجة إليها. كما جاء الطبيب الكبير جرابو شخصيًّا، مصافحًا الجميع بوجهٍ مستطيل لطيف، متأملاً المريض وهو يهز رأسه، ثم فعل ما فعله كذلك الدكتور لانجهالس تمامًا. وكان الخبر قد شاع كالريح في أرجاء المدينة، فراح الجرس يدق بلا انقطاع في مسقط الهواء حتى وصل السؤال عن حالة السيناتور إلى مخدعه. "لم تتحسن"، كانت هي الإجابة التي تلقاها الجميع.

وقد رأى كلا الطبيبين ضرورة استدعاء ممرضة رقيقة من أجل رعاية المريض ليلاً. فأُرسل في طلب الأخت ليندرا فجاءت. ولم يُلحظ على وجهها أي أثر لمفاجأةٍ أو فزعٍ عندما دخلت الغرفة. ففي هذه المرة، قامت بهدوء

بوضع حقيبتها الصغيرة من الجلد وقبعتها وعباءتها جانبًا. وشرعت في أداء عملها بودٍ ورحابة صدر.

أما الصغير يوهان فقد ظل جالسًا ساعةً بعد ساعة فوق إحدى الوسائد متطلعًا إلى كل شيء، مستمعًا إلى صوت الغرغرة. وكان يجب عليه حضور درس الحساب الخصوصي، إلا أنه كان قد استوعب الأحداث التي ألجمت أصحاب الثياب مصقولة النسيج . فإذ خطرت بباله واجباته المدرسية سخر من ذلك.

كما كان يسفح الدمع أحيانًا عندما كانت السيدة بيرمانيدر تقبل عليه لتضمه. إلا أنه كان غالبًا ما كان يطرق بعينين جفت دموعهما، وقد بدت على وجهه أمارات الصد والشرود، وهو يتنفس بحذرٍ بلا انتظام. كأنه يتوقع تلك الرائحة الغريبة، تلك الرائحة التي اعتادها على نحوٍ نادر.

وفي حوالي الساعة الرابعة، كانت السيدة بيرمانيدر قد اتخذت قرارًا. فطلبت من الدكتور لانجهالس أن يتبعها إلى الغرفة المجاورة؛ وهناك، كانت قد عقدت ذراعيها وطرحت رأسها إلى الخلف، بينما كانت تحاول رغم ذلك ضغط ذقنها إلى صدرها.

وقالت: "سيدي الطبيب، هناك ما تستطيع فعله، وهو ما أطلبه منك! فلتصارحني بالحقيقة، ولتفعل ذلك، فأنا امرأةٌ عركتها الحياة.. وقد تعلمت احتمال الحقيقة، صدقني!.. هل يبقى أخي على قيد الحياة إلى الغد؟ تكلم بصراحة!"

تحول عنها الدكتور لانجهالس بعينيه الجميلتين، متأملاً أظافر يديه، متحدثًا عن فقدان طبيعي للوعي، وكذلك عن استحالة الإجابة عن السؤال

عما إذا كان شقيق السيدة بيرمانيدر سيعيش الليلة، أم سيتوفاه الرب..

"إذن، فأنا أعرف ما ينبغي عليَّ فعله" قالت هذا، ومضت إلى الخارج طالبة استدعاء القس.

فجاء هذا بزي كهنوت غير كامل، وبدون تخريمة العنق، إلا أنه كان مرتديًا القفطان الطويل، ناظرًا نظرةً عابرة باردةً إلى الأخت ليندرا، ليجلس على مقعدٍ بجوار الفراش، كان قد وُضِع هناك من أجله. فطلب من العليل التعرف عليه، وأن يصغي إليه قليلاً. فلما لم تفلح هذه المحاولة، اتجه مباشرةً إلى الرب، فخاطبه بلهجة فرانكفورتية خالصة، متحدثًا إليه بنبرة منغمة شبه غامضة، بينما كان وجهه يتبدل بين التعصب الأعمى والإشراق الرقيق.. وكان حرف الراء يكر ممتزجًا بلعاب فمه على نحو غريب من الجزالة والإتقان، حتى أوحى ذلك إلى يوهان الصغير إلى أنه قد تناول توًا قهوة ورغيف زبد.

ثم قال إنه والحاضرين لا ينبغي عليهم الدعاء من أجل حياة هذا الحبيب الغالي، فهم يرون أن مشيئة الرب القدوس قد نفذت. وليصلُّوا فقط من أجل خلاصٍ مريح.. ثم رتل بلهجة محددة مؤثرة دعاءين مما اعتاد ترتيلهما في مثل هذه الحالة، لينهض بعد ذلك مصافحًا جيردا بودنبروك والسيدة بيرمانيدر، وأخذ رأس يوهان الصغير بين راحتيه، متطلعًا لدقيقة وهو يرتعش من الحزن والتأثر إلى رموشه المرسلة، ثم حيا الآنسة يونجمان ناظرًا نظرة عابرة باردة إلى الأخت ليندرا، ليمضي إلى حال سبيله.

عاد الكتور لانجهالس مرةً ثانيةً بعد زيارة خاطفة لبيته، ليجد كل الأمور على عهدها السابق. فتشاور قليلاً مع الممرضة، مستأذنًا في

الانصراف مرةً أخرى. وكان الدكتور جرابو قد جاء ثانيةً، وتحدث ببعض الكلمات، ثم أبدى بعض النصح بوجهٍ لطيف، ومضى. بينما كان بودنبروك ما يزال على حاله، بعينيه المنكسرتين، محركًا شفتيه، مطلقًا صوت الغرغرة.

وحلت ساعة الغسق. ليخيم بالخارج غسقٌ شتوي بعض الشيء، وقد نفذ من النافذة ملقيًا ظلالاً هادئة على الملابس المتسخة المعلقة على أحد المقاعد بمكانٍ ما.

وفي الساعة الخامسة، أقدمت السيدة بيرمانيدر على فعلٍ غير متوقع. فبينما كانت زوجة شقيقها تجلس أمامها على الفراش، شرعت فجأةً في الغناء بصوتٍ عميق عالٍ للغاية، وقد كورت قبضتيها.. "عليك الخلاص يا إلهي" قالت هذا بينما كان الجميع يصغي إليها بلا حراك.

"فلتخلصه من كربه، ثبت قدميه ويديه، وارحمه حتى يدنو أجله.."

إلا أنها كانت تبتهل من أعماقها، حتى أنها لم تنشغل إلا بالكلمات التي كانت فقط ترددها، ولم يخطر ببالها أنها لم تكن تعرف نهاية المقطع، فكانت تتوقف بائسةً عند الفقرة الثالثة؛ فكان هذا ما فعلته، إذ توقفت وهي ترفع صوتها لتعوض الختام بانتصاب قامتها المترفع. بينما انزوى جميع مَن بالغرفة استحياءً. أما يوهان الصغير، فانتابته حالة حشرجة حادة حتى بدا كأنه يئن. ولم يعد يُسمع خلال هذا السكون سوى صوت غرغرة توماس بودنبروك المحتضر.

وقد جاء الخلاص، حين أعلنت الخادمة أنها أعدت شيئًا للأكل بالغرفة المجاورة. فما إن بدأ الجمع، بغرفة جيردا، بتناول الحساء، حتى ظهرت الأخت ليندرا بالباب، وهى تشير بودٍ. مات السيناتور بعد أن شهق مرتين أو ثلاثًا

بصوتٍ واهن، ثم سكت ولم يعد يحرك شفتيه. وكان هذا هو كل ما طرأ عليه من تغيرٍ، فقد كانت عيناه قد ماتتا قبل ذلك. أما الدكتور لانجهالس- الذي حضر من فوره بعد بضع دقائق- فقد وضع سماعته على صدر الجثمان، ليصغى طويلاً، ويقول بعد فحص دقيق: "نعم، إنها النهاية"؛ لتقوم الأخت ليندرا بإطباق جفني المتوفى بإصبعها البنصر برفقٍ. وهنا جثت السيدة بيرمانيدر على ركبتيها أمام الفراش، ودفنت وجهها في الغطاء، وأخذت تنتحب عاليًا. ودون تحفظ ودون كتمان لأي شعور، استسلمت لمشاعرها المتفجرة الحية التي تتسق مع روحها المنطلقة. وبوجهٍ غطاه الدمع، نهضت صلبة متاحة، وباتزانٍ روحي تام، وقد أصبحت متأهبةً تمامًا للتخطيط لإعلانات الوفاة التي كان يجب أن تُكتب على أسرع وجه في الحال؛ طائفة من إعلانات الوفاة مطبوعة طباعة فاخرة. وقد شارك كريستيان في هذا العمل. وكان قد تلقى بالنادي نبأ سقوط السيناتور فانطلق في الحال. فلما خشى رؤية المنظر المريع، قام بجولةٍ طويلة حول البوابة، حتى إن أحدًا لم يتمكن من العثور عليه. وها هو قد وصل الآن ليعلم في الممر بوفاة أخيه، فقال: "إن هذا لأمرٌ محال"، ثم صعد السلم وهو يعرج، مطوفًا بعينيه. ثم وقف بين شقيقته وزوجة أخيه عند فراش الموت، وقد بدا هناك برأسه الصلعاء ووجنتيه المتهدلتين وأنفه المعقوفة الضخمة وشاربه المرتخي وساقيه المنبعجتين النحيلتين مطاطئ الرأس، فكاد يشبه علامة الاستفهام، وهو ينظر بعينيه الصغيرتين الغائرتين إلى أخيه الراقد، وقد بدا صامتًا جامدًا، رافضًا بريئًا، متحررًا من أي حكمٍ بشري.

وكان توماس قد زم شفتيه معبرًا عن بعض الازدراء، وكان هذا هو ما

اتهمه كريستيان بأنه لن يبكي لموته، فمات هو. هكذا أسلم الروح ببساطةٍ تامة، دون أن ينبس بكلمةٍ، فانسحب بنبلٍ وسلام صامتًا، تاركًا للآخرين خزيًا يرثى له، كما كان في حياته، حينما كان يواجِه دائمًا باحتقارٍ بارد آلام كريستيان، عذابه، وأوهامه عن الرجل الذي يومئ نحوه، قارورة الكيروسين، والنافذة المفتوحة. كانت هذه المسألة قد انقضى أمرها لتصبح بلا معنى، بعد أن أصر الموت على اصطفائه، وميزه منصفًا وقبله وكرَّمه واحتواه، ومنحه بجلالته الاهتمام اللائق، بينما استهتر بكريستيان.

ويمر ليمازحه بخمسين من قصص الخزعبلات الخبيثة التي لا تلقى احترام أحد.

وهكذا لم يترك توماس بودنبروك قط في نفس أخيه أثرًا، مثلما فعل في هذه الساعة. إنه لنجاحٌ حاسم؛ فالموت هو وحده الذي يثير احترام الآخرين لا آلامنا، وكذلك لا تجد الآلام المعذبة مبررًا إلا من خلاله. لقد كنتَ على حق، وها أنا أنحني لك، هكذا فكر كريستيان، وبحركة سريعة طليقة جثا على ركبتيه أمامه، ليقبل يده الباردة فوق الغطاء، ثم تراجع ليبدأ بذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا بعيونٍ زائغة.

وكان قد حضر زائرون آخرون، الزوجان كروجر العجوزان، وسيدات بودنبروك بالشارع العريض، والسيد ماركوس العجوز. كما حضرت كلوتيلده المسكينة لتقف هزيلةً عجفاء عند الفراش، وهي تكور ببلادةٍ يديها المدثرتين بقفازين مغزولين، لتقول شاكيةً بكلماتٍ ممطوطة للغاية: "طوني، جيردا، لا تظنا أني بلا قلب لأنني لا أبكي، فلم تعد بعيني دموع.." فأمَّن الجميع على كل ما قالت؛ هي التي بدت هناك بائسةً متربة عجفاء. وفي النهاية

أفسح الجميع الطريق أمام امرأةٍ عجوز، مخلوقة سمجة، تتلمظ بفمٍ خالٍ من الأسنان، جاءت من أجل معاونة الأخت ليندرا في غسل الجثمان وتجهيزه بملابس جنازية.

❖

حتى ساعةٍ متأخرة من المساء، كان كل من جيردا والسيدة بيرمانيدر وكريستيان ويوهان الصغير يجلسون بغرفة المعيشة، حول المائدة الوسطى المستديرة، وأخذوا يعملون- في ضوء مصباح الغاز الكبير- على تسجيل أسماء من تُرسل إليهم إعلانات الوفاة، وكذلك كتابة العناوين على مظاريف البريد، فجرت كل الأقلام على الورق؛ فكان دائما ما يخطر اسمٌ جديد على بال أحدهم، فيقوم بتسجيله بالقائمة؛ حتى هانو كان عليه أن يساعد، فهو يكتب بسلاسةٍ، كما كان الوقت قد أزف.

كان السكون مخيمًا على الدار والشارع، فكان من النادر أن يُسمع دبيبٌ أو صدى خطى، اللّهُمَّ إلا أزيز مصباح الغاز الخافت، وتمتمةٌ باسمٍ ما وحفيف الورق. وبين هذا وذاك، كان الجميع ينظرون إلى بعضهم البعض متذكرين ما جرى. وقد انشغلت السيدة بيرمانيدر تمامًا بالتدوين، إلا أنها كانت تتوقف كل خمس دقائق بالضبط، فكانت تضع القلم ثم ترفع يديها المنعقدتين إلى فمها، لتنفجر في النحيب.

"أنا لا أستوعب ذلك"؛ لتكون بذلك قد ألمحت إلى أنها بدأت في استيعاب ما حدث. "ولكن، لقد انتهى كل شيء الآن!" هكذا كانت تصيح في يأسٍ تام، ثم تطوق بذراعيها عنق زوجة أخيها باكيةً، لتستأنف بعد ذلك

نشاطها مرةً أخرى بدافعٍ أكثر قوةً. أما حال كريستيان، فقد ماثل حال كلوتيلده؛ فلم يكن قد سفح دمعةً واحدة، مما جعله يشعر ببعض الحرج. فأصبح إحساسه بالحرج يفوق كل مشاعره الأخرى. كما استنفد انشغاله بحالته الشخصية الخاصة كل قواه، فتملكته البلادة. ومن حينٍ لآخر كان ينتصب ليمسح بيده فوق جبهته الصلعاء، ليقول وهو يضغط على مخارج ألفاظه: "حقًّا، إنه أمرٌ بالغ الأسى". فكان يقول هذا متحاملاً على نفسه قسرًا حتى يُكره عينيه أن تغرورق بقليلٍ من الدموع.

ثم حدث فجأةً شيء أثار انزعاج الجميع، فقد أُصيب يوهان الصغير بنوبة ضحك. فقد انتبه أثناء الكتابة إلى اسمٍ ما كان له وقعٌ غريب لم يستطع مقاومته. فكان أن كرره، وقد علا شخيره، ثم مال إلى الأمام مرتعدًا وهو ينشج، ولم يعد بوسعه تمالك نفسه. وفي البداية، ظن مَن حوله أنه يبكي، إلا أن الأمر لم يكن كذلك، فنظر إليه الكبار مندهشين غير مصدقين، فما كان من أمه إلا أن أمرته بالذهاب إلى الفراش.

الفصل التَّاسع

كان ذلك بسبب ضرس، مات السيناتور بودنبروك بسبب ضرس. كان هذا هو ما انتشر في أرجاء المدينة؛ لكن، ياللمصيبة؛ فالإنسان لا يموت بمثل هذه العلة. لقد شعر بالألم، فكسر السيد برشت تاج ضرسه، وعلى إثر ذلك سقط ببساطةٍ في الشارع، فهل سمع أحدٌ بمثل هذا الأمر من قبل؛ لكن ذلك أصبح الآن بلا جدوى، فقد كان هذا قدَره، أما ما يجب فعله الآن في مثل هذه الحال، فهو إرسال أكاليل الزهور، أكاليل ضخمة، أكاليل غالية، أكاليل مشرِّفة سوف تذكرها مقالات الصحف، فيعرف الناس أن من أرسلها هم أناسٌ أوفياء قادرون. ولسوف تنهمر أكاليل الزهور من كل صوبٍ وحدب، وسوف ترسلها مؤسسات، وكذلك عائلات وأفراد، وسوف تكون أكاليل من الغار، ومن زهور ذات رائحة نفاذة، أكاليل بورقٍ فضي بشارات سوداء، ومثلها من شارات المدينة ممهورة بعبارات النعي ذات حروفٍ سوداء وأخرى ذات حروفٍ مذهبة وسعف نخيل؛ سعف نخيلٍ هائل. وسجلت محلات بيع الزهور معدلاتٍ عالية من المبيعات، لم تكن أقلها تلك التي

حصدها محل ايفرسن الواقع في مواجهة دار بودنبروك. وكانت السيدة إيفرسن قد دقت الجرس عدة مرات في هذا اليوم، حاملةً باقاتٍ مختلفة الأشكال من القنصل "فلان"، ومن القنصل "علان"، ومن وهؤلاء الموظفين وغيرهم.. وذات مرةٍ سألت إن كان يُسمح لها بالصعود لإلقاء نظرة على السيناتور، نعم، لقد سُمح لها، هكذا جاءها الرد لتتبع الآنسة يونجمان على السلم الرئيس، وهي تسدد نظراتٍ جامدة إلى السلم اللامع، إلا أنها كانت تسير بصعوبةٍ، فقد كانت كالعادة "حاملاً"، وكان مظهرها قد استحال مع مر السنين إلى مظهرٍ وضيع، إلا أن عينيها السوداوين المستطيليتين وكذلك عظام وجنتيها، الشبيهة بملامح سكان جزر الملايو، تجعلها تتمتع بإثارةٍ بالغة. مما حدا بالجميع لأن يؤمنوا بأنها كانت تتمتع بحسنٍ فائق في سالف الزمن. وقد اقتيدت إلى الصالون، حيث احتُفظ هناك بجثمان توماس بودنبروك. ففي وسط غرفةٍ رحبة مضاءة، كان قد تم إخلاؤها من الأثاث، كان يرقد موسَّدًا وسائد التابوت من حريرٍ أبيض، مرتديًا ملابس من حريرٍ أبيض، ومتدثرًا بحريرٍ أبيض مُضمخًا بمزيج من عطورٍ فواحة نفاذة من زهور الياسمين البحري والبنفسج، ومئات من زهورٍ أخرى. وعند رأسه، في نصف دائرة من الشمعدان الفضي بقوائمه الزجزاجية، كان قد وُضِع كتاب "يسوع المبارك" لتورن فالدسن. أما عقود الزهور والأكاليل وسلال وباقات الزهور، فكانت مصطفة بامتداد الجدران، أو على الأرض، أو على غطاء الفراش؛ وأما سعف النخيل فكان يحف بالتابوت مائلاً على قدمي الراحل الذي كانت بعض ملامح وجهه قد تعرضت للتشوه، وظهرت كدمات على الأنف خاصةً. أما شعر رأسه، فكان مصففًا كما كان أثناء حياته، وقد قام السيد فنتسل العجوز

بفرد شاربه مرةً أخرى بالمكواة، ليرتفع طويلاً حادًا فوق وجنتيه المتقعتين، وأما رأسه فقد مالت قليلاً، ووُضِع بين يديه المنعقدتين صليبٌ من العاج.

ظلت السيدة إيفرسن واقفةً على مقربة من الباب، وقد أخذت عيناها ترفان وهي تنظر من هناك إلى التابوت، ولم تجرؤ على التقدم بضع خطى فوق أرض الغرفة المكسوة بالباركيه، إلا عندما خرجت السيدة بيرمانيدر من بين الستائر متشحةً بالسواد، وقد أصابها البكاء بزكامٍ، لتدعوها برفقٍ للاقتراب، فوقفت عاقدةً يديها فوق بطنها المنتفخة، ناظرةً بعينيها السوداوين المستطيلتين إلى الزهور والنبات والشمعدان والشارات والحرير الأبيض، متأملةً وجه توماس بودنبروك. وقد كان من الصعب التعبير بكلمات عن ملامح المرأة الحامل، ذات الوجه الشاحب المتقع.. وفي النهاية قالت: "حقًا.." ثم شهقت مرةً، مرةً واحدة، شهقةً قصيرة للغاية، غير واضحة، ثم ولت خارجة. وكانت السيدة بيرمانيدر تؤثر مثل هذه الزيارات. فلم تغادر الدار، مراقبةً بحماسٍ لا يفتر كل تكريم يقدم لجثمان أخيها الراحل. وكانت تقرأ بصوتها العميق مراتٍ عديدة تلك المقالات عن شخص الفقيد الفريد، مثلما احتفت بعيد شركته المئوي. كما حرصت على حضور جميع زيارات العزاء التي كانت تستقبلها جيردا بغرفة المعيشة، وهي زياراتٌ لم ينقطع سيلها، أما عددها فكان كفيلاً بتكوين فرقةٍ عسكرية. كما كانت تعقد اجتماعاتٍ مع أناسٍ مختلفين، لمناقشة مسألة الدفن، الذي لابد أن يكون على مستوى رفيع بلا مثيل. كما قامت بتنظيم مشاهد الوداع، فدعت موظفي المكتب للصعود لوداع رئيسهم، ثم جاء دور عمال المخازن، فراحوا يتدافعون بأقدامهم الضخمة فوق أرض الباركيه، ليتقدموا وهم يزمون

شفاههم من فرط الأسى، وقد فاحت منهم رائحة العرق وتبغ المضغة ورائحةٌ ناتجة عن العمل، متأملين العناية الفائقة بالفقيد، وهم يدوِّرون قبعاتهم، مبدين إعجابهم في بادئ الأمر، وفي نهايته كان الملل قد أصابهم حتى تشجع أحدهم مبادرًا بالانصراف، ليقتفي السرب كله أثره. وهو ما عاد بالراحة على السيدة بيرمانيدر، التي زعمت أن العديد منهم انهمرت دموعهم حتى ابتلت لحاهم، وهو ما لم يكن حقيقيًا بالطبع، ولم يحدث ما هو أدنى منه؛ إلا أنها كانت ترى ما يسبب لها السعادة.

ثم حل يوم الدفن. وكان التابوت المعدني قد أُغلق بإحكامٍ، وغُطي بالزهور وأُوقِدت الشموع فوق الشمعدانات، وامتلأت الدار بالمعزين من أهل المدينة ومن خارجها. وكان القس برينجزهايم قد وقف بجلالٍ عند مقدمة التابوت، محاطًا بالمعزين من العائلة ومن غيرها، وقد أراح رأسه المؤثر فوق تخريمة عنقه العريضة، وكأنها استقرت فوق صحن. وقد استُدعى رجلٌ محترف بارع ليُعهَد إليه بالإشراف على موكب الجنازة. فكان أن أمسك بقبعته الصلبة المستديرة، ليهبط على كعبيه السلم الرئيس، ويصيح هامسًا بنبرةٍ تجاوزت إلى خارج الممر: "لقد غصت الغرف بالناس، أما الممر فما يزال به مكانٌ ما" فكان أن فاض الممر على إثر ذلك بموظفى الضرائب، بثيابهم الرسمية، وسراويلهم الفضفاضة، وقبعاتهم الصلبة المستديرة، ثم لاذ الجميع بالصمت ليشرع القس برنجزهايم في الحديث. فعمَّ حديثه الجزل، منغَّمًا مرتلاً، الدار كلها. وبينما كان يقف بالطابق العلوي بالدار بجوار تمثال المسيح، وهو يعتصر يديه أمام وجهه ثم يفردهما مباركًا، كان أمام المنزل وتحت سماء الشتاء الملبدة بالسحب البيضاء، تقف عربةٌ بأربعة خيول لتحمل الجثمان،

ويتبعها ركبٌ من عرباتٍ أخرى، لتنحدر حتى تصل النهر. وفي مواجهة الباب، كانت تقف فرقة جنود في صفين، وسلاحهم بجوار أقدامهم، وقد وقف على رأسهم الملازم فون تروتا، شاهرًا سيفه ناظرًا بعينين متوهجتين إلى الشرفة. وكان الكثيرون واقفين بالنوافذ، وقد اشرأبت أعناقهم متطلعين إلى الطريق المُعبَّد.

وفي النهاية، صدرت حركةٌ في الممر، فانطلق أمر الملازم هامسًا ليؤدي الجنود التحية لدى ظهور التابوت متأرجحًا بهوادة، متجهًا نحو باب الدار، وقد حمله أربعةُ رجالٍ بمعاطف سوداء وقبعةٍ مثلثة، وقد نشر الهواء عبق الزهور فوق رؤوس الجمهور المتطلع، محركًا في آنٍ واحد الريش أعلى سطح العربة الجنازية، مداعبًا أعراف كل الخيول المصطفة حتى النهر، متلاعبًا بريش قبعات سائس العربات وخدم الاصطبل. كما انهمرت رقائق جليدية متناثرة عجيبة للغاية، وقد راحت تتهادى من السماء على هيئة أقواس. وكان أن شرعت خيول العربة الجنازية في الحركة ببطء، وقد اكتست برداءٍ أسود لم يظهر منه سوى عيونها المضطربة، وقام على قيادتها أربعةٌ من السائسين السود، وانضمت إليهم فرقة الجنود، ليلي ذلك العربات الواحدة تلو الأخرى، فصعد كريستيان بودنبروك مع القس إلى أول عربة، وتبعهما يوهان الصغير بصحبة أحد أقاربه المقربين من أهل هامبورج الموسرين. بطيئًا، بطيئًا مضى ركب توماس بودنبروك الجنازي الممتد بعيدًا، وقد ران عليه الحزن وسط مظاهر الاحتفاء، بينما كانت الريح تصفع الرايات المنكسة فوق البيوت كافةً. أما الموظفون وحمالو الحبوب، فساروا على أقدامهم. هكذا تقدم الجمعُ الحزين مخترقًا طرق الجبانة، مارًا بالصلبان والتماثيل والقباب ومراعي الجبانة

المقفرة، حتى وصل إلى مدافن بودنبروك. وهناك اصطفت فرقة التشريفة لتؤدي التحية من جديد، ليرتفع خلف أحد الأحراش إيقاع مارش عسكري ثقيلاً كظيمًا. وكان أن أُزيحت مرةً ثانيةً صخرة القبر التي نُقش فوقها شعار العائلة، ليلتف- مرةً أخرى- سادة المدينة حول سياج الدغل المجدب، محيطين بالقبر المبطن بالأحجار الذي ينزل إليه الآن توماس بودنبروك إلى والديه. وقد وقف هناك السادة الموسرون الأثرياء، منكسين رؤوسهم أو مائلين بها، وقد بانت عليهم أمارات الحزن، وبينهم أعضاء مجلس الشيوخ، مميزين بقفازاتهم وأربطة أعناقهم البيضاء، وعلى مسافةٍ بعيدة تدافع الموظفون وحمالو الغلال وموظفو المكتب وعمال المخازن. وكان أن سكنت الموسيقى ليخطب القس برينجزهايم. فلما حمل الهواء البارد كلماته المباركة، كان على الجميع مصافحة شقيق الفقيد وابنه مرةً أخرى، وكان طقسًا طويلًا تلقى أثناءها كريستيان بودنبروك كل عبارات المواساة بوجه تناوبت عليه أمارات الحيرة والاضطراب؛ وهي سماتٌ كانت تلازمه أثناء الاحتفالات. وقد وقف بجواره يوهان الصغير، مرتديًا سترة البحارة الثقيلة، ذات الأزرار المذهبة، وقد خفض عينيه المحاطتين بهالات زرقاء إلى الأرض، متحاشيًا النظر إلى أحد، وقد أمال رأسه نحو الريح، وبدت على وجهه أمارات الجزع.

الجــزء الحادي عشــر

الفصـل الأوَّل

يخطر ببالنا هذا الشخص أو ذاك متفكرين فيما آل إليه حاله، وفجأةً نتذكر أنه لم يعد يمضي متنزهًا على الرصيف، أو أن صوته لم يعد يرن في جوقة الأصوات الجماعية، بل إنه ببساطة وللأبد قد اختفى من مسرح الأحداث، ليرقد بمكانٍ ما تحت الثرى خارج "البوابة".

فها قد رحلت القنصلة بودنبروك، سليلة آل شتيونج، وكذلك أرملة العم جوتهولد، التي كانت سبب شقاقٍ وقع بين أفراد العائلة؛ فمنحها الموت هي أيضًا صك المغفرة والرحمة. وها هن بناتها الثلاث فريدريكه وهنريته وفيفي يقمن بواجبهن في تلقي عزاء أقاربهن، وقد ارتسمت على وجوههم أمارات اللوم، كأنهن يقلن: "أترين، لقد قادتها ملاحقتكن إلى القبر". برغم أن القنصلة كانت قد بلغت من العمر أرذله. كما رحلت أيضًا السيدة كيسلن، التي عانت- في سنواتها الأخيرة- من داء النقرس، ففارقت الدنيا بهدوءٍ وبساطة، وقد كانت على إيمانٍ بريء، محسودةً من أختها المتعلمة التي كانت تكافح- من حينٍ لآخر- ضد الجدل العقلاني، برغم أن قامتها كانت قد أخذت في التضاؤل والانحناء. كما توفي القنصل بيتر دولمان، الذي بدد ثروته

ليقتله في النهاية شراب الـ"هيونداي جانوس"، ولم يترك لابنته سوى معاشٍ يقدر بمائتي مارك في العام، جعلها وديعةً باسم دولمان للإنفاق عليها مقابل قبولها بدير يوهانس. ورحل أيضًا يوستوس كروجر، فكانت وفاته بمثابة كارثة؛ إذ لم يعد هناك مَن يمنع زوجته الواهنة من بيع آخر إناءٍ فضي، لتوفر مالاً تبعث به إلى ياكوب المحروم من الميراث، الذي كان يعيش متصعلكًا في مكانٍ ما من العالم. أما كريستيان، فقد اختفى من المدينة بلا أثر؛ فلم يعد يعيش بها، فقد انتقل إلى هامبورج بعد أقل من عام من رحيل أخيه السيناتور. فهناك، لم يكن مَن يمنعه من الزواج بسيدةٍ كانت مقربةً منه منذ زمن، هي الآنسة إلينه بوفوجل. وبرغم أن ميراثه عن أمه، الذي كان نصف فوائده يحوَّل إليه مباشرةً إلى هامبورج، وكان يقوم على إدارة ما تبقى منه السيد شتفان كيستنماكر، طبقًا لوصية صديقه الراحل، إلا أن كريستيان- فيما عدا ذلك- كان يتبع رأسه فقط. وما إن عُرف خبر زواجه، حتى أرسلت السيدة بيرمانيدر خطابًا طويلاً مفخمًا بروح عدائية إلى السيدة إلينه بودنبروك، وقد بدأته بمخاطبتها "السيدة!"؛ وأبلغتها من خلاله- بكلماتٍ واضحة لاذعة- بأن السيدة بيرمانيدر لا تنوي أبدًا الاعتراف بالمرسَل إليها، وبأولادها، بأنهم من أفراد عائلاتها.

أما السيد كيستنماكر، فقد كُلِّف بتنفيذ الوصية، وإدارة أموال آل بودنبروك، وبالوصاية على يوهان الصغير. وكان ينهض بمهامه هذه على خير وجه، ووفر له ذلك عملاً مهمًّا للغاية، فكان يمسح رأسه بكفه أثناء عمله بالبورصة، وهو يردد بأنه يجهد نفسه، بعد أن تكون علامات الإرهاق قد ارتسمت على وجهه. إلا أن كل أعماله الأخرى لم تصادف نجاحًا، برغم

تقاضيه بانتظام نسبة 2-٪ من الإيراد، مما أدى إلى سخط جيردا بودنبروك عليه. وقد اتخذت الأمور هذا المسار إلى أن تمت التصفية، لتنتهي الشركة خلال عامٍ واحد فقط. وقد حدث هذا طبقًا لآخر قرار اتخذه السيناتور، وهو ما أثار غضب السيدة بيرمانيدر الشديد، فراحت تتساءل: "فماذا عن يوهان، يوهان الصغير، هانو؟" فقد فجعتها حقيقة أن أخاها تجاهل ابنه ووريثه الوحيد، فلم يشأ أن تؤول إليه الشركة، وراحت تبكي لساعاتٍ على فقدان اسم الشركة الجليل؛ هذه الجوهرة التي توارثتها أربعة أجيال، وتبكي القضاء على التاريخ الشخصي، بينما وريثها الطبيعي ما يزال موجودًا. إلا أنها راحت تواسي نفسها بأن انتهاء الشركة لا يعني النهاية نفسها للعائلة، وأن ابن أخيها سوف يبدأ حتمًا عملاً جديدًا حديثًا، وسوف يجتهد حتى يكتسب اسم أسلافه بريقًا وشهرة، دافعًا إلى جسد الأسرة دمًا جديدًا؛ فهذا الشبه الكبير الذي يجمعه بجده الأكبر لم يكن محض مصادفة. هكذا بُدئ العمل في تصفية أعمال الشركة، بإشراف السيد كيستنماكر والسيد ماركوس العجوز، وقد جرى ذلك على نحوٍ محزنٍ للغاية. فقد كان لابد من الالتزام التام بالمهلة القصيرة الممنوحة لإتمام ذلك، فلما أزف الوقت أخذ إنجاز التصفية يتم على نحوٍ متهور ضار، فتلاحقت عمليات البيع المتعجلة الخاسرة، وبيعت المخازن والغلال بثمنٍ بخس، وما لم تفسده رعونة السيد كيستنماكر أفسده خمول السيد ماركوس العجوز، الذي كان أهل المدينة يتندرون بأنه- أثناء الشتاء- لم يكن يحرص على تدفئة معطفه وقبعته فحسب، بل عصاه كذلك؛ فحتى إذا سنحت له فرصة للنجاح، فإنه كان يضيعها على وجه اليقين. وموجز القول إن الخسائر تداعت، وكان توماس

بودنبروك قد ترك ثروةً بلغت قيمتها الدفترية ستمائة وخمسين ألف مارك، لكن- بعد عامٍ واحد من فتح الوصية- اتضح أن هذا المبلغ لا يمت للواقع بصلة. وقد انتشرت شائعات غير موثوقة ومبالغ فيها حول التصفية غير المفيدة، ولكن ما أكد هذه الشائعات كان خبر اعتزام جيردا بودنبروك بيع دارها الكبيرة.

وقد رُويت نوادر عن السبب الذي اضطرها إلى ذلك، وكذلك عن ضياع ثروة بودنبروك، وأخذ الرأي العام بالمدينة- إزاء أرملة السيناتور- يتسم شيئًا فشيئًا بالدهشة، ثم التعجب؛ حتى وصل إلى حد الاستياء. فعندما أبلغت ذات يوم أخت زوجها أن بعض الحرفيين والموردين قد ألحوا عليها- على نحوٍ غير لائق- في المطالبة بإعادة النظر في حسابات مستحقة لهم، فقد ظلت السيدة بيرمانيدر لا تحرك ساكنًا لفترةٍ طويلة، ثم انفجرت في نوبة ضحك، فكان أن تأجج غضب جيردا بودنبروك إلى حد إعلانها التفكير في مغادرة المدينة مع ابنها يوهان الصغير إلى أمستردام. لتعيش مع والدها العجوز، فتعزف معه هناك عزفها الثنائي على الكمان. إلا أن هذا أثار فزع السيدة بيرمانيدر، مما أدى إلى تغاضيها عن هذه الفكرة مؤقتًا.

وكما كان متوقعًا، فقد شمل غضب السيدة بيرمانيدر أمر بيع دار شيدها أخوها، فراحت تعلن شكواها من الانطباع السيء الذي يمكن أن يسببه ذلك، وهو ما سوف يعني إلحاق الأذى بمكانة العائلة. إلا أنها تفهمت فيما بعد أن استمرار الحياة- في هذه الدار الرحبة الفخمة، والحفاظ عليها- ليس أمرًا عمليًا، وهي الدار التي كلف شغف توماس بودنبروك بها أموالاً طائلة، وأن أمنية جيردا في الانتقال إلى فيلا صغيرة مريحة، أمام "البوابة" وسط

الخضرة، لهو أمرٌ له أسباب وجيهة. وجاء اليوم السعيد الذي كان ينتظره السيد جوش، الوسيط السيد سيجيسموند جوش، ليمر بتجربةٍ أنعشت أيام شيخوخته، شُفيت خلالها أوصاله من الرعشة لعدة ساعات. فقد حدث أن أُذن له بالحضور إلى صالون جيردا بودنبروك، ليجلس هناك على فوتي أمامها، ينظرها وتنظره أثناء مساومته لها في سعر بيع الدار.

وبعد أن مسح شعره ناصع البياض من كل جانب باتجاه وجهه، أخذ يحدق فيها بذقنٍ بارزة على نحوٍ مريع، من أسفل إلى أعلى حتى وجهها، إلى أن نجح في أن يبدو أحدب تمامًا. وكان صوته يفح، إلا أنه كان يتكلم ببرود ولهجة عملية، ولم يُبد شيئًا ينم عن الزلزال الذي هز كيانه. لكنه كان مصممًا على شراء الدار، ثم فرد يده ليعرض بابتسامةٍ خبيثة خمسةً وثمانين ألف مارك. وكان هذا العرض مرضيًا، لأن الخسارة كانت متوقعة. إلا أنه كان لابد من الرجوع في هذا الشأن إلى رأى السيد كيستنماكر، مما اضطر جيردا بودنبروك إلى تأجيل الرد على السيد جوش، إلا أن السيد كيستنماكر لم يكن ليسمح لأحدٍ بأي تدخل في شؤون عمله، فأبدى احتقاره لعرض السيد جوش وسخر منه، مؤكدًا على الحصول على سعر أفضل من ذلك بكثير، وظل على موقفه هذا حتى اضطُر إلى بيع الدار بخمسة وسبعين ألف مارك إلى كهلٍ أعزب، كان قد عاد من سفرٍ طويل وشاء الاستقرار في المدينة.. كما نجح السيد كيستنماكر في شراء مسكنٍ جديد، كان فيلا صغيرة لطيفة، كانت فيما يبدو أعلى ثمنًا مما تستحق، إلا أنها كانت تقع أمام "بورجتور" بشارع عريض، على جانبيه شجر الكستناء العتيق، وقد أحاط بها بستان به نبات زينة وآخر مثمر، وهو ما وافق هوى جيردا بودنبروك. وكان أن انتقلت

السيناتورة إلى هناك في خريف العام السادس والسبعين، برفقة ولدها وخدمها وجزء من أثاث دارها، تاركةً جزءًا آخر تحت ضغط شكوى احتجاج السيدة بيرمانيدر، ليتملكه الكهل الأعزب. لكن التغيير لم يتوقف عند هذا الحد؛ فقد تم الاستغناء عن الآنسة يونجمان، إيدا يونجمان، من خدمة العائلة، بعد إقامتها بدار بودنبروك لأكثر من أربعين عامًا، لتعود إلى موطنها ببروسيا، لتقضي بقية حياتها بين أقاربها. وللحق فإن السيناتورة كانت هي التي قامت بإنهاء خدمتها، وكانت المرأة الطيبة قد وجدت عزاءً في يوهان الصغير، بعد أن كبر الجيل الأسبق، فعكفت على رعايته وشملته بحبها، وراحت تقرأ عليه حكايات الأخوين جريم، وقصة العم الذي مات من الفواق. لكن يوهان الصغير ما عاد الآن صغيرًا، بعد أن أصبح فتى في الخامسة عشرة من عمره. ولم يعد بحاجة إليها برغم رقة كيانه، أما علاقتها بوالدته فكانت قد ساءت منذ زمن، فلم تكن تعتبر هذه المرأة قط، التي انضمت إلى العائلة بعدها بزمن طويل، فردًا كاملاً من أفراد الأسرة، ولا تقر بولايتها عليها. ومن ناحية أخرى، فقد أصبحت- بعد تقدم عمرها- تزايد على تخصصاتها، كشأن من أفنى عمره في خدمه مولاه؛ وقد أثارت أسبابًا للصدام لما اعتبرت نفسها الشخص الأهم، فراحت تفرض هيمنتها على هذا أو ذاك من شؤون المنزل، حتى أصبح الوضع لا يطاق؛ فاضطربت الأحوال واحتدت. وبرغم أن السيدة بيرمانيدر قد تدخلت لصالحها، بفصاحتها المعهودة التي كانت تتحدث بها عن البيوت الكبيره وأثاثها، إلا أنه تم الاستغناء عن خدمات إيدا العجوز.

وقد بكت بكاءً مريرًا عندما حانت ساعة وداعها ليوهان الصغير،

الذي عانقها، ثم وضع يديه خلف ظهره، ثم اعتمد على ساقٍ واحدة بينما شب على أطراف قدمه الأخرى، متابعًا إياها بتلك النظرة الغامضة نفسها التي ارتسمت بعينيه حينما نظر إلى جثة جدته، ولحظة وفاة والده، وعند انفراط عقد البيتين الكبيرين، ومواقف أخرى مماثلة وإن كانت أقل وطأةً.. وقد انتظم وداع إيدا العجوز في سلسلة أحداثٍ أدت إلى تردي حال الأسرة وانهيارها ونهايتها، تلك المشاهد التي اعتادها، فلم تعد تثير دهشته، وهو شيء نادر. فأحيانًا حين كان يرفع رأسه، بخصلات شعره الكستنائي الفاتح وشفتيه المزمومتين دائمًا، ويتسع جيبا أنفه الدقيقان ليبدو كأنه يتصيد بحذرٍ نسمات الحياة من المناخ الذي يحيط به، وكذلك ليحس بالرائحة، تلك الرائحة التي اعتادها على نحوٍ نادر، ولم تستطع روائح كل زهور تابوت جدته أن تمحو أثرها.

أما السيدة بيرمانيدر، فكانت- أثناء حديثها إلى زوجة أخيها- تُدني ابن أخيها منها لتحكي له عن الماضي والمستقبل الذي يدين آل بودنبروك بالفضل له، هو، يوهان الصغير. وكلما كشف الحاضر عن وجهه العابس، كانت تحس بقلة حيلتها على وصف تفاصيل رفاهية الحياة في بيت والديها وجديها، وكيف كان الجد الأكبر هانو يجوب أرجاء البلاد بعربةٍ تجرها أربعة خيول. وذات يومٍ داهمتها نوبةٌ حادة من تقلصات المعدة، عندما زعمت فريدريكه وهينريته وفيفي بودنبروك بأن آل هاجنشتروم هم صفوة المجتمع.

وكانت أخبارٌ غير سارةٍ قد انتشرت عن كريستيان. فقد بدأ زواجه يؤثر على نحوٍ سلبي على حالته، لتعاوده أفكارٌ جنونية غريبة، وتهيؤات قسرية على نحوٍ أكثر شدة؛ مما استدعى نقله إلى مصحةٍ بناءً على طلب زوجته وطبيبه.

فلما ضاق ذرعًا بإقامته هناك كتب خطابات يائسة إلى أهله، عبر فيها عن رغبةٍ عارمة في إطلاق سراحه من هذه المصحة التي يبدو أنها تحرص حرصًا شديدًا على معاملته بقسوة.. إلا أنهم أبقوا عليه هناك، فكان هذا في صالحه بالفعل، لكن ذلك أدى بزوجته إلى أن تستأنف حياتها المتحررة السابقة، دون اعتبارٍ أو حائل، مستفيدةً من الفوائد العملية والمثالية التي وفرتها لها هذه الزيجة.

الفصـل الثَّـاني

كان المنبه يؤدي وظيفته على خير وجه، عندما بدأ يرنبإلحاحٍ، وكان جرسه أقرب إلى حشرجةٍ متفجرة صاخبة. فقد كان عتيقًا مستهلكًا. إلا أن رنينه امتد لوقتٍ طويل، طويل إلى حدٍّ يائس، فقد كان الزنبرك قد شُدَّ إلى منتهاه. فدهم هانو بودنبروك فزعٌ باطنيفكانت أمعاؤه تتقلص كل صباحٍ شاكيةً يائسةً مع بدء هذا الصخب المزمن المؤلم والمخلص في آنٍ واحد، الصادر عن المنبه فوق الكومودينو الملتصق بأذنيه، والقائم أمام حكايات الأخوين جريم. لكنه، ظاهريًّا، يظل راقدًا بهدوءٍ تام، جامدًا في فراشه، وقد فتح عينيه فقط بسرعة بفعل كابوس صباحي غامض. كان الظلام مخيمًا على نحوٍ تام على الغرفة الباردة بفضل الشتاء، فلم يكن بوسعه تمييز أيٍّ من أثاثها أو رؤية عقارب الساعة، لكنه كان يعرف أنها الساعة السادسة. فقد ضبط المنبه على هذا التوقيت بالأمس، أمس.. أمس..

ها هو وعيه يسترجع كل شيء، شيئًا فشيئًا، بينما هو يجاهد بأعصابٍ متوترة في اتخاذ قرار إضاءة النور ومغادرة الفراش، وهو راقدٌ بلا حراك. كان ذلك يوم أحد، وقد سبقته أيامٌ عديدة اضطُر فيها لتحمل العلاج الخاطئ

على يد السيد برشت، فكان أن كافأته والدته باصطحابه إلى المسرح للاستماع إلى "لوينجرين"[*]. وكانت سعادته بهذه الأمسية قد غمرت حياته لأسبوع كامل.

ولم يعكر صفو ذلك سوى أنه دائمًا قبل هذه المناسبات السعيدة، كانت تتراكم المعوقات حتى آخر لحظة لإفساد هذه الفرصة السارة المخَلِّصة. إلا أنه كان قد نجح يوم السبت في اجتياز اليوم الدراسي، وكانت آلة علاج الأسنان قد انتهت من دورانها المؤلم بفمه.. والآن، كان قد تخلص من كل شيء وتغلب عليه، بعد أن اتخذ قرارًا سريعًا بإرجاء الواجب المنزلي إلى النصف الأخير من مساء الأحد. فماذا كان يعني يوم الاثنين؟ هل كان يعني أنه ربما سينجز شيئًا فيه؟ إنه لا يؤمن بيوم الاثنين، إن كان سيستمع مساء يوم الأحد إلى "لوينجرين".. فقد كان عليه الاستيقاظ باكر الاثنين لإنجاز مثل هذا الواجب الكابوس، وهذا يكفي. والآن، فليقض وقته بحرية، محافظًا على سعادة قلبه، حالمًا بالبيانو، مُعرضًا عن المنغصات، وها هو الحظ يستحيل واقعًا، مقبلاً عليه بكل مسراته وخيراته، برجفاته وارتعاداته الخفية، ونسيجه الباطني المفاجئ، ونشوته العارمة الغامرة.

وحقًا، فإن آلات كمان الأوركسترا الرخيصة قد فشلت بعض الشيء في المقدمة الموسيقية، كما كان رجلٌ بدين، إنسانٌ مغرور بلحية شقراء بلون القمح، قد ظهر سابحًا بقارب مرةً تلو الأخرى.

كما جاوره في شرفة المسرح السيد شتفان كيستنماكر، القيم عليه،

---

[*] إحدى الأوبرات الشهيرة لريتشارد فاجنر؛ المحرر.

وراح يغمغم بأن مثل هذا الأسلوب المرفه يشتت ذهن الصبي ويلهيه عن أداء واجباته. إلا أن تجلي الروعة العذبة، التي كان يصغي إليها، أنساه ذلك. وفي النهاية جاء الختام، ليخرس ويتلاشى الحظ السعيد المتألق، ليجد نفسه ثانيةً بغرفته بالبيت، برأسٍ محمومة، مع حقيقة أن بضع ساعات من النوم هنا بفراشه تفصله عن الحياة اليومية المريعة. وهنا داهمته نوبات التخوف الشديدة، وهي نوباتٌ يعرفها جيدًا، فعاوده شعورٌ بمخاض الجمال يخترق الأعماق باستحياء ويأس مشتاق، لكنه كذلك أيضًا يستنفد الإقدام والقدرة على عيش تفاصيل الحياة اليومية؛ هكذا كان يعاني عبئًا ثقيلاً كالجبال على نحوٍ مروعٍ قانط، حتى اعتقد من جديد أن هناك، إضافةً إلى همومه الشخصية، شيئًا آخر يثقل عليه، عبئًا يثقل على روحه منذ البداية، وسوف يخنقها ذات يوم.

ثم قام يضبط المنبه واستغرق في النوم بعمقٍ كالميت، كمن ينام غير عابئٍ بالاستيقاظ ثانيةً. والآن، أقبل يوم الاثنين، وهو لم يعمل حتى لو ساعة، فنهض وأشعل شمعة على الكومودينو، إلا أن زمهرير البرد امتد إلى يده وكتفيه ليجمدهما، ليلقي بنفسه ثانيةً في الفراش، متدثرًا بالغطاء. لكن، ها هي عقارب المنبه تشير إلى عشر دقائق بعد السادسة.. آه، ليست هناك جدوى من الاستيقاظ الآن من أجل العمل، وقد كان أكثر مما ينبغي؛ فهناك ما يجب تعلمه كل ساعة، فليس من وراء ذلك جدوى، وقد أزف كذلك الوقت الذي حدده للبدء في ذلك. فهل كان على يقين، كما بدا له بالأمس، أن الدور عليه اليوم في السؤال بدرس اللاتينية والكيمياء؟ كان هذا احتمالاً، نعم، كان ذلك مرجَّحًا، حسب التوقع الإنساني. ففيما يخص المعلم "أوفيد"،

فقد استدعى مؤخرًا الأسماء التي تبدأ بآخر حروف الأبجدية، فيكون من المفترض بأن يبدأ اليوم بالحرفين "أ" و"ب"، إلا أن هذا لم يكن يقينًا بالضرورة، فهو غير مؤكد تمامًا، فأحيانًا ما يحدث خروج عن القاعدة، وهو ما تلعبه المصادفة أحيانًا.

أيها الرب الحبيب.. وبينما كان ينشغل بهذه الأفكار الواهمة القسرية، إذا بأفكار تتداخل متلاشيةً، ليستغرق في النوم من جديد.

كانت غرفة التلميذ الصغيرة باردةً مقفرة، ازدانت بصورة "عذراء مذبح سيستين"، التي نُقشت على النحاس وعُلقت فوق فراشه، وبها طاولته القابلة للطي، القائمة بوسط الغرفة، ورفٌ للكتب نثرت فوقه، ودرج بأرجل متصلة من خشب الماهوجني، والأرغن وطاولة اغتسال صغيرة.

كل هذه الأشياء كانت تتزاحم في ضوء الشمعة المرتعش، بينما كانت زهور الجليد قد تفتحت على النافذة التي لم يكن قد أُنزِل خصاصُها حتى يسمح بنفاذ ضوء النهار مبكرًا. أما هانو بودنبروك، فكان غارقًا في النوم، وقد دفن وجنته في الوسادة، ونام بشفتين منفرجتين وأهداب مفعمة بإصرار وعمق، في استسلام أليمٍ للنوم. وكانت خصلات شعره الكستنائي تغطي فوديه. وشيئًا فشيئًا، أخذت الشعلة الصغيرة على الكومودينو تفقد ضوءها الأحمر المصفر، بعد أن نفذ الصباح الباهت من خلال طبقةٍ رقيقة من جليدٍ يغطي زجاج النافذة. وفي الساعة السابعة استيقظ ثانيةً مُروعًا، فقد أزفت هذه المهلة أيضًا. إذن، فهو الاستيقاظ، وتحمل عبء اليوم، ولم يكن هناك إلا أقل من ساعة على بدء اليوم الدراسي، وها هو الوقت يضغط للتغاضي تمامًا عن عمل الواجب. وبرغم ذلك ظل مستلقيًا، طافحًا بالمرارة والحزن

والشكوى من هذا الإكراه الوحشي على مغادرة الفراش الدافئ، في شبه إظلامٍ جليدي، والخروج إلى الخطر والضيق بين أناسٍ متشددين مترصدين بالشر. آه، دقيقتين أخريين بائستين، أليس كذلك؟ هكذا سأل وسادته برفق معذب، إلا أنه، بدافع من العناد، منح نفسه خمس دقائق كاملةً، لكي يغمض عينيه ثانيةً بعض الوقت، ليفتح إحداهما من حينٍ لآخر، محملقًا في عقارب المنبه الذي يتقدم إلى الأمام بدقةٍ وجهلٍ وغباء. وبعد عشر دقائق، نهض ليبدأ في الحركة رواحًا وجيئةً، وكانت الشمعة ما تزال موقدة، لأن ضوء النهار لم يكن وحده كافيًا. وعندما نفخ في إحدى زهور الجليد، رأى ضبابًا كثيفًا يسود بالخارج.. وكان يرتجف ارتجافًا تجاوز كل حد، فكان الصقيع يهز بدنه كله هزًّا أليمًا، حتى إن أنامله كانت تحترق متورمة، إلى حد أنه لم يتمكن من استعمال فرشاة الأظافر. وعندما كان يغسل أعلى جسده، سقطت اللوفة من يده شبه المشلولة، فوقف هناك لحظة محملقًا في عجز، لاهثًا مثل حصان ينز عرقًا.. وفي النهاية، كان يقف بأنفاسٍ لاهثة وعيون متكدرة جاهزًا أمام الطاولة القابلة للطي، وقد أمسك بحقيبته الجلدية، ململمًا من قواه الذهنية ما لم يقض عليها الإحباط، لكي يجمع الكتب اللازمة لحصص اليوم. وقف هنا ينظر بحدةٍ في الهواء، مغمغمًا وقد تملكه الجزع "دين.. لاتيني.. كيمياء" وراح يدس المجلدات المعيبة، الملطخة بالحبر، مع بعضها البعض.

أجل، لقد أصبحت قامة يوهان الصغير طويلةً للغاية، بعد أن تخطى الخامسة عشر عامًا، ولم يعد يرتدي زي بحارة كوبنهاجن، بل سترةً كستنائية ورباط عنق أزرق بنقاطٍ بيضاء، معلقًا على صدريته كاتينة ساعة ذهبية دقيقة، ورثها عن جده الأكبر. وفي بنصر يده اليمنى، العريضة بعض

الشيء، ذات المفاصل الرقيقة رغم ذلك، كان قد وضع خاتمًا عتيقًا بفص أخضر، كان قد آل إليه أيضًا.

وكان أن ارتدى سترة الصوف الشتوية، وغطى رأسه بالقبعة، واحتضن الحقيبة ليهبط الدرج بسرعة إلى الطابق الأرضي، ليمر بالدب المحنط، فينحرف يمينًا إلى قاعة الطعام. وهناك كانت الآنسة كليمانتينه، وصيفة والدته الجديدة، فتاة نحيلة بخصلات شعر على جبينها وأنفٍ بارزة وعيونٍ قصيرة النظر، وقد استعدت لخدمته عند مائدة الفطور. وبرغم أنه كان يعرف الوقت بدقة، إلا أنه سألها، وهو يضغط على أسنانه: "كم الساعة الآن؟"

"الثامنة إلا الربع"، أجابته مشيرةً بيدها النحيلة المتوردة، التي بدت كأنها مصابة بالنقرس.

"عليك بالاهتمام بالانتهاء من فطورك، هانو.." قالت ذلك، وهي تضع أمامه سلة الخبز والزبد والملح وكأس البيض. إلا أنه لم يضف كلمةً أخرى، متناولاً الخبز، وشرع يرتشف الكاكاو، وهو واقفٌ واضعًا القبعة فوق رأسه، والحقيبة تحت إبطه، وقد أصابه الشراب الساخن بألمٍ مروع في ضرسه، الذي كان السيد برشت قد عالجه مؤخرًا، فترك نصف الشراب، متجاهلاً البيض كذلك، ولفظ من بين شفتيه المطبقتين بلفظٍ يُفهم منه "وداعًا"، ثم ركض إلى خارج المنزل. كانت الساعة تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق عندما اخترق البستان الأمامي مغادرًا الفيلا الصغيرة الحمراء، منحرفًا يمينًا مسرعًا بحذاء الشارع المُشجر، الذي خيم عليه جو الشتاء.. عشر، تسع، ثماني دقائق ما تزال أمامه، لكن الطريق كان طويلاً. وقد منع الضباب الرؤية تقريبًا،

لمعرفة مدى ما قطع من الطريق. هذا الضباب الكثيف البارد برودة الجليد كان يتنسمه ويزفره ثانيةً بكل قوى صدره الضيق، وهو يلوك بلسانه الضرس الذي كان ما يزال يعاني من التهاب الكاكاو، وقد أثقل على عضلات ساقيه بضغط جنوني. وبرغم أنه كان غارقًا بالعرق، إلا أنه كان يشعر بتجمد كل أوصاله، ثم أخذ يشعر بوخزٍ في جانبيه بعد أن أعلن الفطور الزهيد تمرده في معدته أثناء هذه النزهة الصباحية، فأصابه الغثيان؛ وراح قلبه يخفق ويختلج بلا انقطاع، حتى صار يلهث. إنها "بورجتور" أولاً، بوابة بورجتور، لتكون ثمانية إلا أربع دقائق. وبينما كان يصارع من أجل اختراق الطرق، غارقًا في عرقه البارد وآلامه وإحساسه بالغثيان والضيق، أخذ يفتش في كل مكان عساه يعثر على تلاميذ آخرين.. لا.. لا، لم يعد هناك آخرون غيره، فقد كانوا هناك حاضرين جميعًا. وهنا بدأت الساعة تدق الثامنة، وكان صوت الأجراس يرن، فيأتيه من خلال الضباب صادرًا عن كل الأبراج. أما هذا الصادر عن كنيسة سانت ماريا، فكان يدق احتفاءً بهذه اللحظة: "الآن، ليشكر الجميع الرب" فكان دقًا نشازًا تمامًا، وهو ما لاحظه هانو وهو يسير محبطًا؛ فهؤلاء ليس لديهم أدنى حس بالإيقاع، الذي سيكون، في أفضل حالاته، معيبًا.. ولكن هذا كان أقل ضررًا، بل هو الأقل، بعد أن وصل متأخرًا، وهو ما لم يعد موضع شك. وبرغم أن ساعة المدرسة كانت غير دقيقة إلى حدٍّ ما، إلا أنه كان قد وصل بعد فوات الأوان، على وجه اليقين.

ثم أخذ يحملق في وجوه مَن يمرون به ماضين إلى مكاتبهم وأعمالهم، لكنهم لم يكونوا متعجلين، فلم يكن هناك خطر يتهددهم، وكان بعضهم يرد بابتسامة على نظراته الحاسدة الشاكية، محدقًا في مظهره المضطرب. أما

هو، فلم يتمالك نفسه إزاء هذه الابتسامة. فيا ترى، ماذا دار بخلدهم، وكيف يحكم هؤلاء الآمنون على حالته؟ كان يريد أن يصرخ في وجوههم: "إن ابتسامتكم تنم عن سذاجةٍ، أيها السادة، وبوسعكم أن تتخيلوا أن أحَر أمانيَّ أن أسقط قتيلاً أمام بوابة الفناء المغلقة".

كان الرنين المتواصل يدق مدويًا في أذنيه، قبل عشرين خطوةً من الجدار الطويل الأحمر الذي تتوسطه بوابات من الفولاذ المصمت، التي كانت تفصل الفناء الأمامي عن الطريق؛ ولكي يدفع بقوةٍ إضافية- في سبيل توسيع خطاه، والإسراع بها- ألقى بجذعه إلى الأمام، حريصًا على ألا تعرقله ساقاه؛ فأخذ يمدهما إلى الأمام حتى لا يتعثر. وهكذا نجح في الوصول إلى البوابة الأولى، عندما كان الجرس قد توقف، وكان قد همَّ بإغلاق البوابة السيد شلميل، هذا الرجل القصير بلحيته غير المشذبة، وبوجهه الذي يكاد يشبه وجوه العمال. فقد قال، وهو يدع التلميذ بودنبروك يمر إلى الداخل: "هكذا.."، فلعله قد نجا، ربما كان قد نجا. وكان قد فكر أن ينسل إلى الفصل دون أن يراه أحد، لينتظر هناك سرًّا نهاية الصلاة التي أقيمت في صالة الرياضة، مصطنعًا أن كل شيء على ما يرام. فأخذ يصارع لاهثًا من أجل تنسم الهواء، منهكًا متصلبًا غارقًا في بحرٍ من العرق، وهو يجرجر ساقيه فوق أرض الفناء المعبدة بالطوب الأحمر، ليمرق إلى الداخل من خلال الباب المسحور ذي الزجاج الملون. كان كل شيء جديدًا نظيفًا جميلاً، هنا في هذه المؤسسة، التي جنى عليها الدهر، فهُدمت الأجزاء الغابرة الآيلة للسقوط من مدرسة الدير السابقة، التي عكف فيها آباء هذا الجيل على تلقي العلم، لتحل محلها مبانٍ فخمة جديدة متجددة الهواء. وقد تم الحفاظ على الطراز كاملاً، فانتشرت

فوق الممرات ومفترق الطرق بواكي الطراز القوطي المهيبة. أما رفاهية العصر الحديث، فامتدت لتشمل الإنارة والتدفئة واتساع وإضاءة الفصول، وغرف المعلمين المريحة، والتأثيث العملي لقاعات دروس الكيمياء والفيزياء والرسم.

أما هانو بودنبروك المرهق، فقد انسل ملتصقًا بالجدار، مراقبًا ما حوله.. لا، فالحمد للرب أن أحدًا لم يره. وقد تناهى إلى مسامعه من الممرات البعيدة صخب جموع التلاميذ والمعلمين القادمين من قاعة الرياضة، بعد أن حصل الجمع على جرعة تقوية دينية صغيرة، من أجل عمل الأسبوع. أما هنا، في الأمام، فقد خيَّم صمت القبور، وكذلك كان الطريق خاليًا عبر السلم العريض المبطن بـ"اللينوليم". فتسلل إلى الطابق الأعلى على أطراف أصابعه، حابسًا أنفاسه مسترقًا السمع، قلقًا؛ وكان فصله، الخاص بالفرقة الثانية من الثانوية العامة، يقع بالطابق الأول بمواجهة السلَّم، وكان بابه مفتوحًا. وعلى الدرجة الأخيرة من السلم أخذ يترقب، وهو منحنٍ، الممر الطويل الذي كانت تصطف على جانبيه لافتات من الخزف على مداخل الفصول المختلفة، ثم قطع ثلاث خطوات سريعة بلا صوت إلى الأمام، ليدخل الفصل الذي كان شاغرًا، وكانت الستائر ما تزال مسدلة على النوافذ الثلاث العريضة، بينما كانت المصابيح المضاءة المتدلية من السقف تئز في السكون أزيزًا هامسًا، وتنشر مظلاتها الخضراء الضوء على ثلاثة صفوف من أدراج بمقعدين، صُنعت من الخشب الأبيض، وقد نُصبت أمامها منصةٌ شملتها بعض العتمة، وإن بدت لائقةً بموقع المعلم الجليل، ووُضعت أعلاها سبورة. أما أجزاء الجدران السفلية، فقد كُسيت بالخشب، وزُيِّن الجزء الأعلى منها والأجرد ببعض الخرائط. وكانت سبورةٌ أخرى قد وضعت على حاملٍ بجانب المنصة؛

ومضى هانو إلى مكانه بمنتصف الفصل تقريبًا، ووضع حقيبته بالدرج، وتهالك على المقعد الجامد، واضعًا ذراعيه فوق السطح المائل، معتمدًا برأسه فوقهما، وقد غمره إحساس بالراحةِ يفوق الوصف. كان هذا الفصل المقفر قبيحًا جديرًا بالكراهية، وأما قلبه فكان مثقلاً بعبء كل أحداث الصباح التي كانت تهدده بآلاف المخاطر. إلا أنه كان في أمانٍ مؤقتًا، وقد شعر جسده بالألفة، وأصبح بوسعه استيعاب الأحداث المقبلة. ولسوف تمر الحصة الأولى بسلامٍ، إذ كانت حصة الدين الذي يقوم بتدريسه السيد بالرشتيت المسالم. ثم سمع اهتزاز لسان الورق الصغير هناك أمام الكوة أعلى الجدار، فرأى تدفق الهواء الدافئ إلى الداخل، كما عملت شعلة الغاز على تدفئة المكان أيضًا. آه، هكذا يكون بوسع المرء الآن أن يتمطى ليفك شيئًا فشيئًا تصلب وتجمد أوصاله التي انتشرت فيها الرطوبة. فكان أن صعد دفءٌ غير صحي، مدغدغًا للأعصاب، أخذ يطن في أذنيه ويغشى عينيه. وفجأةً سمع خلفه حركة جعلته ينكمش، ويلتفت ليرى هناك خلف المقعد الأخير جذع صديقه كاي، الدوق مولن، ثم قام ليحبو إلى هناك السيد الشاب معلنًا عن نفسه، وهناك نهض على قدميه وأخذ يضرب كفًا بأخرى، لينفض عنهما التراب، ثم مضى نحو هانو بوجهٍ مشرق، ثم قال: "آه، هو أنت، هانو! وأنا سعيت للاختباء هناك، عندما جئتَ، ظنًا مني أنك أحد المعلمين".

وأمسك عن الكلام انتظارًا لرد صديقه، إلا أن حالة هانو لم تكن لتسمح بذلك الآن. كانت قامته قد نمت بقدر نمو قامة صديقه، إلا أنه ظل على عهده السابق لم يتغير. فما يزال يرتدي حلةً باهتة تفقد زرارًا هنا أو هناك، وعلى مؤخرتها تلك البقعة الكبيرة. وما تزال يداه كما كانتا غير

نظيفتين إلى حدٍّ ما، إلا أنهما كانتا رقيقتين، بتكوين نبيل فائق الوصف، وأصابع طويلة دقيقة، وأظافر مدببة مستديرة. وما يزال شعره المفروق- بلا اهتمام- يحتفظ بلونه الأحمر المصفَر، منحدرًا على جبهته البيضاء كالمرمر، خالية من كل سوء. تلمع تحتها عيناه العميقتان الحادتان، بلونهما الأزرق الفاتح. وقد بدا للعيان الآن ذلك التباين أكثر وضوحًا عن ذي قبل، ذلك التناقض بين إهماله المروع لمظهره وبين الأصل النبيل لهذا الوجه المعظم الرقيق، ذي الأنف المعقوف بعض الشيء، وشفته المنحنية قليلاً. أما هانو، فقد أخذ يدلك بيده منطقة القلب ليقول بعد أن زمّ شفتيه: "لا، كاي، كيف تروعني إلى هذا الحد؟ وماذا جاء بك إلى هنا؟ ولماذا اختبأت؟ فهل جئت أيضًا متأخرا؟"

فأجاب كاي: "أعوذ بالرب، فأنا هنا منذ زمن.. فصباح يوم الاثنين لا يحتمل تأخير العودة إلى المدرسة بعد العطلة، وأنت خير من يعرف هذا يا عزيزي.. لا، لقد بقيت هنا طلبًا للمزاح فقط، فقد كان المدرس الأول "العميق" هو المكلف بالإشراف، فلم يجد غضاضةً في اقتياد الشعب إلى الصلاة؛ أما أنا فقد اعتدت دائمًا الوقوف خلف ظهره تمامًا، فمهما دار على عقبيه، ومهما تلفت هذا الصوفي حوله، كنت أبقى خلفه تمامًا، إلى أن يمضي. وهكذا صار بوسعي البقاء هنا".

ثم انتقل برفقٍ ليجلس بجوار هانو على المقعد، ليضيف بنبرةٍ مواسية: "ولكنك، أنت أيها المسكين، لقد اضطررت للعدو، أليس كذلك؟ وها هو شعرك يلتصق بفوديك". ثم أمسك بمسطرةٍ من فوق الطاولة، وأخذ يرفع بحرص وحذر شعر يوهان الصغير.

"إذن، فقد غلبك النوم. وبالمناسبة فأنا أجلس مكان أدولف توتنهاوبت" ثم أمسك عن الكلام، متلفتًا حوله على المقعد المخصص لـ"الأول"! "حسنًا، فلا ضرر هذا المرة، وأنت قد غلبك النوم، إذن". فكان أن أراح هانو وجهه ثانيةً فوق ذراعيه المنعقدتين، وقال بعد أن زفر تنهيدة طويلة: "لقد كنت بالمسرح أمس".

"أوه، تمامًا، لقد نسيت هذا.. فهل كان العرض جميلاً؟"

فلم يتلق كاي أية إجابة، فاسترسل محاولاً إرضاء صديقه: "إنك في حالة طيبة، ولتنظر إليَّ، فأنا لم أحضر أي عرض بالمسرح قط، ولن تُسنح لي لسنوات عديدة قادمة أدنى فرصة لزيارة المسرح.."

فقال هانو مكررًا: "لولا هذا التباكي، مثل مواء القطط، نعم أنا أعرف مثل هذه الحالة على كل حال".

أما كاي فقد مال على قبعة وعباءة صديقه، المرميتين على الأرض بجوار الدرج، فالتقطهما وحملهما بخفة وخرج بهما إلى الممر. وعندما رجع تساءل: "إذن، فأنت لم تحفظ أبيات قصيدة التحول جيدًا؟"

فقال هانو: "لا"

"فربما كنتَ جاهزًا للتقويم الجغرافي؟"

فقال هانو: "أنا لست شيئًا، ولا بوسعي شيء".

"وكذلك في الكيمياء واللغة الإنجليزية، all right! فنحن صديقان حميمان ورفاق سلاح".

بدا الارتياح على كاي، فقال متهللاً: "أنا لم أعمل يوم السبت، لأن غده كان الأحد، فلم أعمل يوم الأحد بوازع الورع.. لا، هذا كلامٌ فارغ.. فقد كان

السبب الحقيقي هو أنه كان لديَّ ما هو أفضل لعمله، نعم، فأرجو أن نستمتع بيومنا هذا، هانو".

قال ذلك بجديةٍ مفاجئة، بينما كانت حُمرة عابرة تشيع بوجهه، فقال هانو الصغير: "فإذا ما وُجّه إليَّ توبيخٌ فسوف أظل جالسًا، وهذا ما سوف يحدث يقينًا، إذا حان دوري في اللاتينية؛ فالدور جاء على حرف الباء، كاي، وهذا أمرٌ لا يمكن تجاهله".

"فلتنتظرا ها، فسوف يهل قيصر؛ فقد كانت المخاطر تهاجمني دائمًا من الخلف، فإن هي رأت جبهة قيصر.."

برغم ذلك لم يتوقف كاي عن اقتباساته، فقد كانت حالته المعنوية سيئة، ومضى إلى المنصة ليجلس هناك، وأخذ في التأرجح على المقعد ذي المسند عابس الوجه، بينما كان هانو بودنبروك ما يزال يريح جبهته فوق ذراعيه المنعقدتين. وهكذا ظل الاثنان جالسين متقابلين، وفجأةً ارتفعت همهمةٌ مكتومة في مكانٍ ما بعيد، سرعان ما استحالت دويًا هادرًا أخذ يقترب منذرًا بالخطر. فهمس كاي محبطًا: "إنه الشعب، مولاي، ربي، أبهذه السرعة انتهوا، فلم ينقض من زمن الحصة حتى لو عشر دقائق". فغادر المنصة متجهًا نحو الباب ليندس وسط القادمين. أما هانو، فلم يفعل سوى أن رفع هامته لبرهة، ثم زمّ شفتيه، إلا أنه ظل ببساطة جالسًا بمكانه. وها هو دبيب أقدام متثاقلة يدنو، ولغط أصوات امتزج الحاد منها بالرخو، وها هي تقتحم السلم، ثم تهدر بالممر لتنسال إلى الفصل الذي أخذ يضج بالحيوية والصخب. ها هم يدخلون، زملاء هانو وكاي، تلاميذ الصف الثاني الثانوي، كانوا خمسة وعشرين صبيًا تقريبًا، وضع بعضهم أيديهم بجيوب سراويلهم، بينما راح

بعض آخر يطوحون بأذرعهم، ماضين جميعًا إلى أماكنهم، ليفتحوا أناجيلهم وقد بدا بعضهم مثل دود الأرض، بينما ظهرت علائم الرفاه والصحة على آخرين، ومن بينهم كان المريض، والشقي، إلا أنهم كانوا يتمتعون بطول القامة وقوة البنيان. سوف يلتحقون في مستقبلٍ قريب بالعمل التجاري أو البحري، فلم يطمحوا إلى شيءٍ آخر. وكان من بينهم قصارُ قامةٍ تجاوز طموحهم عمرهم، فبرزوا في علوم تتطب الحفظ غيبًا. أما أدولف توتنهاوبت، الأول، فكان يعرف كل شيء، ولديه دومًا إجابة لكل سؤال؛ وكان هذا يرجع، من ناحيةٍ، إلى ولعه بالاجتهاد الهادئ، ومن ناحيةٍ أخرى، كان المعلمون حريصين على ألا يوجهوا إليه سؤالاً لا يعرف إجابته، فيصابوا بالهم والخزي، مما يضعف إيمانهم بالكمال البشري إن رأوا أدولف توتنهاوبت صامتًا. وقد كانت له رأسٌ غريبة محدبة يلتصق بها شعره الأشقر الناعم كالمرآة، وعيونٌ رمادية يحيط بها سواد، ويدان طويلتان سمروان تبرزان من كمين قصيرين للغاية لسترةٍ نُظفت جيدًا بالفرشاة.

كان يجلس بجانب هانو، مبديًا ابتسامة ودودة خبيثة إلى حدٍّ ما، وقد ألقى إلى جاره بتحية الصباح بنبرةٍ ممطوطة وبلهجة عامية اعتادها تكثف الكلمة في صوت جريء مستهين.

وبينما كان المحيطون به يثرثرون همسًا، وهم يتأهبون متثائبين ضاحكين، كان هو قد بدأ عمله في كتاب المادة صامتًا، وقد أمسك بأصابعه الدقيقة الطويلة المستوية بريشته، محركًا إياها ببراعةٍ نادرة. وبعد دقيقتين، سُمعت خطى بالخارج لينهض الجالسون بالمقاعد الأمامية في تراخٍ، ليتبعهم مَن جلسوا خلفهم، بينما ظل آخرون على حالهم غير منتبهين إلى أن المدرس

الأول السيد بالرشتدت قد دخل الفصل، وعلق قبعته على مشجب بالباب، وجلس إلى المنصة.

كان رجلاً في الأربعين من عمره، على بدانة مقبولةٍ، ذا صلعةٍ كبيرة ولحيةٍ مشذبة صفراء اللون تميل إلى الحمرة، متورد البشرة. أما شفتاه الرطبتان فكان يحيط بهما تعبير يمزج الطلاوة بالشهوة البريئة. وكان أن أخذ دفتر التقييم مقلبًا إياه في صمت، ولما كان الهدوء السائد بالفصل يتطلب منه مزيدًا من الجهد، فقد رفع رأسه وفرد ذراعيه فوق سطح المنصة، وأخذ يحركهما؛ فلما اكتسى وجهه بالحمرة تبدى لون لحيته الصفراء، ثم رفع قبضته البيضاء الواهنة وأنزلها بتراخٍ عدة مراتٍ، بينما أخذت شفتاه تختلجان لنصف دقيقة إثر توترٍ بلا داع، وفي النهاية لم يلفظ سوى بكلمة قصيرة مقتضبة متأوهة: "والآن.." ثم أخذ يجتهد ليتفوه ببضع عبارات توبيخ أخرى، إلا أنه لجأ في النهاية إلى دفتره، وقد هدأ حماسه، وبدت عليه أمارات الرضا. كان هذا هو أسلوب وطريقة بالرشتدت، المدرس الأول. وكان قد شاء ذات يوم أن يصبح واعظًا، إلا أنه في النهاية قرر الاتجاه إلى "التربية"، بسبب معاناته من التلعثم، وتعلقه بحياة الرفاهية الدنيوية. وبرغم امتلاكه لثروةٍ ما حتى إنه كان يحمل في إصبعه ماسةً صغيرة، إلا أنه عاش حياته أعزب يعشق الطعام والشراب. كان هذا هو المدرس الأول، الذي كانت علاقته برفاق مهنته مقصورة على العمل. أما أغلب أصدقائه، فكانوا من تجار المدينة غير المتزوجين، أو من ضباط الحامية. وكان يتناول طعامه مرتين باليوم بأرقى مطعم بالمدينة، كما كان عضوًا بالنادي.

وعندما كان يلتقي بتلاميذ كبار في الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل،

بمكان ما بالمدينة، كان يُعرض بوجهه تكبرًا، وهو يلقي بالتحية: "صباح الخير"، تاركًا الأمر يسير في مجراه بالنسبة للطرفين. أما هانو بودنبروك، فلم يكن يخشاه، ولم يكن المعلم يسأله إلا نادرًا. فقد كان المدرس الأول على علاقة إنسانية وثيقة بعمه كريستيان، ولذا لم يكن ليسعد بالتورط مع ابن أخيه في حرجٍ ما.

"الآن.." كرر هذه الكلمة مرارًا، وهو يطوف بنظره أرجاء الفصل، محركًا قبضته التي تحمل الماسة الصغيرة، ليعاود اللجوء إلى دفتره وينادي: "بيرلمان! الخلاصة!"

بمكانٍ ما بالفصل نهض بيرلمان، فلم يكد أحدٌ يلحظ وقوفه، لأنه كان من قصار القدامى المتفوقين، ثم قال في همس واستحياء، رافعًا رأسه: "الخلاصة: إن سِفر أيوب يتكون من ثلاثة أجزاء، يصف أولها حال أيوب قبل ابتلاء الرب واختباره له، وهو ما ورد بالإصحاح الأول من الآية الأولى حتى الآية السادسة. ثانيًا: الابتلاء نفسه وما جره عليه، إصحاح.."

"صحيح، بيرلمان"، هكذا قاطعه السيد بالرشتدت، متأثرًا بتفاني بيرلمان في سبيل كسب رضاه، مدونًا درجة جيدة بالدفتر. "هينريش، أكمل" كان هينريش من الأشقياء، طويلي القامة، غير المبالين بأي شيء. فدس مطواة ذات مقبضٍ مصقول، كان يلعب بها، في جيب سرواله، ووقف محدثًا جلبة وقد تدلت شفته السفلى، وهو يزفر حشرجة فجة خشنة. فعم السخط الجميع أن يتبع مثل هذا الشقي بيرلمان هادئ الطباع. وبينما كانت شعلة الغاز تئز أزيزًا خافتًا، كان التلاميذ قد شرد ذهنهم حالمين، وكاد أن يغشاهم النعاس، فقد كان التعب قد حل بهم بعد يوم العطلة، ثم اضطرارهم جميعًا لمغادرة

فراش دافئ، ليتلقفهم صباح ضبابي، فراحت أسنانهم تصصك ببعضها، وهم يتثاءبون. وهكذا كانوا يفضلون استمرار همس بيرلمان القصير طوال الحصة، كما كانوا على يقين أن هينريش سيثير اللغط. وقد قال بنبرة فجة: "كنت غائبًا أثناء هذا الدرس".

فأشاح السيد باليرشتدت بوجهه، محركًا قبضته الواهنة مدمدمًا بشفتيه، ورفع حاجبه عاليًا، محدقًا في وجه هينريش، وأخذت رأسه الحمراء القانية ترتعد، معانيًا من ضغوطٍ ما، حتى استطاع في النهاية لفظ "الآن"، ليحل بها عقدة لسانه، فانطلق "إنك لم تظهر أي تقدمٍ قط"؛ مواصلاً بيسر وتمكن من اللغة "ولديك حجةٌ جاهزة دائمًا، هينريش، فإن كنت مريضًا الحصة الماضية، فقد كان بوسعك خلال تلك الأيام يقينًا مراجعة درس الحصة السابقة. وإذا كان الإصحاح الأول يتناول الحال قبل الابتلاء، ويدور الثاني حول الابتلاء نفسه، فقد كان بوسعك أن تعد على أصابعك أن الإصحاح الثالث يختص بالحال فيما بعد الابتلاء. ولكنك تفتقد الاهتمام الجاد، إنك لست إنسانًا ضعيفًا فحسب، بل أنت على استعداد لتجميل هذا الضعف والدفاع عنه. وعليك أن تعرف أنك طالما بقيت على هذه الحال، فلن تستطيع الشفاء، هينريش، ولن تحرز تقدمًا. هينريش، اجلس. فسّر فوجل، أكمل".

فما كان من هينريش المتبلد العنيد إلا أن جلس وهو يزوم ويغمغم، ويقذف جاره بعبارةٍ وقحة، ويخرج المطواة ذات المقبض المصقول مرةً ثانية. ثم نهض التلميذ فسرفوجل، وكان صبيًا ذا عينين ملتهبتين وأنفٍ وأذنين حادة، وأظافر مقضومة، ليتم الخلاصة بصوت واهنٍ مضعضع؛ فبدأ يروي عن أيوب الذي عاش في "عوص"، وما جرى له. وكان قد فتح "العهد القديم"

خلف ظهر الجالس أمامه، وأخذ يقرأ منه، وقد ارتسمت على وجهه علامات البراءة المتناهية والتدبر المخلص، فكان يشخص ببصره إلى نقطةٍ ما بالحائط ليقوم بترجمة ما حصله– وهو يسعل كأنه يطن– إلى لغة ألمانية حديثة بائسة.. وبرغم أن منظره كان منفرًا، إلا أن السيد باليرشتدت امتدحه كثيرًا على ما بذل من جهد. كان التلميذ فسرفوجل سعيد الحظ، فقد حرص معظم المعلمين على الإشادة بمجهوده، لكي يؤكدوا له وللآخرين أن دمامته لا تؤدي بهم إلى غبن حقه. هكذا استمرت حصة الدين، فنودي على تلاميذ آخرين ليستعرضوا معلوماتهم عن أيوب، الذي عاش في عوص، وحصل جوتليب كاسباوم، ابن تاجر الجملة كاسباوم المنكوب، على درجةٍ ممتازة برغم أحوال عائلته المحزنة، لأنه استطاع بدقة إثبات أن أيوب امتلك من الماشية سبعة آلاف رأس من الغنم وخمسمائة بقرة وخمسمائة حمار وخدمًا كثيرين للغاية. ومن أجل مواصلة القراءة، سمح المعلم بفتح الأناجيل التي كان كثيرٌ منها مفتوحًا بالفعل، فإذا ظهرت فقرةٌ تحتاج إلى تفسيرٍ من السيد باليرشتدت، كان يشيح بوجهه ليقول: "والآن.."، ثم يلقي، بعد تمهيدٍ معتاد، محاضرةً قصيرة عن السؤال المطروح، مضيفًا إليها تأملاتٍ أخلاقية عامة. وهنا كان يغشى الهدوء والنعاس الفصل؛ لأنه لم يكن هناك من يصغى إليه مع ارتفاع مطرد لدرجة الحرارة بفعل التدفئة الدائمة ومصابيح الغاز، بالإضافة إلى فساد هواء صادر عن أنفاس وأبخرة أجساد خمسة وعشرين تلميذًا. كما أدى أزيز الشعلات، ورتابة صوت المعلم، إلى تسلل الملل إلى الأذهان، مدغدغًا إياها إلى حد الشرود. أما كاي دوق مولن، فقد فتح– بالإضافة إلى

إنجيله- كذلك "أحداث عبثية وأفعال غامضة" لإدجار آلان بو[*]، وأخذ يطالعها، وقد أراح على يده رأسه الأرستقراطية التي لم يهتم بنظافتها، بينما كان هانو بودنبروك يجلس منكمشًا، وقد أراح ظهره إلى الخلف، مطالعًا بفم متهدل وعينين ملتهبتين زائغتين "سِفر أيوب" الذي غامت عباراته وحروفه، فاستحالت إلى غمام أسود. وكان يتذكر موضوع القديس جرال، أو الممر المفضى إلى الأبرشية، فكانت جفونه تطرف متثاقلةً، فيشعر كأن شجنًا يتصاعد داخله، وكان قلبه يخفق متمنيًا دوام هذه الحصة الصباحية الآمنة المسالمة. إلا أن الأمر سار في مجراه المقدر سلفًا، فإذا بجرس المشرف يدوي مجلجلاً في الممرات، منتزعًا الخمسة وعشرين رأسًا من سباتها الدافئ، ليقول السيد باليرشتدت "فُصِل الأمر". ثم طلب دفتر الحضور والانصراف، ليوقع فيه باسمه عن هذه الحصة؛ فكان أن أغلق هانو بودنبروك إنجيله، وهو يتمطى مرتعشًا ويتثاءب تثاؤبًا يشوبه التوتر. فلما أرسل ذراعيه ومد أطرافه أصبح عليه التقاط أنفاسه بصعوبة ليضخ بعض الحيوية إلى قلبه الواهن، الذي تكاسلت وظائفه للحظات. فلما حان دور اللغة اللاتينية، إذا به يلقي من طرف عينه نظرةً مستغيثة إلى كاي، الذي كان ما يزال غارقًا في نصوصه الخاصة، فلم يلحظ انتهاء الحصة؛ فكان أن أخرج من حقيبته ديوان "أوفيد"[**] ذا الغلاف السميك، ليطالع أبياتًا تعيَّن عليه حفظها غيبًا، لا، لم

---

[*] إدجار آلان بو: هو الكاتب والشاعر الأمريكي الشهير (1809-1849). من أهم رواد الحداثة الشعرية والقصصية والأدبية في التاريخ الأدبي الأمريكي؛ وأول من كتب قصص الرعب والغموض؛ (المحرر).

[**] أوفيد: الشاعر الروماني الشهير (43 ق.م- 17 أو 18م.)، صاحب "التحولات" و"فن

يعد هناك أملٌ في حفظ شيء من هذه السطور السوداء، وقد برزت أمامه بائسةً غامضة ملغزة، رغم أنه حددها بقلم رصاص، بخطوط مستقيمة، مرتبًا إياها بخمسة أرقام؛ فكيف يتأتى له حفظها غيبًا، وهو الذي لم يفهم بالكاد معنى أيٍّ منها، كما عجز عن فهم أبسط العبارات المرتبطة بها، تلك التي كان يتعين عليه استذكارها. فما كان منه إلا أن مال على جاره أدولف توتنهاوبت، المنشغل بدفتر الفصل، ليسأله في يأس: "ماذا يعنى: decideràrt, patula jovis abore, glandes?.. إن هذا كله هراءٌ لا طائل من ورائه سوى الاستفزاز".

"ماذا؟" قال توتنهاوبت، ثم أردف وهو يواصل الكتابة: "ثمار شجرة جوبيتر، وهذه، هي شجرة بلوط، أنا نفسي لا أفهم ذلك حقًّا.." فتوسل إليه هانو، بعد أن أزاح كتابه: "إذن، فلتمدني بالقليل، إن حان دوري، توتنهاوبت".

فلما رأى نظرة التلميذ الأول الغامضة، غير المبالية غير الواعدة، دفع بنفسه عن الدرج ونهض. وها هي الأحوال تتبدل، فيغادر السيد باليرشتدت الفصل ليحل محله على المنصة رجلٌ قصيرٌ هزيل، وقف هناك مشدود القامة منتصبًا تمامًا، بلحيةٍ بيضاء دقيقة، وقد برزت عنقه متوردةً من ياقة قميصه الخانقة، وهو يمسك بقبعته الصلبة المستديرة بيدٍ كساها شعرٌ أبيض. وبرغم أنه كان يُدعى بروفيسور "هيوكوب"، إلا أن التلاميذ أطلقوا عليه لقب "العنكبوت". فلما أوكلت إليه مهمة الإشراف على الممر، أثناء فترة الراحة،

الهوى". كان معاصرًا لفرجيل وهوراس؛ (المحرر).

شاء أن يرى حال الفصل كما يهوى هو. "اطفئوا المصابيح! ارفعوا الستائر! افتحوا النوافذ". قال ذلك مرتبكًا وهو يحمِّل صوته نبرة الآمر الناهي على قدر إمكانه، محركًا ذراعه في الهواء بإشارة توحي بالصرامة، كأنه تولى إدارة أحد المرافق. ثم أضاف: "ولينزل الجميع إلى الهواء الطلق، عليكم اللعنة" فانطفأت المصابيح، ورُفِعت الستائر، ليغشى نور النهار الواهن الفصل، ويهب هواء الضباب البارد من النوافذ العريضة، فيتسابق تلاميذ الصف الثاني الثانوي متجاوزين البروفيسور هيوكوب، متدافعين نحو الباب، فيما عدا التلميذ الأول الذي سُمح له بالبقاء هناك. وعند الباب، التقى هانو "كاي" ليمضيا معًا يهبطان السلم المريح، وما بين درجاته من استراحات بطرازها القديم، وقد التزم كلاهما الصمت. وبينما كان كاي مستغرقًا في أفكاره، بدا هانو على حالٍ بائسة يُرثى لها. وعندما وصلا إلى الفناء الكبير، أخذا يمضيان هنا وهناك بين زملاءٍ اختلفت أعمارهم، يتسكعون فوق البلاط الأحمر الرطب، وقد ارتفع صخبهم. وكان الإشراف على الفناء قد أوكل إلى شاب بلحية قصيرة مدببة، وهو مدرسٌ أول يُدعى دكتور جولدنر يتحلى بروح مرحة، وكان مديرًا لمدرسة داخلية للبنين، تلاميذها من أبناء النبلاء وملاك الأراضي من هولشتاين ومكلنبورج. وقد تأثر بتلاميذه من أبناء الإقطاعيين، فأصبح يُعنى بمظهره على نحو مغاير تمامًا لزملائه؛ فكان يرتدي سترةً قصيرة أنيقة وسراويل طويلة بألوان لطيفة، تُربط بشريط أسفل النعل. أما رباط عنقه فكان من الحرير. كما كان يحمل مناديل ملونة معطرة. ولم تكن مثل هذه الثياب الفاخرة تتسق مطلقًا مع ملامح وجه جولدنر، ابن الأسرة المتواضعة، فكان منظر قدميه الضخمتين للغاية يبدو مضحكًا داخل حذائه

الطويل المزدان بأزرار، المنتهي بمقدمة مدببة. كما لم يُعرف سر تباهيه بيديه الضخمتين الموردتين، فكان لا يكف عن فركهما وعقد إحداهما بالأخرى، وهو يتأملهما بشغف. كما اعتاد طرح رأسه مائلاً إلى الخلف في استعلاء، وهو يرف بعينيه مجعدًا أنفه، وبفمه شبه المنفرج دائمًا كان يرسم على وجهه أمارات المتأهب لقول: "ماذا جرى ثانيةً؟" وقد بلغ إفراطه في التأنق حدًّا جعله لا يغض النظر عما يقع من محاذير، خاصةً في الفناء، إلا أنه كان يتغاضى عن هذا التلميذ أو ذاك الذي أخذ معه كتابًا ليستذكر دروسه قبيل بدء الحصة التالية. كما كان يتجاهل إعطاء تلاميذه بالمدرسة الداخلية نقودًا للسيد شليميل، ليشتري لهم فطائر؛ ويغض الطرف عن تجربةٍ ساذجة يخوضها تلميذان من الفرقة الثالثة تستحيل صراعًا يلتف حوله الفضوليون، أو أن يكون هناك من سلك مسلكًا لا يتفق مع روح الزمالة، أو أتى فعلاً خسيسًا أو مخلاً بالشرف، فيُكرهه زملاؤه على المضي إلى الطلمبة لغسل عاره بمائها. فقد كان الجمع الهادر- الذي كان هانو وكاي يتجولان بين أفراده- جمعًا يتسم بالتهور والفظاظة، جمعًا نشأ في مناخ مجتمع فتي، قاتل وانتصر، يكرس الافتتان بممارسات الرجال الفجة، فأصبح هؤلاء يتحدثون بلهجة حادة ومستهترة، كما كانوا يقدرون الإفراط في الشراب والتدخين والقوة العضلية والعراك، وكانوا يعتبرون العناية بالمظهر والتأنق من الكبائر، فكانت عقوبة الطلمبة بانتظار كل من يبدو رافعًا ياقة قميصه، ومَن كان يجرؤ على التنزه بالطريق ممسكًا عصا يلقى عقابًا علنيًا بصالة الرياضة، فتُوجه إليه أقذع الشتائم، ويتعرض لأكثر الأساليب إيذاءً..

أما ما كان يدور بين هانو وكاي من حوارفكان يتبدد كروحٍ غريبة

وسط هذا الصخب الذي يملأ الجو البارد الرطب. وكانت هذه الصداقة قد اشتهرت بين أرجاء المدرسة منذ زمن بعيد؛ أما المعلمون فكانوا يتحملونها على مضض، مؤمنين بأنها علاقة تنطوي على الشذوذ والمخالفة، وأما زملاؤهما فقد سأموا حل لغز هذه العلاقة، ولم يكن بوسعهم سوى تجاهلها حانقين متأففين، معتبرين هذين الرفيقين كائنين غريبين منبوذين. إلا أن كاي دوق مولن كان قد اكتسب نوعًا من الاحترام، لما عرفوا فيه من وحشية وتمردٍ جامح. أما هانو بودنبروك، فقد أفلت من أذى هينريش العملاق الذي أشبع الجميع ضربًا، إلا أنه لم يقدم على مس هانو بسبب تأنقه وقله حيلته، كما كان يشعر برهبة غامضة نحو شعره الناعم وكيانه الرقيق ونظراته الجامدة الخانعة المكدرة.

"أنا أشعر بالخوف" هكذا قال هانو لكاي، وهو يقف بجوار أحد الجدران الجانبية للفناء، مستندًا إلى الحائط، وقد لملم أطراف سترته بإحكامٍ، متثائبًا من أثر البرد.

"أشعر بخوف غريب، كاي، خوفٌ يملك عليّ كياني، أيكون السيد مانتلساك هو الرجل الذي يتعين علينا الخوف منه، إلى هذا الحد؟ فلتجب أنت! فأنا لا أخشى أن تنتهي حصة أوفيد المقززة بأن يُوجه لي اللوم في دفتر الفصل، ويحدث ما يحدث، وأظل أنا على حالي؛ لكن ما يثير حقًا مخاوفي ذلك الصخب الناتج عن هذا". إلا أن كاي كان غارقًا في بحر أفكاره عندما بادر بغتةً قائلاً: "روديش أوشر[*]، إن هذا لهو أكثر شخصية إدهاشًا ابتكرها

---

[*] هو بطل القصة القصيرة "انهيار منزل أوشر"، لإدجار آلان بو؛ (المحرر).

ذهن كاتب على الإطلاق، وقد شغفت بالقراءة عنها طوال الحصة.. فلو كان بوسعي كتابة مثل هذه القصة ذات يوم!".

لم يكن الأمر يخرج عن نطاق شغف كاي بالكتابة، وهي المسألة نفسها التي كان يعنيها صباح اليوم، عندما قال إن لديه عملاً أفضل من إنجاز الواجب المدرسي. أما هانو، فقد استوعب تمامًا ما كان يقصده رفيقه؛ فقد كانت نزعته إلى رواية القصص، التي اهتم بها صغيرًا، قد تطورت إلى محاولات لكتابة الأدب، وها هو قد انتهى مؤخرًا من نظم قصةٍ أسطورية عن مغامرة رائعة تدور أحداثها في ضوء وميض المعادن الخابي، والجذوات الغامضة، في أعمق وأقدس معامل الأرض، وفي النفس البشرية في آنٍ واحد؛ حيث تمتزج قوى الطبيعة السرمدية بالروح امتزاجًا عجيبًا متآلفًا متبدلاً. وكان قد كتبها بلغةٍ حميمة معبرة مبالغةٍ بعض الشيء مفعمة بالحنين، لغة صادرة عن ولع شفيف. فأما هانو، فكان يعرف القصة، وأحبها كثيرًا، إلا أنه لم يكن الآن في حالة تسمح له بالحديث عن أعمال "كانط" أو "إدجار الآن بو"؛ فكان أن تثاءب ثانيةً ليغني في اللحظة ذاتها لحنًا كان قد أبدعه مؤخرًا على البيانو؛ وكانت هذه هي عادته، فقد كان في غالب الأمر يتنهد ويتنفس بعمقٍ إن أحس بحاجةٍ ملحة إلى ضخ بعض الحيوية إلى قلبه الكسول، كما كان قد اعتاد أن يخرج زفيره أنغاماً موسيقية ألفها هو أو غيره.

فكان أن قال كاي: "انظر، فها هو الرب العزيز جاء يخطر ببستانه".

فضحك هانو، وهو يقول: "بستان ظريف"، وأخذ يضحك متوترًا، ولم يستطع الإمساك عن الضحك حتى غطى فمه بمنديله، ونظر إلى هناك إلى مَن دعاه كاي بالرب العزيز. كان الدكتور فوليكه، مدير المدرسة، هو مَن ظهر

بالفناء؛ كان ذا قامةٍ مفرطة في الطول بقبعة سوداء من التيل، ذا لحية قصيرة، وبطن بارزة، وسروال أقصر مما ينبغي، وأساور أكمام مخروطية لم تكن على قدر كبير من النظافة. وكان الرجل يتميز غيظًا، وهو يسرع فوق الأرض الحجرية، مشيرًا بكلتا ذراعيه نحو الطلمبة التي انساب ماؤها، فسبقه عدد من التلاميذ لتدارك الخطأ، فتدافعوا لإغلاق المحبس؛ إلا أنهم ظلوا هناك لفترة ينظرون إلى الطلمبة والمدير، بوجوه بدت عليها أمارات الجزع؛ بينما كان المدير قد التفت بوجهه المتورد إلى الدكتور جولدنر، الذي هُرِع نحو المدير الذي خاطبه بنبرة متهدجة عميقة مكبوتة، كانت مخارج ألفاظها مبهمة غير واضحة. كان المدير فوليكه رجلاً مرهوب الجانب، وكان خليفةً لمدير مسن بشوش خفيف الظل، كان قد درس في عهده كل من والد هانو وعمه. فلما توفى عن عمر يناهر الواحد والسبعين، استُدعي دكتور فوليكه، الذي كان آنذاك معلمًا بمدرسة إعدادية ببروسيا، ليخيم على المدرسة العتيقة جوٌّ جديد مختلف؛ فبينما كان التعليم التقليدي آنذاك هدفًا حيويًا في حد ذاته، يسعى إليه المرء بنفسٍ مطمئنة راضية سعيدة، إذا بالحال ينقلب، لتسود مفاهيم الهيمنة والواجب والقوة، وأداء الخدمة والمسار الوظيفي. كما أصبح "مبدأ المُطلق"، مبدأ فيلسوفنا "كانط"، هو الراية التي يستظل بها المدير فوليكه في كل مناسبة يخطب فيها متوعدًا. وهكذا تحولت المدرسة إلى دولة داخل الدولة، تسودها الصرامة البروسية الشديدة، إلى حدٍّ جعل المعلمين والتلاميذ يسعون لنيل رضا أصحاب السلطة، من أجل الحصول على فرصة للترقي.

وما إن جاء المدير الجديد، حتى بدأ في إحلال وتبديل مباني المدرسة

وأثاثها، تحت شعار النظافة الصحية والجمال؛ فتم إنجاز كل شيء على أفضل وجه. ولم يبق إلا سؤال وحيد عما إذا كانت المدرسة، التي كانت أقل رفاهةً في العهد السابق،تتمتع بقبولٍ أعظم وبركة ٍأشمل حين سادها شيء من روحٍ خيرة طيبة هادئة مريحة. أما المدير فوليكه نفسه، فكان مثله مثل الرب المذكور في الكتاب المقدس، رهيبًا، غامضًا، متقلبًا، عنيدًا غيورًا؛ فقد كان مريعًا في غضبه ورضاه، أما سلطته المطلقة فجعلته هوائيًّا متقلبًا على نحو مخيف. فإن أطلق مزحةً، فضحك أحدهم، إذا به يهدر كالبركان. وهكذا احتار كل من حوله من كائنات مرتعدة، في كيفية التعامل معه، ولم يعد أمامهم سوى تعفير وجوههم تمجيدًا له، مفرطين في الخنوع اتقاءً لغضبه المدمر، أو استسلامًا تامًا لعدالته العظمى. وقد ظل اللقب الذي أطلقه عليه كاي سرًا لا يعرفه سوى هانو بودنبروك؛ وقد حرصا على عدم التصريح به أمام زملائهما، خوفًا من نظراتهم المذهولة الجامدة، التي كانا يعرفانها حق المعرفة.. كلاَّ، فلم يكن هناك ما يجمعهما بالآخرين، بل إنهما لم يفهما أسلوب الآخرين في الاحتجاج والثأر؛ فكانا يحتقران أسلوب إطلاق ألقاب السخرية الذي لم يتأثرا به، ولم يحملهما مرةً واحدة على الضحك، أما إطلاق لقب العنكبوت على البرفيسور النحيف هيوكوب، ووصف المدرس الأول باليرشتدت ببغاء الكاكادو، فكانا يعتبرانه أمرًا مبتذلاً فظًا سمجًا؛ فقد كان هذا بمثابة أسلوب تافه لمقاومة قهر السلطة. إلا أن كاي دوق مولن كان أكثر مكرًا، فقد ابتدع لنفسه ولهانو تقليدًا بألا يذكرا الأسماء الحقيقية المحافظة لمعلميهم إلا مسبوقةً بلقب السيد: "السيد باليرشتدت"، "السيد مانتلساك"، "السيد هيوكوب"، فجاء ذلك تعبيرًا عن رفضٍ وتجاهل ساخر، وجفاء هازئ،

واغترابٍ في آنٍ واحد. فكانا يتحدثان ويتندران دائمًا أثناء الفسحة بهيئة التدريس، وقد تصورا هذه الأشخاص الواقعية على أنها نوع من الأشباح بهيئةٍ خيالية مقززة. ولم يذكرا "المؤسسة" إلا على نحوٍ يجعلها أقرب لتلك المصحة التي يُعالج فيها العم كريستيان.. وقد انتابت كاي حالة من الرضا الأثيرة وهو يقلد "الرب العزيز"، الذي يحول كل شيء فزعًا فارغًا، فراح كاي يزوم في كل اتجاه غضبًا من الورق، الذي كانت تُلف به أرغفة الزبد، فأصبح الآن متناثرًا هنا وهناك على أرض الفناء. وكان أن قاد هانو إلى إحدى البوابات التي يدخل منها المعلمون إلى الفناء، في طريقهم لتدريس الحصة الثانية، ليبدأ هناك في الانحناء العميق للغاية أمام المحاضرين، بعيونهم المحتقنة ووجوههم المتقعة وحالهم الرثة، أثناء مرورهم ليلحقوا بتلاميذهم من الصف السادس والسابع بالأفنية الخلفية. وكان يفرط في الانحناء مرسلاً ذراعيه رافعًا بصره بخنوع تام إلى هؤلاء الشبان البائسين. لكن عندما ظهر معلم الحساب المسن السيد تيتجه، حاملاً بيدٍ مرتعشة الكتب فوق ظهره، محدودبًا، شاحبًا، وينظر بعيونه الحولاء على نحوٍ لا مثيل له وهو يبصق، قال كاي بنبرةٍ مجلجلة: "نهارًا سعيدًا، أيها الجثة"، ثم أخذ ينظر إلى الفراغ نظرةً جليةً حادة. وكان أن ارتفع في هذه اللحظة صخبٌ مدو، وفي الحال بدأ التلاميذ في التدافع من كل اتجاه نحو الأبواب، إلا أن هانو لم يمسك عن الضحك، بل واصل الضحك على السلَّم إلى حد أن زملاءه المحيطين به وبكاي أخذوا ينظرون في وجهه ببرود متعجبين، بل بشيءٍ من النفور من هذه الرعونة المفرطة.

ساد السكون الفصل، بعد أن وقف الجميع دفعةً واحدة لدى دخول

المدرس الأول الدكتور مانتلساك، الذي كان أستاذ كرسي، اعتاد التلاميذ احترامه؛ فأغلق الباب خلفه، ثم انحنى واشرأب بعنقه، ليرى أن الجميع قد وقفوا، ثم علق قبعته فوق المسمار، وأسرع إلى المنصة، وهو يرفع رأسه وينكسها بسرعة. وهناك وقف منتصبًا ناظرًا قليلاً من النافذة، وهو يمد سبابته بخاتمها الكبير ليحركها بين عنقه وياقة قميصه. وقد كان رجلاً متوسط القامة، بشعر خفيف وخطه الشيب، ولحية مجعدة كلحية رب اليونان جوبيتر. وكان يعاني من قصر نظر عينيه الجاحظتين بلون اللازورد، متألقتين خلف زجاج نظارته الحاد. وقد ارتدى سترةً مفتوحة من نسيج ناعم بلون رمادي، كان كثيرًا ما يتحسسها برفق بيده المجعدة ذات الأصابع القصيرة. وكان سرواله مثل سراويل المعلمين كافةً، باستثناء دكتور جولدنر الرقيق، أقصر مما ينبغي، منحسرًا عن حذاء طويل، عريض على نحو غريب، ويلمع بدهانٍ أبيض بلون المرمر. وفجأةً حول رأسه عن النافذة، مطلقًا زفرةً قصيرة لطيفة، ناظرًا إلى الفصل الصامت ليقول: "نعم، نعم!" وهو يبتسم بود لعديدٍ من التلاميذ. فقد كان معتدل المزاج، وهو الأمر الذي بدا جليًّا، ليعم الفصل إثر ذلك شعورٌ بالارتياح؛ وهو أمر كان يتوقف على الحالة المزاجية لدكتور مانتلساك. فالجميع كانوا يعرفون أنه يتصرف على سجيته، دون وضع محاذير شخصية. فكان إذا سخط جاء غضبه ساذجًا جامحًا، وإذا رضي كان رضاؤه عذبًا أهوج، وكان دائمًا ما يختار بعض المقربين إلى نفسه، فيخاطبهم كأفراد أسرته، وليس بألقاب عائلاتهم؛ فدخل هؤلاء نعيم رضاه؛ فكان بوسعهم البوح بكل ما يضمرون كما يشاءون، دون أن يجد في ذلك غضاضة. وكان الدكتور مانتلساك يحاورهم، بعد انتهاء الحصة، بأبسط أسلوب إنساني.

وذات يوم، قد يكون اليوم الأول بعد العطلة السنوية، ولسبب غير معروف، قام بإسقاط أحد هؤلاء من حساباته، فقضى عليه وتجاهله، ليحل آخرٌ محله، ويصبح من المقربين. وكان قد اعتاد على تحديد أخطاء هؤلاء المحظوظين بخطٍ رقيق خفيف تمامًا، فكانت دفاترهم- مهما بلغت فداحة أخطائهم- تحتفظ برونقها. أما دفاتر الآخرين، فكان يطلق العنان لريشته لتلطخها بغضب، فتطفح باللون الأحمر، لتعطى انطباعًا مروعًا مدمرًا. وكان لا يهتم بعدد الأخطاء، بل كان يضع التقدير وفق كمية الحبر الأحمر؛ لذا كان محاسيبه يجنون من وراء ذلك الفائدة العظمى. ولم يكن يؤرقه أثناء ذلك شيء، بل كان يفعل ذلك برضا تام، دون الإحساس بأدنى شعور بالانحياز. فإذا تملكت أحدهم جرأةٌ مهلكة على الاحتجاج، كان يفقد فرصته بأن يصبح من المقربين الذين يخاطبهم كأفراد أسرته. لذا حرص الجميع على التشبث بهذا الأمل.

أما الآن، فكان الدكتور مانتلساك قد وقف عاقدًا ساقيه، وهو يقلب في دفتر الفصل. وكان هانو بودنبروك جالسًا هناك في المقدمة، وهو يفرك يديه أسفل دُرجه؛ فقد حان دور الباء، ولسوف ينادى اسمه على الفور لينهض، وهو لا يعرف جملةً واحدة، وسوف تقع الفضيحة، كارثة مريعة مدوية، مهما كان اعتدال مزاج الأستاذ. ومرت ثوانٍ طويلة معذبة. "بودنبروك"، الآن سينادي "بودنبروك".

"إدجار"، هكذا نادى مانتلساك، ثم أغلق دفتر الفصل، وهو يدس سبابته بين أوراقه، ليجلس إلى المنصة مطمئنًا إلى سير الأمور.

ماذا؟ كيف حدث هذا؟ إدجار، كان هذا دور ليودرز.. إدجار، إنه ليودرز

السمين الجالس بجوار النافذة. كان حرف "اللام" إذن الذي لم يكن دوره على الإطلاق، كلاً، وهل هذا ممكن؟ لقد كان مزاج الدكتور مانتلساك معتدلاً، فاختار واحدًا من المقربين، متجاوزًا عن ترتيب الأسماء. وكان أن نهض ليودرز السمين، وكان له وجه كلب أفطس الأنف، بعينين سمراوين بليدتين. وبرغم أنه كان في مكان متميز يستطيع الغش فيه على راحته، إلا أنه تكاسل عن ذلك، وهو الذي يشعر بأمانٍ كأنه بالجنة، فأجاب ببساطة: "لم أستطع المطالعة أمس، لإصابتي بصداع".

فقال الدكتور مانتلساك، مستاءً: "هل تخذلني، إدجار؟ ألا تريد أن تتلو عليَّ بعض أشعار العصر الذهبي؟ يا لها من خسارة فادحة يا صديقي. أأُصبت بالصداع؟ لقد كان عليك إبلاغي ذلك قبل بدء الحصة، قبل أن أنادي اسمك.. ألم يصبك الصداع مؤخرًا؟ ينبغي عليك معالجة ذلك، وإلا ستواجه خطر التأخر في دروسك.. "تيم"، هل تريد النيابة عنه". وهكذا جلس ليودرز لتحل عليه اللعنة في هذه اللحظة، فقد بدا بجلاء أن مزاج المحاضر قد تعكر كثيرًا، وقد ينادي ليودرز الحصة المقبلة باسم عائلته.. ونهض تيم من أحد المقاعد الخلفية. وكان صبيًّا أشقر ذا مظهرٍ ريفي، مرتديًا سترة ذات لون بني فاتح. أما أصابعه فكانت قصيرةً عريضة، وكان فمه قد انفتح على شكل المخروط، فرسم تعبيرًا ينم عن حماسٍ وغباء، ودفع كتابه المفتوح بسرعة إلى الوضع المناسب، محاولاً قصارى جهده الإبقاء على نظرته المستقيمة، ثم نكس رأسه وشرع في القراءة، بنبرةٍ ممطوطة متلعثمة رتيبة، كطفل يقرأ في كتاب المطالعة:

"Auera prima sata est aetas"

وهكذا بدا واضحًا أن الدكتور مانتلساك يسأل بلا نظام، فلم يهتم مطلقًا بهؤلاء الذين لم يُختَبروا منذ فترة بعيدة. وهكذا، قد يكون احتمال سؤال هانو قد تلاشى، إلا إذا حدث ذلك على سبيل المصادفة البائسة، فبادل كاي نظرةً تنم عن الارتياح. وفجأةً قاطع الأستاذ قراءة تيم، فلعل الدكتور مانتلساك لم يفهم جيدًا ما قُرئ، أو أنه كان ينشد بعض الحركة: فغادر المنصة ممسكًا بديوان أوفيد، ليقف بجوار تيم الذي أزاح كتابه جانبًا بحركة غير ملحوظة، ليصبح الآن بلا حول ولا قوة، فأخذ يشهق بفمه المخروطي، مطالعًا الأستاذ بعينين زرقاوين صادقتين مروعتين، ولم ينطق ببيتٍ واحدٍ بعدها. ليقول الدكتور مانتلساك: "والآن، تيم.. لِمَ أمسكت فجأةً عن مواصلة الإلقاء؟" فأمسك تيم برأسه، محملقًا بعينيه لاهثًا، ليقول في النهاية بابتسامة حائرة: "لقد أصابنى اضطراب لدى وقوفك بجواري، سيدي الدكتور". فابتسم الدكتور مانتلساك، وقد شعر بالزهو وقال: "إذن فلتستجمع قواك، واستمر"، ليمضي عائدًا إلى المنصة. فكان أن تمالك تيم نفسه، فأعاد الكتاب أمامه، وهو يصارع بجلاء في سبيل التماسك. وجال ببصره في الفصل، ثم نكس رأسه بعد أن عاد إلى طبيعته.

فلما انتهى تيم، قال الأستاذ: "يكفيني هذا، فقد ذاكرت جيدًا، بلاشك، إلا أنك تعاني من الافتقار البالغ للشعور بالإيقاع، تيم. وقد وقفت بوضوح على الانتقال السلس، إلا أنك لم تلتزم بالوزن، فقد تولد لديَّ انطباعٌ بأنك حفظت ذلك نثرًا، إلا أنك بذلت قصارى جهدك. فالطموح يجعلنا دائمًا نجتهد.. تستطيع الجلوس". وهكذا جلس تيم وهو يشعر بالفخر والتألق، بينما كان الدكتور مانتلساك يسجل درجةً مرضية أمام اسمه. أما العجيب

فإنه في هذه اللحظة، لم يكن المعلم وحده وإنما تيم نفسه أيضًا، وجميع زملائه، كانوا على اقتناعٍ تام بأن تيم تلميذٌ جيد ومجتهد حقًّا، وقد استحق درجةً جيدة كاملة. حتى هانو بودنبروك، لم يكن بوسعه إنكار هذا الانطباع، برغم شعوره أن شيئًا ما بداخله يدفعه إلى النفور من ذلك. ومرةً أخرى، أصغى بانتباه إلى الاسم الذي سوف ينادَى عليه، فقال الدكتور مانتلساك: "مومّه! أعِد: "Auera prima" مرةً أخرى". إنه مومّه إذن، الحمد للرب؛ فقد أصبح هانو بمأمنٍ الآن حقًّا؛ فلن تُكرر الأشعار لمرةٍ ثالثة، بعد أن أوشك الدور أن يقترب من حرف الباء. فنهض مومّه، الذي كان شخصًا شاحب اللون، طويل القامة بيدين مرتعشتين، وكان يستخدم نظارة مستديرة كبيرة فوق الحد؛ فقد كان يعاني من عينيه، بالإضافة إلى قصرٍ بنظره. وهكذا كان من المحال أن يقرأ من كتابٍ أمامه وهو واقف، فتعين عليه الاستذكار وقد ذاكر. إلا أنه لم يكن يتمتع بموهبة حقيقية، إضافةً إلى أنه لم يتوقع أنه من سينادَى عليه اليوم، لذلك لم يعرف سوى القليل، فصمت بعد الكلمات الأولى، فعاونه الدكتور مانتلساك وساعده للمرة الثانية بنبرةٍ أكثر حدة، وللمرة الثالثة بصوت مجهد، إلا أن مومّه لم يحرك ساكنًا، ليتملك الغضب الشديد الأستاذ "إن هذا غير كافٍ على الإطلاق مومّه، فلتجلس، إنك شخصٌ بائس، بوسعك الاطمئنان إلى ذلك أيها الشقي. فالحمق والتهاون ليسا من صفات الإنسان الخيِّر"، فتهاوى مومّه على مقعده كأنه هو الفجيعة نفسها. ولم يكن هناك بالفصل مَن لم يحتقره، إلا أن شعورًا بالاشمئزاز، نوعًا من الشعور بالقيء، طغى على هانو بودنبروك، شعور مَن يعانى غصةً في حلقه. لكنه في الوقت نفسه أخذ يترقب بفزعٍ واضح ما

سوف يجري، وقد دون الدكتور مانتلساك بعنف علامة غير مرضية أمام اسم مومّه، وهو يقلب دفتر الفصل مقطبًا حاجبيه، وقد دفعه غضبه للعودة إلى جدول اليوم، فطالعه. وبينما كان هانو يصارِع هذه الحقيقة، إذا به يسمع اسمه، سمعه كدوي كابوس.

"بودنبروك". لقد قال الدكتور مانتلساك "بودنبروك". وكان صدى النداء ما يزال عالقًا بالهواء، إلا أن هانو لم يصدق ذلك، وكأن دويًّا قد اخترق أذنيه، فظل جالسًا.

"السيد بودنبروك"، قالها الدكتور مانتلساك، وهو يحملق فيه بعينين جاحظتين بلون الياقوت الأزرق، كانتا تلمعان خلف زجاج نظارته الحاد "ألا تتكرم؟"

حسنًا، فليكن الأمرُ كذلك. هكذا وقع ما لا بد منه، على نقيض تام مما اعتقد، ليضيع كل شيء الآن. فتمالك نفسه في هذه اللحظة، برغم الصخب الهادر؛ فنهض عاقدًا العزم على التماس عذر فارِغ مضحك، بأنه "نسي" حفظ الأبيات. وإذا به يدرك فجأةً أن الجالس أمامه قد فتح كتابه. كان الجالس أمامه هو هانز هرمان كيليان، وكان ذا بشرةٍ سمراء وشعرٍ غزير ومناكب عريضةً، وكان يطمح إلى أن يصير ضابطًا، كما كان مخلصًا لزملائه، فلم يشأ خذلان حتى يوهان بودنبروك الذي لا يطيقه، حتى إنه أشار بسبابته إلى نقطة البداية، فحملق هانو في الكتاب وشرِع في القراءة بنبرة متلعثمة، وقد قطب حاجبيه وزمَّ شفتيه ليتلو من العصر القديم الذهبي الذي بزغ في البدء متحررًا من المنتقمين، مراعيًا الإخلاص والحق بإرداته الحرة، دون نص من قانون؛ "فلم يكن هناك عقابٌ أو خوف"، قال هانو ذلك باللغة

اللاتينية، ولم يكن هناك تهديدٌ بوعيد على لوح معدني، ولم يرهب الجمع الآملُ وجه قاضيه. كان يقرأ، وقد اكتسى وجهه بأمارات الألم والاستياء، كما تعمد القراءة على نحوٍ سيء وغير متسق، قاصدًا إهمال ربط الانتقال الذي كان كيليان قد حدده بالقلم الرصاص، مرددًا أبياتًا تكتنفها الأخطاء، متعلثمًا، مكرهًا نفسه بجلاء على الاستمرار، متوقعًا- في كل لحظة- أن يكشف الأستاذ الأمر كله فيهجم عليه.. وكانت متعة الاختلاس من كتابٍ مفتوح أمامه قد سرت قشعريرةً في بدنه، إلا أن نفوره البالغ من الغش جعله يفعل ذلك على أسوأ نحو كان بإمكانه، بما يجعل الاحتيال أقل وضاعة. ثم لاذ بالصمت، ليعم سكون لم يجرؤ خلاله على رفع بصره. ولما كان السكون مروعًا، فإنه أيقن أن الدكتور مانتلساك قد رأى كل شيء، فشحب لون شفتيه تمامًا. وفي النهاية زفر الدكتور مانتلساك متنهدًا، وقال: "آه، بودنبروك si tacuissi، وأنت تغفر لي بالطبع استثناءك من المخاطبة دون كلفة.. فهل تدرى ماذا فعلت؟ إنك تهيل الثرى على الجمال، وقد سلكت مسلك قبائل الواندال البرابرة. إنك مخلوقٌ طريف، بودنبروك، وهو ما أدركته من شكل أنفك! وإني أسائل نفسي إن كنت طوال الوقت تسعل أم تلقي أبيات شعرٍ رفيع، فأجدني أميل للرأي الأول. وقد كان تيم يملك إحساسًا واهنًا بالإيقاع، إلا أنه بالمقارنة بك عبقري فذ. فلتجلس أيها الشقي، لقد ذاكرت يقينًا، قد ذاكرت، وليس بوسعي منحك درجة سيئة، وقد بذلت قصارى جهدك. إصغ إليَّ، ألم يخبرك أحدٌ بنزعتك الموسيقية، وأنك تعزف على البيانو؛ فكيف يتأتى لك ذلك؟ والآن، حسنًا، فلتجلس. لقد اجتهدت، وهذا أمرٌ طيب". ثم دون درجةً جيدة في دفتره، أثناء ما كان هانو بودنبروك يجلس.

فمثلما كان حال تيم الفذ من قبل، صار هو الحال الآن، فلم يستطع إنكار تأثره بكلمات الدكتور مانتلساك، إلا أنه أدرك في تلك اللحظة أنه خلوٌ من الموهبة، لكنه كان التلميذ المجتهد الذي خرج من مأزقه إلى حدٍّ ما بشرف، كما تبين أن زملاءه كافةً، وهانز هرمان كيليان من بينهم، قد آمنوا بالرأي نفسه، فعاوده شعوره بالغثيان. إلا أنه كان مجهدًا إلى حدٍّ حال بينه وبين التفكير فيما حدث، فكان أن أغمض عينيه، وقد امتقع وجهه، وأخذ يرتجف ثم غشاه النعاس.

أما الدكتور مانتلساك، فقد استأنف الدرس منتقلاً إلى أشعار جديدة كان أعدها لليوم، فنادى "بترسن"، فنهض نشطًا مفعمًا بالحيوية معتزًا بنفسه، مبديًا بسالةً مستعدًا لمواجهة النزال، مقدمًا عليه. إلا أن سقوطه اليوم كان أكيدًا، فلن تمر الحصة دون وقوع كارثة أعظم فداحةً من تلك التي ألمَّت بالبائس مومّه، قصير النظر.. وقام بترسن بالترجمة، بينما كان ينظر من حين لآخر إلى الصفحة الأخرى من كتابه، التي لم يكن يتعين عليه قراءتها. وقد أدى ذلك ببراعة، متظاهرًا بأن شيئًا ما يزعجه، فكان يلوح بيده وينفخ كأنه يبعد ذرة غبار أو ما شابه، ليتخلص من الإزعاج. إلا أن المحظور قد وقع؛ فقد أتى الدكتور مانتلساك فجأةً بحركةٍ عنيفة، ليرد عليها بترسن كذلك بحركةٍ مماثلة، ليغادر الأستاذ المنصة في اللحظة نفسها على عجل مسرعًا صوب بترسن بخطى واسعة لا يمكن اعتراضها. وعندما وقف أمامه قال: "لديك شفرة حل الترجمة بالكتاب" فقال بترسن متلعثمًا: "شفرة.. أنا.. كلاَّ".

لقد كان شابًا جميلاً ذا شعرٍ غزير أشقر ينحدر على جبهته، وذا عينين زرقاوين يفوق جمالهما كل وصف، فصارتا الآن تختلجان رعبًا.

"أليست لديك شفرة الكتاب؟"

"كلاَّ، سيدي، المدرس الأول.. سيدى الدكتور.. شفرة؟.. فليس لدى حقًّا أية شفرة.. وقد جانبك الصواب، وارتيابك بأمري ليس في محله". هكذا تكلم بترسن على نحوٍ غير مألوف، وقد جعله خوفه ينتقي كلماته بحرصٍ متعمدًا هز ثقة الأستاذ بما يقول، ودفعته محنته البليغة إلى أن يقول: "أنا لا أغش، فقد كنت دومًا صادقًا.. طيلة حياتى". إلا أن الدكتور مانتلساك كان واثقًا من ورطته المخزية، فقال ببرود: "اعطني كتابك".

إلا أن بترسن تمسك بكتابه، ورفعه بكلتا يديه متضرعًا، وواصل مرافعته بلسان شبه عاجز: "فلتصدقني سيدي الدكتور.. الكتاب خالٍ تمامًا.. ليست لديَّ شفرة حل.. أنا لم أغش، وقد كنت صادقًا دائمًا.."

فدق الأستاذ بقدمه مكررًا: "اعطني الكتاب". وهنا وهن عزم بترسن، وامتقع وجهه تمامًا، فأسلم الكتاب وهو يقول: "حسنًا، ها هو، نعم هناك شفرة، انظر بنفسك، ها هي.." ثم صرخ فجأةً: "إلا أنني لم أستخدمها" كان الدكتور مانتلساك وحده هو مَن تجاهل هذه الكذبة الفارغة التي فجرها الإحباط، ثم استخرج الشفرة، ليطالعها فبانت على وجهه أمارات من يمسك بيده شيئًا مقززًا، ثم دسها بجيبه ملقيًا بديوان "أوفيد" إلى بترسن، مستهجنًا، ليقول بنبرة كظيمة: "دفتر الفصل!" فقام أدولف توتنهاوبت بإحضار الدفتر في طاعة تامة، ليحصل بترسن على "لوم" لمحاولته الغش، وهو ما قضى عليه لفترةٍ طويلة، وأكد على استحالة انتقاله للمرحلة التالية في عيد الفصح. وكان أن قال الدكتور مانتلساك، قبل أن يعود أدارجه إلى المنصة: "إنك وصمة عار بالفصل"؛ فجلس بترسن منهارًا، ورأى زملاؤه جاره وهو يبتعد عنه بوضوح.

وأصبح الجميع ينظرون إليه بشعورٍ يجمع بين الاشمئزاز والشفقة والجزع. أما هو، فقد أحس بالانهيار والوحدة والعزلة التامة، بعد أن ضُبط متلبسًا. ولم يعد هناك سوى رأي واحد في بترسن، وهو أنه حقًّا "وصمة عار بالفصل". وقد لاقى ذلك إقرارًا وقبولاً بنفس قدر إقرار وقبول توفيق كلٍّ من تيم وبودنبروك وفشل مومّه؛ حتى بترسن نفسه رضى بذلك، ولم يعد هناك من بين هؤلاء الخمسة وعشرين شابًّا، حتى وإن كان صلبًا قادرًا على مواجهة ظروف الحياة مهما كانت، إلا وقنع في هذه اللحظة بهذا الحكم كما هو، ولم ير فيه إهانةً ما، بل رآه منطقيًّا عادلاً. إلا أنه كان هناك أيضًا عينان شابهما شرودٌ مكدر، شاخصتين إلى منطقةٍ ما؛ فقد كان يوهان الصغير يحملق في ظهر هانز هرمان كيليان العريض، بعينيه الكستنائيتين، بما يحيطهما من هالات زرقاء، مفعمتين بالاشمئزاز والرفض والجزع.. لكن الدكتور مانتلساك واصل درسه، فنادى تلميذًا آخر، تلميذًا ما، وليكن أدولف توتنهاوبت، بعد أن فقد تمامًا رغبته في اختبار آخرين لا يثق في قدراتهم، ثم حان الدور على آخر، كان قد ذاكر إلى حدٍّ ما لكنه لم يعرف معنى: " Patule jovis arbore gelandes"، مما أدى إلى أن يجيب بودنبروك على ذلك.. فرد هامسًا دون أن يرفع ناظريه، بعد أن سأله الدكتور مانتلساك، الذي أومأ اليه برأسه معقبًا على إجابته. فلما انتهى اختبار التلاميذ، كان اهتمامهم بالحصة قد انتهى أيضًا. فكان أن دعا الدكتور مانتلساك أحد المتميزين، معتمدًا على نفسه، وأصبح لا يهتم بالإصغاء إليه، مثله في ذلك مثل الأربعة والعشرين الآخرين الذين شرعوا في الاستعداد للحصة التالية، ولم يعد من بينهم مَن يهتم بغير ذلك؛ فلم يعد بوسع أحدٍ تقييم أحدٍ أو الحكم على اجتهاده.. كما

كانت نهاية الحصة قد اقتربت، وها هي قد انتهت بعد أن دق الجرس. وهكذا كان قدر هانو، بل إنه تلقى إيماءةً من الأستاذ. وبينما كان الصديقان يمضيان وسط زملائهما بالممر، ذي الطراز القوطي، في طريقهما إلى معمل الكيمياء، قال كاي: "حسنًا، ما هو رأيك الآن، هانو! بعد أن رأوا جبهة القيصر؛ لقد فاق حظك كل الحدود".

فقال يوهان الصغير: "أشعر بالغثيان، كاي، أنا لا أريد هذا الحظ، فهو يصيبني بالغثيان.." فأدرك كاي أنه كان سيشعر بالإحساس نفسه، لو كان بمكان هانو.

كان معمل الكيمياء مُدرجًا مقببًا مزودًا بطاولة اختبار طويلة، وكذلك بصوانين من الزجاج امتلآ بالقارورات.

وقد كان الهواء بالمعمل في الحصة السابقة حارًا وسيئًا للغاية. أما الآن، فقد أصبح أيضًا مشبعًا بالهيدروجين وثاني أكسيد الكبريت، اللذين استخدما في تجارب أجريت قبل قليل، فعبق المكان برائحة كريهة لا تطاق. فقام كاي بفتح النافذة، ثم اختلس دفتر التحضير من أدولف توتنهاوبت ليشرع لاهثًا في نسخ مقرر اليوم، وفعل هانو وآخرون كثيرون الشيء نفسه، وهو ما استغرق وقت الراحة كله، إلى أن دق الجرس، ليظهر الدكتور ماروتسكه. كان هو المدرس الأول "العميق"، وهو اللقب الذي أطلقه عليه كاي وهانو. وقد كان رجلاً يتمتع بالمكانة الأولى لدى المدير فوليكه، نظرًا لجمعه بين الوظيفة ورتبة الضابط؛ فكان أكثر المعلمين حفظًا للنظام، وهو الذي يفحص جبهة التلاميذ الواقفين بنظام صارم، بنظرة منتقدة، مطالبًا إياهم بإجاباتٍ واضحة دقيقة. إلا أن هذه الحالة من التصوف والحزم جعلت

التلاميذ يعرضون عنه، إلى حدٍّ ما.

وكان أن قُدمت إليه الواجبات النهائية، بينما كان الدكتور ماروتسكه يجوس بالمكان ويدق بإصبعه على كل دفتر. وكان بعض التلاميذ، الذين لم يكتبوا شيئًا، يقدمون إليه دفاتر مختلفة تمامًا أو أعمالاً قديمة، دون أن يسترعى ذلك انتباهه. ثم بدأ الدرس، فسارت الأمور تقريبًا على النحو نفسه الذي سارت عليه أحداث حصة "أوفيد"، فقد تعين على الشبان الخمسة والعشرين الآن استعراض جهودهم في إلمامهم بعناصر البورون والكلور معًا والاسترونشيوم؛ فنال هانز هرمان كيليان رضاه بعد أن عرف أن "Ba SO4" أي كبريتات الباريوم هي المواد الأكثر استخدامًا في عمليات التزييف. وقد كان هو تلميذه الأثير لطموحه إلى أن يصير ضابطًا. أما هانو وكاي فلم يعرفا شيئًا، فجاءت درجاتهما بدفتر الدكتور ماروتسكه متواضعة. فلما انتهى الاختبار والاستماع وتسجيل الدرجات، كان الاهتمام بحصة الكيمياء قد تلاشى، وبدأ الدكتور ماروتسكه في عمل بعض التجارب التي نتج عنها بعض الدوي والأبخرة الملونة، فلم يكن ذلك إلا بمثابة ملء فراغ ما تبقى من الحصة. وفي النهاية، قام بإملاء الواجب الذي ينبغي استذكاره حتى الحصة التالية. وهكذا انقضت الحصة الثالثة، وقد كان الجميع سعداء فيما عدا بترسن الذي نُكب اليوم؛ فقد كانوا مقبلين على حصة تتسم بالمرح والسِلم تنقضي بين لهوٍ وتسرية. كانت حصةً في اللغة الإنجليزية التي يديرها معلمٌ تحت الاختبار يُدعى مودرسون، وكان شابًا متخصصًا في فقة اللغة، وقد التحق قبل عدة أسابيع بالعمل في المدرسة كمعلم تحت الاختبار. أو كما كان كاي دوق مولن يسميه: "ضيف بشرف". فقد كانت فرصته في

التعيين ضئيلة، لذا كانت حصته يكتنفها الرضا والمرح.

وبينما ظل بعض التلاميذ بمعمل الكيمياء، كان بعضهم الآخر قد صعد إلى الفصل، وقد اطمأنوا جميعًا إلى أن أحدًا منهم لن يعاني من برودة الفناء، إذ كان الإشراف على الممر منوطًا بالسيد مودرسون الذي لن يجرؤ على إرسال أيٍّ منهم إلى الفناء، كما كان عليهم الاستعداد لاستقباله. وعندما دق جرس الحصة الرابعة لم يكن الفصل يفتقد أدنى درجات الهدوء، فقد أخذ الجميع في الثرثرة والضحك، بعد أن غمرتهم متعة الاستمتاع بفاصل الرقص المنتظر. وبينما كان الدوق مولن عاكفًا على مطالعة "روديش أوزر"، معتمدًا برأسه على راحتي كفيه، كان هانو يجلس ساكنًا متابعًا الضوضاء حوله؛ فكان البعض يقلد أصوات الحيوانات، فارتفع صياحُ ديكٍ، وعلا شخيرُ خنزيرٍ قادمًا من الخلف، حيث كان يجلس فسّرفوجل دون أن يلحظ أحدٌ أن مثل هذا الصوت يصدر عن بطنه، أما العبقري تيم فرسم بالطباشير على السبورة وجهًا كبيرًا وقحًا أحول العينين. وعندما دخل السيد مودرسون، لم يفلح في إغلاق الباب رغم ما بذله من مجهودٍ شاق، إذ كان فرجة الباب قد سُدت بكتلةٍ غليظة من خشب الزيزفون، فأوكل إلى أدولف توتنهاوبت نزعها.

كان مودرسون، المعلم تحت الاختبار، قصير القامة، لا يتمتع بشخصية قوية. وكان إذا مشى دفع بكتفه مائلاً إلى الأمام، وكان يقطب وجهه حانقًا، أما لحيته فكانت سوداء دقيقةً للغاية، وتبدو على وجهه أمارات اضطراب مريع، كما كانت عيناه المتألقتان تختلجان دائمًا؛ فإذا استنشق الهواء فتح فاه كمن أقبل على الكلام فلم يجد الكلمات المناسبة. وبعد ثلاث خطوات قطعها بعد اجتيازه الباب، إذا به يطأ حبة بازلاء منتفخة، فكأنه وطأ "ديناميت"؛ إذ

كانت حبة البازلاء من نوعٍ نادر يحدث دويًّا كالانفجار، فارتعد من ذلك رعدة شديدة. وقد حدت به الورطة إلى الابتسام، متظاهرًا بعدم مبالاته بما حدث. ثم توقف عند الصف الأوسط الثالث، وقد مال كعادته منحنيًا معتمدًا أحد كفيه على سطح الدُرج الأول. ولما كان التلاميذ يعرفون هذا الوضع الأثير لديه، فقد قاموا مسبقًا بسكب الحبر على هذا الموضع، فلُطخت يد السيد مودرسون البسيطة الصغيرة للغاية، فتظاهر أنه لم يلحظ ذلك، ووضع يده المبللة بالسواد خلف ظهره ورفّ بعينيه، ليقول بنبرة رقيقة واهنة: "إن الفصل يفتقر إلى النظام". وفي هذه اللحظة كان هانو بودنبروك قد وقع في حبه، فلم يتحول عن النظر إلى وجهه المكفهر العاجز. وراح شخير فسّرفوجل يتصاعد عاليًا، وعلى نحو أكثر محاكاةً للطبيعة، وفجأة ارتطمت كمية من حبات البازلاء بزجاج النافذة لترتد إلى داخل الفصل، محدثةً أصواتًا مجلجلة، ليقول أحدهم بصوتٍ عالٍ واضح: "إن البَرَد ينهمر". فبدا أن السيد مودرسون قد صدق ذلك، فانسحب من فوره عائدًا إلى المنصة، طالبًا دفتر الفصل. وهو لم يطلب ذلك من أجل تسجيل درجة لأحدهم، بل لأنه لم يعرف إلا قلة قليلة من التلاميذ، رغم تدريسه بهذا الفصل لستٍ أو سبع من الحصص. وهكذا كان مضطرًا إلى قراءة الأسماء من الجدول على نحوٍ عشوائي. ثم نادى: "فدّرمان، ألا تريد إلقاء القصيدة!"

"إنه غائب اليوم". هكذا صاحت بعض الأصوات المختلفة المتداخلة، بينما كان فدرمان جالسًا منتفخًا بمكانه، وأخذ يقذف حبات البازلاء بمهارةٍ نادرة في كافة أرجاء الفصل.

فرفَّ السيد مودرسون بعينيه، وتهجى حروف اسم جديد ليقول: "فسّر

فوجل!"

"فليرحمه الرب". هكذا صاح بترسن، وقد تملكه روح مرح خبيثة. ووسط دبيب أقدام وشخير خنازير وصياح ديكة وضحكات سخرية، كرر الجميع بأن فسّرفوجل قد مات. فكان أن رفَّ السيد مودرسون بعينيه عدة مرات، متلفتًا حوله مقطبًا فمه عابسًا، لينظر ثانيةً إلى دفتر الفصل، مشيرًا بيده الصغيرة البسيطة إلى الاسم الذي كان يريد النداء عليه، ليقول دون ثقةٍ كبيرة: "بيرلمان!" ليقول الدوق مولن بثبات وجلاء: "وا أسفاه، لقد أصابه جنون". وهو ما أكده هتاف متصاعد. وهنا نهض السيد مودرسون صائحًا في وجه الصخب: "بودنبروك سوف تقوم بكتابة واجب عقابًا لك، فإن عدت للضحك ثانيةً فلن أجد مناصًا من إنزال العقوبة بك". ثم عاود الجلوس، وكان بودنبروك قد ضحك بالفعل، فقد ندت عنه ضحكة خافتة على نكتة كاي لم يستطع إخفاءها. وقد وجدها نكتةً جيدة، خاصةً تعبير "وا أسفاه!" فلما وبخه السيد مودرسون التزم السكينة، مسددًا نظرةً عابسة إلى المعلم تحت الاختبار، وقد رأى فيه في هذه اللحظة كل شُعيرةٍ بائسة من لحيته التي تظهر بشرته كلها من تحتها، ورأى عينيه اليائستين اللامعتين السمراوين، كما رأى أن كلا يديه الصغيرتين الخائبتين تحملان زوجًا من الأساور، فقد كان كُما قميصه حول معصميه على نفس القدر من طول وعرض الأساور الأخرى، ورأى كيانه البائس القانط تمامًا، كما سبر أيضًا أغواره؛ فقد كان هانو بودنبروك يكاد يكون الوحيد الذي كان السيد مودرسون يعرفه بالاسم. فكان يستغل ذلك بأن يوجهه بالتزام النظام، أو عقابه بكتابة واجبٍ ما، أو اضطهاده. ولم يكن قد عرف التلميذ بودنبروك إلا لتميزه عن

الآخرين بالسلوك الهادئ، كما استغل طبع هانو الرقيق ليشعره بهيمنته الصارمة، التي لا يجرؤ على إظهارها نحو زملائه الصاخبين الوقحين. فخطر ببال هانو فكرة أن الوضاعة تجعل مجرد الشفقة على إنسانٍ في هذه الدنيا أمرًا مستحيلاً. أما أنا فلن أشارك في إيلامك وابتزازك أيها المعلم تحت الاختبار، مودرسون، لأني أرى ذلك بربريًا وقحًا معتادًا، فماذا كان ردك عليَّ؟ لكن هذا هو حال الدنيا، وهكذا تجرى الأمور في كل زمانٍ ومكان.

هكذا كان يفكر أثناء ما كان الجزع والغثيان يتصاعدان داخله، فعاود الحوار الباطني مع مودرسون، المعلم تحت الاختبار. ومن ثم يكون عليَّ إضافةً لذلك أن أسبر أغوارك على هذا النحو الجلي المقزز.

وفي النهاية، كان قد عثر على مَن هو ليس بميتٍ أو مجنون، ليقدم على إلقاء أبيات الشعر الإنجليزية، وكانت من قصيدة بعنوان: "القرد"، وهو نص مفتعل فُرض حفظه غيبًا على شبان يتطلع معظمهم إلى العمل في البحر أو التجارة أو أي نشاط إنساني جاد.

“Monkey, little, merry fellow, thou or nature’s Punchinello”

أي: "أيها القرد، أيها الرفيق الصغير المرح، لقد جئت الدنيا مهرجًا".

وقد كانت هناك العديد من المقاطع الشعرية قرأها التلميذ كاسباوم من كتابه، فلم يكن هو، أو غيره، بحاجةٍ أن يرغم نفسه على أدنى الأمور تفاهة، في مواجهة السيد مودرسون؛ فقد جلجل الضحك، وارتفع شخير الخنزير، وتطايرت حبات البازلاء، بعد أن أدار الانفلات رؤوس الخمسة والعشرين، واستيقظت غرائز فوضوية في نفوس هؤلاء البالغين من العمر السادسة

عشرة والسابعة عشرة. فها هم يأخذون في رفع أوراق رسموا عليها بالقلم الرصاص صورًا مفرطة الفحش، مغرقين في الضحك منها. وفجأةً لاذ الجميع بالصمت، وكف القارئ عن الإلقاء، حتى إن السيد مودرسون نفسه انتصب ليصغي بعد أن حدث شيء لطيف؛ فقد تسلل لحنٌ عذب بوقعٍ رنان من نهاية الفصل، لينساب حلوًا رقيقًا خلال هذا السكون المباغت، صادرًا عن ساعة مزودة بالموسيقى، جاء بها أحدهم لتعزف: "أنت يا مَن سكنت قلبي"، في أوج حصة اللغة الإنجليزية؛ إلا أنه- في اللحظة نفسها التي انساب فيها هذا اللحن العذب- وقع حدثٌ مروع كان له أثره على الجميع، بشعًا، مباغتًا، طاغيًا. فقد انفتح الباب دون استئذان على مصراعيه دفعةً واحدة، ليدخل شيءٌ طويل مفزع، ليقف بخطوة جانبية واحدة أمام صفوف التلاميذ، مغمغمًا بألفاظ غامضة. كان هو الرب العزيز، فامتقع وجه السيد مودرسون، وجرَّ المقعد ذا المسند من فوق المنصة ليمسحه بمنديله؛ فهب التلاميذ على قلب رجل واحد، وقد ضموا أذرعهم إلى الجنب، واقفين على أطراف أصابعهم، منكسي الرؤوس، وهم يعضون على أسنانهم إظهارًا للخنوع الفوري. فساد سكون عميق لم يقطعه سوى زفرة أحدهم متنهدًا، ليخيم السكون من جديد. أما المدير فوليكه، فأخذ يفحص الصفوف المحيية لبرهةٍ، ليرفع بعد ذلك ذراعيه بأساورهما المتسختين ذات الشكل المخروطي، لينزل بهما بأصابع منفرجة مثل عازفي البيانو، ليقول أثناء ذلك بصوت آلة الكونترباص "اجلسوا!"، كما اعتاد مخاطبة الجميع دون كلفة، فأُلقي التلاميذ جلوسًا. أما السيد مودرسون، فقد سحب بيدٍ مرتعشة المقعد ذا المسند نحو المدير الذي جلس إلى جانب المنصة.

"تفضل، واصل!" قال ذلك على نحو مخيف، كمن يقول: "لسوف نرى حقًّا، والويل لمن.."

وقد اتضح سبب مجيئه؛ فقد كان على السيد مودرسون أن يقدم نموذجًا لأسلوب تدريسه، فكان عليه استعراض إنجازه خلال ست أو سبع حصص لتلاميذ الصف الثاني الثانوي؛ فأصبح مستقبل السيد مودرسون ووجوده رهنًا بذلك. فبدا المعلم تحت الاختبار في حالة يُرثى لها، وهو يقف من جديد على المنصة، مناديًا أحدهم ليكرر قصيدة "القرد". وكما حدث مع التلاميذ إلى هذا الحين، من اختبار وتقييم، يحدث الآن مع المدرس في الوقت نفسه، فجاءت النتيجة مخيبةً لكلا الطرفين.

فقد كان ظهور المدير فولكيه مباغتًا، ولم يكن سوى اثنين أو ثلاثة مستعدين لذلك، ولم يعد بوسع السيد مودرسون توجيه أسئلته طوال الحصة فقط إلى أدولف توتنهاويت، الذي كان يعرف كل شيء. وقد أصبح من المحال إعادة إلقاء قصيدة "القرد" على النحو السابق في حضرة المدير، وإلا حلت اللعنة على الجميع. فلما حان دور رواية "إيفانهو"[*]، لم يستطع أحد سوى الشاب الدوق مولن أن يقوم بترجمة النزر اليسير فقط، لأنه كان ذا اهتمامٍ شخصي بالرواية. أما الآخرون فراحوا يقلِّبون الكلمات وهم يسعلون؛ وقد نودي على هانو بودنبروك كذلك، فلم ينجز عبارةً واحدة؛ فأطلق المدير فوليكه صيحةً كأنها ضربةٌ عنيفة على أعمق أوتار الكونترباص، بينما كان

---

[*] رواية تاريخية كتبها السير والتر سكوت عام 1819؛ وتتناول جانبًا من التاريخ الإنجليزي. وهي أكثر رواياته شعبية وشهرة؛ (المحرر).

السيد مودرسون يفرك يديه الصغيرتين الخائبتين الملطختين بالمداد، وهو يردد نائحًا: "فيما عدا اليوم، كانت الأمور تسير على خير وجه، وفيما عدا اليوم كانت الأمور تسير على خير وجه". وراح يكرر ذلك، إلى أن دق الجرس، وهو يتجه مرةً إلى التلاميذ وأخرى إلى المدير، إلا أن "الرب العزيز" نهض منتصبًا على نحو مريع، عاقدًا ذراعيه أمام مقعده، وهو يشيح برأسه محدقًا بعينيه، متجاوزًا الفصل. ثم طلب دفتر الفصل ليدون فيه على مهل تقييم كل من كان أداؤه معيبًا أو عدمًا، موجهًا اللوم لستةٍ أو سبعة من التلاميذ دفعةً واحدة. وبرغم أنه لم يسجل تقييمًا للسيد مودرسون، لكن تقييمه كان أسوأ من الجميع، ليقف هناك ممتقعًا منكسرًا مقضيًا عليه. وقد كان هانو بودنبروك من بين الذين وُجه إليهم اللوم، وقال المدير فوليكه: "لشد ما أتمنى إفساد مستقبلكم". ثم مضى. ودق الجرس لتنتهي الحصة هكذا؛ إذن، كان لابد من وقوع ما جرى. نعم، فهكذا كان الحال دائمًا. فما يخشاه المرء تُكتب له غالبًا السلامة منه، أما ما نتعشم فيه خيرًا فإنه يحل بنا مثل الطامة الكبرى. وهكذا بدا انتقال هانو إلى المرحلة التالية، بعد عيد الفصح، مستحيلاً تمامًا. فنهض مغادرًا الفصل بعيون متعبة، وهو يلوك بلسانه ضرسه المعتل، ولحق به كاي وطوقه بذراعه، ومضيا بين رفاقهما الذين تملكهم القلق، ليهبط الجميع إلى الفناء. وكان أن نظر كاي في وجه هانو متوجسًا مشفقًا، ليقول "معذرةً، هانو، بأنني قد قمت بالترجمة، وقد كان عليَّ التزام الصمت حتى أسجِّل مع من نزل بهم العقاب. إن ذلك لوضاعة لا تغتفر".

فأجاب هانو: "لقد قمت أنا أيضًا قبلك بترجمة Patula jovis aloore

glandes ، ولكن قُضي الأمر، ولابد أن نسلم بذلك".

"نعم، إنها أمورٌ لا نعرفها. إذن فليقض "الرب العزيز" على مستقبلك، فلا مناص من استسلامك لهذا، هانو، إن كان ذلك مشيئته التي لا تُرد.. المستقبل، يا لها من كلمة جذابة.. كما قُضي كذلك على مستقبل السيد مودرسون، ولن يصبح أبدًا مدرسًا أول، فيا لَه من شقي! نعم، فهناك مدرس أول ومدرس مساعد، وليس هناك مدرسٌ فقط. وهو أمر يصعب عليَّ استيعابه، لأنه أمرٌ لا يفهمه سوى الكبار. فبوسعك القول إن هناك مدرسًا أو لا مدرس، أما كيف لك أن تصبح مدرسًا أول، فهذا ما لا أفهمه. وبمقدورنا التقدم بهذا التساؤل إلى "الرب الرحيم"، أو السيد ماروتسكه، لنعرف رأيهما. فماذا سيحدث؟ إنهما سيعتبران هذا إهانةً وسيقضيان عليك، لأنك تمردت، بينما لم تقل أنت سوى رأيك في وظيفتهما، وهو رأي أفضل كثيرًا من رأيهما.. ما علينا، دعك منهما، فهما ليس سوى فصيلة نادرة من الحيوانات".

وهكذا مضى الرفيقان يتجولان بالفناء، وقد أخذ هانو يصغي بنفسٍ راضية إلى محاولات كاي المستميتة ليجعله ينسى ما نزل به من عقاب.

"انظر، هنا البوابة، إنها باب الفناء المفتوح، وهنا الشارع؛ فماذا لو أننا خرجنا لنقضي بعض الوقت على الرصيف؟ أليس هذا وقتًا للراحة، وما يزال أمامنا ست دقائق، ولسوف نعود يقينًا في موعدنا. لكن واقع الأمر يقول: إن هذا محال، هل تفهم ذلك؟ فها هو الباب، وهو مفتوحٌ، ولا يوجد سورٌ يمنعنا، لا شيء، لا عائق، فها نحن أمام العتبة، وبرغم ذلك فإن هذا محال، بل إن التفكير في ذلك محال. حتى لو كان الخروج لثانيةٍ واحدة. حسنًا، فلنتغاضَ

عن هذا، ولنضرب مثالاً آخر. فإذا قلنا الآن إن الساعة هي الحادية عشرة ونصف فسنكون قد وقعنا في خطأ عظيم؛ لأن الساعة الآن هي "ساعة الجغرافيا، وهذا هو حالنا. والآن، فأنا أتوجه بسؤالي إلى الجميع: "هل هذه هي الحياة"؟

"إنها أمور كلها سقيمة، آه، يا إلهي، ألا ترحمنا هذه المؤسسة من عناقها الحميم".

"أجل، فماذا بعد؟ كلاًّ، دع ذلك، كاي، فلسوف تجري الأمور على النحو التالي: بماذا نبدأ؟ فنحن هنا على الأقل غير مطالبين بالرد على ذلك؛ فمنذ وفاة والدي، لم يكف السيد شتفان كيستنماكر والقس بيرنجزهايم عن سؤالي يوميًا عما أريد أن أكون، وأنا لا أدري. لا أستطيع الرد بأية إجابة، فليس بوسعي أن أصبح شيئًا ما، وأنا أخاف كل شيء".

"كلاًّ، كيف تتكلم على هذا النحو من الخوف، أنت يا مَن تعزف الموسيقى.."

"فماذا عن عزفي للموسيقى، كاي؟ لا جدوى من وراء ذلك. فهل أجوب الأرجاء عازفًا للموسيقى؟ فأولاً: هم لن يسمحوا لي بذلك، وثانيًا: أنا لست مؤهلاً لأداء ذلك؛ فأنا، تقريبًا، لا أستطيع أداء شيء، وما أقوى عليه ليس سوى بعض الخيال عندما أكون وحيدًا. كما أنني أرى التجوال أمرًا مروعًا كذلك. أما أنت، فمختلفٌ عني، فأنت تتمتع بجرأةٍ أعظم، فأنت تجوب الأرجاء هازئًا بكل شيء، فلديك ما تستطيع قوله، إنك تسعى للكتابة، تريد أن تحكي للناس شيئًا جميلاً غريبًا؛ حسنًا، فهذا أمرٌ مهم، ولسوف تصبح يقينًا مشهورًا، فأنت بارعٌ للغاية. فأين تكمن العلة إذن؟ إنك تتمتع بروح

أكثر مرحًا. فأثناء الحصة كنا نتبادل النظرات، مثلما حدث منذ قليل؛ فأثناء حصة السيد مانتلساك كان بترسن هو الوحيد الذي عوقب من بين جميع من قاموا بالغش، فخطرت ببالنا الفكرةُ نفسها؛ إلا أنك تغاضيت عن ذلك مترفعًا، وهو ما لا أقوى عليه، بل ويرهقني، فلا يعود بوسعي سوى السعي إلى النوم متجاهلاً الأمر كله. إنني أريد أن أموت، كاي!.. لا، فليس مني رجاءٌ ينتظر، فأنا لا أسعى حتى إلى الشهرة، وأخشى ذلك كأنني أقترف جرمًا. ولن أصبح شيئًا ما، ولتطمئن إلى ذلك. وقد حدث مؤخرًا، إثر نهاية حصة تثبيت الإيمان، أن قال القس برنجزهايم لأحدهم بأن لا يضع آمالاً عليَّ، لأنني أنتمي إلى أسرة متعفنة".

فتساءل كاي بانتباه مُستنفَر:

"هل قال ذلك؟"

"نعم، وكان يعني عمي كريستيان المقيم بمصحة بهامبورج. وهو محقٌّ في ما قال يقينًا. ولذا تعين عليه ألا يضع آمالاً عليَّ؛ ولسوف أحمد له ذلك. فأنا لديَّ من الهموم الكثير، وأرى في كل شيء عبئًا ثقيلاً. ولنفترض أنني جرحت أصبعي، وقد يؤلمني ذلك، إلا أن مثل هذا الجرح يُشفَى الآخرون منه خلال ثمانية أيامٍ، بينما أحتاج أنا لذلك إلى أربعة أسابيع؛ فجرحي لا يلتئم، إنما يلتهب وتسوء حالته، مما يسبب لي متاعب لا تطاق. وقد أخبرني السيد برشت مؤخرًا بأن حالة أسناني يُرثى لها؛ فكلها تقريبًا تالفة مفتتة، ناهيك عن تلك التي تم خلعها. هذا هو ما آل إليه حالي في هذا العمر؛ فبأي شيء آكل، عندما أصل إلى الثلاثين، أو الأربعين؟ لقد ضاعت آمالي كلها.."

فمضى كاي مسرعًا السير، وهو يقول: "هكذا، والآن، فلتخبرني بشيء

عن عزفك على البيانو. فأنا عازمٌ على كتابة شيء، شيء رائع.. وربما أشرع في ذلك فيما بعد، أثناء حصة الرسم، فهل تريد العزف عصر اليوم؟"

فلاذ هانو بالصمت برهةً، وقد شاب نظرته أمرٌ مكدر، محتارًا مرتبكًا، وقال: "نعم، لسوف أعزف شيئًا، برغم أنه لم يكن بنيتي الإقدام على ذلك الآن؛ فعليَّ أن أتمرن على السوناتات، ثم أتوقف عن ذلك. لكنني سوف أعزف فعلاً، فليس بوسعي إهمال ذلك، برغم أن هذا يجعل حالتي أكثر سوءًا".

"أكثر سوءًا؟"

فصمت هانو ليقول كاي: "أنا أعرف ماذا ستعزف".

ليلوذ كلاهما بعد ذلك بالصمت. ولما كان الاثنان يمران بمرحلةٍ عمرية حرجة، فقد تورد وجه كاي وهو ينظر إلى الأرض، دون أن ينكس رأسه، بينما جلس هانو بعد أن امتقع وجهه، وأشاح بعينيه الغائمتين، وقد بانت عليه أمارات جديدة مريعة. ثم كان أن قام السيد شليمل بدق الجرس ليصعد كلاهما.

وقد حانت حصة الجغرافيا، التي لن تكون سوى اختبار حر للارتجال، وهو اختبار عن منطقة هسّن- ناساو، ليدخل رجلٌ بلحية حمراء وسترة فضفاضة بنية اللون. كان وجهه شاحبًا، ولم تكن هناك شعرةٌ واحدة قد نبت على يديه المتسمتين بالمسام الواسعة. وكان هذا هو المدرس الأول خفيف الروح السيد الدكتور ميهسام، الذي كان يعاني أحيانًا من نزيفٍ بالرئة، وكان يتحدث دائمًا بنبرة مفعمة بالتهكم؛ فقد كان يعتبر نفسه فكهًا تعسًا في آنٍ، كما كان يحتفظ في بيته بسجلٍ ما عن هاينه، مجموعة من الوثائق

والمواد الخاصة بالشاعر الوقح العليل. ثم كان أن قام برسم حدود هسّن- ناساو على السبورة. ثم طلب بابتسامةٍ تعسة ساخرة معًا بأن يتكرم السادة بالرسم في دفاترهم عما يميز مقاطعه هسّن- ناساو من غرائب. وقد بدت عليه أمارات السخرية من التلاميذ ومن مقاطعة هسّن- ناساو. كان ذلك اختبارًا مفتوحًا مهمًّا للغاية، يخشاه الجميع. ولم يكن هانو بودنبروك يعرف شيئًا عن هسّن- ناساو، فكان ما يعرفه قليلاً بلا قيمة. وقد شاء إلقاء نظرة على دفتر أدولف توتنهاوبت، إلا أن هينريش هاينه[*] أخذ يراقب كل حركةٍ بيقظةٍ فائقة، برغم سخريته المفعمة بالألم، فلاحظ ذلك على الفور، وقال: "السيد بودنبروك، ألا تسمح بإغلاق دفترك، لكن كل ما أخشاه أن أكون قد أسديت لك بذلك معروفًا. إذن فلتواصل".

كانت هذه العبارة تحتوى على طرفتين، الأولى أن الدكتور ميهسام قد خاطب هانو بالسيد بودنبروك، أما الثانية فكانت هي "المعروف". إلا أن هانو واصل إمعانه في التفكير، منكبًا على دفتره. وفى النهاية سلم ورقةً خالية تقريبًا، ليغادر بعدها الفصل من جديد بصحبة كاي. وهكذا مضت كل الأمور بسلامٍ في هذا اليوم، خاصةً بالنسبة لهؤلاء الذين اجتازوا ذلك بنجاح غير نادمين على عقابٍ نالهم، فيكون من حقهم الآن البقاء بالصالة المضاءة مطمئنين، مرتاحي البال، ليرسموا في حضرة السيد درايجيهلر.

---

[*] هينريش هاينه: شاعر ألماني شهير (1797-1856)، ويعد من أهم الشعراء الرومانسيين الألمان. وتعود شهرته لتأليفه الكثير من القصائد في صورة أغنيات، استخدمها- في وقت لاحق- في موسيقاهم مؤلفون موسيقيون عظماء، أمثال روبرت شومان؛ (المحرر).

كانت صالة الرسم رحبة منيرة، وكانت شخوص من الجبس قد شُكلت بأسلوبٍ فني قديم، ووضعت فوق رفوف على الجدران. أما في الصوان الضخم، فكانت كل أنواع الكتل الخشبية ونماذج أثاث ودُمَى.

كان السيد درايجهميلر رجلاً قصير القامة، بلحية مستديرة، ويضع على رأسه باروكةً رخيصة ناعمة بنية اللون، تشي بما تحتها من قفا. وكان يمتلك باروكتين، إحداهما طويلة الشعر والأخرى قصيرة الشعر، كان يستخدمها إذا قص لحيته.

وفيما عدا ذلك، فقد كان رجلاً يتميز بصفات مضحكة. فبدلاً من قوله "قلم رصاص"، كان يقول "رصاص". وبخلاف ذلك كان ينشر رائحة زيت–كيروسين حيثما ذهب؛ مما حدا بالبعض إلى الزعم بأنه يشرب البترول. أما أفضل حصصه، فكانت تلك التي ينوب فيها عن زميلٍ آخر في مادة غير الرسم. فكان يلقي محاضرات عن بيسمارك، تصدر أثناءها عن أنفه وكتفيه حركاتٌ دائرية لولبية مُلحّة. وهو يذكر الديمقراطية الاجتماعية بكراهية وخوف..

"فلابد من التماسك"، كان يقول ذلك للتلاميذ الأشقياء، وهو يقبض على أذرعهم قائلاً: "إن الديمقراطية الاجتماعية على الأبواب"، كما كان يعاني من توتر لا ينتهي، فكان يجلس بجوار أحدهم ناشرًا رائحة الكيروسين النفاذة ليضرب أحدهم بخاتمه أعلى جبهته، مطلقًا مفردات من قبيل: "المنظور"، "الظل النافذ"، "الرصاص"، "الديمقراطية الاجتماعية"، "التماسك"؛ ثم يمضي مسرعًا. وكان كاي يعكف على كتابة عمله الأدبي في هذه الحصة، بينما كان هانو ينشغل بحلم افتتاحية أوركسترا. ثم تحل النهاية ليحمل كلُّ متعلقاته،

ويخرجوا من بوابة الفناء المفتوحة، ليعود الجميع إلى بيوتهم. وكان هانو وكاي يسلكان الطريق نفسه، فيمضيان معًا حتى الفيلا الحمراء بضاحية المدينة، متأبطين كتبهما، ليظل أمام دوق مولن الشاب وحده مسافةٌ بعيدة ليقطعها حتى مسكن والده، ولم يكن يرتدي حتى معطفًا. وكان الضباب الذي ساد الصباح قد استحال جليدًا راح يتساقط في شرائط كبيرةً طرية، ليتحول إلى وحل.

هناك، عند بوابة بستان بودنبروك كانا قد افترقا. وما كاد هانو يقطع منتصف البستان الأمامي حتى رجع كاي إليه مرةً ثانيةً، مطوقًا عنقه بذراعه هامسًا: "لا تيأس.. ومن الأفضل ألا تعزف".

ثم تلاشت هيئته الرثة النحيلة بين الجليد المتساقط. أما هانو، فترك كتبه بالممر في السلة التي يبسطها الدب أمامه، ليمضي إلى غرفة المعيشة لتحية أمه الجالسة فوق "شيزلونج"، تطالع كتابًا بغلاف أصفر. وبينما كان يمضي على البساط، كانت تتأمله بعينين سمراوين متقاربتين، تظلل أطرافهما هالات زرقاء. فلما وصل عندها، تناولت رأسه بين راحتيها لتطبع قبلةً على جبينه، ليصعد إلى غرفته حيث كانت الآنسة كلمنتينه قد أعدت له شيئًا من فطور، فاغتسل وأكل. فلما انتهى، أخذ من الدرج علبة سجائر روسية صغيرة حامية، وقد اعتادها هو أيضًا، ثم أخذ في التدخين، ثم جلس إلى الأرغن ليعزف مقطوعةً لباخ، صعبةً، صارمة للغاية.

وفي النهاية، عقد يديه خلف رأسه، ناظرًا خارج النافذة إلى الجليد المنهمر في سكون؛ فلم يكن هناك شيء آخر للرؤية، ولم يعد هناك أسفل نافذته بستانٌ لطيف بنافورةٍ يفور ماؤها. كما حجب الرؤيةَ كذلك جدارٌ

جانبي باهت لفيلا الجيران.

وكان أن قُدم طعام الغداء في الساعة الرابعة، ولم يكن هناك سوى جيردا بودنبروك، ويوهان الصغير، والآنسة كليمنتينه.

بعد ذلك، قام هانو بإعداد الصالون من أجل العزف، وانتظر أمه بجوار البيانو، ليعزفا السوناتا "أوبوس 24" لبيتهوفن. فلما وصلا إلى "الأمهل"، عزفت على الكمان عزفًا ملائكيًّا.

إلا أن جيردا أبعدت الآلة عن ذقنها، ناظرةً إليها بغضبٍ واستياء، وقالت بأن هذا غير مناسب، وأمسكت عن العزف، وصعدت لتستريح بالطابق العلوي، بينما ظل هانو بالصالون، ليمضي نحو الباب الزجاجي المفضي إلى الشرفة الضيقة، ناظرًا لبضع دقائق إلى البستان الأمامي اليانع. وفجأةً ارتد إلى الخلف، مسدلاً بعنفٍ الستار بلون الزُبد أمام الباب، ليحل على الغرفة شبه إظلامٍ أصفر، ثم مضى إلى البيانو. إلا أنه توقف برهةً مسددًا نظرةً حادة زائغة إلى نقطةٍ ما، ثم زحف الظلام إليها شيئًا فشيئًا حتى توارت وغامت. ثم جلس ليشرع في عزف أحد إبداعاته.

كانت قطعةً بسيطة للغاية كأنها عدمٌ، فقد كانت جزءًا من لحنٍ خيالي ضبطه على الحركة ونصف الحركة. وعندما عزفها للمرة الأولى- بقوةٍ لم يعهدها- استخدم الطبقة العميقة- كأصواتٍ منفردة كأنها صادرة عن أبواق- مادةً أولية متوافقةً مهيمنة، كأنها جسرٌ يعلن عن كل قادم، فلم يعد المعنى غافلاً على أحد.

وعندما كررها، بطبقتها العليا في لون من الرنين يشبه الفضة الخابية المتناغمة، اتضح أنها في جوهرها لا تتألف إلا من ختامٍ وحيد، حلول مشتاق

مؤلم لنغمة في نغمةٍ أخرى.. إبداعٌ قصير النفس فقيرٌ، إلا أنه خلق قيمةً نادرة غامضة مهمة، من خلال الحسم الدقيق الحافل الذي وضعه وأبدعه. وها قد بدأت الآن مسارات مؤثرة، "تأخير نبر" يجيء ويروح محتارًا، مفتشًا، تائهًا، وقد مزقه صراخٌ كأنه روحٌ قُضَّ مضجعها، دويٌ بلا نهاية، بل يتكرر دومًا في تناغمٍ آخر، متسائلاً شاكيًا طامحًا ساعيًا مرحبًا.

دومًا، وعلى نحوٍ أعنف، أصبح "تأخير النَّبر" يتردد محتارًا ملاحقًا من ثلاثيات لاهثة، وقد اتخذ صراخ الفزع فيه قوامًا يتوحد ليصبح نغمًا، وجاءت لحظةٌ وصل فيها إلى الهيمنة، بعد أن أصبح مثل غناء كورال الآلات النحاسية، متلهفًا ملحًا قويًا خانعًا.

ثم خرس، وانقهر الدفق المقتحم الصاخب التائه الأرعن، ليتصاعد ترنيم كورال في إيقاعٍ بسيط مهشم بريء متبتل.. لتتمثل نهايته الختام الكنَسي.

ثم كان الختام والصمت. ليُسمَع فجأةً الموضوع الأول- من جديد- في نغمة تشبه لون الفضة الخابي، هذا الإبداع الفقير، هذا القوام الأحمق أو الغامض، هذا الحلول الحلو المؤلم من نغمة في أخرى.

ثم نشب تمردٌ رهيب ونشاطٌ عارم ثائر، تغلب عليه نبراتٌ مثل قرع الطبول، وجملٌ صادرة عن إصرار وحشي.

ماذا حدث؟ ما هو المنتَظر؟ ارتفع صدًى كالنفير إيذانًا بالانطلاق. ليدخل شيءٌ مثل جمعٍ وتكثيف، لتمتزج إيقاعات أكثر قوة ببعضها البعض؛ ليبدأ قوامٌ جديد، ارتجال جسور، نوع من أغاني القنص، جريء ومقتحم.

إلا أنه لم يكن مبهجًا، فقد استقر في غور أعماقه غرورٌ قانط تمامًا،

وكانت الإشارات الصادرة عنه مثل استغاثات الفزع، ومن حينٍ لآخر، وبين كل هذا كان يُسمَع ذاك الموضوع الأول الغامض، معذِّبًا مضللاً حلوًا في تناغمٍ مشوه شاذ.

والآن، بدأ سجالٌ جامح لوقائع لم يمكن يحدس مغزاها وجوهرها، فرارٌ من مغامرات النغم والإيقاع والتناغم لم يكن لهانو هيمنة عليها، وإنما كانت تتشكل تحت أصابعه، فعاشها دون معرفةٍ سابقة بها.

وقد جلس مائلاً بعض الشيء على المفاتيح، بشفاهٍ منفرجة ونظرةٍ عميقة بعيدة، بينما غطت خصلات شعره الناعمة فوديه. فماذا حدث؟ ماذا عايش؟

هل تغلب على عوائق رهيبة، هل قتل تنينًا، تسلق صخورًا، خاض بحورًا، اجتاز نيرانًا؟ فمثل قهقهةٍ مجلجلة وترحيبٍ عميق غامض، صدح الموضوع الأول، هذه اللوحة العدمية، هذا الحلول من نغمةٍ في أخرى..

حقًّا، لقد كان كأنه يستنفر دائمًا طاقاتٍ جديدة عنيفة، تتبعه مسارات سريعة في مثمنات، تتبدى صرخاتٍ، ثم بدأ فيضٌ، تصاعدٌ بطيءٌ متواصل، صراعٌ متغاير في القمة بحنينٍ وحشي جامح تقاطعه فجأة بيانيسيمي مروِعة مستنفرة مثل انهيارٍ أرضي، أو الغرق في شهوة..

وحدث ذات مرة، كأنما شاء توافق التناغم الأول للتبتل المهشم أن يُسمَع من بعيدٍ محذرًا في همسٍ.

وسرعان ما انفجر فيضانُ نغمات نشازٍ متصاعدةً، فتتجمع لتنساب إلى الأمام، وتنحسر، وتتسلق، وتهبط ثانيةً مصارعةً من أجل هدف مجهول، لابد من وصوله، وصوله الآن، في هذه اللحظة، في هذه الذروة المروعة؛ فقد أصبح العُسر اللاهث غير محتمل.

وها قد وصل، ولم يعد صده ممكنًا، ولم يعد مدُّ حبال الشوق أبعد من ذلك ممكنًا، لقد وصل، مثلما يُهتك حجابٌ، وتُقتَحمُ أبوابٌ، وتتهاوى أسوار شوك، وتنكفئ جبال لهب على نفسها.. الحل، الخلاص، التحقق، الإشباع التام؛ ها هو قد حل، مهللاً فرحِا تحلل كل شيء إلى نغمٍ طرِب سرعان ما استحال إلى تناغمٍ عذبٍ تواق ليحل في تناغمٍ آخر. وما ارتفع نغمًا كان هو الموضوع، الموضوع الأول. وما بدأ الآن، كان حفلاً، فوزًا، مجونًا جامحًا، قوامًا تبدى متباهيًا في كل ظلال النغم، متدفقًا خلال كل توافق النغم، مولولاً، مرتعشًا في الزغردة، فشدا، احتفى، نشج، وتبدى فائزًا في كل بهاء آلات الأوركسترا الصاخب الرنان المتلألئ الفياض.. لقد كمن شيء وحشي أحمق، زاهد مؤمن في آنٍ، شيء مثل الإيمان والتضحية بالنفس في عبادة هذه العدمية المتطرفة، في هذة القطعة الموسيقية، في هذا الإبداع القصير الصبياني المتناغم من الحركة ونصف الحركة.. مجونٌ جامح، ونهمٌ يتمتع بهما الإبداع ويبتزهما، وشيءٌ ساخر يائس، شيء كالتوق إلى السعادة والفناء في الطمع الذي تُهرَق منه آخر قطرة عذوبة حتى الإنهاك والاشمئزاز والسأم، إلى أن يسري أخيرًا، أخيرًا في الضنى، بعد كل الشهوات، نغمًا مديدًا هامسًا في المفتاح الصغير، ليعلو صوته ويفنى بتردد مؤسف في السمو.

وها هو هانو يجلس للحظةٍ ساكنًا، وذقنه فوق صدره، ويداه في حِجره. ثم نهض ليغلق البيانو. وقد شحب لونه للغاية، وفقدت ركبتاه كل قواها، والتهبت عيناه. ومضى إلى الغرفة المجاورة يستلقي على الشيزلونج، وبقي هناك زمنًا لا يحرك ساكنًا.

وفيما بعد، تناول طعام العشاء، ليلعب بعدها مع أمه شوط شطرنج، لم

يكسبه أحدٌ منهما.

لكنه- بعد منتصف الليل- كان ما يزال يجلس بغرفته أمام الأرغن في ضوء شمعة، ليعزف في خياله؛ فلم يكن مسموحًا أن يصدر صوتٌ ما في هذا الوقت، برغم أنه كان قد عقد عزمه على الاستيقاظ في الخامسة والنصف صباحًا لينجز واجباته المدرسية المهمة.

كان ذلك يومًا من حياة يوهان الصغير.

الفصـل الثَّـالث

تظهر أعراض التيفوس عندما يشعر الإنسان باعتلال المزاج، الذي سرعان ما يتفاقم ليتحول إلى يأسٍ واهٍ، وفي الوقت نفسه يغالبه ضعفٌ بدني لا يسيطر على العضلات وأوتارها فحسب، بل يمتد أيضًا إلى أجهزة البدن الداخلية كافةً، ومن بينها المعدة، التي تأبى بعنادٍ استقبال الطعام، وتنشأ حالةٌ ملحة للنوم. ورغم التعب المضني، فإن النوم يكون مضطربًا، سطحيًّا، مخيفًا، غير مريح. ويداهم الألم المخ فيصيبه بالكسل المرتبك، كأنما غشيه الضباب، ويصاب المرء بالدوار، ثم تمتد آلام غير محددة إلى الأوصال كافة، ومن حينٍ لآخر ينزف الأنف دمًا بدون سببٍ ظاهر، وتكون رجفة البرد الشديدة التي تسري في الجسد كله، وتصطك منها الأسنان، بمثابة إنذارٍ للإصابة بالحمى التي ترتفع في الحال إلى أعلى درجات الحرارة، لتظهر على بشرة الصدر والبطن بقعٌ حمراء متناثرة بحجم حبة العدس، يمكن التخلص منها بالضغط بالإصبع؛ إلا أنها سرعات ما تعاود الظهور، ويتسارع خفقان القلب، إلى أن يبلغ مئة نبضة في الدقيقة. وهكذا ينقضي الأسبوع الأول بحرارة تبلغ أربعين درجة. وفي الأسبوع الثاني، يتخلص الإنسان من آلام

الرأس والأوصال، لكن في المقابل تشتد حدة الدوار إلى حدٍ كبير، فيدب في الأذن دويٌّ وطنين مما يؤدي إلى ضعف السمع، وترتسم على الوجه علامات الغفلة، ليبدأ الفم في البقاء فاغرًا. أما العيون فتصاب بغمامةٍ وعدم إدراك، ويضعف الوعي، وتسيطر على المريض حالةٌ من إدمان النوم، ليستغرق غالبًا في النوم، دون أن يكون نائمًا في الواقع، ليكون ذلك بمثابة غيبوبةٍ حادة.

وفي هذه الأثناء، يملأ المريض المكان بالهذيان والصخب وهواجس مستنفَرة، ويبلغ به العجز والفتور حد القذارة والاشمئزاز، كما تغطى لثته ولسانه وأسنانه كذلك طبقةٌ سوداء تعيق التنفس. فيستلقي على ظهره رافعًا الجزء الأسفل من جسده، غارقًا في الفراش بساقين منفرجتين؛ وتعمل كل أجهزته لاهثةً متلاحقة على نحوٍ سطحي، كما يسجل نبضه كذلك مئة وعشرين ضربةً متسارعةً واهية في الدقيقة الواحدة. وتصبح جفونه شبه مغمضة، وتفقد الوجنات توهجها الذي كانت عليه عند بداية إصابته بالحمَّى؛ بل تكتسي باللون الأزرق، ليزداد انتشار البقع الحمراء المماثلة لحبات العدس على الصدر والبطن، وتصل حرارة الجسم إلى إحدى وأربعين درجة.

وفي الأسبوع الثالث، يبلغ الضعف أوجه، ليصاب الهذيان الصاخب بالخرس، فلا نستطيع القول ما إذا كانت روح المريض قد هوت إلى ليلٍ بلا قرار، أم انفصلت عن حالة البدن لتستقر في غربة أحلام ساكنة عميقة سحيقة، لا يصدر عنها صوتٌ أو إشارة، ليرقد الجسد في حالة عدم إحساس بلا حدود، ويكون هذا هو وقتُ الحسم.

وقد يكون تشخيص مرض بعض أفراد بعينهم صعبًا، بسبب ظروفٍ

خاصة. فلو افترضنا- على سبيل المثال- أن الأعراض الأولية للمرض من اعتلال مزاجٍ، ووهن، وفقدان شهية، ونومٍ مضطرب، وصداع، قد ظهرت في الغالب عندما يكون المريض، قُرة عين أهله، يتمتع بعافيةٍ تامة؛ أو أن وطأتها اشتدت فجأةً دون ظهور عرضٍ غير مألوف، فإن البقع الخطيرة الحمراء على الصدر والبطن تكون هي ما يؤكد الإصابة بالمرض. وهو ما يستطيع إثباته في الحال طبيبٌ بارع راسخٌ في العلم، مثل الدكتور لانجهالس الوسيم، ذي اليدين الصغيرتين اللتين يكسوهما الشعر الأسود. وهو لن يتردد في اتخاذ الإجراءات، واستخدام الوسائل المناسبة لذلك، وسوف يهتم في الحال بتوفير غرفةٍ للمريض، رحبةً متجددة الهواء، على ألا تتجاوز حرارتها السبع عشرة درجة؛ ولسوف يلح على الحفاظ على أكبر قدر من النظافة. ومن أجل حماية المريض من قرحة الفراش، يتم تجديد فراشه قدر الإمكان، فإن لم يتوافر ذلك- في بعض الأحوال- سوف يهتم هو بتطهير تجويف الفم دائمًا بضمادة مبللة، من نسيج الكتان.

أما العلاج، فسوف يأمر باستخدام مزيج من اليود واليودكاليوم، ويكتب باستخدام الكينين والأنتيبيرين. ولتأثر المعدة والأمعاء بذلك أيضًا، فسوف ينصح بطعامٍ خفيف للغاية، ونظامٍ غذائي مقوٍ للغاية، وسوف يعالج ارتفاع درجة الحرارة باستحمام المريض كل ثلاث ساعات ليلاً ونهارًا، ودون أدنى استثناء، على أن يبدأ تبريد تدريجي للجسم من القدمين، ويُقدم له بسرعة- بعد كل استحمام- شيء مقوٍ ومنشِّط مثل الكونياك، وكذلك الشمبانيا. إلا أنه كان يستخدم كل هذه الوسائل بعفو الخاطر، وفي حالة ظهور أثرها فقط، وهو غير مدرك أن استخدامها قد يفتقر إلى أيه قيمة أو معنى أو

غرض؛ لأنه هناك ما لا يعرفه، وهو أمرٌ له علاقة بهذه المسألة؛ وهكذا يظل يترنح في الكلام بين هذا وذاك، هائمًا في فلك التردد التام إلى أن تصل الحالة إلى أزمةٍ واضحة؛ وهنا يتخذ قراره، وهو لا يعلم أن المرض الذي شخصه بالتيفوس، في هذه الحالة، هو مرضٌ مبدئي غير خطير، نتج عن عدوى كان عليه تفاديها ومعالجتها بالوسائل العلمية، أم أنه ببساطة شديدة أحد صور التحلل؛ فالكفن بوسعه الظهور بقناع آخر، وهو أمرٌ لا سبيل لمقاومته. وتظهر أعراض مرض التيفوس كالتالي: ففي حالة هواجس الحمى القاسية، وإصابة المريض بغيبوبة مريعة، فإن الحياة يتم استدعاؤها بصوت واضح مشجع، وسوف يصل هذا النداء صحيحًا صحوًا إلى الروح، وهي في طريقها إلى الغربة القاسية؛ وهو طريق تظل تتقلب فيه، طريق يفضي إلى الظل والبرد والسكينة، فيتلقى الإنسان هذا النداء الواضح اليقظ الساخر بعض الشيء، النداء بالإحجام والعودة، نداءٌ يأتيه من جهة كان قد ابتعد عنها كثيرًا ونسيها؛ فإن تأثر بالنداء تأثره بمشاعر وخز الضمير لإهمال واجبٍ ما، أو الخزي، أو الطاقة المتجددة والشجاعة والفرح والحب والانتماء إلى المسلك البربرى الساخر متعدد الألوان، وهي مشاعر كان قد هجرها: فإنه- مهما كان طول الشوط الذي قطعه على درب الغربة القاسية، وتاه فيه- سوف يعود ويعيش، أما إذا انكمش رهبةً ونفورًا من نداء الحياة الذي سمعه، وتبدت نتيجة هذه التذكرة بهذا الصوت المرح المستنفِر في قيام الإنسان بهز رأسه، ومد يده خلف ظهره رافضًا، هاربًا، مقبلاً على الدرب الذي انفتح أمامه للهروب.. كلا، فقد قُضى الأمر، ولسوف يموت.

الفصل الرَّابع

"لا يصح هذا، لا يصح هذا، جيردا"، هكذا صاحت الآنسة فايشبروت العجوز للمرة المئة، حزينةً محذرةً، وقد احتلت- مساء هذا اليوم- مكانًا على الأريكة بغرفة معيشة تلميذتها السابقة، متوسطةً جيردا بودنبروك والسيدة بيرمانيدر وابنتها اريكا وكلوتيلده المسكينة، وسيدات بودنبروك الثلاث بالشارع العريض، وهن يجلسن جميعًا حول المائدة المستديرة الوسطى، وقد تدلت شرائط قبعتها الخضراء فوق كتفيها المماثلين لأكتاف الأطفال، فكان عليها أن ترفع أحدهما لأقصى حدٍّ، من أجل أن تمد ذراعها وتحركه فوق سطح المائدة؛ هكذا كانت قصيرة القامة، بعد أن بلغت الخامسة والسبعين من عمرها.

"هذا لا يصح، فلأقل لكِ هذا، فهذا ليس عملاً طيبًا، جيردا!" هكذا كررت ما قالته بنبرةٍ متحمسة مرتعشة، ثم أردفت: "إنني أقف بقدم في الدنيا وبالأخرى في القبر، ولم يبق أمامي سوى وقت قصير، وأنت تريدين هجراننا. أتريدين الانفصال عنا للأبد، ترحلين.. فلتُسمي ذلك رحلةً، زيارةً إلى أمستردام.. لكن للأبد!".

ثم هزت رأسها الشبيه برأس الطائر، بعينيها السمراوين المفعمتين بالتردد، وقد شابهما الحرج.

"حقًا.. لقد خسرت الكثير.."

فقالت السيدة بيرمانيدر: "كلا.. لقد خسرت كل شيء، فلقد جاءتنا مع توماس قبل خمسة وعشرين عامًا، وقد أحببناها جميعًا، برغم احتقارها الدائم لنا.. نعم فعلتِ ذلك، جيردا، و.. والآن لم يعد أحدٌ هنا، فماذا نمثل نحن لها؟ لا شيء، إن الأمر يؤلمنا، لكن فلترحلي في رعاية الرب، جيردا، وشكرًا لكِ على عدم رحيلك قبل ذلك، آنذاك، عندما مات توماس".

كان ذلك بعد العشاء، في الخريف، عندما كان يوهان (يوستوس، يوهان، كاسبار) يرقد منذ حوالي ستة أشهر محاطًا بصلوات القس بيرنجزهايم، يرقد هناك بالخارج، على حافة الغابة تحت صليب من حجر الرمل وشعار العائلة. وأمام المنزل، كان المطر يداعب ما تبقى من أوراق شجر الطريق. وبينما تعصف الرياح بالمطر ليخبط زجاج النوافذ، كان النسوة الثماني متشحاتٍ جميعهن بالسواد، وقد ضمهن اجتماعٌ عائلي صغير من أجل الوداع، وداع جيردا بودنبروك، التي كانت على وشك مغادرة المدينة، في سبيلها إلى العودة لأمستردام، لتشارك والدها العجوز العزف الثنائي، كما اعتادت في الزمن الماضي؛ فلم يعد هناك ما يضطرها إلى البقاء، كما لم يعد لدى السيدة بيرمانيدر ما تعارض به هذا القرار لتستسلم لذلك؛ وإن كانت في أعماقها تعسةً للغاية، فلو أن أرملة السيناتور بقيت في المدينة لحافظت على مكانها ومكانتها في المجتمع، ولم ترحل ثروتها معها، ولكان قد تبقى للعائلة قليلٌ من الرفعة.. ولظل الأمر كما كان عليه دائمًا. فقد رغبت السيدة أنطوني في بقاء

رأسها مرفوعةً طالما ظلت على وجه الأرض يتطلع الناس إليها. فجدُّها كان يجوب البلاد بعربة تجرها أربعة خيول.. فرغم تقلب حياتها، التي أصبحت ماضيًا، وبرغم ما تعانيه معدتها من متاعب، إلا أن آثار خمسين عامًا من عمرها لم تبد عليها. فرغم ترهل بشرتها بعض الشيء، وشحوب لونها، وبرغم ازدياد ونمو الشعر على الشفة العليا للحسناء أنطونيا بودنبروك، إلا أنه لم يكن هناك في مفرقها- أسفل قبعة الحداد الصغيرة- أدنى أثر لشعرٍ أشيب.

أما ابنة عمها كلوتيلده المسكينة، فقد قابلت رحيل جيردا- كما واجهت كل شيء في الحياة- بهدوءٍ غير مبالٍ. وكانت قبل ذلك قد تناولت طعام العشاء قدر إمكانها، وها هي الآن تجلس هنا مثلما كانت دائمًا، عجفاء هزيلة، بكلماتها الودودة الممطوطة. أما اريكا فاينشينك، البالغة واحدًا وثلاثين عامًا من عمرها، فلم تكن كذلك تلك المرأة التي تتأثر بوداع زوجة خالها، وهي التي عايشت ما هو أصعب؛ فأصبحت كائنًا مستسلمًا في وقتٍ مبكر من حياتها، وفي عينيها الزرقاوين كلون الماء، وهما كعيني أبيها جريونليش، كان قد ارتسمت القناعة بحياةٍ فاشلة؛ وهو ما قد يتبدى أحيانًا في نبرة صوتها الشاكية. أما سيدات بودنبروك الثلاث، بنات العم جوتهولد، فكانت تسيطر على ملامحهن كالعادة الصرامة وبوادر انتقاد. فأما الأختان الكبيرتان فريدريكه وهينريته، فقد أصبحتا- بمرور السنين- أكثر استعلاءً وحِدَّة. بينما بدت فيفي، الأصغر بثلاثة وعشرين عامًا، قصيرةً بدينةً للغاية. وقد تم دعوة القنصلة كروجر العجوز، أرملة الخال يوستوس، لكنها لم تكن قد تكيفت مع الجو حولها، وربما لم يكن لديها ثوبٌ مناسب لترتديه، وهو أمرٌ لا يمكن القطع به. وقد دار الحديث حول رحيل جيردا،

والقطار التي قررت السفر به، وحول بيع الفيلا بأثاثها، وهو ما تكفل به الوسيط جوش. ثم تحدثت السيدة بيرمانيدر عن الحياة، متناولةً أهم جوانبها؛ فطرحت تأملاتٍ عن الماضي والمستقبل، برغم أنه لم يعد بالكاد ما يُسمى بالمستقبل. ثم قالت: "نعم، فإن أنا مت، فإن اريكا تستطيع ساعتها أيضًا الرحيل عن هنا، لكني لا أطيق العيش بمكانٍ آخر، طالما بقيتُ على قيد الحياة. ولسوف نبقى معًا نحن القلة الباقية.. ولتأتين لتناول الطعام مرةً كل أسبوع، ثم نطالع مذكرات العائلة". ثم أشارت إلى الحافظة أمامها، وقالت: "حقًا، جيردا، سأتولى أنا أمرها، شاكرةً – اتفقنا.. هل سمعتِ، تيلده، رغم أنكِ في الواقع من يملك دعوتنا بنفس القدر، لأن حالتك- في الحقيقة- لم تعد أقل سوءًا من حالتنا، نعم، هكذا هو حال الدنيا؛ فبينما كان هناك من يكافح ويشقى، كنتِ أنتِ تجلسين هنا ترقبين كل شيء صابرةً، إلا أنكِ حمقاء، تيلده، ولتغفري لي ذلك"

فقالت كلوتيلده مبتسمة: "أوه، طوني؟"

وقد تناول الحديث كريستيان، عندما قالت جيردا: "يؤسفني ألا أستطيع وداع كريستيان". فلم يكن هناك أدنى احتمال لمغادرته المصحة التي يقيم فيها، برغم أن حالته لم تكن سيئةً بالقدر الذي يمنعه من حرية الحركة، إلا أن زوجته كانت مرتاحةً للغاية إلى وضعه هذا، وقد كانت- على حد زعم السيدة بيرمانيدر- متحالفةً مع الطبيب؛ فأصبح من المتوقع أن يقضي كريستيان بقية حياته بالمصحة.

ثم حلت فترة راحة، ليتجه الحديث إلى تناول الأحداث الأخيرة بهمسٍ وتردد. وعندما ذُكر اسم يوهان الصغير ساد الصمت المكان، ولم يُعد يسمع

هناك سوى وقع قطرات المطر على نحو أعظم حدة.

كان ما يشبه السر العميق قد اكتنف مرض هانو الأخير، الذي كان- على وجه اليقين- قد تفاقم على نحوٍ مريع للغاية. وعندما كان يُلمَّح إلى ذلك- أثناء الحديث- كانت كل منهن تتحاشى النظر إلى الأخرى، ليُذكَر ذلك بنبرة كظيمة وكلماتٍ غامضة، وهن يسترجعن تلك المرحلة الأخيرة إلى الذاكرة.. فكانت زيارة هذا الصغير، الدوق الرث، الذي شق طريقه بشق الأنفس إلى غرفة العليل.. وقد ابتسم هانو عندما سمع صوته، رغم فقدانه قدرة التعرف على الآخرين، أما كاي فلم يكف عن تقبيل يدي رفيقه.

"هل قبَّل يديه؟" هكذا تساءلت سيدات بودنبروك.

" نعم، لمراتٍ عديدة ".

فظل الجميع لبرهةٍ يتأملون ذلك، وفجأةً انفجرت السيدة بيرمانيدر في البكاء، وقالت وهي تنوح:

"لقد كان حبي له أكثر من حبكن جميعًا.. نعم، معذرةً، جيردا، فأنتِ أمه.. آه.. لقد كان ملاكًا".. فتدخلت سيسيمي مصححةً: "الآن صار ملاكًا".

"هانو، أيها الصغير، هانو".

هكذا واصلت السيدة بيرمانيدر، بينما كانت دموعها تسيل على بشرة وجنتيها الشاحبتين المترهلتين.

ثم أردفت: "توم، الأب، الجد، والآخرون جميعًا، إلى أين مضوا؟ فلم نعد نراهم. آه، يا للقسوة والهم!".

فقالت فريدريكه، وهي تهوي بيديها إلى حِجرها، مغمضةً عينيها، شامخة بأنفها: " لكننا سوف نلقاهم".

"نعم، هكذا يزعمون.. آه، فهناك لحظاتٌ، فريديريكه، لا يجدي فيها العزاء- وليغفر لي الرب- لحظاتٌ يضل فيها المرء سبيله إلى العدالة، إلى الرحمة.. إلى كل شيء. فهل تعرفن أن الحياة تُحطم فينا أشياءً وتشوه شيئًا من إيماننا.. لقاء آخر، لو كان هذا حقيقيًّا.."

هنا نهضت سيسيمي فايشبروت عن المائدة، منتصبةً قدر إمكانها لتقف على أطراف أصابعها، واشرأب عنقها، وخبطت على سطح المائدة، وقد أخذت القبعة تهتز فوق رأسها.

"إنه كذلك!"، قالت ذلك بكل قواها، ناظرةً إلى الجميع متحدية.

وها هي تقف هناك منتصرةً في الصراع من أجل الخير، الذي خاضته ضد إغواءات منطق معلماتهن، طوال حياتهن، حدباء، عجفاء، مرتعشةً بما تؤمن به، نبيةً، ضئيلةً، . وها هي الحدباء القصيرة ترتعد إيمانًا، نبيةً صغيرة، متحمسةً معاقِبة.

[النهايـة]



المؤلف: توماس مان

روائي وقصاص ألماني (1875-1955)، حائز على جائزة نوبل 1929). تمثل أعماله- التي تعتمد الرمزية والملحمية، مع مسحة واقعية ملموسة- تحليلاً ونقدًا للروح الألمانية والأوروبية الحديثة.

وقد اضطُر- عقب صعود هتلر إلى السلطة- إلى الهرب إلى سويسرا، فالولايات المتحدة، ثم عاد إلى سويسرا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، عام 1952.

من أهم أعماله الأدبية: **"رؤية"** (1893)، **"زوال الوهم"** (1896)، **"طونيو كروجر"** (1903)، **"الموت في فينيسيا"** (1912)، **"الجبل السحري"** (1924)، **"يوسف وأخوته"** (1933-1943)، **"دكتور فاوست"** (1947).

المترجم: محمد أبو رحمة:

وُلد محمد أبو رحمة بالقاهرة عام 1956. حصل على إجازة الترجمة الأكاديمية وماجستير الترجمة الفورية من جامعة كارل فرانتس بالنمسا.

وقد صدر له- ما بين التأليف والترجمة- أسرار وراء الحجاب، أثرياء الشرق، سطوع نجم الشيعة، هارون الرشيد، حواديت فرعونية، السحر عند الفراعنة، الإسلام والدين المصرى القديم، حياتي في مصر، الأمثال الشعبية الفرعونية، المومياء والتحنيط.

كما صدرت له- ضمن سلسلة "المائة كتاب" الترجمة العربية لروايتي "المحاكمة" و "المسخ" لفرانتس كافكا.

سلسلة
آفاق
عالمية

«آل بودنبروك» لتوماس مان: هي ملحمة العصر الحديث الفريدة، وإحدى روائع القرن العشرين الروائية التي أدت بمؤلفها إلى الفوز بجائزة نوبل (1929)، باعتبارها «دُرةً فنيةً يزهو بها الأدب الألماني. وهي الرواية الألمانية الواقعية غير المسبوقة حتى الآن، وقد احتلت مكانةً رفيعة بلا منازع، وكذلك في الآداب الأوروبية».

استبصارٌ فريد لمآل الطبقة الوسطى، التي يصبح انحدارها فانهيارها تمهيدًا- في ذاته- لصعود النازية.

وترجمة دقيقة، كاملة، عن اللغة الألمانية، تحقق معادلة الدقة والسلاسة معًا، محافظةً على الخصائص الأسلوبية لأحد سادة الإبداع الروائي العالمي

اللوحة والرسم للفنان النمساوي: انطون روماكو - تصميم الغلاف: احمد اللباد

الهيئة العامة لقصور الثقافة